السلسلة البلاغية
للدكتور سعيد جمعه
(٢)

أسرار المباني
في علم المعاني

الأستاذ الدكتور / سعيد جمعة

أستاذ البلاغة والنقد وعميد كلية الدراسات الإسلامية والعربية

بمدينة السادات

دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع

دار الجديد للنشر والتوزيع

٤١٤
ج . س

جمعه ، سعيد أحمد .

السلسلة البلاغة للدكتور سعيد جمعه (٢) / سعيد أحمد جمعه.-

ط١.- دسوق: دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع، دار الجديد للنشر والتوزيع.

٤٨٠ ص ؛ ١٧.٥ × ٢٤.٥سم .

تدمك : 2 - 724 – 308 – 977 – 978

١. البلاغة العربية .

أ - العنوان.

رقم الإيداع : ٢٤٧٨ .

الناشر : دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع

دسوق - شارع الشركات- ميدان المحطة – بجوار البنك الأهلي المركز

هاتف- فاكس : ٠٠٢٠٤٧٢٥٥٠٣٤١ محمول : ٠٠٢٠١٢٧٧٥٥٤٧٢٥-٠٠٢٠١٢٨٥٩٣٢٥٥٣

E-mail: elelm_aleman2016@hotmail.com & elelm_aleman@yahoo.com

الناشر : دار الجديد للنشر والتوزيع

تجزءة عزوز عبد الله رقم ٧١ زرالدة الجزائر

هاتف : ٢٤٣٠٨٢٧٨ (٠) ٠٠٢٠١٣

محمول ٦٦١٦٢٣٧٩٧ (٠) ٠٠٢٠١٣ & ٧٧٢١٣٦٣٧٧ (٠) ٠٠٢٠١٣

E-mail: dar_eldjadid@hotmail.com

فهرس الكتاب

الحمد لله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه، لا عز إلا به، ولا ذل إلا لـه ولا رجاء إلا فيه، أعز الإسلام بنصره . وأذل الشرك بقهره ،، قـدر الأيـام دولاً بعدله. وجعل العاقبة للمتقين بفضله، وأفـاء عـلى عبـاده مـن فـيض كرمـه وأظهر دينه على الـدين كلـه. القـاهر فـوق عبـاده، والظـاهر عـلى خليقتـه الآمر بما يشاء، الحاكم بما يُريد.

وأشهد أن لاَ إله إلا الله وحـده لا شريـك لـه الأحـد الصـمد، الـذي لم يلد ولم يولد ولم يكن لـه كفـواً أحـد، شـهادة مـن طهـر بالتوحيـد قلبـه وأرضى بها ربه، وأشهد أن محمداً عبـده ورسـوله، ﷺ، وعـلى خليفتـه أبي بكر الصديق السابق إلى الإيمان. وعلى أمير المؤمنين عمر بن الخطـاب رافـع راية العدل والإحسان، وعلى أمير المؤمنين عثمان " **بن عفـان** " ذي النـورين جامع القرآن. وعلى أمير المؤمنين علي بنْ أبي طالـب والـد الحسـنين سَـيديّ شباب الجنان، وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان، **وبعد** :

فـإن أحـوال الزمـان تصـرف كـل ذي همـة عـن العمـل، وتشـغله بالتفاهات التي لاينبغـي أن يتشـاغل بهـا ذوي المـروءات، لكـن تصـاريف القدر أرغمتني على كتابة هذا الكتاب في وقت ضيق، حيث الانتظار طويـل من طلبة وطالبات، والوقت ضيق، فعاجلت الزمان أسابقه، يسـبقني تـارة وأسبقه أخرى، حتى أقدِّم لطلابي شيئا يقتاتون عليه قبل مداهمة الوقت

وكتبت هذه الأوراق، عَجِلا، فجمعت فيها أبوابًا أربعة من أبواب علم المعاني، وهي :

- ❖ **باب الفصل والوصل .**
- ❖ **باب القصر.**
- ❖ **باب الإنشاء .**
- ❖ **باب الإيجاز والإطناب .**

وكنت وأنا أكتب أستمهل القلم حتى يدقق، وتدفعه يدي حتى ينتهي، فالوقت قد أزف، ولا بد من إخراج الكتاب حتى يجدوا ما يرجعون إليه بين أيديهم، فخرج الكتاب بين حالتين، حالة المستمهل المدقق، وحالة العجل المدفوع بالزمان والمكان، وفي الحالتين، لا عذر إلا ضيق الوقت، ولعل الله تعالى يبسط لي من الأجل ما نقوّم به العوج ونسد به الخلل .

ولا خلل أشد من ترك الأفراخ دون طعام، أو تقديم طعام لا يُسمن ولايُغني من جوع، من أناس الأصل فيهم أنهم أمناء على أولادهم والمنتظر منهم أن يكتبوا العلم الذي يشهد لهم يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها، لكنك – وهذا مؤسف – تجد أخلاق التجار، وتسلط من لا خلاق لهم على الضعفاء فيبيعون البرَّ الذي أصابته السماء على أنه السليم المعافى ويخلطون السقيم بالصحيح، ويضخمون حروفهم كما يضخم صاحب البقر أبقاره قبل النزول بها في ساحات البيع والشراء، ولولا الحياء لكان لي معهم شأن، ولولا الحلم الذي هو قرين الذل لرددت كل مكتوب حتى يراجع من ذوي

الاختصاص، فالأصل أنه لا يقدم في ساحات العلم إلا العلم الخالص، ولا يجوز بيع الحشف البالي على أنه الرُطب الغوالي ولكن أصاب أهل العلم ما أصاب الناس فعمدوا إلى الغث فألبسوه ثوب السمين، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

وأذكرك هنا ببعض مواقف الحلم التي أصبر نفسي بها، حتى لاأذوب كمدا من صنيع الأساتذة، أو من الذين نطلق عليهم أساتذة، قال معاوية رضي الله عنه لصعصعة بن صوحان: صف لي عمر ابن الخطاب **فقال**: كان عالماً برعيته، عادلاً في قضيته، عارياً من الكبر، قبولاً للعذر سهل الحجاب، مصون الباب، متحرياً لصواب، رفيقاً بالضعيف، غير محارب للقريب، ولا جاف للغريب.

وقيل للأحنف بن قيس(١): ممن تعلمت الحلم؟

فقال: من قيس بن عاصم(٢)رأيته قاعداً بفناء بيته، محتبياً بحمائل سيفه، يحدث قومه إذا أتي برجل مكتوف، ورجل مقتول، فقيل له: هذا ابن أخيك قتل ابنك، فوالله ما حل حبوته، ولا قطع كلامه، ثم التفت إلى ابن أخيه، فقال يا ابن أخي بئس ما فعلت، أثمت بربك، ورميت نفسك بسهمك، وأشمتّ عدوك، ونقصت عددك، قتلت ابن عمك ؟ !!! .

ثم قال لابن له آخر: قم يا بني فوار أخاك، وحل كتاف ابن عمك وسق إلى أمه مئة من الإبل دية ابنها، فإنها غريبة عندنا فلعلها أن تسلو

١- الأحنف بن قيس بن معاوية بن حصين المرّي السعدي المنقري التميمي، أبو بحر(ت ٧٢ه): سيد تميم، وأحد العظماء الدهاة الفصحاء الشجعان الفاتحين. يضرب له المثل في الحلم. ولد في البصرة وأدرك النبي ﷺ. ولم يره. ووفد على عمر، حين آلت الخلافة إليه، في المدينة، فاستبقاه عمر، فمكث عاما، وأذن له فعاد إلى البصرة، فكتب عمر إلى أبي موسى الأشعري: أما بعد فأدن الأحنف وشاوره واسمع منه إلخ. وشهد الفتوح في خراسان واعتزل الفتنة يوم الجمل، ثم شهد صفين مع عليّ. ولما انتظم الأمر لمعاوية عاتبه، فأغلظ له الأحنف في الجواب، فسئل معاوية عن صبره عليه، فقال: هذا الّذي إذا غضب غضب له مئة ألف لا يدرون فيم غضب. وولي خراسان. وكان صديقا لمصعب بن الزبير (امير العراق) فوفد عليه بالكوفة فتوفي فيها وهو عنده. أخبار كثيرة جدا.

٢ - قيس بن عاصم بن سنان المقريزي السعدي التميمي، أبو علي: ت ٢٠ ه ، أحد أمراء العرب وعقلائهم والموصوفين بالحلم والشجاعة فيهم. كان شاعرا، اشتهر وساد في الجاهلية. وهو ممن حرم على نفسه الخمر فيها. ووفد على النبي صلّى الله عليه وآله في وفد تميم (سنة ٩ هـ فأسلم، وقال النبي صلى الله وآله وسلم لما رآه: هذا سيد أهل الوبر! واستعمله على صدقات قومه. ثم نزل البصرة في أواخر أيامه، وروى أحاديث. وتوفي بها. وهو الّذي يقول عبدة بن الطيب في رثائه: " وما كان قيس هلكه هلك واحد ولكنه بنيان قوم تهدما " وكان له ٣٣ ولدا. قال لهم في مرض موته: " يا بني احفظوا عني ثلاثا، فلا أحد أنصح لكم مني: إذا أنا مت فسودوا كباركم ولا تسودوا صغاركم فيحقر الناس كباركم وتهونوا عليهم، وعليكم بحفظ المال فإنه منبهة للكريم ويستغني به عن اللئيم، وإياكم والمسألة فإنها آخر كسب الرجل.

ثم أنشد:

إنّي امْــرؤٌ لا يَعْــتري خُلُقــي ... دَنَــــسٌ يُفنِّــــده ولا أفْــــنُ
مِــنْ مِنْقَــرٍ في بيــتِ مَكْرُمــةٍ ... والفَــرْعُ يَنْبــتُ فوقَــه الغُصْــنُ
خُطبــاءُ حــين يقــولُ قــائِلُهُمْ ... بــيضُ الوجــوهِ أعِفّــةٌ لُسْــنُ
لا يَفْطِنــونَ لِعَيْــبِ جــارِهِمُ ... وهُــمُ لِحفْــظِ جِــوارِه فُطْــنُ

وقال رجل للأحنف بن قيس: علمني الحلم.

فقال: هو الذل يا ابن أخي، أتصبر عليه؟

وقال رجل للأحنف: إنك لحليم. **فقال**: لست بحليم، ولكني أتحالم والله إني لأسمع الكلمة، فأُحَمُّ لها ثلاثة أيام، ما يمنعني من ردها إلا مخافة أن أسمع شراً منها.

وقيل للأحنف : من أحلم أنت أم معاوية(١)؟ .

١- معاوية بن (أبي سفيان) صخر ابن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، القرشي الأموي: مؤسس الدولة الأموية في الشام، وأحد دهاة العرب المتميزين الكبار. كان فصيحا حليما وقورا.
ولد بمكة، وأسلم يوم فتحها (سنة ٨ هـ وتعلم الكتابة والحساب، فجعله رسول الله ﷺ في كتّابه. ولما ولي (أبو بكر) ولاه قيادة جيش تحت إمرة أخيه يزيد بن أبي سفيان، فكان على مقدمته في فتح مدينة صيداء وعرقة وجبيل وبيروت. ولما ولي (عمر) جعله واليا على الأردن، ورأى فيه حزما وعلما فولاه دمشق بعد موت أميرها يزيد (أخيه) وجاء (عثمان) فجمع له الديار الشامية كلها وجعل ولاة أمصارها تابعين له. وقتل عثمان، فولي (علي بن أبي طالب) فوجه لفوره بعزل معاوية. وعلم معاوية بالأمر قبل وصول البريد، فنادى بثأر عثمان واتهم عليا بدمه. ونشبت الحروب الطاحنة بينه وبين علي. وانتهى الأمر بإمامة معاوية في الشام وإمامة علي في العراق. ثم قتل علي وبويع بعد ابنه الحسن، فسلم الخلافة إلى معاوية سنة ٤١ هـ
ودامت لمعاوية الخلافة الى أن بلغ سن الشيخوخة، فعهد بها لابنه يزيد ومات في دمشق. له ١٣٠ حديثا، اتفق البخاري ومسلم على أربعة منها وانفرد البخاري بأربعة ومسلم بخمسة. وهو أحد عظماء الفاتحين في الإسلام، بلغت فتوحاته المحيط الأتلانطيقي، وافتتح عامله بمصر بلاد السودان (سنة ٤٣). وهو أول مسلم ركب بحر الروم للغزو. وفي أيامه فتح كثير من جزائر يونان والدردنيل. وحاصر القسطنطينية برا وبحرا (سنة ٤٨) وهو أول من جعل دمشق مقر خلافة، وأول من اتخذ المقاصير (الدور الواسعة المحصنة والمقصورة كذلك كنّ في المسجد يقصر للخليفة لوقايته) وأول من اتخذ الحرس والحجاب في الإسلام. وأول من نصب المحراب في المسجد. كان يخطب قاعدا، وكان طوالا جسيما أبيض، إذا ضحك انقلبت شفته العليا. وضربت في أيامه دنانير (عليها صورة أعر أبي متقلد سيفا). وكان أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب إذا نظر إليه يقول: هذا كسرى العرب!

فقـال: مـا رأيـت أجهـل مـنكم، معاويـة يقـدر ويحلـم، وأنـا أحلـم ولا أقدر، فكيف أقاس به أو أدانيه؟

وقال هشام بن عبد الملك لخالد بن صفوان: بم بلغ الأحنف فيكم ما بلغ؟

قـال: إن شـئت أخبرتـك بواحـدة، وان شـئت بـاثنتين، وان شـئت بثلاث. **قال**:ما الواحدة؟

قال: كان أقوى الناس على نفسه.

قال: ما اثنتان؟

قال: كان موقى الشر، ملقى الخير.

قال: فما الثلاث؟

قال كان لا يجهل، ولا يبغي، ولا يبخل.

كل ذلك وغيره يجعلني أتصبر على لأواء لا أجد لهـا حـلا إلا الصـبر والوقت جزء من العـلاج، وأسـأل الله تعـالى أن ييسرـ لي كـل عسـير، وأن يرحم ضعفي بين يديه، وأن يجعل ما أكتبه حجة لي، اللهم كـن لي ولا تكـن عليّ، وانصرني ولا تنصر عليّ، اللهـم اهـدني وسـددني : اللهـم إني أسـألك الهدى والسداد .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

الفصل الأول

الفصل والوصل

توطئة :

حين تفتح هذا الباب فقد فتحت باب الخفاء الذي لا يستبين لكل ظر، والغموض الذي لا يتضح لكل قارئ، والصعوبة التي تحتاج إلى المهرة من أرباب الصناعة، وما من باب في البلاغة هو أغمض ولا أخفى من هذا الباب ، فهو كما قال الإمام عبد القاهر الجرجاني (١)(من أسرار البلاغة ، ومّما لا يتأتّى لتمام الصواب فيه إلا الأعراب الخلّص، وإلا قوم طبعوا على البلاغة، وأوتوا فنّا من المعرفة في ذوق الكلام هم بها أفراد.)

وباب الفصل والوصل يعرفني كيف ترتبط المعاني في اللغة ؟ وكيف يعقل اللسان العربي أواصر القربى بين الدلالات، لأن من المعاني ما هو مستقل يفهم وحده ،وكأنه جوهرة منفردة عن اقرانها، لا تحتاج إلى عقد كي تنتظم فيه، ولا تحتاج إلى سلك كي تنسلك فيه، هي الأقمار منفردة والنجوم

---

١ - عَبْد القَاهِر الجُرْجَاني (ت ٤٧١ هـ) واسمه: عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني، أبو بكر: واضع أصول البلاغة. كان من أئمة اللغة. من أهل جرجان (بين طبرستان وخراسان) له شعر رقيق. من كتبه " أسرار البلاغة - ط " و " دلائل الإعجاز - ط " و " الجمل - خ " في النحو، و " التتمة - خ " نحو، و " المغني " في شرح الإيضاح، ثلاثون جزءا، اختصره في شرح آخر سماه " المقتصد - خ " في الظاهرية، و " إعجاز القرآن - ط " و " العمدة في تصريف الأفعال، و " العوامل المئة.

مستقلة كأن تقول مثلا : (يد الله مع الجماعة) أو : (الدنيا ساعة) أو : (الله لطيف بعباده) فكل هذه لا تحتاج في عقلها، ولا الحديث عنها إلى غيرها، هي معان كاملة إن رأيتها وحدها فهمت المراد دون نقص أو احتياج، وحين تجد هذه المعاني فلقد وقعت على الدر المنثور.

ومن المعاني باب آخر، ونوع آخر، لا تراه إلا موصولا بغيره مضموما إلى سواه، وكأن المعنى حين يطلق يثمر معنى آخر ويؤسس لمعنى آخر، ويكون سببا في وجود معنى آخر، فهو معنى يتشعب ويتفرع حتى لا تستطيع أن تعزل شيئا منه، لأنه آخذ بحجز ما بعده، ومأخوذ من حجز ما قبله، هو حلقة في سلسلة، هو قطعة من قماش في ثوب، هو عضو في جسد، والوقوف على هذه الفروق، ومعرفة أي المعاني تكون مستقلة وأيها تكون بعضا من كل باب غامض، وهو سر من أسرار البلاغة، وقد بلغ من قوة الأمر في ذلك أنهم جعلوه حدًّا للبلاغة، فقد جاء عن بعضهم **أنه سئل عنها فقال:** «معرفة الفصل من الوصل».

ذاك لغموضه ودقّة مسلكه، وأنه لا يكمل لإحراز الفضيلة فيه أحد إلا كمل لسائر معاني البلاغة).

وقال أيضا : (ما من علم من علوم البلاغة **أنت تقول فيه:** «إنه خفيّ غامض، ودقيق صعب» إلا وعلم هذا الباب أغمض وأخفى وأدقّ وأصعب.

وقد قنع الناس فيه بأن يقولوا إذا رأوا جملة قد ترك فيها العطف:

«إن الكلام قد استؤنف وقطع عمّا قبله»، لا تطلب أنفسهم منه زيادة على ذلك. ولقد غفلوا غفلة شديدة) (١).

والإمام كما ترى يعيب على النحاة، ويغمز قولهم : (إن الكلام استؤنف وقطع عما قبله) دون أن يعللوا : لم استؤنف ؟ ولم قطع عما قبله ؟

وهذا الغموض والخفاء الذي يهولك له أسباب ،لأن إدراك سر البلاغة في الفصل والوصل يتوقف على تحصيل أربعة أمور في وقت واحد :

- **أولها** : أن تدرك معنى الجملة الأولى .
- **وثانيها** : أن تدرك معنى الجملة الثانية .
- **وثالثها** : أن تدرك العلاقة بين الجملة الأولى والجملة الثانية .
- **ورابعها** : أن تختار الرابط المناسب لهذه العلاقة .

ولا شك أن تحصيل هذه الأمور الأربعة دفعة واحدة من الصعوبة بمكان، لذلك قيل إن تحصيل هذا الفن يجعل تحصيل باقي أبواب البلاغة من السهولة بمكان، بل إن البلاغة كما قالوا هي معرفة الفصل والوصل .

وهذا الباب كان مثار اهتمام القدماء، فأعطوه ما يستحق من الإشادة به

وبمن برع فيه ،ونظروا إليه على أنه الباب الذي يهتم بمقاطع الكلام وفواصله، وحدوده ،وعلاقة السابق باللاحق، وفي ذلك نقل أبو هلال العسكري (٢)

---

١ - دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني / ت هنداوي – دار الكتب العلمية بيروت ص (١٤٨ – ١٥٤)

٢- هو الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد ابن يحيى بن مهران العَسْكَري، أبو هلال (ت ٣٩٥هـ): عالم بالأدب، له شعر. نسبته الى (عسكر مُكرَم) من كور الأهواز. من كتبه (التلخيص) في اللغة، و (جمهرة الأمثال - ط) و (الحث على طلب العلم - خ) رسالة، و (كتاب الصناعتين: النظم والنثر - ط) و (شرح الحماسة) و (الأوائل - خ) رسالة و (الفرق بين المعاني) و (العمدة) و (ما تلحن فيه الخاصة)

مواقف كثيرة من فصحاء العرب، **تتحدث كلها عن :**

قيمة الفصل والوصل عند العلماء :

- **ومن ذلك :**
- قول الأحنف بن قيس: ما رأيت رجلا تكلّم فأحسن الوقوف عند مقاطع الكلام ، ولا عرف حدوده إلا عمرو بن العاص(١) رضي الله عنه كان إذا تكلم تفقد مقاطع الكلام، وأعطى حقّ المقام، وغاص فى استخراج المعنى بألطف مخرج؛ حتى كان يقف عند المقطع وقوفا يحول بينه وبين تبيعته من الألفاظ، **وكان كثيرًا ما ينشد:**

و(المحاسن) في تفسير القرآن، خمس مجلدات، و (كتاب من احتكم من الخلفاء إلى القضاة) و (التبصرة)

و(أسماء بقايا الأشياء - ط) و (فضل العطاء على العسر - ط) رسالة، و (الدرهم والدينار) و (ديوان شعره) و (الفروق - ط) في اللغة، و (ديوان المعاني - ط) جزآن. وهو ابن أخت أبي أحمد (الحسن بن عبد الله بن سعيد العسكري) وتلميذه قال ياقوت: أما وفاته فلم يبلغني فيها شئ غير أني وجدت في آخر كتاب (الأوائل) من تصنيفه: (وفرغنا من إملاء هذا الكتاب يوم الأربعاء لعشر خلت من شعبان سنة خمس وتسعين وثلاثمائة

١- عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ بْنِ وَائِلِ بْنِ هَاشِمِ بْنِ سَعِيدِ بْنِ سَهْمِ بْنِ عَمْرِو بْنِ هُصَيْصِ بْنِ كَعْبِ بْنِ لُؤَيِّ بْنِ غَالِبٍ، يُكَنَّى أَبَا عَبْدِ اللهِ أُمُّهُ النَّابِغَةُ مِنْ بَنِي عَنَزَةَ بْنِ أُسَيْدِ بْنِ رَبِيعَةَ بْنِ نِزَارٍ، كَانَ يَخْضِبُ بِالسَّوَادِ، وَخَرَجَ إِلَى الْحَبَشَةِ إِلَى النَّجَاشِيِّ بَعْدَ الْأَحْزَابِ، فَأَسْلَمَ عِنْدَهُ بِالْحَبَشَةِ، فَأَخَذَهُ أَصْحَابُهُ بِالْحَبَشَةِ فَغَمُّوهُ وَأَفْلَتَ مِنْهُمْ مُجَرَّدًا لَيْسَ عَلَيْهِ قِشْرَةٌ، فَأَظْهَرَ لِلنَّجَاشِيِّ إِسْلَامَهُ، فَاسْتَرْجَعَ مِنْ أَصْحَابِهِ جَمِيعَ مَالِهِ وَرَدَّهُ عَلَيْهِ، فَقَدِمَ هُوَ وَخَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ، وَعُثْمَانُ بْنُ طَلْحَةَ مُهَاجِرِينَ الْمَدِينَةَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَتَقَدَّمَ خَالِدٌ فَبَايَعَ، ثُمَّ تَقَدَّمَ هُوَ فَبَايَعَهُ عَلَى أَنْ يُغْفَرَ لَهُ مَا كَانَ قَبْلَهُ

إذا ما بدا فوق المنابر قائلا		أصاب بها يومى إليه المقاتلا

- وكان شبيب ابن شبّة(١)يوما قاعدا بباب المهدى(٢).

فأقبل عبد الصمد بن الفضل الرّقاشىّ(٣)، فلما رآه قال: أتاكم والله كليم الناس. فلما جلس قال شبيب: تكلم يا أبا العباس، فقال: أمعك يا أبا معمر وأنت خطيبنا وسيدنا؟

قال: نعم ، فو الله ما رأيت قلبا أقرب من لسان، من قلبك من لسانك، قال: فى أى شىء تحب أن أتكلم؟

١- شبيب بن شبة الأخباري الأديب الشاعر:صاحب خالد بن صفوان الذي تقدمت ترجمته في حرف الخاء، ولهما أخبار ومواقف مشهورة عند الخلفاء والأمراء.وكان بين شبيب وأبي نخيلة الراجز الشاعر صحبة ومودة. حدّث الأصمعي قال: رأى أبو نخيلة على شبيب حلّة فأعجبته فسأله إياها فوعده فقال فيه:

يا قوم لا تسوّدوا شبيبا... الخائن ابن الخائن الكذوبا

هل تلد الذئبة إلا ذيبافلما بلغ ذلك شبيبا بعث إليه بالحلة وكتب إليه:

إذا غدت سعد على شبيبها... على فتاها وعلى خطيبها

من مطلع الشمس إلى مغيبها... عجبت من كثرتها وطيبها

مات شبيب بعد المائتين.

٢- محمد بن عبد الله المنصور بن محمد ابن علي العباسي، أبو عبد الله، المهدي بالله: من خلفاء الدولة العباسية في العراق. ولد بإيذج (من كور الأهواز) وولي بعد وفاة أبيه وبعهد منه (سنة ١٥٨ هـ وأقام في الخلافة عشر سنين وشهرا، ومات في ماسبذان، صريعا عن دابته في الصيد، وقيل مسموما. كان محمود العهد والسيرة، محببا إلى الرعية، حسن الخلق والخلق، جوادا، يقال: إنه أجاز شاعرا بخمسين ألف دينار؟ وكان يجلس للمظالم ويقول: أدخلوا عليّ القضاة فلو لم يكن ردّي للمظالم إلا حياء منهم لكفى. وهو أول من مُشي بين يديه بالسيوف المصلتة والقسي والنشاب والعمد، وأول من لعب بالصوالجة في الإسلام. وهو الذي بنى جامع الرصافة، وتربته بها، وانمحى أثر الجامع والتربة بعد ذلك

٣- الفضل بن عبد الصمد بن الفضل الرقاشيّ البصري، أبو العباس: شاعر مجيد، من أهل البصرة. فارسي الأصل. انتقل إلى بغداد، ومدح الخلفاء. وكانت بينه وبين أبي نواس مهاجاة ومباسطة. وانقطع إلى البرامكة، ورثاهم بعد نكبتهم. وكان متهتكا خليعا، قال المبرد: " كان الفضل يظهر الغنى وهو فقير، ويظهر العز وهو ذليل، ويتكثر وهو قليل، فكانت الشعراء تهجوه ".

قال: وإذا شيخ معه عصا يتوكأ عليها، فقال: صف لنا هذه العصا.

فحمد الله y وأثنى عليه، ثم ذكر السماء، فقال:(رفعها الله بغير عمد، وجعل فيها نجوم رجم ونجوم اقتداء وأدار فيها سراجا وقمرا منيرا؛ لتعلموا عدد السنين والحساب، وأنزل منها ماء مباركا، أحيا به الزرع والضّرع وأدرّ به الأقوات، وحفظ به الأرواح وأنبت به أنواعا مختلفة، يصرّفها من حال إلى حال؛ تكون حبّة، ثم يجعلها عرقا، ثم يقيمها على ساق، فبينا تراها خضراء ترف إذ صارت يابسة تتقصّف، لينتفع بها العباد، ويعمر بها البلاد، وجعل من يبسها هذه العصا.

ثم أقبل على الشيخ، فقال: وكان هذا نطفة فى صلب أبيه، ثم صار علقة حين خرج منه، ثم مضغة ثم لحما وعظما، فصار جنينا أوجده الله بعد عدم، وأنشأه مريدا، ووفقه مكتهلا، ونقصه شيخا، حتى صار إلى هذه الحال، من الكبر، فاحتاج فى آخر حالاته إلى هذه العصا؛ فتبارك المدبّر للعباد.).

قال شبيب: فما سمعت كلاما على بديهة أحسن منه.

وقال معاوية: يا أشدق؛ قم عند قروم([1])العرب وجحاجحها([2]) فسلّ لسانك، وجُلْ فى ميادين البلاغة، وليكن التفقّد لمقاطع الكلام منك على بال، فإنى شهدت رسول الله ﷺ أملى على علىّ بن أبى طالب رضي الله عنه كتابا، وكان يتفقّد مقاطع الكلام كتفقد المصرم صريمته([3]).

- ولما أقام أبو جعفر صالحا خطيبا بحضرة شبيب بن شبة وأشراف قريش فتكلم، أقبل شبيب. فقال: يا أمير المؤمنين؛ ما رأيت كاليوم أبين بيانا، ولا أربط جنانا، ولا أفصح لسانا، ولا أبلّ ريقا ولا أغمض عروقا، ولا أحسن طريقا، إلا أن الجواد عسير لم يرض؛ فحملته القوة على تعسّف الإكام وخبطها، وترك الطريق اللاحب وأيم الله لو عرف فى خطبته مقاطع الكلام لكان أفصح من نطق بلسان.

---

١ - القرم والمقرم: السيد ، وقروم العرب ساداتها والقَرْم من الْإِبِل: الْفَحْل الَّذِي لم يذلَّل بخَطْم وَلَا حَمْلوَلَا زمّ، وَهُوَ المقْرَم أَيْضا، وَالْجمع قروم ومَقَارم، وَكثر ذَلِك حَتَّى سُمّي سيّد الْقَوْم قَرْماً

٢ - (جح) في المضاعف. الجيم والحاء يدل على عظم الشيء، يقال للسيد من الرجال الجحجاح، والجمع جحاجح وجحاجحة. قال أمية: ماذا ببدر فالعقن... قل من مرازبة جحاجح

٣ - والصرم: طائفة من القوم ينزلون بإبلهم ناحية من الماء، فهم أهل صرم. والرجل الصارم: الماضي في الأمور كالسيف الصارم. وناقة مصرمة، أي يصرم طبيها فيفسد الإحليل فييبس، فذلك أقوى لها ؛ لأن اللبن لا يخرج. ويقال: إن التصريم يكون بكي خلفين. والصرماء: الأرض لا ماء بها. ويقال: إن الصريمة الأرض المحصود زرعها.

● **وقال المأمون**(١): ما أعجب بكلام أحد كإعجابى بكتاب القاسم بن عيسى،(٢) فإنه يوجز فى غير عجز، ويصيب مفاصل الكلام، ولا تدعوه المقدرة إلى الإطناب، ولا تميل به الغزارة إلى الإسهاب، يجلى

---

١ - الخليفة أبو العباس عبد الله بن هارون الرشيد بن محمد المهدي بن أبي جعفر المنصور العباسي.
ولد سنة سبعين ومائة.وقرأ العلم والأدب والأخبار، والعقليات وعلوم الأوائل، وأمر بتعريب كتبهم وبالغ وعمل الرصد فوق جبل دمشق، ودعا إلى القول بخلق القرآن، وبالغ نسأل الله السلامة.
وسمع من: هشيم، وعبيد بن العوام ويوسف بن عطية وأبي معاوية وطائفة.
روى عنه: ولده الفضل، ويحيى بن أكثم، وجعفر بن أبي عثمان الطيالسي، وعبد الله بن طاهر الأمير، ودعبل الشاعر وأحمد بن الحارث الشيعي.
وكان من رجال بني العباس حزما، وعزما ورأيا وعقلا، وهيبة وحلما ومحاسنه كثيرة في الجملة.
قال ابن أبي الدنيا: كان أبيض ربعة حسن الوجه تعلوه صفرة قد وخطه الشيب، وكان طويل اللحية أعين ضيق الجبين على خده شامة.
أتته وفاة أبيه وهو بمرو سائرا لغزو ما وراء النهر، فبايع من قبله لأخيه الأمين ثم جرت بينهما أمور وخطوب، وبلاء وحروب تشيب النواصي. إلى أن قتل الأمين، وبايع الناس المأمون في أول سنة ثمان وتسعين ومائة.
قال الخطبي: كنيته أبو العباس فلما استخلف اكتنى بأبي جعفر، واسم أمه: مراجل ماتت في نفاسها به.
قال: ودعي له بالخلافة في آخر سنة خمس وتسعين إلى أن قتل الأمين فاجتمع الناس عليه فاستعمل على العراق الحسن بن سهل ثم بايع بالعهد لعلي بن موسى الرضى ونوه بذكره، ونبذ السواد وأبدله بالخضرة فهاجت بنو العباس، وخلعوا المأمون ثم بايعوا عمه إبراهيم بن المهدي، ولقبوه المبارك وعسكروا فحاربهم الحسن بن سهل فهزموه فتحيز إلى واسط ثم سار جيش المأمون عليهم حميد الطوسي، وعلي بن هشام فالتقوا إبراهيم فهزموه فاختفى زمانا وانقطع خبره إلى أن ظفر به بعد ثمان سنين فعفا عنه المأمون.
وكان المأمون عالما فصيحا مفوها، وكان يقول: معاوية بن أبي سفيان بعمره، وعبد الملك بحجاجه وأنا بنفسي وقد رويت هذه أن المنصور قالها.
وعن المأمون أنه تلا في رمضان ثلاثا وثلاثين ختمة.

٢ - صاحب الكرج، وأميرها القاسم بن عيسى العجلي.حدث عن: هشيم وغيره.وعنه: محمد بن المغيرة الأصبهاني.وكان فارسا شجاعا مهيبا سائسا شديد الوطأة، جوادا ممدحا مبذرا شاعرا مجودا له أخبار في حرب بابك، وولي إمرة دمشق للمعتصم، وقد دخل وهو أمرد على الرشيد فسلم فقال: لا سلم الله عليك أفسدت الجبل علينا يا غلام قال: فأنا أصلحه أفسدته يا أمير المؤمنين، وأنت علي أفأعجز عن صلاحه، وأنت معي؟! فأعجبه، وولاه الجبل فلما خرج قال: أرى غلاما يرمي من وراء همة بعيدة وكان موته: ببغداد في سنة خمس، وعشرين ومائتين وفي ذريته أمراء وعلماء.

- عن مراده فى كتبه، ويصيب المغزى فى ألفاظه.
- **وكان يزيد بن معاوية** (١)**يقول**: إياكم أن تجعلوا الفصل وصلا، فإنه أشـدّ وأعيب من اللّحن.

١ - يزيد بن معاوية ابن أبي سفيان بن حرب بن أمية، الخليفة، أبو خالد القرشي، الأموي الدمشقي. قد ترجمه ابن عساكر، وهو في "تاريخي الكبير"له على هناته حسنة وهي غزو القسطنطينية، وكان أمير ذلك الجيش، وفيهم مثل أبي أيوب الأنصاري.عقد له أبوه بولاية العهد من بعده، فتسلم الملك عند موت أبيه في رجب، سنة ستين، وله ثلاث وثلاثون سنة فكانت دولته أقل من أربع سنين ولم يمهله الله على فعله بأهل المدينة لما خلعوه فقام بعده ولده نحوا من أربعين يوما، ومات وهو أبو ليلى معاوية عاش: عشرين سنة وكان خيرا من أبيه، وبويع ابن الزبير بالحجاز، والعراق والمشرق.
ويزيد ممن لا نسبه ولا نحبه، وله نظراء من خلفاء الدولتين، وكذلك في ملوك النواحي، بل فيهم من هو شر منه وإنما عظم الخطب لكونه ولي بعد وفاة النبي -ﷺ- بتسع وأربعين سنة والعهد قريب والصحابة موجودون كابن عمر الذي كان أولى بالأمر منه ومن أبيه وجده.
قيل: إن معاوية تزوج ميسون الكلبية، فطلقها وهي حامل بيزيد فرأت كأن قمرا خرج منها فقيل تلدين خليفة.
وكان يزيد لما هلك أبوه بناحية حمص فتلقوه إلى الثنية٣، وهو بين أخواله على بختي٤ ليس عليه عمامة ولا سيف وكان ضخما كثير الشعر شديد الأدمة بوجهه أثر جدري فقال الناس هذا الأعرابي الذي ولي أمر الأمة فدخل على باب توما وسار إلى باب الصغير فنزل إلى قبر معاوية، فوقف عليه، وصفنا خلفه، وكبر أربعا، ثم أتي ببغلة،فأتى الخضراء، وأتى الناس لصلاة الظهر، فخرج، وقد تغسل، ولبس ثيابا نقية، فصلى، وجلس على المنبر، وخطب، وقال: إن أبي كان يغزيكم البحر، ولست حاملكم في البحر، وإنه كان يشتيكم بأرض الروم، فلست أشتي المسلمين في أرض العدو، وكان يخرج العطاء أثلاثا، وإني أجمعه لكم. فافترقوا، يثنون عليه.
وعن عمرو بن قيس: سمع يزيد يقول على المنبر: إن الله لا يؤاخذ عامة بخاصة، إلا أن يظهر منكر فلا يغير، فيؤاخذ الكل. وقيل قام إليه ابن همام، فقال: أجرك الله يا أمير المؤمنين على الرزية، وبارك لك في العطية، وأعانك على الرعية، فقد رزئت عظيما وأعطيت جزيلا فاصبر، واشكر فقد أصبحت ترعى الأمة، والله يرعاك.

- **وكان أكثم بن صيفى (١)إذا كاتب ملوك الجاهلية يقول** : لكتّابـه افصـلوا بين كل معنى منقض، وصلوا إذا كان الكلام معجونا بعضه ببعض.
- **وكان الحرث بن أبى شمر الغسّانى يقول لكاتبه المـرقش**(٢): إذا نـزع بك الكلام إلى الابتداء بمعنى غير ما أنت فيه فافصل بينه وبين تبيعته من الألفاظ، فإنك إن مذقت ألفاظـك بغـير مـا يحسـن أن تمـذق بـه نفّرت القلوب عن وعيها، وملّته الأسماع، واستثقلته الرواة.
- **وكان بزرجمهر**(٣) **يقول**: إذا مدحت رجلا، وهجوت آخـر، فاجعـل بين القولين فصلا حتى تعرف المدح من الهجاء، كـما تفعـل فى كتبـك إذا استأنفت القول، وأكملت ما سلف من اللفظ.

١- فأتى الخضراء، وأتى الناس لصلاة الظهر، فخرج، وقد تغسل، ولبس ثيابا نقية، فصلى، وجلس على المنبر، وخطب، وقال: إن أبي كان يغزيكم البحر، ولست حاملكم في البحر، وإنه كان يشتيكم بأرض الروم، فلست أشتي المسلمين في أرض العدو، وكان يخرج العطاء أثلاثا، وإني أجمعه لكم. فافترقوا، يثنون عليه.

وعن عمرو بن قيس: سمع يزيد يقول على المنبر: إن الله لا يؤاخذ عامة بخاصة، إلا أن يظهر منكر فلا يغير، فيؤاخذ الكل. وقيل قام إليه ابن همام، فقال: أجرك الله يا أمير المؤمنين على الرزية، وبارك لك في العطية، وأعانك على الرعية، فقد رزئت عظيما وأعطيت جزيلا فاصبر، واشكر فقد أصبحت ترعى الأمة، والله يرعاك.

٢ - المُرَقِّش الأَكْبَر (ت ٧٥ ق هـ = ٠٠٠ - نحو ٥٥٠ م)عوف (أو عمرو) بن سعد بن مالك ابن ضبيعة من بني بكر بن وائل: شاعر جاهلي، من المتيمين الشجعان. عشق ابنة عم له اسمها " أسماء " وقال فيها شعرا كثيرا. وكان يحسن الكتابة. وشعره من الطبقة الأولى، ضاع أكثره. ولد باليمن، ونشأ بالعراق. واتصل مدة بالحارث أبي شمر الغساني ونادمه ومدحه. واتخذه الحارث كاتبا له. وتزوجت عشيقته أسماء برجل من بني مراد، فمرض المرقش زمنا، ثم قصدها فمات في حيها. وفي المؤرخين من يسميه عمرو بن سعد وربيعة بن سعد. وهو عمّ المرقش الأصغر، وهذا عم طرفة بن العبد.

٣ - هو سَهْل بن هارُون٢١٥ هـ = ٠٠٠ - ٨٣٠ م)سهل بن هارون بن راهبون (أو راهيون) أبو عمرو الدستميساني: كاتب بليغ، حكيم، من واضعي القصص، يلقب (بزرجمهر الإسلام) فارسي الأصل، اشتهر في البصرة، واتصل بخدمة هارون الرشيد، وارتفعت مكانته عنده، حتى أحله محل يحيى البرمكي صاحب دواوينه. ثم خدم المأمون فولاه رياسة (خزانة الحكمة) ببغداد. وكان شعوبيا، يتعصب للعجم على العرب. والجاحظ كثير الإعجاب به، قال في وصفه: ومن الخطباء الشعراء الذين جمعوا الشعر

• **وقال الحسن بن سهل**[1] **لكاتبه الحرّانى**[2]: ما منزلة الكاتب فى قوله وفعله؟ قال:أن يكون مطبوعا محتنكا بالتجربة، عالما بحلال الكتاب والسنة وحرامها، وبالدهور فى تداولها وتصرّفها، وبالملوك فى سيرها وأيامها مع براعة اللفظ وحسن التنسيق، وتأليف الأوصال بمشاكلة الاستعارة وشرح المعنى، ومعرفة الفصل من الوصل؛ فإذا كان ذلك كذلك فهو كاتب مجيد. والقول إذا استكمل آلته، واستتمّ معناه فالفصل عنده.

والخطب والرسائل الطوال والقصار والكتب الكبار سهل بن هارون الكاتب إلخ.وأخباره مع الخلفاء والأمراء كثيرة.

١- الحسن بن سهل بن عبد الله السرخسي، أبو محمد: وزير المأمون العباسي، وأحد كبار القادة والولاة في عصره. اشتهر بالذكاء المفرط، والأدب والفصاحة وحسن التوقيعات، والكرم.
وهو والد بوران (زوجة المأمون) وكان المأمون يجله ويبالغ في إكرامه، وللشعراء فيه أماديح. أصيب بمرض السويداء سنة ٢٠٣ هـ فتغير عقله حتى شد في الحديد، ثم شفي منه قبل زواج المأمون بابنته (سنة ٢١٠ هـ وتوفي في سرخس (من بلاد خراسان) قال الخطيب البغدادي: وهو أخو ذى الرياستين الفضل بن سهل، كانا من أهل بيت الرياسة في المجوس وأسلما، هما وأبوهما سهل في أيام الرشيد

٢- إبراهيم بن سنان بن ثابت بن قرة بن مروان بن ثابت، أبو إسحاق الحرّاني ثم البغدادي: مهندس طبيب، من الصابئة. أصله من حران ومولده ووفاته ببغداد.

وكان عبد الحميد الكاتب(١) إذا استخبر الرجل فى كتابه فكتب: خبرك، وحالك، وسلامتك؛ فصل بين هذه الأحرف ويقول:

- قد استكمل كل حرف منها آلته، ووقع الفصل عليه.
- وكان صالح بن عبد الرحمن التميمى(٢) الكاتب يفصّل بين الآيات كلها وبين تبيعتها من الكتاب، كيف وقعت، وكان يقول: ما استؤنف إنّ- إلا وقع الفصل.

---

١ - عبد الحميد بن يحيى بن سعد العامري، بالولاء، المعروف بالكاتب:عالم بالأدب، من أئمة الكتاب. كان جده مولى للعلاء بن وهب العامري، فنسب إلى بني عامر. يضرب به المثل في البلاغة، وعنه أخذ المترسلون.
أصله من قيسارية. سكن الشام، واختص بمروان بن محمد آخر ملوك بني أمية في المشرق، ويقال: (فتحت الرسائل بعبد الحميد وختمت بابن العميد) وكان يعقوب بن داود، وزير المهدي، يكتب بين يديه، وعليه تخرّج. له (رسائل) تقع في نحو ألف ورقة، طبع بعضها. وهو أول من أطال الرسائل واستعمل التحميدات في فصول الكتب. ولما قوي أمر العباسيين وشعر مروان بزوال ملكه، قال لعبد الحميد: قد احتجت أن تصير إلى عدوي، وتظهر الغدر بي، وإن إعجابهم بأدبك وحاجتهم إلى كتابتك ستحوجهم إلى حسن الظن بك. فأبى عبد الحميد مفارقته، وبقي معه إلى أن قتلا معا، في بوصير (بمصر)

٢- صالح بن عبد الرحمن التميمي: أول من حول كتابة دواوين الخراج من الفارسية إلى العربية، في العراق وكان يجيد الإنشاء في اللغتين. أصله من سبي سجستان، نشأ في بني النزال، من آل مرة بن عبيد، فصيحا بالعربية، قوي الحافظة. واتصل بالحجاج الثقفي قبل أن يلي العراق، فلما ولي جعله في كتاب ديوانه، ثم قلده أمر الديوان (وكان يكتب بالفارسية) فنقله صالح إلى العربية سنة ٧٨هـ ووضع اصطلاحات للكتّاب والحسّاب استغنوا بها عن المصطلحات الفارسية. قيل: لما أراد نقل الديوان إلى العربية، بذل له كتّاب الفرس ثلاثمائة ألف درهم، على أن لا يفعل، فأبى. ووفد على سليمان ابن عبد الملك في الشام، فولاه خراج العراق، فعاد إلى الكوفة، فاستمر أيام سليمان كلها. وأقره عمر بن عبد العزيز مدة سنة، ثم استعفى فأعفاه وقيل: عزله. ولما ولي يزيد بن عبد الملك كان صالح بالشام، فكتب عمر بن هبيرة إلى يزيد في إنفاذه إليه ليسأله عن الخراج، فأرسله إليه وأوصاه به. فلما وصل إلى ابن هبيرة قتله. وكان جميع كتّاب العراق في عصره تلاميذ له. قال عبد الحميد بن يحيى الكاتب: لله در صالح ما أعظم منته على الكتّاب

- وكان جبل بن يزيد[1] يفصّل بين الفاءات كلها، وقد كره بعض الكتبة ذلك وأحبه بعض، وفصل المأمون عند «حتى» كيف وقعت وأمر كتابه بذلك، فغلط أحمد بن يوسف، ووصل (حتى) بما بعده من اللفظ، فلما عرض الكتاب على المأمون أمر بإحضاره، فقال: لعن الله هذه القلوب حين اكنّت العلوم بزعمكم، واجتنت ثمر لطائف الحكمة بدعواكم؛ قد شغلتموها باستظراف ما عزب عنكم علمه عن تفهّم ما رويتموه، وتفحّص ما جمعتموه، وتعرف ما استقدمتموه؛ أليس قد تقدمنا إليكم بالفصل عند «حتى» حيثما وقعت من الألفاظ؟

فقال: يا أمير المؤمنين، قد ينبو السيف وهو صميم، ويكبو الجواد وهو كريم. وكان لا يعود في شيء من ذلك، وكان يأمر كتابه بالفصل بين(بل وبلى وليس.)

وأمر عبد الملك كتابه بذلك إلا «ليس» .

١- جبل بن يزيد الأزدي من بني ظبيان، الكاتب.أحد كتاب الكوفة كاتب على أربعين ألفا.
وكان مع المنصور، فضمه إلى أبي أيوب الخوزي.
أما أحمد بن يوسف بن القاسم بن صَبِيح العجليّ بالولاء، المعروف بالكاتب: وزير من كبار الكتاب.
من أهل الكوفة. ولي ديوان الرسائل للمأمون، واستوزره بعد أحمد بن أبي خالد الأحول، وتوفي ببغداد.
وكان فصيحا، قوي البديهة، يقول الشعر الجيد، له (رسائل) مدونة.وهو صاحب البيت المشهور:
(إذا ضاق صدر المرء عن سرّ نفسه... فصدر الّذي يُستودع السرّ أضيقُ)

وقال المأمون ما أتفحّص من رجل شيئا كتفحّصي عن الفصل والوصل في كتابه، والتخلّص من المحلول إلى المعقود، فإنّ لكل شيء جمالا، وحلية الكتاب وجماله إيقاع الفصل موقعه، وشحذ الفكرة وإجالتها في لطف التخلص من المعقود إلى المحلول.

****

تعريف المصطلح :

مقصود علماء البلاغة بمصطلح (الفصل) هو :(تتابع الجمل دون عطف بالواو)، وذكروا في كتبهم مصطلح (الفصل) مقدما على مصطلح (الوصل) لأن الفصل هو الأصل، والوصل عارض، لأنهزيادة حرف بين الجمل، ومالا زيادة فيه أصل لما فيه زيادة .

ومقصودهم من (الوصل) هو : (عطف الكلام بعضه على بعض بالواو)، وهذا يشمل : عطف الكلمات، وكذا عطف الجمل، وهذا يعني أن العلماء اقتصروا في دراستهم على أمور، وغضوا الطرف عن غيرها، **فهم** :

- **اقتصروا على عطف الجمل .**
- **واقتصروا على الجمل التي لا محل لها من الإعراب .**
- **واقتصروا على العطف بالواو .**

والذي أراه أن أسرار البلاغة فيما تركوه لا تقل بحال عن الأمور التي تناولوها، حتى إن السكاكي – رَحِمَهُ اللَّهُ – حين ذكر هذا الباب تحدث عن عطف المفردات، والجمل، والعطف بالواو، والعطف بغيرها مثل (ثم، وأو) .

والذي دعا البلاغيين إلى تجاوز هذه الأمور رؤيتهم أنها سهلة قريبة لأنه لا يقصد بها إلا التشريك في الحكم الإعرابي، وهذا باب درسه النحاة وفصلوا فيه الكلام .

والحق أن النحاة وإن كانوا قد درسوا هذه الأنواع إلا أنهم درسوها من حيث الصواب والخطأ، والصحة والفساد، لكن الأسرار الكامنة خلف عطف مفردة على مفردة، **كما في قوله تعالى** :

﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ....﴾

[سورة الأحزاب:٣٥]

لا تزال حبيسة، ولا طاقة لعلماء النحو باستخراجها .

والذي دعا البلاغيين إلى تجاوز حروف العطف المتنوعة أن هذه الحروف تفيد مع التشريك في الحكم معاني أخرى :

- **فحرف العطف(ثم) يفيد الترتيب والتراخي .**
- **وحرف العطف(أو) يفيد التردد والتخيير بين شيئين .**
- **و(الفاء) تفيد الترتيب والتعقيب .**

ولذلك لم يكن العطف بهده الحروف مُشكِلا، أما (الواو) فإنها الوحيدة من بين حروف العطف التي لا تفيد سوى الإشراك في الحكم ومطلق الجمع بين المعطوف والمعطوف عليه، مما يثير سؤالا، بل يفرض سؤالا، **وهو** :

تقولون: إن الواو لمطلق الجمع، ولإشراك الجملة الثانية في الحكم الإعرابي للجملة الأولى، فإذا كانت الجملة الأولى لا يوجد لها حكم إعرابي فما وجه العطف ؟

وما الذي تفعله الواو بين جملتين لا يوجد للأولى حكم لها ؟

- **ما الذي تفعله الواو مثلا بين : (زيد قائم و خالد قاعد) ؟**
- **ما الذي تفعله الواو بين : (العلم حسن والجهل قبيح) ؟**

وليس معنى هذا أن معاني حروف العطف الأخرى (الفاء ، وثم وأو، وبل ...إلخ) هي الوجه البلاغي فقط، لأن هناك أسرارا أخرى كامنة خلف العطف بهذه الحروف ، **ففي قوله تعالى مثلا :**

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾

[سورة المؤمنون:١٢-١٤]

تجد أن الجمل قد وُصِلت في الآيات الكريمة بحرفي العطف (ثم، والفاء) فخلْقُ آدم ظل فترة من الزمن طينًا، ثم نفخ فيه الروح، ثم كان الخلق الثاني من النطفة، وبين النوعين من الخلق فترة من الزمن، ثم توالت الأطوار، وبين كل طور وطور فترة من الزمن، مما استوجب العطف بـ(ثم) (١).

١- **عن أنس بن مالك، قال: قال عمر** رضي الله عنه **: " وافقت ربيع زوج لفيأربعفقلت: يارسول الله لوصل يتخلف المقام فنزلت هذه الآية** رضي الله عنها ...وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ... رضي الله عنهم [سورة البقرة:١٢٥] **وقلت: يارسول الله لو ضربت على نسائك الحجاب فإنه يدخل عليك البر والفاجر، فأنزل الله عزوجل** رضي الله عنها ... وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ... رضي الله عنهم [سورة الأحزاب:٥٣] ، **ونزلت هذه الآية** رضي الله عنها وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ رضي الله عنهم [سورة المؤمنون:١٢] ، **فلما نزلت قلت أنا: تبارك الله أحسن الخالقين فنزلت** رضي الله عنها ...فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ رضي الله عنهم [سورة المؤمنون:١٤] **ودخلت على أزواج النبي** صلى الله عليه وسلم **فقلت لهن: لتنتهن أو ليبدلنه الله بأزواج خير منكن فنزلت هذه الآية** رضي الله عنها عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ ... رضي الله عنهم [سورة التحريم:٥] .

ثم قيل : (**فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ**) وهذا عطف بالفاء ليبادر كل إنسان حين يعرف ذلك إلى تعظيم الله تعالى، ففي هذه الأطوار من الإبداع ما يدفع كل ناظر إلى العجب من صنعة الله تعالى، حتى إن كثيرًا من الصحابة رضوان الله عليهم نطقوا بهذه الجملة قبل أن تملى عليهم، فكان ﷺ يملها على كتاب الوحي، ويقول لهم : (هكذا نزلت)(١).

ولكي أزيدك بيانا راجع معي قول الله تعالى :

﴿ **وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا** (٥٧) ﴾

[سورة الكهف:٥٧]

وقوله تعالى :

﴿ **وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ** (٢٢) ﴾

[سورة السجدة:٢٢]

١-أخرج أبو داوود عن عن أنس بن مالك، قال: قال عمر رضي الله عنه **: " وافقت ربي y في أربع فقلت: يا رسول الله لو صليت خلف المقام فنزلت هذه الآية** رضي الله عنها ...وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ... رضي الله عنهم [سورة البقرة:١٢٥] **وقلت: يا رسول الله لو ضربت على نسائك الحجاب فإنه يدخل عليك البر والفاجر، فأنزل الله y** رضي الله عنها ... وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ... رضي الله عنهم [سورة الأحزاب:٥٣] ، **ونزلت هذه الآية** رضي الله عنها وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ رضي الله عنهم [سورة المؤمنون:١٢] ، **فلما نزلت قلت أنا: تبارك الله أحسن الخالقين فنزلت** رضي الله عنها ...فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ رضي الله عنهم [سورة المؤمنون:١٤] **ودخلت على أزواج النبي ﷺ فقلت لهن: لتنتهن أو ليبدلنه الله بأزواج خير منكن فنزلت هذه الآية** رضي الله عنها عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ ... رضي الله عنهم [سورة التحريم:٥]**.**

حيث اتحدت الآيتان، وتنوع حرف العطف فقيل مرة (فأعرض عنها) وقيل أخرى : (ثم أعرض عنها) تجد أن العطف بالفاء كان في سياق الحديث عن الكفار الذين مازالوا يرفضون هداية الله تعالى حتى **قيل في شأنهم** :

﴿.....وَإِن تَدۡعُهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ فَلَن يَهۡتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدٗا ٥٧﴾ [سورة الكهف:٥٧]

فالرفض حاضر عند كل تذكير، لذلك عطف بالفاء وقيل : (فأعرض عنها)أما آية السجدة (**وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعۡرَضَ عَنۡهَآ** فالسياق مختلف، لأنه حديث عن المجرمين الذين ماتوا على الكفر واستمر الإلحاح في هدايتهم زمنا طويلا، ثم ماتوا وهم كفار، فناسب العطف ب(ثم) **في قوله** : (ثم أعرض عنها) لبيان أن هذا الزمان الطويل الذي عرضت عليهم الهداية فيه قابلوه بالإعراض حتى ماتوا .

عطف المفردات :

حين تقف أمام عطف المفردات الذي اهتم به النحاة، وضرب عنه البلاغيون صفحا بحجة تناول النحاة له، تجد من الأسرار ما ليحصيه المحصي، وكان أولى بالبلاغيين أن يكون (باب العطف) أحد أهم أبواب علم المعاني، لأنه باب الروابط بين الكلم، ولن تستطيع النظر إلى النص كله إلا إذا تدبرت العلائق التي تصل أطرافه، والخيوط التي تشد أجزاءه وتبين لك كيف يستقل كلام عن كلام ؟ وكيف ينسلُّ كلام من كلام ؟

وانظر إلى قوله تعالى :

﴿ **قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴿١٦٢﴾ ﴾ [سورة الأنعام:١٦٢]

حيث جمعت الآية بين (الصلاة والنسك) - والنسك هو الذبح في الحج والعمرة الأضحية- ، مع أن الصلاة ليست من جنس الذبح فكل منهما من واد مختلف، لكن الصلاة مضمومة إلي الذبح ضمَّ وقتٍ ومناسبة، لأن الصلاة هنا هي صلاة العيد، **وقد جاء في آية أخرى:**

﴿ **فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ** ﴿٢﴾ ﴾ [سورة الكوثر:٢]

فلما كانت صلاة العيد يعقبها الذبح للنسك قيل : (**صَلَاتِي وَنُسُكِي**) وقيل : (**فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ**) .

ثم عطف (محياي ومماتي) على (صلاتي ونسكي) لأنهما في قوة الجملة الجديدة، والمعنى : (إن صلاتي ونسكي لله)، (ومحياي ومماتي لله) وضم الممات إلى المحيا ضم الشيء إلى نقيضه ليبين أن الأمور كلها ينبغي أن تكون لله تعالى خالصة، وبهذا يتبين التناسب بين (الصلاة والنسك والمحيا والممات) .

وقد رُوِيَ أَنَّ عَلِيًّا رضي الله عنه كَانَ يَقُولُ عِنْدَ ذَبْحِ الْأُضْحِيَّةِ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيايَ وَمَماتِي للهَّ(١).

وكذا الحال أيضا في قوله تعالى:

---

١ - أحكام القرآن أحمد بن علي أبو بكر الرازي الجصاص (المتوفى: ٣٧٠هـ) للجصاص ت قمحاوي ٨٦/٥

﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [سورة الأعراف:٣٣]

لأن الفواحش، والإثم، والبغي، والشرك، والقول على الله تعالى بغير علم ، كل ذلك متناسب متجانس، لذلك عطف بالواو .

ومثله قوله تعالى :

﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ ﴾ [سورة البقرة:٢٨٥]

فالله تعالى، والملائكة، والكتب، والرسل، كل ذلك أسماءٌ بينها تناسب وتآلف، لأن المؤمنون آمنوا بها جميعا، فكما آمنوا بالله تعالى آمنوا برسله، وآمنوا بملائكته، وآمنوا بكتبه ... إلخ فالمؤمنون آمنوا بكل ذلك، وعليه جمع بينها بالواو .

وأعود إلى السؤال الذي طرحته وهو : مالذي تفعله الواو بين جملتين ليس لإحداهما محل من الإعراب ؟

والإجابة هي : أنه تجمع بين شيئين مضمومين في النفس . فالنفس حين تسمع : زيد قائم، و(زيد) عندها مضموم في الحال مع (عمرو) أحبت أن تعرف حال (عمرو) بعد أن عرفت حال زيد، وكذلك الجال في (العلم حسن والجهل قبيح) فالعلم مضمومفي النفس مع الجهل وحين

جاء الحكم بأن (العلم حسن)، أحتاجت النفس إلى معرفة حال الجهل، فقيل لها : (الجهل قبيح).

فباب الفصل والوصل باب يبين أحوال العلائق بين الجمل داخل النفس، والاقتصار على الجمل في حديث (الفصل والوصل) إنما كان لإشكاله، ولأنه من الصعوبة بمكان.

لكن الفصل والوصل ينبغي أن يمتد ميدانه ليشمل كل علاقة بين جزئين، **ليشمل** : المفردات، والجمل التي لها محل من الإعراب، والجمل التي لا محل لها من الإعراب ...

ثم ينبغي له أن يمتد ليشمل التراكيب التي تجمع أكثر من جملة لأن عطف التراكيب بعضها على بعض هو من صميم باب الفصل والوصل، ثم الأغراض الجزئية داخل النص، مثل عطف الحديث عن موضوعٍ ما في النص على الموضوع السابق، ثم يمتد ليشمل عطف النصوص بعضها على بعض للمبدع الواحد، وهكذا نستطيع أن نقول إن باب الفصل والوصل أوسع ميدانا مما هو عليه الآن، ويجب فتح أبوابه ونوافذه ليسع كل عطف بواو أو بغيرها، كما يسع كل اتصال ذاتي بدون الواو، ففي كل ذلك من أسرار اللسان العربي الكثير، وبخاصة في البيان الشعري، والبيان الخطابي، وبيان الحكمة العربية، فإذا أردت أن تسموا إلى الأفق العالي ونظرتَ في كلام الله تعالى وجدت الإعجاز شاخصًا وتواترت عليك النكات البلاغية والأغراض البيانية،والأسرار الأسلوبية .

وعطف المفردات كعطف الجمل، الكل يخضع لقاعدة واحد، وهذه القاعدة ملخصها : أن حذف الواو يعني أن الكلام كله مضموم بعضه إلى بعض، ضم الجزء إلى الكل، وأن السلك الرابط بين الأجزاء سلك داخلي وأن الناظم بين الكلمات كأنه الدم الجاري بين الوالد وولده، وبين العائلة الواحدة .

أما وجود الواو فالمعنى مختلف، حيث تجمع بين متشابهات في وجه ومتغايرات في وجه آخر، **فوجود الواو يشير إلى أمرين** :

الأول :أن هذه المعطوفات متشابهة متوافقة، يجمعها جامع .

والآخر : أن هذه المعطوفات ليست من باب واحد بل من أبواب متفرقة .

وعليه فالقول بأن الواو تجمع بين الصفات المتضادة فقط مثل قوله تعالى :

﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾﴾

[سورة الحديد:٣]

كلام يحتاج إلى نظر، فالواو لا علاقة لها بتضاد الصفات أو بعدم تضادها، **ولذلك ترى في قوله تعالى:**

﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١﴾ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴿٣﴾﴾

[سورة الواقعة:١-٣]

ترى الخفض عكس الرفع، ومع ذلك لم تأت الواو .وفي قول امرئ القيس:

مكـر مفـر مقبـل مـدبر معًـا كجلمود صخر حطه السيل من عل

تجد (الكر) ضد (الفر)، و(الإقبال) عكس (الإدبار)، وكل ذلك لم يأت فيه عطف بالواو ولا بغيرها؛ لأن المقصد أنه يكر وقت الفر،ويفر وقت الكر، فاجتمعا فيه في وقت واحد.

وعلى الجهة الأخرى ترد الصفات غير متضادة ومعطوفة بالواو كما في قوله تعالى :

﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ .....﴾ [سورة غافر:٣]

فالصفات غير متضادة ومع ذلك عطفت بالواو وفي قوله تعالى:

﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ١٦ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلۡقَٰنِتِينَ وَٱلۡمُنفِقِينَ وَٱلۡمُسۡتَغۡفِرِينَ بِٱلۡأَسۡحَارِ ١٧﴾

[سورة آل عمران:١٧]

جاءت الصفات غير متضادة ومعطوفة بالواو .

فالواو لا تعني التضاد بين الكلمات، وحذف الواو لا يعني التوافق بين الكلمات، فوجود الواو وحذفها لا يخضع لمثل ذلك .

وانظر معي إلى قوله تعالى :

﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٢٣) هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ .... ﴾ [سورة الحشر:٢٣-٢٤]

تجد الصفات تتابعت دون واو لأن المراد أن كل صفة هي اسم من أسمائه، وليست غيره، فهذه كلها أسماؤه، والصفة حين تثبت تتحول إلى اسم، فالله هو القدوس،وهو السلام، وهو المؤمن.. إلخ .

وانظر إلى قوله تعالى:

﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا (٥)﴾ [سورة التحريم:٥]

وعليه ينبغي أن تتوقف عند معرفة موطن الدراسة في حروف العطف، وبخاصة الواو ، فالبلاغة معنية بالبحث عن سر حضور الواو وسر غيابها، ولقدذكرت لك طرفا ،وأزيدك هنا شيئا آخر، وهو أن الواو حين تعطف صفة على صفة مثل **قوله تعالى :**

﴿ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ... ﴾ [سورة آل عمران:١٧]

فإنها تفيد أن كل صفة قد اكتملت في الموصوف، لكنها في قوله تعالى

: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ... ﴾ [سورة التوبة:١١٢]

وفي قوله تعالى:

﴿.....مُسۡلِمَٰتٖ مُّؤۡمِنَٰتٖ قَٰنِتَٰتٍ .....﴾ [سورة التحريم:٥]

تعني أن هذه الصفات قد اجتمعت في الموصوفات، وكأنها كلها صفة واحدة .

وعليه فالواو في(ثيبات وأبكارا) تعني أنه لا تجتمع صفة الثيب والبكر في امرأة واحدة، فهي إما بكر وإما ثيب فكان لا بد من الواو لكن في: (مسلمات مؤمنات) الصفات مجتمعة فيهن في وقت واحد.

الفصل والوصل بين الجمل

تحدث البلاغيون عن نوعين من الجمل :

- ❖ الأول : جمل لها محل من الإعراب.
- ❖ والأخرى : جمل لا محل لها من الإعراب .

والتي لها محل من الإعراب حكمها حكم المفرد، ففي قول الله تعالى مثلا: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾﴾ [سورة البقرة:٢٤٥]

نرى أن جملة {يَقْبِضُ} وقعت خبرًا لاسم الله تعالى ، وجملة {يَبْسُطُ} عطفت عليها بالواو؛ فهي مثلها خبر للمبتدأ، والقبض خلاف البسط وعطفت الجملة الثانية بالواو لتشير إلى أن القبض يكون لأناس، والبسط لأناس آخرين، فالقبض لمن يبخل بماله، ولا ينفق في سبيل الله، والبسط لمن أقرض الله قرضا حسنا، فالتغاير في الفعل، وفي العائد، وفي الزمان جعل كل فعل كأنه حدث بنفسه، مختلف عن غيره، لذلك جيء بالواو لتبرز هذه المغايرة .

وزد على ذلك أنك لونزعت الواو لظن السامع أنك تُعدِّل الفعل الأول إلى الفعل الثاني، وأنك نطقت الأول سهوا وسبق لسانك إليه وراجع مثل هذا الفهم **وقل** : (والله يقبض يبسط)، حتى تتأكد أنك لو قلت هذا لفهم السامع أنك تصحح قولا سبق به لسانك، كل ذلك كامن خلف دلالة الواو .

والبلاغيون حصروا الفصل بين الجمل في أربعة مواضع، هي:

١- كمال الاتصال.

٢- كمال الانقطاع.

٣- شبه كمال الاتصال.

٤- شبه كمال الانقطاع.

مواضع الفصل

كَمَالُ الاتّصال

كمال الاتصال، أو الاتصال إلى الغاية كما يقول الإمام يعني : أن تكون الجملة الثانية منزّلةً منزلة التابع من متبوعه، وحينئذ لا تعطف عليها كما لا يعطف الشيء على نفسه، فالاتصال هنا اتصال داخلي، أو اتصال ذاتي، وكأنك تعيد ما قلته، لكن من طريق آخر، وتكرر ما قررته، لكن بأسلوب آخر، وتعيد على القارئ ما كتبته له بالقلم السميك، وتقول للمتلقي إن ما سبق وما يأتي كلام واحد، وليسا كلامين، فالجملتان بينهما من الاتصال ما جعلك تظن أن الثانية هي الأولى، وبينهما من الاتحاد والتلاحم ما يشير إلى أن دخول العاطف بينهما دخول غريب بين جناحي المعنى الواحد، لأن العاطف رباط خارجي، والجملتان موصولتان اتصال الولد بأبيه، فرباطهما أقوى من استدعاء الرباط الخارجي .

وأرجع البلاغيون هذا كله إلى ثلاثة أمور :

*** الأول : أن تكون الجملةُ الثانية توكيداً للجملة الأولى.**

بمعنى أن يكون مفهوم الثانية هو مفهوم الأولى كما في قوله تعالى:

﴿فَمَهِّلِ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَمۡهِلۡهُمۡ رُوَيۡدَۢا ١٧﴾ [سورة الطارق:١٧]

فجملة :" أمهلهم" توكيد لفظي لجملة " مهل الكافرين " فالألفاظ

مختلفة والمعنى واحد، فالفعل أمهلهـم قـائم مقـام الحـال (إمهـالا) وكأنك قلت : فمهل الكافرين إمهالا رويـدا، فكـرر المعنـى وخـالف بـين الألفاظ ولا تنس في هذا المقام أن فاعل الفعلين : (مهل – أمهـل) ضـمير عائد على رسول الله ﷺ، وهذه لفتة أشار إليهـا صـاحب الظـلال فقـال : فهل الإمهال منه، أم من ربه ؟

لا شك أنه من ربه جل وعلا لكنه : (الإيناس الإلهي للرسـول: كأنـه هو ﷺ – صاحب الأمر، وصاحب الإذن، وكأنه هو الذي يأذن بإمهـالهم أو يوافق على إمهـالهم. ولـيس مـن هـذا كلـه شيء للرسـول- ﷺ - إنـه الإيناس والود في هذا الموضع الذي تنسـم نسـائم الرحمـة عـلى قلبـه- ﷺ الإيناس الذي يخلط بين رغبة نفسه وإرادة ربه. ويشركه في الأمر كأن له فيه شيئا. ويرفع الفوارق والحواجز بينه وبين الساحة الإلهيـة التـي يقضيـ فيهـا الأمر ويبرم.. **وكأنما يقول له ربه**: إنك مأذون فيهم. ولكن أمهلهم. أمهلهم رويدا.. فهو الود العطوف والإيناس اللطيف. يمسح على الكرب والشـدة والعناء والكيد، فتنمحي كلها وتذوب.. ويبقى العطف الودود..) (١).

ومن كمال الاتصال قوله تعالى :

١- من كتاب الشهيد المطارد ٦/ ٣٨٨٦.

﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ﴾ [سورة البقرة:٢]

فقوله: «لا ريب فيه»، توكيد لجملة " ذلك الكتاب"، وتثبيت لمعناها لأن المعنى الأقرب لجملة (ذلك الكتاب) أنه الكامل، الذي لا يدخله شك، ف(ذلك)مبتدأ، وهو اسم إشارة للبعيد، والبعد هنا بعد غاية، أي أن القرآن الكريم وصل الغاية في الكمال، و(الكتاب) خبر، معرف بالألف واللام، وهذا أيضا يعني الكامل من الكتب، فتعريف المسند والمسند إليه يعني أن كل ماعداه لا يستحق أن يطلق عليه كتاب، لأن كل ما عداه لابد أن يدخله الخلل، وأن يختلط به الريب، في قليل أو كثير، لكن هذا الكتاب هو الكامل من بين الكتب، ومادام هو الكامل المنزه عن كل ريب، فإن جملة (لا ريب فيه) توكيد لهذا المعنى المفهوم من (ذلك الكتاب) .

ثم جاءت جملة أخرى مفصولة، تحمل المعنى السابق أيضا وهي جملة : (هدى للمتقين) فهي جملة مكونة من مبتدأ محذوف تقديره (هو) و(هدى للمتقين) خبر والمعنى أنه هداية خالصة، وهداية كاملة، فالجمل الثلاث توحدت معانيها، حتى كأنه معنى واحد، ففصل بينها ، فالكتاب هو الكامل في كونه كتاب، والكامل في كونه سالما من الريب، والكامل في كونه هدى ..

ومما يتصل بذلك قول الله تعالى :

﴿....وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾﴾ [سورة البقرة:١٤-١٥]

فجملة "إنا معكم " تعني أن ميلهم للمؤمنين ليس على الحقيقة وأن هذا الميل ميل صوري خادع، ثم جاءت جملة : إنما نحن مستهزئون لتؤكد هذا المعنى، وترسخ هذا المفهوم، فالعلاقة بين (إنا معكم) و (إنما نحن مستهزئون) علاقة اتحاد تام، لأن كل جملة تحمل معنى الأخرى وتؤكده .

أما قوله تعالى :" الله يستهزئ بهم" فلها سبب آخر سيأتي تفصيله .

ومثل هذا أيضا قوله تعالى:

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [سورة البقرة:١١-١٢]

فجملة {أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ} لم يُقصد إدخالها في قولهم، لأنها ليست من قولهم، ولم يقصد تشريكها في الحكم الإعرابي لأنها مستقلة لأنها منسوبة إلى الله تعالى، وليست من مقولهم، بل هي من كلام رب العزة سبحانه .

ومثله قوله تعالى:

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ [سورة البقرة:١٣]

فقد فصل {أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ} عن قوله : {أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ} حتى لا يتوهم أنها من كلام المنافقين؛ فكلامهم انتهى عند (قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء) ثم بدأ كلام من رب العزة يرد عليهم، ويقول : (ألا إنهم هم السفهاء)والوصل بالواو يفسد هذه العلاقات .

والقصد أنه يتعين الفصل بين الجملتين إذا أردت أن تجعلهما جملة واحدة، وتجعل الخبرين خبرًا واحدًا، وأدمجت الثانية في الأولى، وجعلتها كأنها إعادة لها، وشرح، وتوكيد لمضمونها . وفي دوحة الشعر تجد مثل ذلك كما في قول المتنبيّ:

وَمَا الدَّهْرُ إِلاَّ مِنْ رُوَاةِ قَصَائِدِي إِذا قُلْتُ شِعراً أَصْبَحَ الدَّهْرُ مُنْشِداً

فسار به من لا يسير مشمرا وغنى به من لا يغني مغردا

أجزني إذا أنشدت شعراً فإنما بشعري أتاك المادحون مرددا

ودع كل صوت غير صوتي فإنني أنا الطائر المحكي والآخر الصدى

فالشطر الأول في البيت الأول يحمل من المعاني، ما يؤكده الشطر الثاني، لكن في صورة أخرى، وراجع عبارة : (إذا قلت شعرا أصبح الدهر منشدا)، ستجد أنها تحمل المعنى نفسه في عبارة : (وما الدهر إلا من رواة قصائدي).

وقد يكون التوكيد معنويا ، بمعنـى أن تختلـف الجملتـان في الألفـاظ والمفهوم، ولكن يلزم من ثبوت الأولى ثبوت الثانية ، **كما في قوله تعالى** :

﴿.....مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [سورة يوسف:٣١]

يقول الإمام : قوله تعالى :

«إن هذا إلّا ملك كريم»، مشابك لقوله: « ما هـذا بشرـا » ومـداخل في ضمنه من ثلاثة أوجه : وجهان هو فيهما شبيه بالتأكيد ، ووجـه هـو فيـه شبيه بالصفة.

فأحد وجهي كونه شبيها بالتأكيد ، هو أنه إذا كان ملكا لم يكن بشرـا وإذا كان كذلك كان، إثبات كونه ملكـا تحقيقـا لا محالـة، وتأكيـدا لنفـي أن يكون بشرا.

والوجه الثاني أن الجاري في العرف والعادة أنه إذا قيل: «ما هـذا بشرـا وما هذا بآدميّ»، والحال حال تعظيم وتعجّب ممـا يشـاهد في الإنسـان مـن حسن خلق أو خلق، أن يكون الغرض والمراد من الكلام أن يقال إنه ملـك وأنه يكنى به عن ذلك، حتى أنه يكون مفهوم اللفظ، وإذا كان مفهوما مـن اللفظ قبل أن يذكر، كان ذكره إذا ذكر تأكيدا لا محالة، لأنّ حدّ «التأكيد» :

أن تحقّق باللفظ معنى قد فهم من لفظ آخر قد سبق منك.

أفلا ترى: أنه إنّما كان «كلّهم» في قولك: «جاءني القوم كلّهم» تأكيـدا من حيث كان الذي فهم منه، وهو الشمول، قد فهم بديئا من ظاهر لفظ

«القوم»، ولو أنه لم يكن فهم الشمول من لفظ «القوم»، ولا كـان هـو من موجبه، لم يكن «كلّ» تأكيدا، ولكان الشمول مستفادا من «كلّ» ابتداء.

وأمّا الوجه الثالث الذي هو فيه شبيه بالصـفة ، فهـو أنـه إذا نفـي أن يكون بشرا ، فقد أثبت له جنس سواه ، إذ من المحال أن يخـرج مـن جـنس البشر، ثم لا يـدخل في جـنس آخـر. وإذا كـان الأمـر كـذلك، كـان إثباتـه «ملكا» تبيينا وتعيينا لذلك الجنس الذي أريد إدخالـه فيـه ، وإغنـاءً عـن أن تحتاج إلى أن تسأل فتقول: «فإن لم يكن بشرا، فما هو؟ وما جنسه؟»

كما أنك إذا قلـت: «مـررت بزيـد الظريـف» كـان «الظريـف» تبيينـا وتعيينا للّذي أردت من بين من له هذا الاسم، وكنت قد أغنيـت المخاطـب عن الحاجة إلى أن يقول: «أيّ الزيدين أردت؟»)[1].

السبب الثاني من كمال الاتصال : أن تكون الجملة الثانية بدلا من الأولى .

والبدل عند النحاة ثلاثة أنواع :

- ❖ **بدل كل من كل .**
- ❖ **وبدل بعض من كل**
- ❖ **وبدل اشتمال .**

١- دلائل الإعجاز ١٥٣.

وبدل الكل يظهر في قول الله تعالى :

﴿ **بَلْ قَالُواْ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾** ﴾ [سورة المؤمنون:٨١-٨٢]

فجملة:(قالوا) الثانية هي هي جملة (قالوا) الأولى ، مما يعني أنها بدل كل من كل، ووجه الإعادة للقول، أن في الجملة الأولى (قالوا مثل ما قال الأولون) شد انتباه السامعين إلى معرفة ماقاله الأولون، فجاءت جملة : (قالوا أإذا متنا .. إلخ) إرواءً لهذا العطش المعرفي، وهو من باب الإجمال ثم التفصيل .

وقد تكون بدَلَ بعْضٍ مِنْ كلٍّ كما في قوله تعالى :

﴿ **وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِيٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾** ﴾

[سورة الشعراء:١٣٢-١٣٤]

فالأنعام، والبنون، والجنات، والعيون هي بعض ما أمدّهم به مما يعلمون، إلا أن الجملة الأولى جعلتهم يستحضرون في عقولهم هذه النعم، فوجدوها لا حد لها، فذكر بعضها لينبه بالجزء على الكل ويسترهم حتى وقت جحودهم .

ومثل ذلك قوله تعالى:

﴿ ..... **يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾** ﴾ [سورة الرعد:٢]

فقوله: {يفصل الآيات} بدل بعض من قوله: {يدبر الأمر} ؛ لأن تدبير الأمر يشمل تفصيل الآيات وغيره.

وقد تكون بدَلَ كل من بعض(١) كما في قوله تعالى :

﴿ وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٢٠ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ ٢١ ﴾ [سورة يس:٢٠-٢١]

فجملة {اتَّبِعُواْ مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْراً...} تشمل كل من يفعل ذلك ومنهم المرسلون، بل في مقدمتهم المرسلون، فهي جملة بدل مما سبقتها لأن الذي لا يسأل الأجر في دعوته كثيرون وفي مقدمتهم الرسل، والبدل هنا بدل كل من بعض، والآية توضح أنهم لا يطلبون الأجر، ولا ينتفعون بمال الناس، بل يدعونهم إلى الله دون أجر دنيوي، وهذه حجة بالغة في التحفيز على اتباعهم ... **وفي قول الشاعر :**

أقول له : ارحل، لا تقيمن عندنا وإلا فكن في السر والجهر مسلما

فجملة : (لا تقيمن) تحمل المعنى نفسه في جملة (ارحل) لكنها أقوى في إظهار الكراهية ،(فكأنه قال إنك لم تخلص في صحبتنا، وإن

١- أجاز بعض النحاة بدل الْكل من الْبَعْض لوروده فِي الفصيح نَحْو قَوْله تَعَالَى رضي الله عنها ...فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا ٦٠ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ... رضي الله عنهم [سورة مريم:٦١-٦٢] **فجنات أعربت بَدَلا من الْجنَّة وَهُوَ بدل كل من بعض وَفَائِدَته تَقْرِير أَنَّهَا جنَّات كَثِيرَة لَا جنَّة وَاحِدَة وَقَول الشَّاعِر:**

(كَأَنِّي غَدَاة البَيْن يَوْم ترحّلوا... لَدَى سَمُرَات الحَيِّ نَاقِفُ حَنْظَلِ)

ف يَوْم بدل من غَدَاة وَهِي بعضه ، واستدلوا بقول الشاعر:

رَحِم اللهُ أَعْظُماً دَفَنُوهَا... بِسِجِسْتَان طَلْحَةَ الطَّلَحَاتِ

(رَحِم اللهُ أَعْظُماً دَفَنُوهَا.. طَلْحَةَ)، طَلْحَةَ قالوا: هذا بدل كل من بعض، لأن الأعظُم جمع عظمٍ، وهو جزء من طلحة، طلحة: عظمٌ ولحمٌ، إذاً: (رَحِم الله أعظماً طلحة الطلحات)، (طلحة) هذا بدل كل من بعضٍ.

ومَثَّل له السِيُوطي بقوله تعالى: رضي الله عنها ...فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا ٦٠ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ... رضي الله عنهم [سورة مريم:٦١-٦٢] **فأولئك يدخلون الجنة: جنة واحدة، قال: جنات عدنٍ، هذا بدل كل من بعض، جنات متعددة والجنة هذه واحدة.**

ظاهرك وباطنك على طرفي نقيض، فارحل إذًا ، ولا تقم بيننا ، وإلا فكن على ما ينبغي أن يكون عليه الرجل المسلم: من طهارة وصفاء في سره وعلنه والشاهد في قوله: " ارحل لا تقيمن " حيث أبدلت الجملة الثانية من الأولى بدل اشتمال إذ هي أوفى منها في تأدية المراد الذي هو "إظهار كمال الكراهية في إقامته"؛ لأنها تدل عليه دلالة صريحة، مع تأكيدها بالنون، وإنما كان البدل اشتمالا لأن الارتحال يتضمن عدم الإقامة) (١).

الثالث : أن تكون الجملة الثانية بيانا للجملة الأولى .

وذلك إذا كانت الأولى فيها شيء من الخفاء، أو الإبهام، ومعلوم أن البيان والمُبَيَّن كالشيء الواحد، لذلك لا يعطف البيان على المبين، إذ لا يعطف الشيء على نفسه، لكن الذي ينبغي التذكير به هنا، أن النفوس تشتاق بعد كل خفاء إلى الوضوح، وبعد كل إبهام إلى الشرح والتوضيح لذلك حسن هذا النوع لما له من وقع طيب في النفس، وأثر حسن في المتلقي، واتخذه البلاغيون وسيلة من جذب السامع إلى الكلام، وأداة من أدوات التوكيد والتمكين للمعاني، **ومن شواهده قوله تعالى:**

﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴾

[سورة طه: ١٢٠]

ففي جملة الوسوسة خفاء وإبهام ، لأنك لا تدري كيف وسوس وماذا قال في وسوسته تلك، فجاءت الجملة الثانية لتبين وتوضح أن هذه

١- المنهاج في البلاغة لحامد عوني ٢ / ١١٩.

الوسوسة كانت وعدا ونصحا في ظاهرها بأنه يريد لهما الخلود والملك والنفس راغبة في هذين الأمرين أيما رغبة، لذلك جاء في آية أخرى ، وقال فيها : ﴿وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾ [سورة الأعراف:٢٠]

وهذا يعني أنه حدث حوار واعتراض في بداية الأمر، لكن إبليس استطاع أن يغريهما بهذه الحيلة التي لا يقوى على مقاومتها بشر (الخلود والملك) فأكلا من الشجرة .

لكن المهم أن تعرفه هنا أن جملة (فوسوس) وُضِّحت بجملة : (قال هل أدلك على شجرة الخلد) لذلك لم تعطف عليها بالواو لما بينهما من اتصال داخلي، ورباط ذاتي .

ومن شواهده كذلك قوله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾﴾ [سورة فاطر:٣]

فجملة الاستفهام (هل من خالق) بيان وتوضيح لقوله: { اذكروا نعمة الله عليكم } ، فالمعنى : لا خالق ولا رازق غيره سبحانه، فالاستفهام استفهام إنكاري يفيد النفي ،ودخل على حرف الجر (من) لتأكيد هذا النفي، ونعم الله كثيرة لكنها تتجمع في نعمة الإيجاد والخلق، ونعمة الرزق لذلك وضح المراد بالنعم التي ينبغي ذكرها، فقال :إنه (الخالق الرازق) سبحانه، لذلك عقب على هذا بقوله : (لا إله إلا هو فأنى تؤفكون)

(ونعمة الله على الناس لا تتطلب إلا مجرد الذكر فإذا هي واضحة بينة يرونها ويحسونها ويلمسونها، ولكنهم ينسون فلا يذكرون، وحولهم السماء والأرض تفيضان عليهم بالنعم، وتفيضان عليهم بالرزق وفي كل خطوة وفي كل لحظة فيض ينسكب من خيرات الله ونعمه من السماء والأرض يفيضها الخالق على خلقه. فهل من خالق غيره يرزقهم بما في أيديهم من هذا الفيض العميم؟

إنهم لا يملكون أن يقولوا هذا، وما كانوا يدعونه وهم في أغلظ شركهم وأضله، فإذا لم يكن هناك خالق رازق غير الله، فما لهم لا يذكرون ولا يشكرون؟ وما لهم ينصرفون عن حمد الله والتوجه إليه وحده بالحمد والابتهال؟

إنه «لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ» فكيف يصرفون عن الإيمان بهذا الحق الذي لا مراء فيه.. «فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ؟» ..

وإنه لعجيب أن ينصرف منصرف عن مثل هذا الحق، الذي يواجههم به ما بين أيديهم من الرزق. وإنه لعجيب أن ينصرف عن حمد الله وشكره من لا يجد مفرا من الاعتراف بذلك الحق المبين!)(١).

ومن شواهد البيان أيضا قوله تعالى:

١- من كتاب الشهيد المطارد ٥/ ٢٩٢٤.

﴿ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا يَعۡرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمۡ قَالُواْ مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ ٤٨ ﴾ [سورة الأعراف:٤٨]

فإن جملة { قالوا ما أغنى عنكم } بيان لجملة : { ونادى أصحاب الأعراف} . وراجع هذا الصوت (ونادى – قالوا) فالنداء هو القول، وهم حين نادوا كان نداؤهم (قالوا ما أغنى عنكم جمعكم) وليس غير ذلك فالقول تفسير وبيان للنداء، **لذلك يقال عن هذه الجملة عند علماء النحو** : إنها جملة تفسيرية .

وانظر إلى قول لبيد:

قَضِّ اللُّبَانَةَ لا أبَا لـكَ واذْهَبِ ... وَالحَـقْ بأَسْرَتِـكَ الكِـرامِ الغُيَّـبِ

ذَهَبَ الّذينَ يُعـاشُ في أكنـافِهِمْ ... وبَقيتُ في خَلـفٍ كجِلـدِ الأجـرَبِ

يَتَــأكَّلُونَ مَغَالَـــةً وخِيَانَـــةً ... ويُعَــابُ قــائِلُهُمْ وإنْ لم يَشْــغَبِ

واللبانة: الوطر والحاجة، والغيّب: من غيّبه الموت، والخلف: البقية والمغالة: هو الوقوع في الأعراض والفحش، وقوله : يشغب : يحيد عن القصد، والمهم أن جملة: "يتآكلون مغالة وخيانة" ليست إلا بيانًا لقوله: "بقيت في خلف كجلد الأجرب"، لأن جلد الأجرب لايسكن ولا يهدأ إلا بالحك الذي يأكله، ويشتد الحكّ حتى يتآكل الجلد فيكشف عما تحته من لحم فينتج ما يسوء النظر إليه من قيح وصديد، **وهذا هو ما يفهم من** : يتآكلون مغالة وخيانة .

ومثله ما رواه المبرد عن بعض مشايخه، قال كنت عند بشر بن الحارث يوماً فرأيته مغموما ماتكلّم حتى غربت الشمس ثم رفع رأسه **وقال** :

ذهب الرجال المُقتدى بفعالِهم　　والمُنكرونَ لكلِّ أمرٍ مُنكرِ

وبقيت في خلف يزيِّن بعضُهم　　بعضاً ليدفع معورٌ عن مُعوِرِ

يقصد بجملة (بقيت في خلف) أنهم خلف على النقيض من السابقين ممن يقتدى بفعالهم، وممن ينكرون كل أمر منكر، وهؤلاء الذين على النقيض ،بينتهم ووضحتهم الجملة التالية ،جملة (يزين بعضهم بعضا، ليدفع معور عن معور)ولذلك فصلت جملة (يزين ...) عن جملة : (وبقيت في خلف) لأن الثانية بيان وتوضيح للأولى .

وأبين من ذلك قوله تعالى :

﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾ [سورة البقرة:٤٩]

فالذبح وانتهاك حرمة النساء هو المراد من(يسومونكم سوء العذاب) فليس بعد هذين الفعلين من عذاب للإنسان حين يقتل ولده وتستحى امرأته، وكم في وطني اليوم من عذاب لأبنائه بقتل شبابه وانتهاك حرمة نسائه، والله حسبنا ونعم الوكيل !!

وأريد أن تقارن بين سياق هذه الآية، والآية الأخرى في سورة إبراهيم وفيها جاءت الواو بين جملتي : (يسومونكم سوء العذاب)

و (يذبحون أبناءكم) وعلة ذلك أن وجود الواو يعني المغايرة بين المعطوف والمعطوف عليه، وهذا ناسب آية إبراهيم لأنها آية تعدد نعم الله على بني إسرائيل، وانظر إلى الآيات وتأمل فيها، **قال تعالى** :

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ۝٦﴾ [سورة إبراهيم:٦]

فسيدنا موسى يعدد عليهم نعم الله تعالى، فكان سوم العذاب ابتلاء وحده نجاهم الله تعالى منه، وذبح الأولاد ابتلاء نجاهم الله تعالى منه واستحياء النساء ابتلاء نجاهم الله تعالى منه، أما سياق سورة البقرة فكان إخبارا وعرضا للأحداث، وفي العرض بينت الآيات ووضحت المراد من سوم العذاب بأنه قتل الأولاد، واستحياء النساء، **يقول الزمخشري**:

(فإن قلت: في سورة البقرة: " يذبحون " وفي الأعراف "يقتلون" الأعراف: ١٤١ وها هنا "ويذبحون" مع الواو فما الفرق؟

قلت: الفرق أن التذبيح حيث طرح الواو جُعل تفسيرا للعذاب وبيانا له ، وحيث أثبت جعل التذبيح أوفى على جنس العذاب وزيادة عليه زيادة ظاهرة كأنه جنس آخر)(١).

١- الكشاف ٢/ ٥٤٠.

والخلاصة :

أنك إذا وجدت الواو بين جملتين بينهما كمال اتصال فاعلم أن السياق قد اختلف، وأنه لُحظ تغاير طارئ استدعى وجودها .

وراجع معي قول الله تعالى:

﴿ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ ۝١٥٣ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا فَأۡتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝١٥٤ ﴾ [سورة الشعراء:١٥٣-١٥٤]

وفي السورة نفسها قال عن قوم شعيب : " إنما أنت من المسحرين وما أنت إلا بشر مثلنا" .

فما وجه ذكر الواو تارة وحذفها أخرى ؟

ترك ذكر الواو يعني أن البشرية تعليل للسحر، وأنه مسحور لأنه بشر فكأنه قيل : إنما أنت من المسحرين لأنك بشر، فالتهمة واحدة وهي السحر، أما وجود الواو فيعني أن هناك تهمتين ينقضان رسالة الرسول في معتقدهم، الأولى أنه مسحور، والأخرى أنه بشر، فالبشرية تهمة والسحر تهمة، فلا يجوز في عقيدتهم أن يكون الرسول بشرا، ولا يجوز أن يكون الرسولا مسحورا .

هل تأتي الواو بين جمل كمال الاتصال ؟

الذي أريد أن أؤكد عليه هنا أن الجمل التي بينها كمال اتصال ينبغي فصلها ؛ لأن الجملة الثانية هي هي الجملة الأولى، لأنها إما بيان لها

أو توكيد لمعناها، أو بدل منها، ومع ذلك تجد في بعض مواضع كمال الاتصال الواو شاخصة بين جملتين هما من كمال الاتصال، **ومن ذلك قوله** تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٨ ﴾ [سورة الحشر:١٨]

وقوله تعالى:

﴿ .... فَإِذَآ أَفَضۡتُم مِّنۡ عَرَفَٰتٖ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلۡمَشۡعَرِ ٱلۡحَرَامِۖ وَٱذۡكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمۡ .... ﴾ [سورة البقرة:١٩٨]

وقوله تعالى : ﴿ .... يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصۡطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٤٢ ﴾ [سورة آل عمران:٤٢]

وقوله تعالى : ﴿ .... أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَاقِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٥ ﴾ [سورة الرعد:٥]

فهذه المواضع جميعا جاءت فيها الواو بين جمل متصلة اتصالا ذاتيا وبينها ترابط شديد، وتلاحم وثيق ففي جملتي التقوى جاءت الواو لتشير إلى أن الأمر بالتقوى الثاني غير الأول، أو أن المخاطب سهى فأعيد الأمر عليه من جديد، فكان الثاني غير الأول، لأنه أشد إلزاما، أو أن درجته أعلى من درجة الأول، وهذا كله يعلي من شأن التقوى، ويحث عليها .

وفي آية الذكر قيل : (فاذكروا الله)(واذكروه) وهذا من قبيل التكرار اللفظي، لكن الجملة الأولى تعلقت بذكر الله عند الإفاضة من عرفات

والثانية تعلقت بذكره سبحانه لأنه هداهم، فلما تغاير المتعلقان حسن العطف لأن الذكر الأول غير الذكر الثاني من حيث المتعلق، كما أن في تكرار الأمر بالذكر بيانا لقيمة الذكر، وحث عليه .

أما آية الاصطفاء للسيدة مريم عليها سلام الله فقد عطف اصطفاء على اصطفاء، لأن الأول اختيار قبل التطهير، ثم أعقبه اصطفاء بمعنى التكريم، فالاصطفاء في الحالتين مختلف، لأن الأول اختيار، أعقبه تطهير أعقبه تفضيل على نساء العالمين، وهذا المعنى الأخير جعل الاصطفاء الثاني غير الأول حتما .

كمال الانقطاع:

هذا هو الموضع الثاني من مواضع الفصل بين الجمل، **ومعناه** : أن تكون الجملة الثانية مباينة تماما للجملة الأولى، ومختلفة عنها خبرا وإنشاء، لفظا ومعنى، أو معنى فقط، وليس المراد انحلال عرى الكلام وتنافره، فلا يقول بهذا أحد، إنما المراد اختلاف الشكل الخارجي للكلام مع وجود الصلة القوية بينهما ،كما ترى التوأمين هذا ذكر وهذه أنثى، وهما توأمان، وتراهما هذا أبيض وذاك أسود، فالقصد أن التباين ليس في الدلالة والغرض، ولكن في الهيئة والشكل، ولقد علمت أن العرب لا يجيزون : (زيد شاعر وعمرو طويل)، ولا يجيزون : (زيد شاعر والقلم كاتب)، فالتناسب هو روح الكلام الذي بسببه يتنفس، وتنبض فيه الحياة،

وقد ذكر البلاغيون أن الانقطاع الذي يوجب الفصل يرجع إلى واحدة من ثلاث :

الأولى: **أن تختلف الجملتان خبرا وإنشاء، لفظا ومعنى** .

وانظر إلى قوله تعالى:

﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [سورة فُصِّلَت:٣٤]

حيث تجد الجملة الأولى :{ ولا تستوي الحسنة ولا السيئة} خبر من الله تعالى في اللفظ والمعنى، لكن جملة {ادفع بالتي هي أحسن} وهي الجملة التي التصقت بها التصاقا شديدا حتى حذفت منها أداة العطف، تجدها مبدوءة بفعل الأمر(ادفع) وهو إنشاء في شكله ومعناه .

ولو سألت أين الصلة الشديدة بين الجملتين التي جعلت النظم يوجب الفصل ؟

أقول : إن عدم الاستواء بين الخير والشر عند الله تعالى، وأنه لن يُترك خير إلا سيجازى صاحبه بالخير، ولن يُترك سوء إلا سيجازى صاحبه بالسوء وجب دفع المسلمين إلى عمل الخير، رغبة في إكرامهم في الآخرة فحين تعلم أن الأمرين لا يستويان، وجب إرشاد من يسمع هذا من المؤمنين إلى اغتنام الفرصة وتحفيزهم على سلوك طريق الخير، لذا وجب الفصل لأن التحفيز والدفع متولد من عدم الاستواء بين الحسنة والسيئة عند الله تعالى، وليس شيئا غريبا عنه .

ومن هذا الطريق أيضا قوله تعالى:

﴿....وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ٩﴾ [سورة الحُجُرات:٩]

لكن الترتيب مختلف فالإنشاء هنا جاء أولا، وهو فعل الأمر (أقسطوا) ثم جاء الخبر (إن الله يحب المقسطين) والعلاقة بين الجملتين ليس كما يقول بعض البلاغيين (تباين تام وانقطاع كامل، مما يستوجب الفصل بينهما، وليس في الفصل ما يوهم خلاف المقصود فيجب الوصل) فهذا شطط في الوصف، لأن الفصل لايتولد من التباين التام، والانقطاع الكامل، إنما الفصل ينشأ من الاتحاد التام، والصلة التي تستغني عن الرابط الخارجي، ولذلك لو دققت في الجملتين ستجد أن الأمر الصادر من رب العزة للمؤمنين بالعدل مشفوع بالعلة والسبب ، وهو حب الله للمقسطين، فأَمَرَهم بالقسط وعلَل للأمر بأنه يحب المقسطين، والعلة والمعلول كالشيئ الواحد، أو كما يقول علماء العقيدة أن وجود الأشياء متوقف على وجود أسبابها، فلكي يتحصل حب الله تعالى كان لا بد من تحقق أسباب هذا الحب، ومن أهم أسبابه القسط والعدل بين الناس .

****

ومن ذلك أيضا قوله تعالى :

﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٞۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ١٠١ ﴾ [سورة الأنعام:١٠١]

حيث جاءت جملة (بديع السماوات والأرض) مفصولة عن جملة (أنى يكون له ولد) والجملة الأولى خبرية، والجملة الثاني انشائية، لأنها استفهام، (فأنى يكون له ولد) أي : كيف يكون له ولد ؟ وهاتان الجملتان ذكرتا في سياق الإنكار على من زعموا أن الله ولدا، من البنين أو البنات، وراجع معي الآية : **قال تعالى :**

﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلۡجِنَّ وَخَلَقَهُمۡۖ وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتِۢ بِغَيۡرِ عِلۡمٖۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ١٠٠ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٞۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ١٠١ ﴾ [سورة الأنعام:١٠٠-١٠١]

وكان المشركون في الزمان الماضي يعبدون الجن، ويزعمون أنهم شركاء لله تعالى، مع علمهم بأنهم خلقٌ من خلق الله تعالى، وزادوا على ذلك أنهم اختلقوا من أوهامهم ضلالات، مثل الزعم بأن لله بنين وبنات دون علم ثابت، وفي ظل هذا السياق تأتي الجملتان المتصلتان اتصالا داخليا ذاتيا، وهما (بديع السماوات والأرض أني يكون له ولد) فالجملة الثانية مع أنها استفهام، لكنه استفهام يحمل في رحمه دلالة أخرى، **وهي** : أن مبدع الكون وخالقه، لا يتصور أحد أن يكون له ولد، فكيف يكون لخالق كل شيء ولد ؟

وكأنها تنبههم بأن الذي يبدع هذه المخلوقات لا يحتاج إلى ولد لأن الولد يحتاجه من يعلم أنه زائل وفان، ومن يعلم أنه ضعيف، فهؤلاء هم من يحتاجون إلى الولد، كما أن الولد يأتي من قاعدة التكاثر، بين الرجل وامرأته، وليس لله سبحانه صاحبة، ثم إن هؤلاء جميعا مخلوقين ولا يمكن وجود تكاثر بين الخالق والمخلوق، لذلك كان الختام لهذه الآيات هو **قوله :**

«ذلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ، خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ، وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ» الأنعام ١٠٢

ومن هذا الباب أيضا قوله تعالى :...

﴿...وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ ۗ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [سورة الأنعام:٩٩]

فهذه ثلاث جمل فصلت كل منها عن الأخرى لكمال الانقطاع فالجملة الأولى خبر وهي (والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه) والجملة الثانية إنشاء عن طريق الأمر وهي(انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه) والجملة الثالثة خبر وهي (إن في ذلك لآات لقوم يؤمنون)

وحديث البلاغيين يقول : إنه فصل بين هذه الجمل لاختلافها إنشاء وخبرا، وهذا القول ينقصه الدقة، فليس الاختلاف في الخبر والإنشاء داع للفصل، وإنما الفصل يعود إلى أن كل جملة من هذه الجمل تصور المعنى

المراد توصيله إلى المتلقي بطريقة مختلفة عن الأخرى، لكن المعنى واحد في حقيقته، حتى وإن اختلف نوع الجملة، وراجع معي هذا، فأول جملة تبين التشابه بين بعض أنواع الزيتون والرمان، وعدم التشابه بين البعض الآخر، وحقيقة هذا البيان هي دعوة المخاطبين إلى النظر، والمشاهدة لهذا التشابه، أو لعدم التشابه حتى تتحقق في القلوب نزعة الإيمان بالخالق، ثم تأتي الجملة الثانية، لتصرح بهذا المراد وهي جملة : (انظروا) فالقصد من الجملة الأولى هي العرض للنظر، لكنها لم تقل انظروا، فجاء التصريح بالنظر في الجملة الثانية، والعرض والنظر كلاهما له غاية وهي توثيق عرى الإيمان، وهذا ما نطقت به الجملة الثالثة، فالجمل الثلاث، نمط واحد من المعنى في أثواب أدائية متنوعة، جاءت مرة في صورة الخبر، ومرة في صورة الإنشاء، لكن الجمل كلها تدور حول النظر والاعتبار، وراجع الآيات السابقة فكلها تدور في هذا الفلك، **قال تعالى** :

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [سورة الأنعام:٩٧-٩٩]

ومثله قوله تعالى :

﴿.....وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْۖ .....﴾

[سورة الأنعام:١٥١]

حيث جاءت جملة : (نحن نرزقكم وإياهم) بيانا لعلة النهي عن القتل، وخوف الفقر هي العلة الباعثة على القتل غالبا، وهي علة فاسدة فبين الحق جل وعلا بأنها علة فاسدة ؛ لأن الرزق بيده سبحانه فكأنه حين نهى بين علة النهي، فرزق الوالد والولد بيده، ولايملك النهي عن القتل إلا من امتلك القدرة على إزالة سبب القتل، وعليه فالجملتان متداخلتان، ومتشابكتان تشابك الجزء بالكل، لذلك كان الفصل أما كون إحداهما خبرية والأخرى إنشائية، فهذا شكل وصورة فقط ولا يترتب عليه وجود واو، أو حذفها .

****

ومثل ذلك قوله تعالى :

﴿....وَصَلِّ عَلَيْهِمْۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ....ۗ﴾ [سورة التوبة:١٠٣]

فالأمر بالصلاة عليهم هو في الحقيقة رحمة من الله بهم، وجملة : (إن صلاتك سكن لهم) تصريح بهذا المقصود من الأمر، لكن لما جاءت الجملة الأولى في أسلوب الأمر، والثانية في أسلوب الخبر، وضعت هنا في كمال الانقطاع، لكن الجملتان تحملان المعنى نفسه، معنى رحمة الله بهم وإرادته الرفق بهم، فكانت جملة الإنشاء وجملة الخبر كلتاهما تصريحا وتلويحا

بهـذا المـراد، إنهـما حـديث عـن العلـة والمعلـول، أو الطلـب وعلتـه والغرض وأسبابه ،وكل ذلك بعضه من بعض، ولا يجـوز إدخـال حـروف العطف بين هذه المكونات، لأنها مكونات شيء واحد .

******

وفي قوله تعالى :

﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ .... ﴾

[سورة التوبة:٨٤]

فصلت أيضا جملة (إنهم كفروا) عما قبلها، وهي خـبر يعلـل للنهـي عن الصلاة والقيام على القبر، **فالنفس حين تسمع هذا النهي :**

(لا تصل على من مات منهم – لا تقم على قـبرهم) أقـول : الـنفس حين تسمع هذا النهي لا تهدأ حتى تعلم العلة، والعلـة هـي : إنهـم كفـروا وماتوا وهم كافرون، فوجود النهي وعلته في الـنفس ملتصـقين اسـتوجب وجودهما في النطـق ملتصـقين أيضـا، لأن النهـي وعلتـه كالشيـء الواحـد ودعك من أن العلة كمال الانقطاع، أو أن الأولى إنشاء والثانية خـبر، فكـل ذلك تعليل للأشكال، وليس وصفا لحقائق الكلام .

******

ومن ذلك أيضا قول الأخطل :

وقال رائدهم أرسوا نزاولها   فحتفُ كل امرىء يجري بمقدار

و(الرائد) هو الذي يتقدَّمُ القومَ لطلب الماء والكلأ للنزول عليه.(وأرسوا)، أي: أقيموا بهذا الكلأ الملائم للحرب، وهو مأخوذٌ من أُرسيت السفينة، أي حبستها بالمرساة.

(ونزاولها)، أي: نحاول أمر الحرب ونعالجه حيث فصل جملة "نزاولها" عن جملة "ارسوا" لكمال الانقطاع ، (فأرسوا) فعل أمر (ونزاولها) جملة خبرية مستأنفة، ولذلك رفعها، ولم يجزمها في جواب الطلب، لأنه أراد أن يجعل الجملتين مستقلتين، **قال سيبويه** :

(وتقول: ائتني آتك، فتجزم، وإن شئت رفعت على أن لا تجعله معلقا بالأول، ولكنك تبتدئه، وتجعل الأول مستغنيا عنه، **كأنه يقول**: ائتني أنا آتيك)[1].

والمعنى : أقيموا نقاتل، أو : أوقفوا السفينة كي نحارب، ولا تخافوا الموت، فلكل أجل كتاب .

والنحاة أجازوا رفع الفعل بعد الطلب، وتحدثوا عن ذلك ووضحوه بنحو قول القائل : لا تدن من الأسد يأكلك، برفع يأكل....

****

١ - راجع خزانة الأدب للبغدادي ٩ / ٨٧.

وفي قول سلم الخاسر(١):

لا تسأل المرء عن خلائقه   في وجهه شاهد من الخبر

تجد جملة (في وجهه شاهد ..) هي العلة من النهي في : (لا تسأل) وكأنه حين قال : لا تسأل أتبعه مباشرة بقوله : في وجهه شاهد، حتى لا تتعجب من عدم السؤال، ولابد أن تتذكر هنا أن العلة والمعلول كلام واحد، ولا يجوز وضع حرف عطف بينهما، ولا مانع من ذكر كلام البلاغيين بأن الفصل كان بسبب كمال الانقطاع، أو لاختلاف الجملتين خبرا وإنشاء، لفظا ومعنى .

وفي قول الشاعر أيضًا:

دببت للمجد والساعون قد بلغوا   جهد النفوس وألقوا دونه الأزرا

وكابدوا المجد حتى مل أكثرهم   وعانق المجد من أوفى ومن صبرا

لا تحسب المجد تمرا أنت آكله   لن تبلغ المجد حتى تلعق الصبرا

والمعنى : لايكن ظنك بالمجد سهلا، فليس المجد هينا تناله بقليل من التعب، كلا كلا، فلن تحصل شيئا منه حتى تذوق المرارات، وتقتحم الصعاب، وفي البيت الأخير اختلفت الجملتان من حيث الخبر والإنشاء

١- سلم بن عمرو بن حماد: شاعر،خليع، ماجن، من أهل البصرة، من الموالي. سكن بغداد.ت ١٨٦ه له مدائح في المهديّ والرشيد العباسيين، وأخبار مع بشار بن برد وأبي العتاهية. وشعره رقيق رصين. قيل: سمي الخاسر، لأنه باع مصحفا واشترى بثمنه طنبورا.

فجملة (لا تحسب المجد) جملة نهي، فهي إنشائية لفظا ومعنى، وجملة : (لن تبلغ المجد ...) جملة خبرية لفظا ومعنى، واجتماع النهي مع علته في النفس موجود ومحمود، فالنفوس لا تنهى حتى تقرن مع النهي علته فلما قيل : لاتحسب المجد سهلا وضع مع النهي سببه، وهو أنه صعب وشاق، وهكذا النفوس ،لا تحب الأمر إلا وعلته معه .

****

الصورة الثانية:

أن تتفق الجملتان في اللفظ، وتختلفا في المعنى من حيث الإنشاء والخبر .

فالجملتان صيغتهما الخبر، لكن إحداهما خبر في اللفظ وتحمل معنى الإنشاء ،**كأن تقول** : (قال العالم، حفظه الله : كذا)، فالجملتان في اللفظ خبر، لكن الثانية تحمل معنى الدعاء، فهي إنشائية في المعنى، ومثل ذلك قولنا : (قال ﷺ)، (وذكر سيدنا عمر رضي الله عنه) .... إلخ .

كل ذلك تجد فيه الجملتين خبريتين، وإحداهما تحمل معنى الإنشاء **وفي الكلام البديع تسمع قول اليزيدي** :

ملكتـــه حـــبلي ولكنـــه ألقــاه مـــن زهـــد عـــلى غـــاربي
وقـــال إني في الهـــوى كـــاذب انـــتقم الله مـــن الكـــاذب

فجملة (قال إني في الهوى كاذب) جملة خبرية، لكن جملة "انـتقم الله" جملة في ظاهرها خبر وفي معناها الدعاء ، فهي خبرية لفظـا إنشـائية معنـى؛ ولذا فصل بينها وبين جملة: "قال إني في الهوى كاذب" ولو وضـعت الـواو بين الجملتين، لظن القـارئ أن جملـة (انـتقم الله) مـن قولهـا، وهـذا لـيس بصحيح، وفي هذا الموضع ملمح آخر للفصل سيأتي الحديث عنه .

لذلك يشترط للفصل ألا يوهم خلاف المراد، فـإن وجـدت الفصـل يوهم معنى غير مراد وجب تحصين المعنى بوجود الواو، وقد ذكر الجـاحظ القصة المشهورة عن أبي بكر. قال: (ومر رجل بأبي بكر رضي الله عنه ومعه ثوب. فقال: أتبيع الثوب؟ فقال: (لا عافاك الله)، فقال : أبو بكر: لقد علمتم، لـو كنتم تعلمون، قل: لا وعافاك الله) [1].

الصورة الثالثة:

الاتفاق في الشكل وانعدام المناسبة بين المسند إليه والمسند .

وهـذا الاتفـاق يعنـي أن الجملتـين متفقتـان خـبرا، أو إنشـاء، لفظـا ومعنى، ولكن لا يوجد جامع بينهما، ولا مناسبة بين ركني الجملـة، وانظـر **مثلا إلى قول أبي العتاهية:**

الفقـــر فـــيما جـــاوز الكفـــاف   مـــن اتقـــى الله رجـــا وخـــاف

والمعنى : أن حقيقة الفقر تكون في الرجل الذي قل دخله عن حد الكفاف فكـل من قل دخله عن حد الكفاف فهو فقير، ثم انتقل إلى الشطر الثاني، وجاء

١- البيان والتبيين ١/ ٢٦١.

بكلام جديد في الظاهر، وهو أن الإنسان الذي يتقي الله يرجوه الغنى، ويخاف الفقر، لكنه حذف المفعول واكتفى بالفعل وفاعله المستتر، والذي ينظر في الشطرين يجد أنه قد اتفقت الجملتان في الخبرية لفظا ومعنى، ولكن لم توجد المناسبة التي تسوغ عطف الثانية على الأولى؛ ولذا فصل بينهما، والتأمل والتدبر في البيت يوصلك إلى شيء آخر، وهو أن هناك خيطا دقيقا يربط الشطرين فالفقر الشديد يحتاج إلى تقى ورجاء في الله، وكأن الشاعر يوجه الفقير إلى أنه إذا زاد فقرك فاتق الله وارجوه، وخف من بطشه هكذا يريد فالمعنى في جوهره بين الجملتين منسل بعضه من بعض ومتولد بعضه من بعض، وقول البلاغيين : لا توجد مناسبه يفتقد إلى الدقة.

ومثله قول الآخر:

إنما المرء بأصغريه　　　كل امرئ رهن بما لديه

حيث قالوا لا مناسبة بين الشطرين لذلك فصل بينهما، وترك العطف لعدم المناسبة الخاصة، وليس معنى ذلك أن الجملتين شاردتان وأن كل جملة تتحدث في واد، كلا، إنما أرادوا عدم المناسبة الخاصة، لأن الكلام العربي لابد فيه من تناسب يبيح وضع بعضه بجوار بعض، وضم بعضه إلى بعض، ولو راجعت البيت مرة بعد مرة لوجدت أن الشاعر يقيس الإنسان بمقياسين : القلب واللسان هذا هو المراد بالشطر الأول، ثم جاء الشطر الثاني ليرسم المعنى نفسه ولكن بلون آخر، وهو أن الإنسان رهين قلبه ولسانه، **فقوله** :(بما لديه) لايعني إلا القلب واللسان، فالقلب واللسان هما الميزان، والرهن ، والقيمة ، والمقدار، فالمعنى في حقيقته واحد لكن الشكل مختلف.

شبه كمال الاتصال

وهذا وجه آخر من أوجه الاتحاد بين الجملتين ،ولـذلك أطلـق عليـه البلاغيون (الاستئناف البياني) أي استئناف يوضح ويبين جـواب السـؤال المثار في الكلام ، حيث تكون الجملـة الأولى متضـمنة سـؤالًا تـأتي الجملـة الثانية جوابا له، وهذا معهود في كـل كـلام بـدأ بـالقول، وتبعـه قـول، لأن النفس حين تسمع متناظرين، يقول أحدهما كلامـا، تسـأل فـبماذا رد فـلان عليه، ولذلك قال الإمام عبد القاهر عن هذا النمط من الأداء : (واعلم أن الذى تراه في التنزيل من لفظ "قال" مفصولا غير معطوف، هذا هو التقدير فيه.

أعني مثل قوله تعالى:

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَـٰمًا ۖ قَالَ سَلَـٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَـٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾﴾ [سورة الذاريات:٢٨]

جاء على ما يقع في أنفس المخلوقين من السؤال. فلما كـان في العـرف والعادة فيما بين المخلوقين **إذا قيل لهم**: "دخل قوم عـلى فـلان فقـالوا كـذا" أخرج الكلام ذلك المخـرج، لأن النـاس خوطبـوا بـما يتعارفونـه، وسـلك باللطف معهم المسلك الذي يسلكونه.

وكذلك قوله: {قال ألا تـأكلون}، **وذلـك أن قولـه**: {فجـاء بعجـل سمين، فقربه إليهم }، يقتضي أن يتبع هـذا الفعـل بقـول: فكأنـه قيـل والله أعلم: "فما قال حين وضع الطعام بين أيديهم؟ "

فأتى قوله: {قال ألا تأكلون} جوابا عن ذلك.

وكذا: {قالوا لا تخف}، لأن قوله: {فأوجس منهم خيفة}، يقتضي أن يكون من الملائكة كلام في تأنيسه وتسكينه مما خامره، فكأنه قيل: "فما قالوا حين رأوه وقد تغير ودخلته الخيفة؟ "

فقيل: "قالوا لا تخف".

وذلك، والله أعلم، المعنى في جميع ما يجيء منه على كثرته، كالذي يجيء في قصة فرعون عليه اللعنة، وفي رد موسى عليه السلام عليه **كقوله:**

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ [سورة الشعراء:٣١]

جاء ذلك كله، والله أعلم، على تقدير السؤال والجواب كالذي جرت به العادة فيما بين المخلوقين، فلما كان السامع منا إذا سمع الخبر عن فرعون بأنه قال: { وما رب العالمين}، وقع في نفسه أن يقول: "فما قال موسى له؟ "

أتى قوله: {قال رب السماوات والأرض}، فأتى الجواب مبتدأ مفصولا غير معطوف. وهكذا التقدير والتفسير أبدا في كل ما جاء فيه لفظ "قال" هذا المجيء، وقد يكون الأمر في بعض ذلك أشد وضوحا.

فمما هو في غاية الوضوح قوله تعالى :

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (٥٧) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ (٥٨) ﴾

[سورة الحِجر: ٥٧-٥٨]

وذلك أنه لا يخفى على عاقل أنه جاء على معنى الجواب، وعلى أن نزل السامعون كأنهم قالوا: "فما قال له الملائكة؟ "، فقيل: {قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين}.

وكذلك قوله y في سورة يس:

﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ (١٣) إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ (١٤) قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ (١٥) قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ (١٦) وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (١٧) قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٨) قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ (١٩) وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (٢٠) اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ (٢١)﴾ [سورة يس: ١٣-٢١]

التقدير الذي قدرناه من معنى السؤل والجواب بين ظاهر في ذلك كله) [1].

١- دلائل الإعجاز ٢٤٠ ــ ٢٤٢.

وفي قوله تعالى :

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٩٠ ﴾ [سورة النحل:٩٠]

وهي أجمع آية في القرآن الكريم وقد فُصِلت آخر جملة فيها (يعظكم لعلكم تذكرون) عما سبقها لأن الأمر والنهي السابق يحرك النفس للسؤال عن العلة، وعلة الأمر والنهي ذكرت في آخر الآية وهي : يعظكم لأجل هدايتكم رحمةً بكم.

وقد يكون السؤال صريحا في القرآن الكريم، وتفصل الجملة التي تجيب عن هذا السؤال الصريح كما في **قوله تعالى** :

﴿ وَأَمَّا مَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ ٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٞ ٩ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا هِيَهۡ ١٠ نَارٌ حَامِيَةُۢ ١١ ﴾ [سورة القارعة:٨-١١]

وقوله - y :

﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ ١٢ فَكُّ رَقَبَةٍ ١٣ ﴾ [سورة البلد:١٢-١٣]

وقوله:

﴿ ...... قُلۡ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكُمُۚ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ ...... ﴾

[سورة الحج:٧٢]

وفصل الجواب عن السؤال المصرح قد يُدخله في كمال الاتصال لما بين السؤال والجواب من اتحاد تام ، أو يدخله في كمال الانقطاع لأن جملة السؤال إنشائية وجملة الجواب خبرية ، ويقاس على السؤال الصريح

السؤال المقدر الذي اقتضته الجملة الأولى، وأثارته في ذهن المخاطب.

وفي قول الشاعر:

قال لي: كيف أنت قلت: عليل ... سهر دائم وحزن طويل

يقول الإمام (لما كان في العادة إذا قيل للرجل: "كيف أنت؟ " فقال: "عليل"، أن يسأل ثانيا فيقال: "ما بك؟ وما علتك؟ "، قدر كأنه قد قيل له ذلك، فأتى بقوله: "سهر دائم" جوابا عن هذا السؤال المفهوم من فحوى الحال، فاعرفه) [1].

ويقول الشاعر :

ملكته حبلي ولكنه ... ألقاه من زهد على غاربي

وقال إني في الهوى كاذب ... انتقم الله من الكاذب

فقوله : انتقم الله من الكاذب جواب على سؤال يثور في النفس وهو : ما قولك في ادعائه بأنك كاذب ؟ فكانت الإجابة : انتقم الله من الكاذب، وهذا يحمل معنيين : الأول أنه ليس بكاذب، والآخر أن المدعي هو الكاذب .

ويقول أبو العلاء :

منك الصدود ومني بالصدود رضا ... من ذا عليّ بهذا في هواك قضى؟

بي منك ما لو غدا بالشمس ما طلعت ... من الكآبة أو بالبرق ما ومضا

١- دلائل الإعجاز ص ٢٣٨.

إذا الفتـــى ذم عيشًـــا في شـــبيبته فما يقول إذا عصر الشـباب مضىـ؟

وقد تعوضت عن كـلٍّ بمشـبهه فـما وجـدت لأيـام الصـبا عوضـا

وقد غرضت من الدنيا فهل زمني معـط حيـاتي لغـر بعـدما غـرض

جربت دهري وأهليه فما تركـت لي التجـارب في ود امـرئ غرضـا

يقول السكاكي معقبا : (لم يصل جربت بالعطف عـلى غرضـت بنـاء على سؤال ينساق إليه معنى البيت الأول وهو: لم تقول هذا ؟ ويحك**!**

وما الذي اقتضاك أن تطوي عن الحياة على هذه الغاية كشحك؟

ومعنى غرضت : أي حصَّلت أغراضي منها، والغر : الـذي لا تجربـة له، وغرض: في آخر البيت بمعنى : ضجر ومل .

ففي البيتين شكوى من الدنيا ،و أهلها وبخاصة إذا كان الشاكي لبيبـا حكيما، حتى أنه تمنى أن يكون ما تبقى مـن حياتـه مـن نصـيب غافـل غـير مشتاقٍ إلى الدنيا، **ورحم الله المتنبي فقد قال** :

أذم إلى هـــذا الزمـــان أهيلـــه فــأعلمهم فــدمٌ وأحــزمهم وغــدُ

وأكرمهم كلب وأبصرـهم عـمٍ وأسـهدهم فهـد وأشـجعهم قـردُ

ومن نكد الدنيا على الحـر أن يـرى عــدوا لــه مــا مــن صــداقته بــدُّ

في نكد الدنيا متى أنـت مقصـر عن الحـر حتـى لا يكـون لـه ضـد

يـروح ويغـدو كارهـا لوصـاله وتضــطره الأيــام والــزمن النكــد

بقلبـــي وإن لم أرو منهـــا ملالـــةٌ   وبي عن غوانيها وإن وصــلت صــدُّ

راجع قول الله تعالى:

﴿ ۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ ﴾ [سورة يوسف:٣٠]

حيث الأسئلة المتتابعة بعد كل جملة، وبخاصة في هذا المقام الذي يثـير حفيظة كل سامع فضلا عن النساء، وحاول أن تضع بعد كـل جملـة سـؤالا ستجد الكلام يصلح به ويستقم، وقف أولا عند جملـة {تـراود فتاهـا عـن نفسه} وهي الشريفة ذات السلطان والجاه، وهو الخادم التـابع، فـما الـدافع لهذه المراودة ؟

تجد الجملة التي بعدها تجيبك {قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا }

وتابع الأسئلة، وقل : وماذا ترون في هذا ؟ امرأة من علية القوم تحب خادما ؟ تجد الجملة التي بعدها تجيب عن هذا، وتقول :

{ حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ }

ويقول الفرزدق :

إذا مـا الـدهر جـر عـلى أنـاس   حوادثـــــه أنـــــاخ بآخرينـــــا

فقـــل للشـــامتين بنـــا أفيقـــوا   ســـيلقى الشـــامتون كـــما لقينـــا

وَمَـــا إِن طبّنـــا جـــبن وَلَكِـــن   منايانـــــا ودولـــــة آخرينـــــا

كَـذَاك الـدَّهْر دولتـه سِـجَال تكـرّ صروفـه حينـا فحينـا
وَمن يغـرر بريـب الـدَّهْر يَوْمًـا يجـد ريـب الزَّمَـان لَـهُ خؤونـا

حيث فصل بين جملتي (أفيقوا) و(سيلقى الشامتون) لأن جملة (أفيقوا) تثير في النفس سؤالا وهو، وماذا ينتظرهم، وبأي شيء تتوعدهم ؟

فتأتي جملة : سيلقى .. لتجيب عن هذا .

أما قوله :(كذاك الدهر) فقد فصلت عما بعدها لكمال الاتصال وفصلت الجملة الأخيرة أيضا (تكر صروفه ..) لكمال الاتصال .

فكل جملة منها بيان وتوضيح للتي قبلها .

وقد قال المرزوقي في شرح الحماسة معلقا على هذه الأبيات :(إذا صروف الدهر أناخت على قوم بإزالة نعمهم، وتكدير عيشهم، فجرت عليهم أذيال الشر والتغيير، ودرست آثارهم ومحت دولهم، تراها تنتقل إلى آخرين، لأنها كما تهب ترتجع، وكما تولى تستلب.

ثم قال: قل لمن شمت بنا فيما رأى من أثر الزمان فينا: انتبهوا من رقدتكم واصحوا من شماتتكم، فستلقون كما لقينا، وتمتحنون كما امتحنا؛ لأن حياتنا وجميع ما في أيدينا عوار، والعواري تسترد وإن طالت المهلة)[1].

١- شرح الحماسة للمرزوقي ١/ ٨٤٨.

ومنه أيضا قوله y :

﴿وَقَالُوا هَٰذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ ۚ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (١٣٨) وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا ۖ وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ ۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (١٣٩)﴾ [سورة الأنعام:١٣٨-١٣٩]

فقد فصلت الجملتان: {سيجزيهم بما كانوا يفترون} {سيجزيهم وصفهم} عما قبلهما لشبه كمال الاتصال؛ حيث وقعت كل منهما جوابا لسؤال اقتضته الجمل قبلها، وكأن سائلا سأل: لم جاءوا بهذه المفتريات ؟ فكانت الإجابة: {سيجزيهم بما كانوا يفترون} {سيجزيهم وصفهم} .

ومن الشواهد على ذلك أيضا قول أبي تمام:

صَبْراً عَلَى المَطْلِ مَالَمَ يَتْلُهُ الكَذِبُ ... ولِلْخُطُوبِ إِذا سَامَحْتَها عُقَبُ
عَلَى المقادِيرِ لَوْمٌ إِنْ رُمِيتَ بِهَا ... مِنْ قَادرٍ وَعَلي السَّعيُ وَالطَّلَبُ
يَأَيُّهَا المِلكُ النَّائِي برُؤْيَتِهِ ... وَجُودُهُ لُمرَاعِي جودِهِ كَثَبُ
لَيْسَ الحجَابُ بِمُقْصٍ عنْكَ لي أَمَلاً ... إِن السَّماءَ تُرَجَّى حِينَ تَحْتَجِب

فاستتار السماء خلف الغيم لا يعني أنها مخاصمة للخلق، أو أنها لن تغمرهم بالغيث ،فالعكس هو الصحيح، فإذا توارت السماء خلف الغيوم ازداد الرجاء في عطائها وكرمها، بل إنها لا ترجى إلا حين تحتجب .

ومنه قول حاتم الطائي :

يرى البخيل سبيل المـال واحـدة إن الكـريم يـرى في مالـه سـبلا(١)

فالشطر الأول رؤية البخيل للمال، وهذه الرؤية يتبعها في النفس رؤية الكريم، لأن النفس تستدعي المقابل مباشرة، وكأن المخاطب عندما سمع الشطر الأول سأل: وما رأي الكريم في ماله؟

فأجاب: إن الكريم يرى في ماله سبلا .

وبلاغة هذا النمط من الأسلوب يعود إلى الإثارة، وشد الانتباه وتحريك الأذهان، ومشاركة المخاطب في إنتاج المعنى، فحين تأتي الجملة المثيرة للسؤال، ينتظر المخاطب إجابة، فيسرع المتكلم بإمداده بما يريد وهذا النمط هو الذي تستعذبه القريحة العربية الأصيلة ، ويسمى القطع والاستئناف، وهذا القطع والاستئناف قد يبدأ بحرف التوكيد (إن) كما جاء عن خلف الأحمر أنه قال لبشار **وقد استمع لبيت الشعر**:

---

١ - وهذا من قصيدة جاء فيها:

مهلا نوار أقلي اللوم والعذلا... ولا تقولي لشيء فات ما فعلا
ولا تقولي لمال كنت مهلكه... مهلا وإن كنت أعطي البحر والجبلا
يرى البخيل سبيل المال واحدة... إن الجواد يرى في ماله سبلا
إن البخيل إذا مات يتبعه... سوء الثناء ويجوي الوارث الإبلا
فاصدق حديثك إن المرء يتبعه... ما كان يبني إذا ما نعشه حملا
ليت البخيل يراه الناس كلهم... كما يراهم فلا يقرى إذا نزلا
لا تعذليني على مالي وصلت به... رحما وخير سبيل المال ما وصلا
يسعى الفتى وحمام الموت يدركه... وكل يوم يدني للفتى الأجلا
إني لأعلم أني سوف يدركني... يومي وأصبح عن دنياي مشتغلا

بكـــرا صـــاحبي قبـــل الهجـــير إن ذاك النجـــــاح في التبكـــــير

"لو قلت يا أبا معاذ: بكرا فالنجاح، كان أحسن فقال بشار: إنما بنيتها أعرابية وحشية، ولو قلت: بكرا فالنجاح، كان من كلام المولـدين"، يقـول الإمام : (اعلم أن من شـأن "إن" أن تغنـي غنـاء الفـاء العاطفـة وأن تفيـد من ربط الجملة بـما قبلهـا أمـرا عجيبـا، فأنـت تـرى الكـلام بهـا مسـتأنفا غير مستأنف، ومقطوعا موصولا معا، أفلا ترى أنك لو أسقطت "إن" مـن **قول الشاعر:**

بكـــرا صـــاحبيَّ قبـــل الهجـــير إن ذاك النجـــــاح في التبكـــــير

لم تر الكلام يلتئم، ولرأيت الجملة الثانية لا تتصل بالأولى ولا تكـون منها بسبيلي، حتى تجيء بالفاء فتقول: "بكرا صـاحبي قبـل الهجـير، فـذاك النجاح في التبكير" **ومثله قول بعض العرب:**

فغنهـــا وهـــي لـــك الفـــداء إن غنـــــاء الإبـــــل الحـــــداء

فانظر إلى قوله:

... ... إن غناء الإبل الحداء

وإلى ملاءمته الكلام قبلـه، وحسـن تشـبهه بهـن وإلى حسـن تعطـف الكلام الأول عليه ثم انظر إذا تركت "إن" **فقلت:**

فغنهـــا وهـــي لـــك الفـــداء   غنـــــاء الإبـــــل الحـــــداء

كيف تكون الصورة؟ وكيف ينبو أحـد الكلامـين عـن الآخـر حتـى تجتلب لهما الفاء، **فتقول:**

فغنهـــا وهـــي لـــك الفـــداء   فغنـــــاء الإبـــــل الحـــــداء

وهذا الضرب كثير في التنزيل جدًّا.

واعلم أن الذي قلنا في "إن" ... لا يطرد في كل شيء وكل موضع بل يكون في موضع دون موضع، وذلك فيما لا يحصى) (١).

ويقول القزويني سر بلاغة هذا الأسلوب في قوله: "وتنزيـل السـؤال بالفحوى منزلة الواقع لا يصار إليه إلا لجهـات لطيفـة؛ إمـا لتنبيـه السـامع على موقعه، أو لإغنائه أن يسأل، أو لـئلا يسـمع منـه شيء، أو لـئلا ينقطـع كلامك بكلامه، أو للقصـد إلى تكثـير المعنـى بتقليـل اللفـظ، وهـو تقـدير السؤال وترك العاطف أو لغير ذلك مما ينخرط في هذا السلك".

١دلائلالإعجاز ص ٢٣١.

ومن الاستئناف ما يأتي بإعادة اسم ما استؤنف عنه، كقول الله تعالى :

﴿.... مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ.... ﴾ [سورة النور:٣٥]

ومنه قوله المتنبي:

وما عفت الرياح له محلا … عفاه من حدا بهم وساق

فلما نفى الفعل عن الرياح أعاد إثباته للحادي والسائق، مع إعادة الفعل، وكأنه يريد أن يسمعك الفعل مرة أخرى حين أثارك بالنفي فسألت من عفاه ؟

ومن ذلك قول الشاعر:

اعتاد قلبك من ليلى عوائده … وهاج أهواءك المكنونة الطلل

ربع قواء أذاع المعصرات به … وكل حيران سار ماؤه خضل

المعصرات: السحاب، أذاع به: أذهبه وفرقه، والخضل: الكثير والندي ، والقواء:الموحش الذي لا أنيس به .

فالذي أهاج الأهواء المكنونة هو الطلل، وبدأ الشاعر به في البيت الثاني فالربع القواء هو الطلل المختوم به البيت الأول، فلما ذكر هنا أن الطلل قد هاج أهواءه المكنونة، اشتاقت النفس إلى معرفة خبر هذا الطلل وصفته، فذكر من صفته أنه ربع قواء ،**ومن شواهد شبه كمال الاتصال قول مساور بن هند :**

زعمـــتم إن إخـــوتكم قـــريش لهـــم إلـــف ولـــيس لكـــم إلاف[١]

١ - وفي سورة قريش قرأ عكرمة: ليألف قريش إلفهم رحلة الشتاء والصيف. وقريش: ولد النضر بن كنانة سموا بتصغير القرش: وهو دابة عظيمة في البحر تعبث بالسفن، ولا تطاق إلا بالنار. وعن معاوية أنه سأل ابن عباس رضي الله عنهما : بم سميت قريش؟ قال: بدابة في البحر تأكل ولا تؤكل، وتعلو ولا تعلى. وأنشد:

وقريش هي التي تسكن البحر... بها سميت قريش قريشا «

والتصغير للتعظيم. وقيل: من القرش وهو الكسب: لأنهم كانوا كسابين بتجاراتهم وضربهم في البلاد. أطلق الإيلاف ثم أبدل عنه المقيد بالرحلتين، تفخيما لأمر الإيلاف، وتذكيرا بعظيم النعمة فيه، ونصب الرحلة بإيلافهم مفعولا به، كما نصب يتيما بإطعام، وأراد رحلتي الشتاء والصيف، فأفرد لأمن الإلباس، كقوله.

كلوا في بعض بطنكم.. وباقي الأبيات كالآتي

وقريش هي التي تسكن البحر... بها سميت قريش قريشا

تأكل الغث والسمين ولا تترك... يوما لذي جناحين ريشا

هكذا في الكتاب نالت قريش... يأكلون البلاد أكلا كشيشا

ولهم آخر الزمان نبى... يكثر القتل فيهم والخموشا

يملأ الأرض خيلة ورجالا... يحشرون المطر حشرا كميشا

لتبع. وقريش: تصغير قرش. قال ابن عباس: اسم دابة في البحر تأكل ولا تؤكل اه فصغر وسمي به النضر بن كنانة، ثم سمى به أولاده. والمحدثون على أنه اسم لفهر بن مالك بن النضر، وقال الروافض: هو اسم لقصي بن كلاب، وتوصلوا بذلك إلى نفى إمامة أبى بكر وعمر لكونهما ليسا قرشيين، لأنهما يجتمعان معه ﷺ بعد قصي، والامامة من قريش، وقريش مبتدأ، والجملة بعدها مستأنفة مبينة لها، وبها سميت خبر، أى: بسببها، سميت هذه القبيلة قريشا تأكل، أى قريش البحرية. ويؤيده ما روى قبل هذا البيت وهو:

سلطت بالعلو في لجة البحر... على سائر البحور جيوشا... تأكل

ويحتمل أنها الضبيلة. والغث الخبيث. والسمين، الطيب وصاحب الجناحين، كناية عن الطير. أو استعارة الغنى، وبالغ في أنها لا تبقى ولا تذر شيئا مما تظفر به بقوله: إنها لا تترك ريش ذى الجناحين. ويروى «فيه» بدل يوما وهو يعنى قريش البحرية. وهكذا: إشارة لحال دابة البحر، أو لما قاله هو. والكتاب: التوراة أو الإنجيل.

أو كتب التاريخ. وقريش هنا: القبيلة، ويروى:

هكذا في البلاد حى قريش... يأكلون البلاد......

أى: يأخذون أموالها. والكشيش في الأصل: الصوت الخفي، أى: أكلا بسهولة، بلا إرهاب ولا إنعاب، فهو مجاز، والنبي محمد ﷺ. وخمشه خمشا: خدشه. والخموش: الخدوش. والخيلة: الشبح البعيد.

أولئـك أومنـوا جوعـا وخوفـا وقـد جاعـت بنـو أسـد وخـافوا

والشاعر يخاطب بنى أسد. ويكذبهم في زعمـم بـأن إخـوتهم قـريش فـ(قريش) خبر لـ (إن). وقولهم «لهم إلف» استئناف لتعليل الـرد علـيهم بأنهم كاذبون، فكأنه قال : كـذبتم لهـم إلـف ولـيس لكـم إلاف . والالـف والالاف: مصدر ألفه، إذا أحبه واعتاده ولم ينفر منه. وآلـف إيلافـا بيـنهما: جعل بينهما إلفا. وقد جمعت قريش بين رحلة الشتاء والصيف، بـلا خـوف ولا فزع.

وفي البيـت الثـاني قيـل «أولئـك» يعنـي :قريشـا «أومنـوا» مبنـى للمجهول، أى آمنهم ربهم عن الجوع والخوف، كما جاء في السورة (الـذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف) قريش٥ أما بنـو أسـد، فـالأمر عـلى النقيض حث جاعوا وخافوا، فكيف تزعم بنو أسد أنهم إخوة لقريش ؟

فقد أثار صدر البيت سؤالا تقديره: أكذبنا أم صدقنا؟

فأجيب: كذبتم في زعمكم، وقد حـذف هـذا الجـواب **وأقـيم قولـه**: "لهم إلف وليس لكم إلاف"، مقامه لدلالته عليه.

والخيل: الخيالة. والرجال: المشاة على أرجلهم. ويحشرون: صفة لرجال، ويبعد رجوعه لقريش، والكميش:

السريع. والمنضم: القاطع، أى: يجمعونها بسرعة، لكن المراد بالخموش هنا: الجروح.

ويجوز اعتبار قوله: "لهم إلف وليس لكم إلاف"، جوابا لسؤال اقتضاه الجواب المحذوف، وكأنه لما قيل: كذبتم، قالوا: لم كذبنا؟ قال: لهم إلف وليس لكم إلاف، فيكون في البيت على هذا استئنافان، ويجوز أن يكون الفصل في البيت لشبه كمال الاتصال .هذا هو الاستئناف البياني .

لكن هل يستأنف بالفاء، أو بالواو ؟

قالوا : قد تأتي الجملة الواقعة موقع الجواب بالفاء أو الواو، وتسمى الفاء حينئذ بفاء الاستئناف، وكذا الواو تسمى بواو الاستئناف، ولكن الاستئناف بهما يختلف عن الاستئناف البياني؛ لأن الاستئناف بالواو يؤذن باستقلال الكلام وانفصاله، إذ يكون المراد عطف القصة على القصة أو عطف جمل مسوقة لغرض على جمل مسوقة لغرض آخر، **ومن ذلك قوله تعالى:**

﴿..... يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لَوۡلَآ أَنتُمۡ لَكُنَّا مُؤۡمِنِينَ ٣١ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُوٓاْ أَنَحۡنُ صَدَدۡنَٰكُمۡ عَنِ ٱلۡهُدَىٰ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَكُمۖ بَلۡ كُنتُم مُّجۡرِمِينَ ٣٢ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ بَلۡ مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ ..... ﴾

[سورة سبأ:٣١-٣٣]

حيث جاءت الآية الثانية بدون الواو، فأفاد ذلك أنها متولدة عن الآية الأولى إذ وقعت جوابا لسؤال تضمنته، وجاءت الآية الثالثة بالواو، فآذنت بالاستقلال، وصار الكلام معها من قبيل عطف القصة على القصة، أو أن هذه الواو عطفت القول الأخير على القول الأول، أعني : عطفت قولهم(بل مكر الليل والنهار) على قولهم (لولا أنتم لكنا مؤمنين)

فالذين استضعفوا قالوا هذا وقالوا ذاك، وليست الجملة الأخيرة نتيجة استفهام، ولا سؤال مثار مما قبلها .

ومن الاستئناف بالفاء قول أبي تمام:

لا تنكري عطل الكريم من الغنا فالسيل حرب للمكان العالي

تجد أن الفاء قد جعلت الكلام مرتبا بعضه على بعض، فجملة (فالسيل حرب) مرتبة على النهي (لا تنكري)[1]والقاعدة التي لا ينبغي

---

١ - يروي الأصفهاني أنه لما قدم أبو تمّام على الحسن بن رجاء استنشده الحسن بن رجاء، في مجلس شربٍ فأنشده:

كُفِّى وَغَاكِ فَإنَّني لَكِ قَالِي... ليسَتْ هَوَادِي عَزْمَتي بِتَوَالِي
أَنَا ذُو عَرَفْتِ فإنْ عرَتْكِ جَهَالةٌ... فأَنَا المُقِيمُ قِيَامَةَ العُذَّالِ

فلما قال:

عادَتْ لَهُ أيامُهُ مُسْوَدَّة... حتّى تَوَهَّمَ أَنّهُنَّ لَيَالِي
قال له الحسن: والله لا تسود عليك بعد اليوم. فلما قال:
لا تُنْكرِي عَطَلَ الْكَرِيمِ مِنَ الغِنَى... فالسَّيْلُ حَرْبٌ لِلْمَكانِ العَالي
وتَنَظَّرِي خَبَبَ الرِّكَابِ يَنُصُّهَا... مُحْيِ القَرِيضِ إلىَ مُمِيتَ المَالِ
قام الحسن بن رجاء وقال: والله لا أتممتها إلا وأنا قائم، فقام أبو تمامٍ لقيامه، وقال:
لمَّا بَلغْنَا سَاحَةَ الحسَنِ انْقَضَى... عنَّا تَمَلُّكُ دوْلَةِ الإمْحَالِ
بَسَطَ الرَّجَاءَ لَنَا برَغْمِ نَوَائِبٍ... كَثُرَتْ بِهِنَّ مَصَارِعُ الآمَالِ
أَغْلَى عَذَارَى الشِّعْر، إنَّ مُهُورَهَا... عِنْدَ الكِرَامِ إذَا رَخُصْنَ غَوَالِي
تَرِدُ الظُّنُونَ بِهِ عَلَى تَصْدِيقِهَا... وَيُحَكِّمُ الآمَالَ في الأمْوَالِ
أَضْحَى سَمِيُّ أَبيكَ فِيكَ مُصَدِّقاً... بأَجَلِّ فَائِدَةٍ وَأَيْمَنِ فَالِ

أن تمل من تكرارها، أن الكلام المتعاقب إذا أريد ضم بعضه إلى بعض ليكون خبرا واحدا، والذي تراه يتولد بعضه من بعض، سواء كان بيانا أو توكيدا ،أو بدلا، أو إجابة عن سؤال أثير صراحة أو ضمنا ... كل ذلك لايحتاج إلى رابط خارجي ،ويجب فيه الفصل، فإذا وجدت الكلام مرتبا بعضه على بعض، ووجدت الأول يوضع فوقه الثاني ،ويترتب وجوده على وجوده، فالرابط هو الفاء، فإذا وجدت الكلام متغايرا، ومتنوعا، و بينهما مناسبة ما فعليك أن تعطف الثاني على الأول بالواو . ... ويبقى من مواضع الفصل ما يسميه البلاغيون : شبه كمال الانقطاع .

شبه كمال الانقطاع

وهذا النمط من الكلام ترى فيه جملا ثلاث، وتجد حركة العقل لا تنظر إلى جملتين، بل تنظر إلى الثلاث دفعة واحدة، والنظر إلى عطف الثالثة، وجواز وجود العاطف، وعدم جوازه، **لذلك عرفوه بأنه** :

أن تكون الجملة مسبوقة بجملتين، يصح وصلها بالأولى منهما؛ لوجود المناسبة التي تسوغ الوصل، ولا يصح عطفها على الثانية، فيترك العطف دفعا لتوهم العطف على الثانية، وتصبح الجملة الثالثة بمنزلة المنقطعة عن الأولى لهذا الحائل.

وَرَأَيْتَنِي فَسَأَلْتَ نَفْسَكَ سَيْبَهَالِي، ثُمَّ جُدْتَ وَمَا انْتَظَرْتَ سُؤَالِي
كالْغَيْمِ لَيْسَ لَهُأُرِيدَ غِيَاثُهُأَوْ لَمْ يُرَدْ بُدٌّ مِنَ التَّهْطَالِ

فتعانقا وجلسا، فقال له الحسن: ما أحسن ما جليت هذه العروس! فقال: والله لو كانت من الحور العين لكان قيامك أوفى مهورها. قال محمد بن سعيد: فأقام شهرين فأخذ على يدي عشرة آلاف درهم، وأخذ غير ذلك مما لم أعلم به، على بخلٍ كان في الحسن بن رجاء.

إذا فأنت تتوسع في النظر لتعقد أواصر ثلاث جمل، وترى الخيوط الرابطة تصلح في موضع، ولا تصلح في آخر، وترى الخيط إن ربط بما قبله أوهم غير المراد، فيترك الخيط الرابط حفاظا على المعنى المراد، لأن المتكلم ضنين بمعناه يحوطه بكل ما يحفظه، ويدفع عنه كل ما يشوش عليه، وانظر مثلا إلى قول الشاعر:

وتظن سلمى أنني أبغي بها بدلا أراها في الضلال تهيم

فقد فصل جملة "أراها في الضلال" عن الجملة الأولى "تظن سلمى"؛ لأن عطفها عليها يوهم أنها معطوفة على جملة "أبغي بها بدلا"، لقربها منها فتكون بهذا من مظنونات سلمى، وهي من كلام الشاعر لا من مظنوناتها فدفعا لهذا التوهم وجب الفصل، مع وجود الجهة الجامعة بين الجملتين .

ومثله قول الآخر:

يقولون إني أحمل الضيم عندهم أعوذ بربي أن يضام نظيري

فصل جملة "أعوذ بربي" عن جملة "يقولون" مع جواز عطفها عليها حتى لا يتوهم عطفها على جملة "أحمل الضيم"، فتكون من مقولتهم وهي ليست منه، بل هي من كلام الشاعر .

ومن صميم ذلك النوع من الفصل قوله تعالى:

﴿.....وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ .....﴾ [سورة البقرة:١٥]

ولقد تناول عبد القاهر هذه الآية بشيء من التفصيل ،وأثار حولها قضايا تجعل القارئ يقف أمام هذا البحّاثة المتمكن، ليتعلم منه البحث والصبر على العلم، وإنصاف الخصم، وكثير من أخلاقيات البحث العلمي الرصين .

وبداية : لو أنني طرحت سؤالا يقول : لماذا لا توجد الواو بين قوله : (الله يستهزئ بهم) وقوله : (إنما نحن مستهزئون) ؟ فيقال : (إنما نحن مستهزئون والله يستهزئ بهم) وأتصور الآن أنني أخاطب واحدا من الناس، كما تصور عبد القاهر، وأسأله هذا السؤال.

س/ : لماذا لا توجد الواو في هذا الموضع ؟

وأتصور أيضا أنه يجيب بالآتي :

ج / ولماذا نضع الواو ؟

س/ : لأن جملة : (الله يستهزئ بهم) ليست بأجنبيةعما قبلها، بل هي جواب وجزاء، والجواب والجزاء يعطف على ما قبله ؟

ج/ وما الدليل على أن الجواب والجزاء يعطف على ما قبله ؟

س / الدليل مجيء مثل ذلك في آيات كثيرة نحو قوله تعالى :

﴿ ..... يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ ..... ﴾ [سورة النساء:١٤٢]

وقوله: ﴿ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ .... ﴾ [سورة آل عمران:٥٤]

وما أشبه ذلك مما يُردُّ فيه العجز على الصدر.

ج / لأنه لو وضعت الواو بين جملتي:(الله يستهزئ بهم) و(إنا معكم إنما نحن مستهزئون) لحدث لبس، والعرب تفر من اللبس كما تعلم ؟

س / وأين اللبس ؟

ج / اللبس في إدخال جملة (الله يستهزئ بهم في مقول المشركين)

وكأنهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون، وقالوا أيضا : الله يستهزئ بهم وهذا غير صحيح، لأن جملة : (الله يستهزئ بهم) من كلام الحق جل وعلا، وليست من كلامهم، وليس كذلك الحال في **قوله تعالى**: {يخادعون الله وهو خادعهم}، و {مكروا ومكر الله} .لأن الأول من الكلامين فيهما كالثاني، في أنه خبر من الله تعالى وليس بحكاية.

س / إذا فليكن عطفها على جملة : (قالوا) ويكون المعنى : (وإذا خلوا قالوا إنا معكم، وإذا خلوا الله يستهزئ بهم)

ج / وهل لهذا شواهد ؟

س/ نعم، فهو نظير **قوله تعالى**: ﴿ وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ مَلَكٞۖ وَلَوۡ أَنزَلۡنَا مَلَكٗا لَّقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ... ﴾ [سورة الأنعام:٨]

وذلك أن قوله: { ولو أنزلنا ملكا} معطوف، من غير شك على "قالوا"دون ما بعده؟

ج/ لا يجوز عطف (الله يستهزئ بهم) على جملة (قالوا) لأن جملة :
(قالوا) جواب شرط قبلها، وهو (وإذا خلوا إلى شياطينهم)
ولا يجوز إدخال جملة : (الله يستهزئ بهم) في جواب الشرط .

س/ ولماذا لا يجوز ؟

ج / لأن العطف على جواب الشرط "بالواو" على ضربين:

أحدهما: أن يكونا شيئين يتصور وجود كل واحد منهما دون الآخر ومثاله قولك "إن تأتني أكرمك أعطك وأكسك"

والثاني: أن يكون المعطوف شيئا لا يكون حتى يكون المعطوف عليه ويكون الشرط لذلك سببا فيه بوساطة كونه سببا للأول، ومثاله قولك: "إذا رجع الأمير إلى الدار استأذنته وخرجت"، فالخروج لا يكون حتى يكون الاستئذان، وقد صار "الرجوع" سببا في الخروج، من أجل كونه سببا في الاستئذان، فيكون المعنى في مثل هذا على كلامين، نحو: "إذا رجع الأمير استأذنت، وإذا استأذنت خرجت"ولا يجوز اعتبار العطف من الدرب الأول، ولا الضرب الثاني .

س / لماذا لايجوز اعتباره من الضرب الأول ؟

ج / لأن استهزاء الله تعالى بهم ليس نتيجة لخلوهم بشياطينهم، هذا غير معقول، هل يعقل أن يقال : إذا خلوا إلى شياطينهم استهزأ الله بهم ؟ لا يمكن، لأن النتيجة والجزاء من جنس العمل، والاستهزاء بهم

لا يتصور نتيجةً لخلوهم، **وعليه لا يجوز أن يقال** : وإذا خلوا إلى شياطينهم استهزأ الله بهم، على اعتبار حلول كل واحد من الجوابين محل الآخر .

إنما الذي قد يتصور النوع الثاني، وهو إذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون، وإذا قالوا ذلك استهزأ الله بهم .

وهذا وإن كان يرى أنه يستقيم، فليس هو بمستقيم.

س / لماذا ؟

ج / لأن الجزاء على الفعل وليس على القول، فالمشركون أرادوا الاستهزاء وفعلوه لذلك استهزأ الله بهم، ولو عطفت لجعلت استهزاء الله بهم على القول فقط، ولو كان كذلك لكان مدحا لهم، لأنهم ساعتها يدرءون بطش الكافرين بهم، كما فعل عمار بن ياسر رضي الله عنه ولم يؤاخذه رسول الله بكلامه .

فلو كانوا قالوا فقط لكبرائهم: {إنما نحن مستهزئون} وهم يريدون بذلك دفعهم عن أنفسهم بهذا الكلام، وأن يسلموا من شرهم، وأن يوهموهم أنهم منهم لما كان عليهم مؤاخذة فيما قالوه .

فلم يبق إلا شبه كمال الانقطاع، وهو أن الجملة الثانية ينبغي عطفها على الجملة الأولى، ثم منع من العطف خوف اللبس .

هكذا أدار عبد القاهر شرح هذا الموضع، وقد وضعته لك في هذا الإطار ليتبين لك كيف كان الرجل يدير تحليل الآيات، ويصبر على المعاني

حتى يستنفذ رحيقها، ويغوص بداخلها حتى يأتي على ما فيها من دلالات .

ومن مواضع شبه كمال الانقطاع أيضا قوله تعالى :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ ۗ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ ..... ﴾ [سورة البقرة:١١-١٣]

فلو عطفت جملة (ألا إنهم) في التركيبين على سابقتها لظن القارئ أنها من مقول الكافرين، ولقد ثبت لك أنه لا يجوز عطف كلام متكلم على كلام متكلم آخر، فما بالك والتداخل هنا سيدخل كلام المشركين في كلام الله y ، وهذا من أشد الفساد، لذلك ترك العطف .

ويبقى سؤال : هل يجوز اعتبار المواضع السابقة في شبه كمال الانقطاع من مواضع شبه كمال الاتصال، بمعنى أن تكون الجملة الأخيرة مجيبة عن سؤال أثارته الجملة التي قبلها فوجب الفصل ؟

والإجابة:أنه يجوز ذلك، بل إن كثيرا من البلاغيين أرجع هذه المواضع كلها إلى شبه كمال الاتصال، وأخرج شبه كمال الانقطاع من دائرة الباب، وقد أحسن بعضهم حين ترك الأمر للتأول، فإن قوي عندك السؤال فهو من باب شبه كمال الاتصال، وإن قوي عندك شبهة الفساد في العطف فهو من شبه كمال الانقطاع، والنكات البلاغية لا تتزاحم .

وقد لخص الخطيب القزويني في تلخيص المفتاح مبررات الفصل فقال : (إن كان للجملة الأولى حكم لم يقصد إعطاؤه للجملة الثانية فالفصل، نحو "وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون الله يستهزئ بهم " " لم تعطف جملة : "الله يستهزئ بهم" على جملة : "قالوا" لئلا يشاركه في الاختصاص بالظرف كما مر .

مواضع الوصل

مما لاشك فيه أن ربط الجمل بترك الواو أقوى من ربطها بالواو وفي جميع الأحوال لابد للقارئ من أن يكون على وعي بأنه لا توضع جملة بجوار جملة إلا إذا ربط بينهما رابط، وهذا الرابط قد يكون داخليا، فتجد الجملة الثانية هي الأولى، ولكن في صورة مختلفة، وقد يكون خارجيا فتجد حرفا يجمع بين الجملتين، ويعلق الثانية بالأولى تعليق جمع أو ترتيب، أو تخيير، أو غير ذلك، وما دام حديثنا هنا عن الرباط الخارجي، **فأول نوع من هذه الصور صورة :**

التوسط بين الكمالين

وفلسفة التوسط بين الكمالين تقوم على ركيزتين :

الأولى : وجود اتفاق بين الجملتين إما في الخبرية والإنشائية لفظا ومعنى أو في إحداهما .

والآخر : وجود جامع بين الجملتين، مثل : اتحاد المسند، أو المسند إليه أو التضاد بينهما، وفي خلال ذلك كله لا بد من مغايرة تجعل وجود الواو لائقا .

إذن لاتنس في التوسط بين الكمالين أنك تجد بين الجملتين تشابها وتناغما، في الهيئة والشكل، والنمط والأسلوب، لكن هناك نوع اختلاف ووجه تغاير، فكأنهما طرفان لسلك واحد، أو جوهرتان في صدف واحدة وتأبى كل جملة إلا أن تنظر إليها وحدها مستقلة، وهنا يجب عطف الثانية على الأولى .

ولقد عرف البلاغيون التوسط بين الكمالين فقالوا : أن تتفق الجملتان خبرا أو إنشاء، لفظا ومعنى أو معنى فقط، مع وجود المناسبة بينهما أي : وجود الجامع، ولكي أقرب لك الأمر، فاعلم أن بالمثال يتضح المقال وابدأ معك بـ :

- جملتين خبريتين لفظا ومعنى مثل: (جاء الحق وزهق الباطل).
- جملتين انشائيتين لفظا ومعنى مثل (كلوا واشربوا) (أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة).
- جملتين خبريتين لفظا إنشائيتين معنى مثل : (هداك الله ورعاك) .
- جملتين خبريتين معنى إنشائيتين لفظا مثل : (ألم نشرح لك صدرك ووضعنا عن وزرك) .

وقس على ذلك ما تراه من جمل تتوحد في الشكل، وتتنوع في المعاني أو العكس، لكن الجملة الأول غير الأخيرة، فهناك اتفاق واختلاف وتشابه وتنوع، واقرأ معي سريعا : (كلوا واشربوا) ،(اسمعوا وأطيعوا) (الحق أبلج والباطل لجلج) (البر حسن الخلق، والإثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس) .

﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾﴾ [سورة الانفطار:١٣-١٤]

﴿..... لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا .....﴾ [سورة البقرة:٨٣]

﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾﴾

[سورة آل عمران:٢٦-٢٧]

فالواو في الجمل السابقة كلها عقدت علاقة صلة بين المعطوفين وأبرزت نوع مغايرة بينهما في الوقت نفسه .

ونقف وقفة سريعة مع بعض الأمثلة، ففي قوله تعالى :

﴿ ۞ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾﴾ [سورة الأعراف:٣١]

اتفقت الجمل {خذوا زينتكم} {وكلوا} {واشربوا} {ولا تسرفوا} في الإنشائية لفظا ومعنى، فكل منها فعل أمر أو نهي، ولذلك كان الوصل بينها، ولا يحسن أن تنزع الواو، لأن كل فعل يمثل وحدة مستقلة في المراد .

وكذا الحال في قوله تعالى:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا ....﴾ [سورة البقرة:٨٣]

ففي الآية ثلاث جمل: الأولى {لا تعبدون إلا الله}، والثانية: حذف فيها فعل الأمر وتقديرها: وأحسنوا بالوالدين إحسانا، والثالثة: {وقولوا للناس حسنا}، والجملتان -الثانية والثالثة- إنشائيتان لفظا ومعنى كما ترى، أما الأولى فخبرية لفظا إنشائية معنى؛ لأنها تعني النهي؛ أي لا تعبدوا إلا الله، وبهذا يكون اتفاق الجمل الثلاث في الإنشائية في المعنى فقط دون اللفظ، وحاول أن تنزع الواو وتقرأ الجمل تجد الكلام لا يستقيم ؛ لأن كل جملة تمثل أحد بنود الميثاق المأخوذ على بني إسرائيل .

ومما اتفقت فيه الجملتان في الخبرية معنى قوله تعالى:

﴿..... قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [سورة هود:٥٤]

فجملة {واشهدوا} إنشائية لفظا خبرية معنى؛ إذ المراد: إني أشهد الله وأشهدكم، وبهذا يكون اتفاق الجملتين في الخبرية معنى لا لفظا، وهذه الأنواع كلها تسمى : التوسط بين الكمالين للاتفاق بين الجمل في الخبر والإنشاء، ولوجود التناسب بين الجمل .

وضم البلاغيون إلى مواضع الوصل وصل جملتين لهما موقع من الإعراب، دون أن يضعوا له عنوانا، فقط قالوا أن تكون الجملة الأولى لها موقع من الإعراب وأريد إعطاء الثانية هذا الحكم الإعرابي، وكان هناك مناسبة ولا مانع من الوصل **مثل قوله تعالى:**

﴿.....وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٢٤٥﴾ [سورة البقرة:٢٤٥]

فعطف جملة (يبسط) على جملة (يقبض) وكل منهما خبر لاسم الله تعالى، ولا يجوز حذف الواو لأن حذفها يوقع في لبس، وهو الظن بأنك تستدرك على الجملة الأولى، فعطف الجمل هنا ملحق بالتوسط بين الكمالين.

كمال الانقطاع مع الإيهام.

معلوم أن العرب تفر من اللبس والإغماض، ومن أجل ذلك لم تبتدأ بالنكرة، لأن في البداية بها لبسًا، كما أن العرب أوجبت إعراب المقدم فاعلا في الكلام نحو (ضرب موسى عيسى، وأكرم صديقي أخي) وكذا وضعت في أبوابها النحوية باب التمييز، والتفسير، والتأكيد.... وكل ذلك لإزالة اللبس .

ومن الأبواب التي راعتها وقالت بها من أجل إزالة اللبس كمال الانقطاع لوجود الإيهام، أي : وضع الواو بين الجملتين لوجود اللبس بدونها، وانظر مثلا إلى قولك لرجل يسألك : هل أذن للعصر ؟

فتقول : (لا) وهذه في الأصل جملة، أي : لم يؤذن للعصر، لكنك توجز الكلام، ثم تتبع الجملة بجملة أخرى، تدعو له فيها وتقول : (رحمك الله) فلو جمعت بين الجملتين دون واو، لكان المعنى فاسدا لأنه سيكون : (لا – عافاك الله)، وهذا الإيهام يلزمك أن تضع الواو بين الجملتين وتقول: (لا وعافاك الله) ، لقطع الطريق على المعنى الفاسد .

وإذا أردت أن تستغني عن الواو فعليك بالسكوت، حتى يتيقن السامع أنك أفردت كل جملة بالنطق، فتقول : لا، ثم تتبعها بسكوت ثم تقول : عافاك الله، فالقصد كله، في دفع الفساد، وتصحيح المراد سواء بالواو، أو بالسكوت، أو بذكر الجملة المنفية كاملة، كأن تقول : لم يؤذن لصلاة العصر، عافاك الله، وهكذا ويسمى كل هذا : كمال الانقطاع مع الإيهام .

ويلحق بهذا النوع قوله تعالى : ﴿ **فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّاۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ** ﴾ [سورة غافر:٤٥-٤٦]

حيث جاءت الواو بين جملتي: (النار يعرضون عليها غدوا وعشيا ويوم تقوم الساعة أدخلوا) لكمال الانقطاع مع الإيهام، ولو حذفت لتوهم القارئ أن (يوم تقوم الساعة) ظرف للعرض على النار، **كأنه قيل** :

(غدوا وعشيا يوم تقوم الساعة) وهذا أمر يتعلل به من ينكرون

نعيم القبر وعذابه، ويقولون إن العرض على النار مخصوص بيوم تقوم الساعة، والذي عليه جمهور أهل السنة أن عرض آل فرعون على النار في الدنيا، لأن ذلك يثبت عقيدة نعيم القبر وعذابه، فجملة : (النار يعرضون عليها غدوا وعشيا) مستقلة، ومنقطعة عن (يوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب) ولا يجوز تعليق العرض بيوم تقوم الساعة ؛ لكمال الانقطاع مع الإيهام، حتى لا ينكر شيء معلوم من الدين بالضرورة .

يقول الفخر الرازي:(والذي يدل علي ثبوت نعيم القبر وعذابه وجوه.

أحدها: الآيات الدالة على عذاب القبر، كقوله تعالى:

﴿قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثۡنَتَيۡنِ وَأَحۡيَيۡتَنَا ٱثۡنَتَيۡنِ ....﴾ [سورة غافر:١١]

والموتتان لا تحصل إلا عند حصول الحياة في القبر

وقال الله تعالى:

﴿.....أُغۡرِقُواْ فَأُدۡخِلُواْ نَارًا .....﴾ [سورة نوح:٢٥]

والفاء للتعقيب، وقال: ﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ [سورة غافر:٤٦]

وإذا ثبت عذاب القبر وجب القول بثواب القبر أيضا لأن العذاب حق الله تعالى على العبد والثواب حق للعبد على الله تعالى، فاسقط العقاب

أحسن من إسقاط الثواب فحيثما أسقط العقاب إلى يوم القيامة بل حققه في القبر، كان ذلك في الثواب أولى.

وثانيها:الخطاب للمؤمنين وقد كانوا لا يعلمون أنهم سيحيون يوم القيامة، وأنهم ماتوا على هدى ونور، فعلم أن الأمر على ما قلنا من أن الله تعالى أحياهم في قبورهم.

وثالثها: أن قوله: ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم آل عمران: ١٧٠ دليل على حصول الحياة في البرزخ قبل البعث.

ورابعها:قوله عليه الصلاة والسلام: «القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النيران»والأخبار في ثواب القبر وعذابه كالمتواترة، وكان عليه الصلاة والسلام يقول في آخر/ صلاته: «وأعوذ بك من عذاب القبر»(١).

قراءة في عقل الإمام عبد القاهر

الحديث في باب الفصل والوصل عند الإمام هو حديث عن النظم في حقيقته، حديث عن الروابط التي تربط الكلام، فتمسك ثانيا بأول وهو حديث عن العلاقات التي يراها المتكلم بين جمله، ومنزلة كل جملة من الأخرى، هو حديث عن الخيوط الضامة، والحبال الرابطة بين المعاني ونحن في البلاغة العربية معنيون بالعلاقات الرابطة بين المعاني كعنايتنا

١- التفسير الكبير للفخر الرازي ٢/ ٤٣٥.

بالمعاني، ووضع هذا الباب دليل على هذه العناية الشديدة بالروابط والعلائق، والمفاصل التي تحدد انتهاء كلام وبداية آخر، قال تعالى :

﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾﴾ [سورة ص: ٢٠]

وفصل الخطاب : يعني من بين معانيه تبيين الكلام، وتوضيحه حتى لا يلتبس، ولا يدخل بعضه على بعض ، فلا يقف المتكلم في كلمة الشهادة على المستثنى منه، ولا يتلو قوله: {وَيْلٌ لِلْمُصَلِّين} إلا موصولا بـ (الذين هم عن صلاتهم ساهون) . ولا يقرأ : {وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ} حتى يصله بقوله: {لَا تَعْلَمُونَ} وهكذا فالكلام الفصل عكس الملتبس، والفصل كما يقول الزمخشري هو التمييز بين الشيئين، وقيل للكلام البين : كلام فصل، بمعنى : المفصول بعضه عن بعض .(١)

١- انظر: الكشاف ٣/ ٣٦٥ بتصرف شديد.

والأصل أن البلاغة تدرس النصوص ولا تدرس الشواهد، فلا يقال في الكلام بلاغة إلا إذا اعتبرت الكلام كله، ونظرت إليه جميعا، وتصورت فيه المراد والقائل والأحوال، ولا يطلق على الكلام مصطلح النص إلا إذا كان كائنا حيا، مكتمل البنيان، له أول وآخر، أو مقدمة ومؤخرة وغاية، ونمط واحد من التعبير والأسلوب، فإن كان في الشعر اكتمل فيه مكونات القصيدة، وإن كان في الخطابة حوى كل ما يشترط في الخطبة وإن كان في الرسالة انطبقت عليه شروط الرسالة الأدبية ، فالنص كائن مكتمل البنيان في مجاله .

أنواع المعاني

والمعاني في النصوص العالية نوعان :

نوع فيه استقلال، واكتمال للدلالة، فلا يحتاج إلى غيره ليفهم المراد وهذا النوع من المعاني حين تربطه، تربطه برباط خارجي، وهو الواو لأن كل معنى قائم بنفسه، مستقل بذاته عن سابقه، وليس ناتجا عنه ولا متولدا منه، ومن نماذج هذه المعاني : الحِكم التي ملأت الدنيا والدعوات التي تناثرت على صفحات الحياة كما في قول الجاحظ (جنّبك الله الشّبهة، وعصمك من الحَيرة، وجعل بينك وبين المعرفة نسبا، وبين الصدق سببا، وحبّب إليك التثبّت، وزيّن في عينك الإنصاف، وأذاقك حلاوة التقوى، وأشعر قلبك عزّ الحقّ، وأودع صدرك برد اليقين وطرد

عنك ذلّ اليأس، وعرّفك ما في الباطل من الذلّة، وما في الجهل من القلّة)(١).

فكل جملة - كما يقول الشيخ أبوموسى - هي لؤلؤة مستقلة تستطيع أن تنزعها من هذا السياق وتضعها على رأس كلام وحدها، وهذا الاستقلال والتفرد حين تضع بجواره غيره، لا بد أن تأتي برباط لهما وجامع يجمعهما .

وكذلك من المعاني المستقلة الأخبار التي تجمع الأصناف المتنوعة كما في قول النبي ﷺ: (سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظلا إلا ظله : إمامٌ عادلٌ ، وشابٌ نشأ في عبادة الله ، ورجلٌ قلبه متعلّقٌ بالمسجد حتّى يعود إليه، ورجلان تحابّا في الله اجتمعا على ذلك وتفرّقا عليه ، ورجلٌ طلبته ذات منصبٍ وجمالٍ فقال إنّي أخاف الله ، ورجلٌ تصدّق بصدقه فلم تعلم شماله ما تسرّ يمينه ، ورجلٌ ذكر الله خالياً ففاضت عيناه)(٢).

فهذه المعاني وأشباهها كاللآلئ التي ينضد بعضها بجوار بعض ويضم بعضها إلى بعض، ويمسك التالي بالأول سلك رابط، وقد لا تجد في الظاهر علقة بين المعنيين، ولا صلة بين المتجاورين، فيعطف التالي على الأول بالواو، ولا صلة بين المعطوفين في الظاهر، فلا يحتاج الناظر إلى فكر وروية، بل يحتاج فقط إلى سلك من الخارج لينظمها، ويضمها

١- مقدمة كتاب الحيوان للجاحظ ص ٣.

٢- صحيح البخاري باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة وفضل المساجد ١٣٣/١ حديث رقم ٦٦٠.

ويعطف الجملة على مثلها، فلا علاقة في الظاهر بين الإمام العادل والشاب الذي نشأ في عبادة الله، وكذا باقي السبعة، فكل منهم عالم مستقل، وصنف قائم بذاته .

ومن أمثلتها أيضا قول النبي ﷺ: (الطُّهُورُ شَطْرُ الْإِيمَانِ، وَالْحَمْدُ للهِ تَمْلَأُ الْمِيزَانَ، وَسُبْحَانَ اللهِ وَالْحَمْدُ للهِ تَمْلَآَنِ - أَوْ تَمْلَأُ - مَا بَيْنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَالصَّلَاةُ نُورٌ، وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ، وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ، كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو فَبَايِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا أَوْ مُوبِقُهَا)[1].

وراجع الجمل لتتبين علاقاتها، فالطهور شيء، والتسبيح شيء آخر والصلاة تغاير الصبر، والقرآن عالم وحده ، وهكذا ترى كل جملة تمثل بابا مختلفا عن الباب السابق، لذلك ربطت كلها بالواو .

النوع الثاني من المعاني هي التي يبنى بعضها على بعض، ويؤسس بعضها على بعض، فتجد المعنى الأول ينتج لك المعنى الثاني، ويترتب على الثاني الثالث، ويثمر كل ذلك المعنى الرابع، وتراك كلما واصلت القراءة وجدت بعد الجذر ساقا، ومن الساق يخرج الفرع، ويتدلى من الفرع غصن، ومن الغصن أغصان، ثم يكون الثمر، فأنت في حال تشابك لا ينفصل، وبناء لا ينحل عراه، **وهذا النوع هو الذي سماه عبد القاهر :**

النمط العالي والباب الأعظم، يقول عبد القاهر في هذا النوع :

١- صحيح مسلم رقم ٢٢٣ ج ١ صفحة ٢٠٣.

(إنه نمط فيه تتَّحِدَ أجزاءُ الكلامِ، ويَدخلَ بعضُها في بعضٍ ، ويشتدَّ ارتباطُ ثانٍ منها بأول ، وتحتاج في الجِملة إلى أن تضَعَها في النفس وضعًا واحدًا ، ويكونَ حالُكَ فيها حالَ الباني يَضعُ بيمينه ههنا في حالِ ما يَضَعُ بيَسارِه هناك.

نَعم ، وفي حالِ ما يُبْصر مكانَ ثالثٍ ورابعٍ يَضعُهما بَعْدَ الأَوَّلَيْن. وليس لِما شأْنهُ أن يجيءَ على هذا الوصفِ حَدٌّ يَحْصرُه، وقانونٌ يُحيطُ به، فإنه يجيءُ على وجوهٍ شتَّى، وأنحاءَ مختلفةٍ)(١).

وسبب تسمية هذا النوع بأنه النط العالي والباب الأعظم هو ما يحتاجه من جهد وتعب، وكل شيء تحصله بعد جهد وتعب هو نمط عال في بابه، وباب أعظم في منواله، إن الجهد والعرق هما مصادر التحلية لكل عمل، وتعال **فانظر معي إلى قول مجنون ليلى :**

كأن القلب غداة قيل يغدى … بليلى العامرية أو يراح

قطاة عزها شرك فباتت … تعالجه وقد علق الجناح

لها فرخان قد تركا بوكر … فعشهما تصفقه الرياح

فلا بالليل نالت ما تمنى … ولا بالصبح كان لها براح

وراجع هذه المعاني، وكيف تعلق بعضها ببعض، فلا ينفك معنى في آخر الأبيات عن المعنى في أوله، وكيف أسس التشبيه على جملة بسيطة

١- دلائل الإعجاز ص٩٣.

وهي (كأن القلب . قطاة) ثم أخذ يضيف إلى هذا الأساس أحوالا للقطاة لا تستطيع فهم الصور بدونها، بداية من نشوب الشَرَك بها ومعالجتها لهذا الشرك ليلا ونهارا، وصورة الجناح وهو عالق، ومعلوم أن الجناح هو عماد حياة القطاة، وركنها السديد في الطيران، وهو هنا عالق مكتوف مصاب، وكلما حاولت الفكاك بالجناح ازداد الأمر سوءا، فجميع المحاولات تذهب ادراج الرياح، ثم لا يكتفي الشاعر بهذا الهم الشديد بل يزيدك من البلاء كربا آخر، وهو صورة الفرخين الذين تركتهما وحيدين في العش على وعدٍ بإحضار الطعام سريعا ثم العودة، وعشهما الذي تصفقه الرياح يزيد من غمها وخوفها على صغيريها.

كل ذلك مشهد لا ينفصل فيه جزء عن جزء، بل يتولد كل جزء فيه مما سبقه، حتى تنتهي الصورة، وقد أبدع فيه قيس بن الملوح رَحِمَهُ اللَّهُ .

ومن هذه المعاني المبنية بعضها على بعض أيضا معاني الشرط والجزاء كما في قول البحتري:

إِذا ما نَهى النّاهِي فلجَّ بيَ الهوى، أصاختْ إِلى الوَاشِي فلجَّ بها الهجر

فلا يمكنك الوقوف بالمعنى حتى تنتهي من البيت، ومثل قول الشاعر :

لو كَانَ مَا أَنْتُم فِيهِ يَدُوم لكم ظَنَنْت مَا أَنَا فِيهِ دَائِما أبدا

لكن رأيت الليالي غير تاركة ما سر من حادث أو ساء مطردا

لَكِــن ســكنت إِلَى أَنِّي وأنكــم ... سنســتجدّ خــلاف الْحَــالَتَيْنِ غَــدا

فلا تمام إلا عند كلمة (غدا) فالباب قد فتح بأداة الشرط : (لو) وأغلق بالظرف (غدا) وكل كلمة، وكل جملة بداخل الأبيات مبنية على ما قبلها .

ومن هذا الباب حديث النبي ﷺ «مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم، كمثل الغيث الكثير أصاب أرضا، فكان منها نقية، قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب، أمسكت الماء، فنفع الله بها الناس، فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصابت منها طائفة أخرى، إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من فقه في دين الله، ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأسا، ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به»(١).

إن كل جملة من هذه الجمل كأنها لبنة في بناء متكامل، مرفودة بما قبلها، ومُطعِمة لما بعدها، ومأخوذة بحجز ما قبلها، وآخذة بحجز ما بعده، فهي كالحلقة في السلسلة الطويلة، وكالحرف في الكلمة الفصيحة .

---

١ - صحيح البخاري: باب فضل من علم وعلم ، من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه .

وهذا هو النمط العالي والباب الأعظم من المعاني الذي يؤسس السابق فيه للاحق ،ويمهد الأول للثاني، وهذا هو موضع المزية من المعاني إنه نمط تتحد أجزاؤه، ويوضع وضعا واحدا، والمزية فيه تعظم حتى كأنها له وحده، ولا تعظم في شيء دونه.

يقول الإمام معلقا على: قولِ النابغةِ في الثّناءِ المسجوع: "أيفاخِرُك الملكُ اللخميُّ، فوالله لقَفاكَ خيرٌ من وجَهْهِ، ولَشِمالُكَ خيرٌ من يَمينه ولأَخْمَصُكَ خيرٌ من رأْسه، ولَخَطَؤكَ خيرٌ من صَوابه، ولَعِيُّك خيرٌ من كلامه، ولَخَدَمُكَ خيرٌ من قَوْمه".

وكقولِ بعضِ البلغاء في وصف اللسانِ: "اللسانُ أداةٌ يظَهر بها حُسْنُ البيان، وظاهرٌ يُخْبِر عنِ الضمير، وشاهدٌ يُنبئكَ عن غائبٍ، وحاكِم يُفْصَل بهِ الخِطابُ، وواعظٌ يَنْهى عن القَبيحِ، ومُزَيِّنٌ يَدعو إِلى الحُسْن، وزارعٌ يَحْرثُ المودَّة، وحاصدٌ يحصِدُ الضَّغينة، ومُلْهٍ يُونِق الأسماع".

فما كانَ من هذا وشَبَهه لم يَجِبْ به فضْلٌ إذا وجَبَ، إلاَّ بمعناهُ أو بمُتون أَلفاظِه، دونَ نَظْمه وتأليفه، وذلك لأنه لا فضيلةَ حتى تَرى في الأمرِ مَصْنعاً، وحتى تَجدَ إِلى التخيُّر سبيلاً، وحتى تكونَ قد استدركْتَ صَواباً.)

وراجع هذه العبارة الأخيرة : (لا فضيلة حتى ترى في الأمر مصنعا وحتى تجد إلى التخير سبيلا، وحتى تكون قد استدركت صوابا) حيث تشمل أحد كنوز الإبداع البلاغي، **فأول كنز** :

لا فضيلة حتى ترى في الأمر مصنعا .

- لا فضيلة حتى تختار، وتتوخى، وتؤثر نظما على نظم .
- لا فضيلة حتى تكون قد استدركت صوابا .

فالجهد، والصناعة، والتوخي في المنظوم، والصواب ... كل ذلك هو الذي يعطي للكلام أسبقية على كلام آخر، وبهذا تسبق المعاني الآخذة بحجز بعضها في النظم المعاني الأخرى التي توضع وتسلك في سلك واحد دون جهد .

وليس معنى ذلك أن الكلام الأول والنوع الأول من المعاني يخلو من فضيلة، كلا، لكنه يعلو بالصواب الذي فيه، وليس بالأمور التي تدرك بالفكر، والدقائق التي تنال بالفهم وشدة التيقظ، فإذا وازنت بين معنى ومعنى، وعرفت كيف توزن المعاني، وكيف يعلو بعضها فوق بعض كنت من أهل البيان، فالفرق كبير جدا بين المعاني المضمومة، والمعاني المصنوعة .

علاقة باب الفصل والوصل بما قبله في الدلائل

ينظر إلى باب الفصل والوصل على أنه باب في (الواو) أو بمعنى آخر في الفرق بين عطف الجملة على الجملة بالواو، أو نزع هذا العاطف فمدار الكلام في الفصل والوصل على (الواو) ومتى تأتي بين الجمل ؟ ومتى تُنزع ؟

يقول الإمام في دلائل الإعجاز (اعلم أن كل جملة وقعت حالا ثم امتنعت من "الواو"، فذاك لأجل أنك عمدت إلى الفعل الواقع في صدرها فضممته إلى الفعل الأول في إثبات واحد، وكل جملة جاءت حالا، ثم اقتضت "الواو"، فذاك لأنك مستأنف بها خبرا، وغير قاصد إلى أن تضمها إلى الفعل الأول في الإثبات) (١)

وراجع هاتين الجملتين :

(أنك ضممت في إثبات واحد) و (أنك مستأنف بها خبرا)

فهاتان الجملتان هما القاعدة في مجيء الواو وعدم مجيئها، فعند قصد ضم الجملتين يجب عليك أن تحذف الواو، وعند استئناف خبر جديد يجب عليك الإتيان بالواو .

ولذلك ذكر الفراء "ت ٢٠٧هـ" وهو يتكلم عن الفرق بين قوله تعالى :"يُذَبِّحُون أبناءكم " و"ويُذَبِّحُون أبناءكم " (أنه إذا كان الخبر من العذاب أو الثواب مجملا في كلمة ثم فسرته فاجعله بغير الواو، وإذا كان أوله غير آخره فبالواو)(٢).

تلك هي بدايات الحديث عن الواو ومجيئها أو عدم مجيئها في كتابه دلائل الإعجاز.

١- دلائل الإعجاز ت شاكر ص ٢١٣.

١- معاني القرآن للفراء ٢/ ٦٧.

ثم يأتي الإمام عبد القاهر في باب الحال بإرهاص آخر للفصل والوصل، **وهو قوله** : (إذا قلت: "جاءني وغلامه يسعى بين يديه" و "رأيت زيدا وسيفه على كتفه" كان المعنى على أنك بدأت فأثبت المجيء والرؤية، ثم استأنفت خبرا، وابتدأت إثباتا ثانيا لسعي الغلام بين يديه ولكون السيف على كتفه، ولما كان المعنى على استئناف الإثبات، احتيج إلى ما يربط الجملة الثانية بالأولى، فجيء بالواو كما جيء بها في قولك:

"زيد منطلق وعمرو ذاهب" و "العلم حسن والجهل قبيح". وتسميتنا لها (واو حال) ، لا يخرجها عن أن تكون مجتلبة لضم جملة إلى جملة) [1].

فهذا كلام ظاهره في الحال وحقيقته في باب الفصل والوصل .

ولقد وضع عبد القاهر في كتابه الدلائل باب (الفصل والوصل) بعد باب (فروق في الحال) وجاء باب فروق في الحال بعد باب فروق في الخبر، فهناك تسلسل، ينبغي التنبه إليه عند النظر في أبواب الكتاب كما ينبغي النظر في أن النظم يبدأ بنظم الجملة الخبرية البسيطة، ومحاولة مقارنتها بغيرها، فملاحظة هذه الفروق هي لب لباب المزية في النظم يقول الشيخ عبد القاهر:(اعلم أن ليس "النظم" إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه "علم النحو"، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه

١- الدلائل ص ٢١٤.

التي نهجت فلا تزيغ عنها، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك، فلا تخل بشيء منها.

وذلك أنا لا نعلم شيئا يبتغيه الناظم بنظمه غير أن ينظر في وجوه كل باب وفروقه، فينظر في "الخبر" إلى الوجوه التي تراها في قولك:

"زيد منطلق" و "زيد ينطلق"، و "ينطلق زيد" و "منطلق زيد" و "زيد المنطلق" و "المنطلق زيد" و "زيد هو المنطلق"، وزيد هو منطلق") هذه الفروق تقتصر على الخبر المجرد، لكنك حين تضع مع الخبر زيادة في المعنى، **مثل أن تزيد معه حالا فتقول** :

- ❖ ينطلق زيد مبتسما، فتلك إضافة جعلت من الخبر خبرين ،فكلمة (مبتسما) حال أضيفت إلى الخبر، فكأنك أخبرت بالانطلاق وزدت شيئا قليلا وهو هيئة الانطلاق، فقلت مبتسما .
- ❖ فإذا نمت هذه الزيادة، قلت: ينطلق زيد يبتسم، وهنا تحول الخبر إلى خبرين، خبر الانطلاق، وخبر الابتسام .
- ❖ فإذا أردت أن تهيئ الخبر الثاني للاستقلال، وضعته في جملة لا تقل شأنا عن الجملة الأولى فتقول : ينطلق زيد وهو يبتسم، وهنا تحو الحال إلى خبر كامل، يكاد ينفصل عن الخبر الأول . وكل ذلك في فروق الحال، ولذلك جاء الباب التالي في الفصل والوصل يحدثني عن جملتين، وبينهما واو، فقيل جاء زيد وحضر عمرو.

وهذا يعني أن باب فروق في الحال ما هو إلا توطئة وتمهيد لباب الفصل والوصل، كما أن باب فروق في الخبر كان توطئة وتمهيدا لباب فروق في الحال، ولك أن تعتبر نقطة الانطلاق في النظم من الخبر المجرد ثم تمر على فروق في الحال، ثم يكون باب الفصل والوصل، وهكذا يتبين أن ترتيب عبد القاهر لأبوابه لم يكن من قبيل الصدفة أو كيفما اتفق، إنما كل باب يسلمك إلى ما بعده، ومقدمة لما بعدة، وكأن نظرية النظم لم تكن في الكلام فقط، بل كانت في نظم أبواب الكتاب أيضا .

مقدمة باب الفصل والوصل:

اهتمام الإمام عبد القاهر بأبواب البلاغة جعله يقدم لكل باب بمقدمة تفتح أبواب النفوس قبل أن تفتح أبواب العقول، لأن العلم بمواقع المعاني في النفس علم بمواقع الألفاظ في النطق، فالمقدمات تهيئ المتلقي، وتفتح مغاليق قلبه، وتشرح له أهمية الباب، وترغبه في الصبر على تحصيله، وتزين له ثماره، وهذا من حب العالم لطلاب العلم، فكلما كان العالم شغوفا بطلابه قدم لهم ما يحفزهم ويرغبهم في أبواب العلم، ولذلك جاء في كل باب بمقدمة تمهد وترغب ففي باب التقديم والتأخير قال :

(هو باب كثير الفوائد، جم المحاسن، واسع التصرف، بعيد الغاية لا يزال يفتر لك عن بديعة، ويفضي بك إلى لطيفة، ولا تزال ترى شعرا يروقك مسمعه، ويلطف لديك موقعه، ثم تنظر فتجد سبب أن راقك ولطف عندك، أن قدم فيه شيء، وحول اللفظ عن مكان إلى مكان.)

فبين منافعه، ووضح مصارفه، وكشف عن سر الحسن الذي كان المتلقي يجده ولا يعرف له سببا، فقال له إن سر الحسن هذا سببه التقديم لبعض الكلام على بعض، وكذلك فعل في باب الحذف حيث قال في مقدمته : (هو باب دقيق المسلك، لطيف المأخذ، عجيب الأمر، شبيه بالسحر، فإنك ترى به ترك الذكر، أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة، أزيد للإفادة، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأتم ما تكون بيانا إذا لم تبن) فأظهر عظمته، وغرابة شأنه، وأغرى القارئ به لأنه أشبه بالسحر، وأكثر بيانا رغم قلة الكلام فيه .

لكننا إذا جئنا إلى باب الفصل والوصل فإننا سنجد كلاما آخر، لن نجد فوائد الباب، ومحاسنه، ولا عظمته وغرابة شأنه، وإنما سنجد كلاما لا يوجد في غيره، ولذلك أعرض عليك هنا مقدمة باب الفصل والوصل ،يقول الإمام : (اعلم أنّ العلم- بما ينبغي أن يصنع في الجمل من عطف بعضها على بعض، أو ترك العطف فيها والمجيء بها منثورة، تستأنف واحدة منها بعد أخرى- من أسرار البلاغة ، وممّا لا يتأتّى لتمام الصواب فيه إلا الأعراب الخلّص، وإلا قوم طبعوا على البلاغة، وأوتوا فنّا من المعرفة في ذوق الكلام هم بها أفراد. وقد بلغ من قوة الأمر في ذلك أنهم جعلوه

حدًّا للبلاغة، فقد جاء عن بعضهم أنه سئل عنها فقال: «معرفة الفصل من الوصل»، ذاك لغموضه ودقّة مسلكه، وأنه لا يكمل لإحراز الفضيلة فيه أحد، إلا كمل لسائر معاني البلاغة) (١).

وقد حملت هذه المقدمة عدة أشياء :

أولا : أن العطف وترك العطف من أسرار البلاغة .

ثانيا : أن هذه الأسرار لا يحيط بها إلا نفر من ثلاثة :

- الأعراب الخلص .
- المطبوعون على البلاغة .
- من أوتوا فنا من المعرفة في ذوق الكلام

ثالثا : هذا الباب لا يكمل فيه أحد إلا كمل في البلاغة كلها، حتى قيل : إن البلاغة هي معرفة الفصل والوصل .

وهنا يطرح سؤال : لم كل هذا ؟، وهل قوله ذلك من المبالغات ؟ هل الفصل والوصل باب غامض، لا يعرفه إلا الأعراب الخلص ؟

الحقيقة أن هذا الباب من الصعوبة بمكان، وسبب ذلك أن الناظر في سر الواو عليه أن يدرك أربعة أمور دفعة واحدة :

- ❖ **أولها** : إدراك معنى الجملة الأولى .
- ❖ **ثانيها** : إدراك معنى الجملة الثانية .
- ❖ **ثالثها** : إدراك العلاقة بين الجملتين .

---

١ - دلائل الإعجاز ت هنداوي ص ١٤٨.

❖ **رابعها** : إدراك حاجة الجملتين إلى الواو أوعدم حاجتهما إليها .

فإذا علمت أن العلاقات بين الجمل متنوعة، ومتشعبة، تدرك مدى صعوبة هذا الباب، فقد تكون الجملة الثانية هي هي الجملة الأولى وقد تكون غيرها، ولكن خرجت من رحمها، وقد تكون منفصلة عنها تماما.

ثم إن تحديد انتهاء الكلام لا يحسنه كل أحد، ولذلك تجد هذه العناصر الثلاثة التي وضعها عبد القاهر في مقدمة الباب تحمل من المرغبات، والتشويق على فتح مغاليق هذا الفن الكثير، كما أنها تحرض المتلقي على الصبر على ما سيجده فيه من صعوبات وغموض، ثم هي تغريه بأن يلحق بهذا الركب الكريم، ركب من يحيط بالفصل والوصل فلا شك أن المتلقي ليس واحدا من الأعراب الخلص، وليس واحدا من المطبوعين على البلاغة، فلم يبق له إلا التعلم والمعرفة حتى يلحق بالعالمين بباب الفصل والوصل، فعبد القاهر يجيد فن الترغيب في تعلم العلم ومن أعظم هذه المرغبات أن من أحاط بباب الفصل والوصل هان عليه غيره، وتيسر له ما عداه .

وأعود إلى ما قاله الإمام في المقدمة، يقول : (اعلم أن العلم بما ينبغي أن يصنع في الجمل) فأنت في حديث صانع وصنعة وخامات تحتاج إلى عين الخبير الذي يعلم ما ينبغي هنا وما لا ينبغي، فهذه جمل ينبغي فيها العطف فوجب مجيء العاطف، وعين الخبير هنا تحدد نوع العاطف، وتلك جمل

ينبغي فيها ترك العطف، والمجيء بها واحدة تلو الأخرى، وفي كل ذلك ترى الخبير يتعامل مع الجمل كما يتعامل الصائغ مع المعدن النفيس، فيصل هنا، ويقطع هنا، وهو في كل ذلك يعرف المراد من كل جملة، وعلاقة هذا المراد بما سبق، وعلاقته بما يلحق من بعده، إنك تتحدث في عالم من الخيود الواصلة بين المعاني النبيلة ....

كل ذلك يعقب عليه الإمام بأنه من أسرار البلاغة، ولا يتأتى بتمامه إلا للأعراب الخلص والمطبوعين على البلاغة، وأصحاب الذوق الرفيع في فهم الكلام .

وقد بلغ من قوة الأمر في ذلك - يعني في إدراك العلاقات، وأن غدراك العلاقات هو لب البلاغة ومعدنها أن العلماء جعلوا باب الفصل والوصل هو البلاغة ،فإذا أردت أن تعرف البلاغة فقل هي معرفة الفصل والوصل ؟

لماذا ؟

لأن معرفة غوامض العلاقات، وخفايا الروابط بين الجمل يجعلك أقدر على إدراك ما تحت ذلك من جمال، فإن أدركت الأخفى هان عليك الخفي، وإن تمرست على الأصعب هان عليك الصعب، وإن كنت ممن يحسنون فهم أنظمة الربط بين المعاني، سهل عليك الوقوف على التشبيه والاستعارة والكناية، والبديع .وهذا كله من باب إدراك الأدنى بالتنبيه على الأعلى . وأزيدك توضيحا، **فأقول** :

تحديد المشكلة

بدأ عبد القاهر بتحديد المشكلة التي دفعته لكتابة باب الفصل والوصل، وقبل أن يضع يده عليها تدرج في الحديث، فأثبت أنه لا مشكلة في عطف المفردات بعضها على بعض، **في نحو قولك** :

محمد كريم، وجواد، وحليم .... إلخ .

ولا مشكلة في الجمل التي تقع موقع المفردات، لأنها تأخذ حكم المفردات، فإذا قلت : (مررت برجل خلقه حسن، وعمله قبيح) فإن جملة (عمله قبيح) معطوفة على (خلقه حسن) وكلاهما وقع نعتا لكلمة (رجل) فلا إشكال هنا أيضا .

كما أنه لا إشكال في العطف بحروف أخرى غير الواو، مثل (الفاء) و(ثم) و(أو)، لأن كل حرف من هؤلاء يحمل معنى آخر غير العطف يشرك الجملة الثانية مع الأولى فيه، فلا إشكال هنا أيضا، **ففي قوله تعالى:**

﴿ **وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ** ﴿١٧٥﴾ ﴾ [سورة الأعراف:١٧٥]

ترى الفاء ترتب كل فعل على سابقه، فإعطائه الآيات ترتب عليه انسلاخه منها، وترتب على انسلاخه منها تعقب الشيطان له وانفراده به وفصله عن الهدى، وافتراسه وحده، وترتب على كل ذلك الحكم عليه بأنه من الغاوين ....

(فالفاء) ترسم لك الخط البياني الذي يرتب كلاما على كلام دون مدة ويبني كلاما على كلام، دون إمهال .

و (ثم) حرف يقتضي التشريك في الحكم، والترتيب، والمهلة، كما في **قوله تعالى** : ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [سورة البقرة:٢٨]

ولعلك تدرك دون عناء الفترة الممتدة بين الحياة والموت في كل جملة ويزداد هذا الأمر وضوحا حين تقف **أمام قوله تعالى** :

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [سورة غافر:٦٧]

لأن هذا بيان لقدرة الحق جل وعلا، القدرة التي تراها العيون في كل ساعة، وكيف ينتقل الإنسان من طور إلى طور، بدأت من التراب، ثم كان الطور الذي بعده -طور النطفة – ثم طور العلقة في الرحم، وبعد مدة تنتقل إلى طور المضغة ،وبعد مدة تتحول إلى عظام، ثم يكسى باللحم حتى يكون خلقا آخر، ولا يبقى حتى يتحول إلى التراب مرة أخرى، فهو من التراب، وإلى التراب يعود، وهذه المراحل لا يناسبها إلا حرف العطف (ثم).

أما حرف العطف (أو) فقد ذكروا له معاني كثيرة، مثل الشك نحو قوله تعالى :﴿..... قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ..... ﴾ [سورة الكهف:١٩]

والإبهام نحو قوله تعالى :

﴿..... وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾﴾ [سورة سبأ:٢٤]

وقول الشاعر:

(نحن أو أنتم الألى ألفوا الحق   فبعدا للمبطلين وسحقا)

حيث أبهم الشاعر بحرف العطف (أو) مع علمه بأنه على الحق وأن خصومه على الباطل، ليسكت الخصم المعاند .

لكن المعنى الشائع لحرف العطف (أو) هو التخيير، ومن أمثلته قوله تعالى :

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [سورة النحل:٣٣]

فالمعنى ماذا ينتظر هؤلاء؟

هل ينتظرون الملائكة فتتوفاهم فيلقون الله تعالى فيجازيهم؟

أم أنهم ينتظرون أمر الله تعالى فيبعثهم فيحاسبهم.؟

وما مصيرهم حينئذ ؟

أليس مصيرهم هو مصير المكذبين قبلهم ؟!!

كل هذه الحروف لا إشكال فيها عند العطف بها، لكن الحرف الـذي يحتاج إلى توقف، وبيان : هو حرف (الواو)، وبخاصة في عطف الجملة التي ليس لها موقع من الإعراب، لأن السـؤال سـاعتها هـو، مـا الـذي تصـنعه الواو؟

وما الذي تشرك فيه الثانية مع الأولى ؟

ماذا تفعل الواو في نحو:(العلم حسن والجهل قبيح) وجملة (العلـم حسن) ليس لها موقع من الإعراب ؟

يقول الإمام : (واعلـم أنـه إنـما يعـرض الإشـكال في "الـواو" دون غيرها من حروف العطف، وذاك لأن تلك تفيد مع الإشراك معاني، مثل أن "الفاء" توجب الترتيب من غير تراخ، و "ثـم" توجيـه مـع تـراخ، و "أو" تردد الفعل بين شيئين وتجعله لأحدهما لا بعينه، فإذا عطفت بواحـدة منهـا الجملة على الجملة، ظهرت الفائدة، **فإذا قلت**:

"أعطاني فشكرته"، ظهر بالفـاء أن الشـكر كـان معقبـا عـلى العطـاء ومسببا عنه وإذا قلت: "خرجت ثم خرج زيد"، أفادت "ثـم" أن خروجـه كـان بعـد خروجـك، وأن مهلـة وقعـت بيـنهما وإذا قلـت: "يعطيـك أو يكسوك"، دلت "أو" على أنه يفعل واحدا منهما لا بعينه.

ولـيس "للـواو" معنـى سـوى الإشراك في الحكـم الـذي يقتضـيه الإعراب الذي أتبعت فيه الثاني الأول. فإذا قلت: "جـاءني زيـد وعمـرو"

لم تفد بالواو شيئا أكثر من إشراك عمرو في المجيء الذي أثبته لزيد والجمع بينه وبينه، ولا يتصور إشراك بين شيئين حتى يكون هناك معنى يقع ذلك الإشراك فيه.

وإذا كان ذلك كذلك، ولم يكن معنا في قولنا: "زيد قائم وعمرو قاعد" معنى تزعم أن "الواو" أشركت بين هاتين الجملتين فيه، ثبت إشكال المسئلة).

وبعد هذا الإثبات بدأ عبد القاهر يجيب عن ذلك بقياس الجمل على المفردات، وتلك سنة عند الإمام أنه إذا وجد بابا غامضا هُدي إلى باب واضح يقيس عليه الغامض، **فقال** : (**واعلم أن سبيلنا أن ننظر إلى فائدة العطف في المفرد، ثم نعود إلى الجملة فننظر فيها ونتعرف حالها**).

وهذه قاعدة في جميع العلوم : قياس المجهول على المعلوم، وحمل الغامض على الواضح، وبناء ما ليس له قاعدة على ما له قاعدة . **ثم قال** :

(ومعلوم أن فائدة العطف في المفرد أن يشرك الثاني في إعراب الأول وأنه إذا أشركه في إعرابه فقد أشركه في حكم ذلك الإعراب، نحو أن المعطوف على المرفوع بأنه فاعل مثله، والمعطوف على المنصوب بأنه مفعول به أو فيه أو له شريك له في ذلك، وإذا كان هذا أصله في المفرد، فإن الجمل المعطوف بعضها على بعض على ضربين:

أحدهما: أن يكون للمعطوف عليها موضع من الإعراب، وإذا كانت كذلك، كان حكمها حكم المفرد، إذ لا يكون للجملة موضع من الإعراب حتى تكون واقعة موقع المفرد، وإذا كانت الجملة الأولى واقعة موقع المفرد كان عطف الثانية عليها جاريا مجرى عطف المفرد على المفرد ، وكان وجه الحاجة إلى "الواو" ظاهرا، والإشراك بها في الحكم موجودا، **فإذا قلت**:

"مررت برجل خَلْقه حسن وخُلقه قبيح" كنت قد أشركت الجملة الثانية في حكم الأولى، وذلك الحكم كونها في موضع جر بأنها صفة للنكرة. ونظائر ذلك تكثر، والأمر فيها يسهل.

والذي يشكل أمره هو الضرب الثاني، وذلك أن تعطف على الجملة العارية الموضع من الإعراب جملة أخرى، كقولك : "زيد قائم، وعمرو قاعد" و "العلم حسن، والجهل قبيح".

لا سبيل لنا إلى أن ندعي أن "الواو" أشركت الثانية في إعراب قد وجب للأولى بوجه من الوجه. وإذا كان كذلك، فينبغي أن تعلم المطلوب من هذا العطف والمغزى منه، و لِمَ لمْ يستو الحال بين أن تعطف وبين أن تدع العطف فتقول: "زيد قائم، عمرو قاعد"، بعد أن لا يكون هنا أمر معقول يؤتى بالعاطف ليشرك بين الأولى والثانية فيه؟.

هذه أسئلة تحتاج إلى مراجعة، وأنا أعيدها على أذنك لتكون محل نظر وسمع

١- ما المطلوب من العطف بالواو بين الجمل التي لا محل لها من الإعراب ؟

ما المغزى من العطف

٢- ما الفرق بين العطف وعدم العطف ؟

وحل الإشكال عند الإمام لم يكن في قواعد اللغة، بل كـان في طبيعـة النفس، فعبد القـاهر لم يُجـب عـن الإشـكال مـن خـلال، القيـاس العقـلي بل من خلال استحسان النفس، وشعورها بالتآلف بـين الكـلام، أو عـدم شعورها . فالنفس هي المرجع، والـنفس هـي الحَكَـم، ومعلـوم أن الـنفس لا تقبل الجمع بين شيئين إلا إذا كان بينهما عُلقة وصلة، فمن طبيعـة الـنفس أنها تستحسن التناسـب، وتسـتعذب التنـاظر، فـإذا قلـت : (زيـد شـاعر) حسن عندها أن تعرف حال قرين (زيد)، فتقـول لهـا :(وعمـرو كاتـب) لا حظ هذا التوافق بين (زيد و عمرو) وكذلك بين (شاعر وكاتب) .

ولا يستقيم عند النفس : زيد شاعر وعمرو طويل، كما أنه لا يسـتقيم عندها : زيـد شـاعر والقلَـم كاتـب) إذ لاعلاقـة بـين (الشِـعر والطـول) وكذلك لا علاقة بين (زيد والقلم)، **ولذلك كله عاب النقاد قول أبي تمام** :

لا والـذي هـو عـالم أن النـوى صـبر وأن أبـا الحسـين كـريم

لأنه لا مناسـبة بـين (صـبر النـوى، وكـرم أبي الحسـين)، والعـرب لا تجمع بين شيئين إلا في وجـود مناسـبة بيـنهما، لأن المعـاني كالأشـخاص والأرواح جنود مجندة، ولو سُئلت : ماذا تصـنع الـواو بـين : (زيـد كاتـب وعمرو شاعر)؟

قل: تجمع بين أمرين مضمومين في النفس، لأن المعاني كالأشخاص فإذا قلت: العلم حسن والجهل قبيح، تكون قد جمعت بين أمرين مضمومين في النفس، فهي التي إذا سمعت جملة : (العلم حسن) ،انتظرت أختها المضمومة معها عندها وهي : (الجهل قبيح.)

وقبل أن أغلق الباب مع قراءتي في عقل الإمام أقول لك : إن هذا الباب عند الإمام من الأهمية بمكان، حتى إنه كان يصدر أجزاءه بكلمة (اعلم) ويختمها بكلمة (فاعرفه)، وكان يكثر من شواهده ويوضح رؤيته بالمثال المصنوع أولا، ثم يتبعه بسيل من الآيات القرآنية والشعرية، ثم يلخص في نهاية الأمر فكرته، مثلما قال "وإذا قد عرفت هذه الأصول والقوانين في شأن فصل الجمل ووصلها فاعلم أنَّا ..." بل ويعيد التلخيص، ويذكره ثانية، **مثلما قال** :" فتركُ العطف يكون إما للاتصال إلى الغاية، أو للانفصال إلى الغاية، والعطف لما هو واسطة بين الأمرين، وكان له حال بين حالين فاعرفه" ويريد من "الاتصال إلى الغاية" "كمال الاتصال" ويعني بـ "الانفصال إلى الغاية" "كمال الانفصال" أما الواسطة بين الأمرين والحالة التي بين الحالتين، فهي ما تعرف بـ "التوسط بين الكمالين".

طريقة الإمام

إن الرجل رَحِمَهُ اللهُ له طريقة خاصة في عرض موضوعاته، تعتمد على عدة نقاط ينبغي التأكيد عليها، وهي :

١- الإقناع .

٢- وإثارة القارئ، وترغيبه .

٣- تنوع الشواهد بداية من المثال المصنوع، والآيات القرآنية، والحدث الشريف، والشعر .

٤- جعل المعلوم هاديا إلى المجهول، وكاشفا له، ولذلك جعل الفصل والوصل بين المفردات هاديا إلى الفصل والوصل بين الجمل .

٥- لم يقتصر في أمثلته على (الواو) بل ذكر معها الفاء أيضا .

٦- لم يكن الفصل والوصل بين الجمل فقط، بل كان بين مجموع جمل ومجموع جمل أخرى .

٧- العلاقة بين الجمل تظهر بوضوح من خلال السياق .

٨- تحليل أغلب الشواهد .

٩- التكرار، والإلحاح على الفكرة .

١٠- بيان مدى أهمية الفكرة التي يستعرضها وقيمتها وأسرارها البلاغية .

١١- اتخاذ القارئ قرينًا أثناء الكتابة، فتراه يخاطبه، ويحاوره، وكأنه في مجلس علم، **وانظر معي في تحليله لقول الله تعالى:**

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ..... ﴾

[سورة لقمان:٧]

حيث يقول:(إن المقصود من التشبيه بمن في أذنيه وقر، هو بعينه المقصود من التشبيه بمن لم يسمع ، إلّا أنّ الثاني أبلغ وآكد في الذي أريد.

وذلك أن المعنى في التشبيهين جميعا أن ينفي أن يكون لـتلاوة مـا تـلي عليه من الآيات فائدة معه، ويكون لها تأثير فيه، وأن يجعـل حالـه إذا تليـت عليه كحاله إذا لم تتل. ولا شبهة في أن التشبيه بمن في أذنيه وقر أبلـغ وآكـد في جعله كذلك، من حيث كان من لا يصحّ منه السمع وإن أراد ذلك، أبعد من أن يكون لتلاوة ما يتلى عليه فائدة، من الذي يصـحّ منـه السـمع إلّا أنـه لا يســمع، إمّــا اتفاقــا وإمــا قصــدا إلى أن لا يســمع. فاعرفه، وأحســن تدبّره) (١).

وأقول لك حتى تكون على بيّنة : إن الإمام عبد القاهر لم يضع الكلمة الفصل في باب الفصل والوصل، ولم يغلق بعده الباب، بل فتح الباب لكـل ناظر، وبسط الطريق لكل سـالك، وأقـام الأسـاس لكـل بـان، فـلا تجهـد نفسك في الشرح والتلخيص، وأقم فوق الأساس جدارا جديدا

ولا تكن إمعة، واعلم أن الدلالـة عـلى الطريـق هـي عمـل العلـماء السابقين، والسير بعد ذلك عليـك، فـافتح مـن هـذا البـاب سـبلا أخـرى وحاول أن تنظر إلى الآيات في القرآن الكـريم وعلاقاتهـا نظـرك إلى الجمـل في العبارة وعلاقاتها، وقس هذا على ذلـك، لأن وضـع علامـة الآيـة يشـبه وضع الواو بين الجمل، وضَمُّ المعاني الكثـيرة في الآيـة الواحـدة يشـبه نـزع العاطف من الجملة والمجيء بها متصلة من الداخل، وكلما تدبرت، وقست

١- دلائل الإعجاز ص ١٥٢.

مالا تعرف على ما عرفت انفتحت لـك مـن كنـوز الـدلالات مـا لا يحصيه المحصي .

لكني قبل أن أترك هذا الباب أذكرك بأهم ما ينبغي أن تذكره :

أولا : أن وجود الواو بـين الجملتـين يعنـي أن كـل جملـة مسـتغنية بنفسـها عن سابقتها، ومستقلة عنها، لذا ربطت بينهما الواو .

ثانيـا : أن حـذف الـواو يعنـي أن الجمـل المتتاليـة مجموعـة في خـبر واحـد ومتولدة بعضها من بعض وكأنها جملة واحدة، ولا يجوز فهم إحـداها بمعزل عن الأخرى .

ثالثا : أن دراسة الفصل والوصل لا ينبغي قصره على الجمـل، بـل يجـب أن يمتد إلى ساحة المفردات، والتراكيب، وما بعدها .

رابعا : أن الوصل بـالواو لا يعنـي أن الوصـل بغيرهـا خـارج عـن البـاب فالقرآن الكريم وصل بالواو وبثم وبالفاء، وبضمير الفصـل، وبغـير ذلك .

خامسا : أن القرآن الكريم عطف الإنشاء على الخـبر، والخـبر عـلى الإنشـاء والمعنى على المعنى، والقصة على القصة .

نظرات للشيخ أبي موسى على الفصل والوصل

للشيخ الجليل أبي موسى وقفات يرى فيها أن المقياس لا يعود إلا تقسيمات البلاغيين، وإنما يعود إلى منزلة المعاني، وأنواعها، فكل ما كان منسولا من بعضه، ومرتبا بعضه على بعض ترى فيه الفصل أولى وترى الجمل مرصوصة بجوار بعضها البعض، تسلمك الأولى إلى الثانية والثانية إلى الثالثة، والثالثة إلى الرابعة، فالجمل كلها كأنها جملة واحدة في حين أنك ترى جملا أخرى يستقل بعضها عن بعض، وتقف كل جملة كأنها موضوع وحدها، وهنا يجب ربطها بما بعدها بالحرف، وليس أولى من الواو هنا، وترتب على ذلك أنك ترى جملا تمثل التوكيد لما قبلها، لكنها معطوفة "ولذلك وردت بعض الأساليب التي نص فيها البلاغيون على أنها يجب فيها الفصل جاءت موصولة بالواو، **ومن ذلك** :

قوله تعالى:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾﴾ [سورة الأحزاب:٧]

فعطف قوله: {**وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا**} على سابقه، وإن كان الميثاق هنا هو الميثاق هناك ، والأخذ هنا هو الأخذ هناك ، ليوهم أنه لما وصف بأنه غليظ صار كأنه ميثاق آخر، وذلك تفخيم لشأن الميثاق ، وتنويه به .

وعلى طريقته **قوله تعالى:**

﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا هُودٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَنَجَّيۡنَٰهُم مِّنۡ عَذَابٍ غَلِيظٖ ﴿٥٨﴾﴾

[سورة هود:٥٨]

فقد عطف {وَنَجَّيۡنَٰهُم } على {نَجَّيْنَا هُودًا} وإن كانت النجاة واحدة وذلك؛ لأنه لما ذكر ما نجاهم منه كانت النجاة الثانية كأنها نجاة مختلفة عن الأولى، فعطفها عليها تمييزًا لها، وتفخيمًا لشأنها .

ويرى الشيخ أن الجملة التي تأتي في عقب الكلام مؤكدة له ، والتي تتكاثر في القرآن قد ترد بالواو وبغير الواو ومثال ورودها بالواو **قوله تعالى:**

﴿قَالَتۡ إِنَّ ٱلۡمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرۡيَةً أَفۡسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهۡلِهَآ أَذِلَّةٗۚ وَكَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [سورة النمل:٣٤]

فجملة (وكذلك يفعلون) جملة مؤكدة لما قبلها، وجاءت معطوفة بالواو، وأمثال هذا في القرآن الكريم كثير، وقد آذنت هذه الواو أن ذلك عادة من عاداتهم، ووجه هذه الدلالة أن الواو تشير إلى المغايرة، فكأنهم يفعلون ذلك، ويفعلون مثله .

ومثال ورودها بغير الواو قوله تعالى:

﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا فَأۡتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾﴾ [سورة الشعراء:١٥٣-١٥٤]

من غير واو في حكاية ما قالته ثمود لصالح -عليه السلام- ، في حين جاءت بالواو في حكاية **ما قاله أصحاب الأيكة لشعيب:**

﴿ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ ﴾ [سورة الشعراء:١٨٥-١٨٦]

هذا أول ما نبه إليه أستاذنا في ورود بعض الأساليب التي نصوا على أنها يجب فيها الفصل جاءت موصولة بالواو؛ **ولذلك يقول:**

"**هذا هو كمال الاتصال بشعبه الثلاثة**: التوكيد والبيان والبدل وهو حال من أحوال الفصل وإن كنا نراه والذي يليه حالا من أحوال الوصل ؛ لأن الوصل في الحقيقة وصلان : وصل ظاهر بحرف الوصل ووصل خفي تتصل فيه الجملة من ذات نفسها، وهو أقوى الوصلين".

ويعقب أيضًا على ما ذكر في شبه كمال الانقطاع ، يقول: " أما شبه كمال الانقطاع ، فهو أن تكون الجملة الثانية بمنزلة المنقطعة عن الأولى يعني: أنها صالحة لأن تعطف، ولكن عطفها عليها يوهم عطفها على غيرها ، فيلتبس المعنى وحينئذٍ يجب القطع، فيقول: قد نبهوا إلى أن هذه السور يمكن أن تكون من شبه كمال الاتصال، وبذلك يبقى شبه كمال الانقطاع بابًا فارغًا من أي شاهد، وهذا هو الوجه الذي نرضاه".

فيشير إلى أننا نستطيع أن نستغني عما يسمى بشبه كمال الانقطاع، وأنه يندرج في شبه كمال الاتصال، ويستدل على ذلك بآيات من كتاب الله تعالى فيقول: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [سورة العنكبوت:١٢]

وهذا شبيه بقوله تعالى:

﴿ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ...... ﴾ [سورة البقرة:١٥]

فقوله سبحانه:

﴿ .....وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيْءٍ ...... ﴾ [سورة العنكبوت:١٢]

شبيه بقوله سبحانه: {اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ} من جهة أنه ليس داخلًا في الكلام السابق، وقد جاء بالواو وهي الواو التي يعطف بها مضمون كلام، ولا يتوهم دخولها في حكم ما قبلها **يعني في حيز قول:**

{ الَّذِينَ كَفَرُوا } ويمكن أن تكون عاطفة لهذه الجملة، وما بعدها على جملة { وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا } وبهذا تدخل في حيز القول لأنها معطوفة عليه، وليست معطوفة على معموله، وتكون الواو هنا مفيدة معنى خبرًا ثانيا عنهم **يعني: أنهم قالوا لهم**: اتبعوا سبيلنا ونحمل خطاياكم وأنهم لن يحملوه".

ويعقب أيضًا على مسألة عطف الخبر على الإنشاء، ويقول: "وجدنا الواو تقع كثيرًا بين الخبر والإنشاء **ومن ذلك:**

﴿....وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ٢٨٢﴾

[سورة البقرة:٢٨٢]

وقوله تعالى:

﴿وَلَا تَأۡكُلُواْ مِمَّا لَمۡ يُذۡكَرِ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسۡقٞۗ ...﴾ [سورة الأنعام:١٢١]

وقوله تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا مِنۡ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ٢٢﴾ [سورة الحج:٢٢]

وقوله تعالى:

﴿وَإِذۡ جَعَلۡنَا ٱلۡبَيۡتَ مَثَابَةٗ لِّلنَّاسِ وَأَمۡنٗا وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلّٗىۖ ....﴾

[سورة البقرة:١٢٥]

وقوله سبحانه:

﴿وَإِن تَجۡهَرۡ بِٱلۡقَوۡلِ فَإِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى ٧ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ ٨ وَهَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ٩﴾ [سورة طه:٧-٩]

وقوله سبحانه:

﴿....وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحِكۡمَةَ وَفَصۡلَ ٱلۡخِطَابِ ٢٠ وَهَلۡ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلۡخَصۡمِ إِذۡ تَسَوَّرُواْ ٱلۡمِحۡرَابَ ٢١﴾ [سورة ص:٢١]

والحقيقة أن التأول هو الذي يذهب بالمعنى إلى واحد من مواضع الفصل إن كان الكلام مفصولا، أو إلى واحد من مواضع الوصل إن كان الكلام موصولا، وملاحظات العلماء لا تعوق ما أثبتُّه من قاعدة حاكمة للفصل أو للوصل وهي :

(أن الجمل إذا استقلت، ودلت على المعاني التامة المستقلة وجب وصلها بالواو، أما إذا تنامت، وترتبت، ووضع منها ثان على أول وجب فصلها) .

الفصل الثاني

القصر

توطئة :

هذا أشهر أبواب علم المعاني في هذه المرحلة، فيه يصول ويجول أهل البيان، فهو باب زاخر بالدلالات، مليئ بالأسرار، تتنوع شواهده وتكثر حوله الأفكار، لأنه باب مستمد من باب الخبر، وبخاصة الخبر المؤكد بإنّ، وأول ما يستوقف القارئ هنا هو هذا المصطلح : (القصر)

وفي اللغة تجد هذه المادة مكونة من (القاف والصاد والراء) وتحمل أصلين صحيحين، أحدهما يدل على ألا يبلغ الشيء مداه ونهايته.

والآخر على الحبس، والأصلان متقاربان .

فالأول القصر: خلاف الطول، **يقول**: هو قصير بين القُصَّر.

ويقال : قصرت الثوب والحبل تقصيرًا .

والقصر: قصر الصلاة : وهو ألا يتم لأجل السفر.

قال الله تعالى:

﴿ ..... **فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ** ..... ﴾ [سورة النساء:١٠١]

والقصيرى: أسفل الأضلاع ، وهي الواهنة.

والقصيرى: أفعى، سميت لقصرها. ويقال أقصرت الشاة إذا أسنت حتى تقصر أطراف أسنانها. وأقصرت المرأة : ولدت أولادا قصارا .

ويقال: قصرت في الأمر تقصيرا ، إذا توانيت ، وقصرت عنه قصورا : عجزت.

وأقصرت عنه إذا نزعت عنه وأنت قادر عليه.

قال:

لولا علائق من نعم علقت بها — لأقصر القلب مني أي إقصار

وكل هذا قياسه واحد، وهو ألا يبلغ مدى الشيء ونهايته.

والأصل الآخر.. القصر بمعنى : الحبس، يقال: قصرته إذا حبسته وهو مقصور، أي محبوس، **قال الله تعالى:**

﴿**حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِي ٱلْخِيَامِ** ﴿٧٢﴾﴾ [سورة الرحمن:٧٢]

وامرأة قاصرة الطرف : لا تمده إلى غير بعلها ، كأنها تحبس طرفها حبسا.

قال الله سبحانه: ﴿**فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ** ....﴾ [سورة الرحمن:٥٦]

ويقال: أقصرنا ، إذا دخلنا في ذلك الوقت.

ويقال لذلك الوقت المقصرة ، والجمع مقاصر)(١).

١- مقاييس اللغة لابن فارس (قصر).

فالقصر إذا يعنى : الحبس، وهو خلاف المد، والقصر يعني أيضا : الحطب الجذل، وكل بيت من حجر يقال له : قصر، والقصر أيضا يعني : المنع، وتقول العرب : قصر فلان فلانا على الأمر، تعني : رده إليه وقصر فلان فلانا عن الأمر بمعنى : منعه عنه، وقصّر في الأمر: عجز عنه .

أما في الاصطلاح، فاللفظ يحمل من الخصوصيات التركيبية والدلالية الكثير، **فتعريفه عند البلاغيين هو** :

(تخصيص أمر بأمر بطريق معهود)

وهذا التعريف يحمل ركيزتين :

- **الأولى هي** : تخصيص أمر بأمر .
- **والأخرى** : الطريق المعهود .

أما عن الركيزة الأولى فينبغي الالتفات إلى أن القصر يربط طرفين على أساس التخصيص والتعيين والتحديد .

وأما عن الركيزة الأخرى فهي الطريق المعهود، فللقصر طرق معهودة، منها ما هو ظاهر جلي، ومنها ما هو مستتر خفي .

واعلم أنه ليس كل تخصيص يسمى قصرا، **فلو أنك قلت** : زيد مختص بحراسة المسجد، وعمرو مختص بحراسة المنزل، لم يكن هذا من أساليب القصر، ولا يدخل دائرته البلاغية، لأن المعنى القائم في هذه العبارات معنى مطابق للفظ، والبلاغة لاتسمح بمثل هذه الدلالات

في ساحاتها، ولذلك كان للقصـــر طـرق خاصـة، ومحـددة تشـير إلى التخصيص، وتحمله في جعبتها، دون أن تصرح به .

ولذلك لم يشمل باب القصر قول الله تعالى :

﴿.....يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ.....﴾ [سورة البقرة:١٨٥]

مع أنه أسلوب يحمل جملتين، إحداهما مثبتة، والأخرى منفية، لكنـه لم يدخل باب القصر من طريقه الاصطلاحي، وهو أن يدل على معنى بطريـق التصريح، ويدل على الأخرى بطريـق التلـويح، ولـو أردت أن تحـول هـذه العبارة إلى تركيب يفيد القصر لقلت : ما يريد الله بكم إلا اليسر .

طرفا القصر

في جملة القصر طرفان ،(صـفة وموصـوف) ، فـإذا أردت أن تجعـل الصفة خاصـة بالموصـوف، كنـت قـد قصـــرت الصـفة عليـه فـلا تتعـداه **ويسمى القصر ساعتها** : قصر صفة على موصوف .

وإذا أردت أن تجعل الموصوف مخصوصا بالصفة كنـت قـد قصـــرت الموصوف عليها فلا يتعـداها، ويسـمى القصـــر حينئـذ قصـــر موصـوف على صفة .

ولكي يتضح لـك الأمـر انظـر في الفـرق بـين قولنـا : لا إلـه إلا الله **وقولنا** : وما محمد إلا رسول .

في جملـــة (لا إلـــه إلا الله) قصرـــت صـــفة الألوهيـــة عـــلى الله **y** فلا ألوهية لأحد إلا لله تعالى، وهذا من باب قصر الصفة على الموصوف

لأننا خصصنا صفة الألوهية بموصوف واحد هو الله، ونفيناها عما سواه .

لكن في قولنا (ما محمد إلا رسول) تجد المقصور هو لفظ (محمد) والمقصور عليه هو لفظ الرسول، وكنت قد قصرت الموصوف على الصفة وخصصت محمدا بالرسالة، ونفيت عنه ما عداها من الصفات التي رموه بها مثل السحر والشعر والكهانة .

وراجع معي هذا السياق، قال تعالى:

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾

[سورة آل عمران:١٤٤]

المعنى: أن محمدا ﷺ كسائر الرسل، قد بلّغ كما بلغوا، ولزمكم أيها المؤمنون العمل بمضمن الرسالة وليست حياة الرسول وبقاؤه بين أظهركم شرطا في ذلك، لأن الرسول يموت كما مات الرسل قبله، و(خَلَتْ) معناه مضت وسلفت، وصارت إلى الخلاء من الأرض، **الغرض إنما هو:** أتنقلبون على أعقابكم إن مات محمد؟ فالسؤال إنما هو عن جواب الشرط...

والانقلاب على العقب يقتضي التولي عن المنقلب عنه، ثم وعد الشاكرين وهم الذين صدقوا وصبروا ولم ينقلب منهم أحد على عقبيه بل

مضى على دينه قدما حتى مات، فمنهم سعد بن الربيع، ومنهم أنس بن النضر، ومنهم الأنصاري الذي مر عليه رجل من المهاجرين، وهو يتشحط في دمه، فقال: يا فلان أشعرت أن محمدا قد قتل، فقال الأنصاري: إن كان محمد قد قتل فإنه قد بلغ، فقاتلوا عن دينكم.

و«**الشاكرون**» : **الثابتون على دينهم، أبو بكر وأصحابه وكان يقول:** أبو بكر أمير الشاكرين، وهذه عبارة من علي بن أبي طالب رضي الله عنه إنما هي إلى صدع أبي بكر رضي الله عنه بهذه الآية في يوم موت النبي عليه السلام وثبوته في ذلك الموطن، وثبوته في أمر الردة، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قبض وشاع موته، هاج المنافقون وتكلموا، وهموا بالاجتماع والمكاشفة، أوقع الله تعالى في نفس عمر رضي الله عنه أن النبي لم يقبض فقام بخطبته المشهورة المخوفة للمنافقين برجوع النبي عليه السلام، ففت ذلك في أعضاد المنافقين وتفرقت كلمتهم ثم جاء أبو بكر بعد أن نظر إلى النبي عليه السلام فسمع كلام عمر فقال له: اسكت، فاستمر عمر في كلامه فتشهد أبو بكر فأصغى الناس إليه، فقال: أما بعد فإنه من كان يعبد الله تعالى، فإن الله حي لا يموت ومن كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات،(**وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ**) ، وتلا الآية كلها، فبكى الناس ولم يبق أحد إلا قرأ الآية كأن الناس ما سمعوها قبل ذلك اليوم، قالت عائشة رضي الله عنها في البخاري: فنفع الله بخطبة عمر، ثم بخطبة أبي بكر) (1).

١- المحرر الوجيز لابن عطية بتصرف ١/ ٥١٦.

وبعد **استعراض هذا السياق** تـدرك سريعـا أن المـراد قصرـ الرسـول الكريم على الرسالة، فليس محمد إلا رسولا، وهذا من قصر الموصوف عـلى الصفة لأن المنفي هنا هو الخلود، فلا خلود ولا بقاء إلا لله، ومن كـان يظـن أن محمد مخلد، فليعد النظر لأن محمدًا رسول، وليس إلا رسول ... وهكـذا تجد السياق يثبت الرسالة وينفي الخلود، **ولذلك قيل** : " قد خلت من قبلـه الرسل " أي ماتوا من قبله، وهو مثلهم يموت كـما مـاتوا، وهـذا مـا فقهـه الصحابي الذي كان يتشحط في دمه، فقال لمن ساله : إنه قد بلّغ فقاتلوا عـن دينكم .

بين الصفة والموصوف:

ليس المراد من الصفة في حديث البلاغة، وبخاصـة في بـاب القصــر النعت الذي تحدث عنه النحاة، لأن النعت عنـد النحـاة تـابع مـن التوابـع سواء جاء مفردا **مثل** : (وقال رجل مؤمن) **أو جملة مثل** :

(وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى) .

إنما المراد بالصفة في عرف البلاغيـين (المعنـى) ومعـروف أن المعـاني تسند في الكلام إلى الذوات، وتتعلق بالذوات، **فحين تقول** :

(مـا فـاز إلا خالـد)، قصرـت (الفـوز)، وهـو معنـى عـلى (زيـد) وهو ذات ، ولو وضعت مكـان الـذات صـفة، وجـب أن تؤولهـا بالـذات ولو وضعت مكان الصفة ذاتا وجب أن تؤولها بالصفة، ولا حظ معي هذا

حين تقول : إنما محمد أخوك، حينئذ يجب أن تؤول(أخـوك) بمعنـى حبيبك أو قريب منك جدا، أو نحو ذلك من المعاني، **وحين تقول** :

إنـما الإحسـان كـرم، وجـب أن تجعـل الكـرم ذاتـا، ويكـون المعنـى ما الإحسان إلا من كريم، أو ما الكـرم إلا مـن محسـن ... وهكـذا، فحـين تعلق طرفا بطرف يجب عليـك أن تجعـل المتعلـق صـفة، والمتعلـق بـه ذاتـا والمعول عليه هنا ما يقصده المتكلم، ويتواءم مع السياق .

النفي محور التقسيم

تتعدد تقسيمات القصر، وتتنوع مصطلحاته بحسب هـذه التقسـيمات إلا أن المرتكز الذي يدور حوله كل هذا هو النفي، أو المنفي في جملة القصرـ فالأصل في عبارة القصر أنها تشمل جملتين، الأولى مثبتـة، والأخـرى منفيـة **فحين تقول** :

(ما نجح إلا محمد) جمعت بين جملتين في عبارة واحدة الأولى أثبـتّ فيها النجاح لمحمد، والأخرى نفيـت فيهـا النجـاح عـن غـيره مـن أقرانـه وكذا باقي صور القصر، **فالقصر كما قلت في التعريف** :

إثبات أمر لأمر ونفيه عن غيره، فهناك إثبات ونفي، والقصـد الأول من جملة القصر هو الإثبات ،ويأتي النفي مؤكدا لـه، وقـد يصرـح بـه، وقـد لا يصرح به، وسواء صرح به أم لم يصرح فإن هذا النفي هو المحـور الـذي ينطلق من عنده فروع القصر، وتتنوع تقسيماته .

وعلة ذلك أن الإثبات في جميع طرق القصر ظاهر واضح، يدل عليه باللفظ المنطوق، فلا قصر إلا بوجود الجملة المثبتة، أما المعنى المنفي فإنه غالبا مستور ،وهذا المستور عرضة للاحتمال والظن، فقد يكون عاما وقد يكون خاصا، وهذا ينتج القصر ـ الحقيقي والقصر ـ الإضافي، ومنهما تتفرع باقي تقسيمات القصر.

فإن كان المنفي مبنيا على الادعاء كان القصر ادعائي، وإن كان المنفي حقيقيا كان القصر تحقيقيا، ثم تتفرع من القصر فروع أخرى بحسب اعتقاد المخاطب إلى قصر قلب، وقصر إفراد، وقصر تعيين، **وذلك كله راجع إلى** :

هل المنفي أحق بالإثبات؟، أو أن المنفي مشارك للمثبت ؟ أو أن المتكلم متردد بين الاثنين ؟

وهكذا ترى كل تصاريف القصر عائدة إلى النفي، وهو الذي في عقل المتكلم، وغالبا لا ينطق به، إنما يستشفه القارئ من خلال السياق والمقام .

القصر بين الحقيقي والإضافي:

إذا أراد المتكلم توجيه النفي إلى كل الأفراد سوى المذكور سمي القصر قصرا حقيقيا، وإذا أراد توجيه النفي إلى محدد في السياق والمقام سمي القصر قصرا إضافيا، فالقصر الحقيقي هو : إثبات شيء لشيء، ونفيه عن كل ما عداه، وأعني بكل ما عداه : أي : من جنسه، ومما له به علاقة أو يمكن تصوره عند وجود الصفة .

ولا يمكن أن يراد بما عداه كل شيء، لأن هـذا خـارج عـن التصـور **فحين تسمع قول الشاعر :**

إلى الله أشكو لا إلى الناس إننـي   أرى الدهر يفنى والأخلاء تـذهب

أثبت شكواه إلى الله تعالى، ونفاها عن كل ما سـواه مما قـد يظـن أنـه يشتكى إليه، قصر صفة على موصوف قصر حقيقي تحقيقي.

وحين تقول: لا شـاعر إلا المتنبـي، فأنـت تثبـت الشـاعرية للمتنبـي وتنفيها عن غيره من الشعراء مثل أبي فراس والبحـتري وابي تمـام ... وكـل من يطلق عليه شاعر فهو بالنسبة للمتنبي لـيس بشـاعر، فحـديثنا هنـا عـن الشعراء، وليس حديثنا عن العلماء مثل الجاحظ، وعبد القاهر، وابن سنان، وأبي هلال، والمبرد ...إلخ فهذا لا يتصور، لأن الذهن لا يسـتدعي هـؤلاء عند حديث الشعر، **يقول دريد بن الصمة**[1]:

(أَمرتهم أَمْـرِي بمنعـرج اللـوى   فَلم يستبينوا الرشد إِلَّا ضحى الْغَـد)

(فَلَمَّا عصوني كنت مِنْهُم وَقد أرى   غــوايتهم وأننــي غــير مهتــد)

(وَمَا أَنا إِلَّا من غزيَّـة إِن غـوت   غويـت وَإِن ترشـد غزيَّـة أرشـد)

---

١ - دريد بن الصمة الجشمي البكري، من هوازن: شجاع، من الأبطال، الشعراء، المعمرين في الجاهلية. كان سيد بني جشم وفارسهم وقائدهم، وغزا نحو مئة غزوة لم يهزم في واحدة منها. ت ٨هـ.
وعاش حتى سقط حاجباه عن عينيه، وأدرك الإسلام، ولم يسلم، فقتل على دين الجاهلية يوم حنين، وكانت هوازن خرجت لقتال المسلمين فاستصحبته معها تيمنا به، وهو أعمى، فلما انهزمت جموعها أدركه ربيعة بن رفيع السلميّ فقتله. له أخبار كثيرة. والصمة لقب أبيه مُعَاوِيَة بن الحارث.

و(غزية) قَبيلَة وَكَانَ دُرَيْد أَشَارَ على أَخِيه عبد الله بالنجاء وَترك التلبث وَهُوَ منصرف عَن غَارة أغارها فَأبى، فأدركه الطّلب، فَقتل . وأُسر (دريد) ثم نجا فغزاهم من قابل فقتل قاتل أخيه. ووجه المبالغة في هذا الكلام أنه أخبر بموافقة أخيه على علمه بأنها غي وترك مخالفته مع معرفته أنها رشد كراهة الخروج من هواه .

وقريب منه قول عمر بن أبي ربيعة :

(وذي ودٍ أملتُ إليه نصحاً وكان لما أشيرُ به سميعا)

(أطافَ بغيهِ ونهيتُ عنها وقلتُ تجنبِ الأمرَ الفظيعا)

(أردتُ رشادهُ جَهدي فلما صى وأبى ركبناها جميعا)

والمهم أن في قول الشاعر (وما أنا إلا من غزية) قصرا، حيث قصر نفسه على كونه من تلك القبيلة لا يتعداها إلى غيرها من القبائل ، فهو قصر حقيقي تحقيقي.

وقد يكون القصر الحقيقي ادعائيا كما في قول شوقي([1]):

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

حيث قصر رقي الأمم وتقدم الأمم ونهضتها على الأخلاق قصر موصوف على صفة قصرا حقيقيا ادعائيا؛ لأن هناك أمورا كثيرة تنهض بها الأمم وترقى مثل القوة والمال والعلم، وغير ذلك، ولكن الشاعر لم يلتفت إلى كل ذلك وجعل الرقي والتقدم والنهوض مقصورا على الأخلاق فإذا وجدت الأخلاق سادت الأمم، وعلت وارتقت، وإن هم ذهبت الأخلاق دارت عليهم الدوائر وفنوا ، **ومنه قول الآخر:**

---

١ - أحمد شوقي بن علي بن أحمد شوقي (ت ١٩٣٢ه): أشهر شعراء العصر الأخير. يلقب بأمير الشعراء. مولده ووفاته بالقاهرة. كتب عن نفسه: (سمعت أبي يردّ أصلنا إلى الأكراد فالعرب) نشأ في ظل البيت المالك بمصر، وتعلم في بعض المدارس الحكومية، وقضى سنتين في قسم الترجمة بمدرسة الحقوق، وأرسله الخديوي توفيق سنة ١٨٨٧ م إلى فرنسة، فتابع دراسة الحقوق في مونبليه، واطلع على الأدب الفرنسي وعاد سنة ١٨٩١ فعين رئيسا للقلم الإفرنجي في ديوان الخديوي عباس حلمي. وندب سنة ١٨٩٦ لتمثيل الحكومة المصرية في مؤتمر المستشرقين بجنيف.

ولما نشبت الحرب العامة الأولى، ونحي عباس حلمي عن (خديوية) مصر، اوعز إلى صاحب الترجمة باختيار مقام غير مصر، فسافر إلى إسبانية سنة ١٩١٥ وعاد بعد الحرب (في أواخر سنة ١٩١٩) فجعل من أعضاء مجلس الشيوخ إلى أن توفي. عالج أكثر فنون الشعر: مديحا، وغزلا، ورثاء، ووصفا، ثم ارتفع محلقا فتناول الأحداث السياسية والاجتماعية، في مصر والشرق والعالم الإسلامي، فجرى شعره على كل لسان. وكانت حياته كلها (للشعر) يستوحيه من المشاهدات ومن الحوادث. اتسعت ثروته، وعاش مترفا في نعمة واسعة، ودعة تتخللها ليال (نواسية) وسمى منزله (كرمة ابن هاني) وبستانا له (عشّ البلبل) وكان يغشى في أكثر العشيات بالقاهرة مجالس من يأنس بهم من أصدقائه، يلبث مع بعضهم ما دامت النكتة تسود الحديث، فإذا تحولوا إلى جدل في سياسة أو نقاش في (حزبية) تسلّل من بينهم، وأمّ سواهم. وهو أول من جود القصص الشعري التمثيلي، بالعربية، وقد حاول قبله أفراد، فبذهم وتفرد. وأراد أن يجمع بين عنصري البيان: الشعر والنثر، فكتب نثرا مسجوعا على نمط المقامات، فلم يلق نجاحا، فعاد منصرفا إلى الشعر. من آثاره (الشوقيات - ط) أربعة أجزاء، وهو ديوان شعره، و (دول العرب - ط) نظم، و (مصرع كليوباطرة - ط).

هـل الجـود إلا أن تجـود بـأنفس   على كـل مـاض الشـفرتين صـقيل

والمعنى أن تعريف الجـود عنـده لـيس كتعريـف النـاس لـه، فـالجود في قاموسـه يعنـي أن تجـود بـالنفس عـلى حـد السـيوف، فوضـع المعنـى في أسلوب قصر فليس الجود إلاالجود بالأنفس، قصر موصوف على صـفة قصرا حقيقيا ادعائيا ، فالجود بالنفس أسمى غاية الجود.

وقصر الموصوف على الصفة يعني بلوغ الموصوف الغايـة، ووصـوله حد النهاية في تلك الصفة ، فإذا قلت :(ما زهير إلا شاعر) كأنك قلـت أنـه بلغ المنتهى في الشعر ، ووصل إلى حدٍ جعلنـا لا نعتـد بالصـفات الأخـرى التي يمكن أن يتصف بها.

أما القصر الإضافي :

فإنه يعني : إثبات شيء لشيء ونفيه عن بعـض مـا عـداه مـن جنسـه فالنفي هنا عن بعض ما عدا المذكور، **ففي قوله تعالى** :

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ١٧١﴾

[سورة النساء:١٧١]

تجد الرد على اليهود والنصارى في قوله : (**إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ**)، حيث جاء القصر من باب قصر الموصوف على الصفة ، قصرا إضافيا ، أي ليس الله بثلاثة كما تزعمون .

وفي قوله : ﴿**مَّا ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٞۖ كَانَا يَأۡكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرۡ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ٧٥**﴾ [سورة المائدة:٧٥]

المعنى : أن المسيح عليه السلام مقصور على صفة الرسالة، وليس بإله ولا ابن الإله، هو رسول لا يتجاوز صفة الرسالة، وهذا من قبيل قصر الموصوف على الصفة قصرا إضافيا .

وأوضح لك الأمر : إذا قلت: (ما محمد إلا كاتب لا شاعر)، فأنت تثبت لمحمد صفة الكتابة، وتنفي عنه صفة أخرى محددة وهي الشعر فالنفي محصور في محدد، وليس مطلقا فيما عدا المثبت، وهذا فارق مهم في بيان حدود القصر الحقيقي، والقصر الإضافي .

يقول عبد القاهر (واعلم أن قولنا في الخبر إذا أخّر نحو:

« ما زيد إلّا قائم »، أنك اختصصت القيام من بين الأوصاف التي يتوهّم كون زيد عليها، ونفيت ما عدا القيام عنه، فإنما نعني : أنك نفيت عنه الأوصاف التي تنافي القيام ، نحو أن يكون « جالسا » أو « مضطجعا »

أو « متكئا »، أو ما شاكل ذلك ولم ترد أنك نفيت ما ليس من القيام بسبيل إذ لسنا ننفي عنه **بقولنا:**

« ما هو إلّا قائم » أن يكون «أسود» أو «أبيض» أو «طويلا» أو «قصيرا» أو «عالما» أو «جاهلا»، كما أنّا إذا قلنا: «ما قائم إلّا زيد»، لم نرد أنّه ليس في الدنيا قائم سواه، وإنما نعني ما قائم حيث نحن، وبحضرتنا وما أشبه ذلك)(1).

وهذا الكلام يؤكد أن العموم في القصر الحقيقي ليس على الإطلاق وإنما هو عموم في جنس المثبت، ولا حجة لسعد الدين التفتازاني حين أطلق الأمر فقال:(تخصيص الشيء بالشيء إما أن يكون بحسب الحقيقة ونفس الأمر بألا يجاوزه إلى غيره أصلا، وهو الحقيقي، أو بحسب الإضافة والنسبة إلى شيء آخر بأن لا يتجاوزه إليه، وهو غير الحقيقي، بل هو إضافي، لأن تخصيصة بالمذكور ليس على الإطلاق، بل بالإضافة إلى معين آخر، كقولك : ما زيد إلا قائم، بمعنى أنه لا يتجاوز القيام إلى القعود، ونحوه، لا بمعنى أنه لا يتجاوزه إلى صفة أخرى أصلا، وانقسامه إلى الحقيقي والإضافي بهذا المعنى لا ينافي كون التخصيص مطلقا من قبيل الإضافات) أهـ[2] وهذا الكلام يعني أن النفي في القصر مطلق، وهذا معناه

١- دلائل الإعجاز ت هنداوي ص ٢٢٥.

٢- المطول على التلخيص لسعد الدين التفتازاني ١/ ٢٠٤.

أنك إذا قصرت الكرم على محمد في قولـك : (مـالكريم إلا محمـد) فأنت تثبت له الكرم وتنفيه عن كل شيء في المخلوقات، وهذا يضاد صريح العقل، فلا يعقل أنك تثبت شيئا لشيئ وتنفيه عن غيره، وتضع تحت كلمـة غيره (كل شيء) ، هذا كله بعيد عن طبيعة أسـلوب القصر وعـن الفهـم الصحيح للسان العربي فضلا عن البلاغـة، لأن لكـل كـلام مقامـا وسـياقا يدور في فلكه، وكل مبدع حين يبدع النص العـالي يستحضر في عقلـه مـن يتلقاه من جنسه، كما يستحضر السياق المناسب له، والمقام الخاص بـه، وإذا غـاب كـل هـذا خرجـت مـن عـالم البلاغـة إلى عـوالم أخـرى لا يضبطها ضابط.

ومعلوم أن تقسيم القصر إلى حقيقي وإضـافي كـان مضـمنا في كـلام الإمام عبد القاهر، ولكنه لم يصرح بذلك كما صرح الشراح من بعده حيـث أطلق الشراح على القصر الحقيقـي هـذا الاسـم لأنـه تخصـيص بحسـب الحقيقة، ونفس الأمر، بحيث لا يتجاوز المذكور إلى غـيره أصـلا .وأطلقـوا على القصر الإضافي هذا الاسم لأن تخصيصه بالمذكور ليس عـلى الإطـلاق بل بالإضافة إلى معين آخر، وهذا ما أشار إليـه السـكاكي أيضـا، وإن كـان لم يصرح به، وذهب السيد الشريف إلى أن هـذه التسـمية نسـبة إلى الحقيقـة التي هي ضد المجاز .

القصر بين مطابقة الواقع والمبالغة:

لا شك أن تناول كل ما عدا المثبت، أو بعض ما عدا المثبت، إما أن يكون مطابقا للواقع، أو غير مطابق للواقع، وإما أن يكون قائما على الادعاء والتجوز، فإذا قلت : ما أجلسني هنا إلا العلم، فأثبت سبب الجلوس للعلم، ونفيته عن غيره، فإن طابق ذلك الواقع كان القصر ساعتها قصرا حقيقيا تحقيقيا، وإن كان جلوسك لغير العلم، أو للعلم وشيء غيره كان القصر قصرا ادعائيا، أومجازيا، والنفي فيه وإن كان غير مطابق للواقع إلا أنه مطابق لقناعة المتكلم .

ومن خلال هذه التنوعات تكون لدينا مجموعة من صور القصر التي يتمايز بعضها عن بعض، وهي كما يأتي :

١- **قصر حقيقي تحقيقي**، وهو إثبات شيء لشيء، ونفيه عن كلما عداه مما تلبس به نفيا متطابقا مع الواقع .

٢- **قصر حقيقي مجازي**، وهو إثبات شيء لشيء ونفيه عن كل ما عداه مما تلبس به على سبيل المجاز، وليس الحقيقة وقد صرح بذلك البهاء السبكي في مواهب الفتاح حيث قال : (وقد يقصد بالقصر الحقيقي المبالغة).

٣- **قصر إضافي حقيقي** ،وهو إثبات شيء لشيء ونفيه عن بعض ما عداه نفيا متطابقا مع الواقع الخارجي .

٤- **قصر إضافي مجازي**، وهو إثبات شيء لشيء ونفيه عن بعض ما عداه على سبيل التجوز، وقد لفت إلى ذلك العلامة العصام في الأطول **حيث قال** : (ومن البدائع الدقيقة المستخرجة بمعونة الفطرة !! أنه قد يقصد المبالغة بالقصر الإضافي فيقال لمن اعتقد ضرب زيد وعمرو : (ما ضرب إلا زيد) لا لرد اعتقاده، بل لتنزيل ضرب عمرو منزلة العدم)[1].

دقائق في الفروق بين الأقسام

أولا : **الفرق بين الحقيقي والإضافي** :

النفي في القصر الحقيقي يشمل كل ما عدا المثبت المذكور، أما الإضافي فالنفي فيه يكون لبعض ما عدا المذكور .

ثانيا : **الفرق بين التحقيقي والادعائي** :

النفي في القصر التحقيقي مطابق للواقع الخارجي، أما النفي في القصر الادعائي فلا يطابق الواقع الخارجي، بل مطابق لواقع المتكلم فهو مبني على التنزيل والمبالغة .

ثالثا : **الفرق بين الحقيقي الادعائي ،والإضافي الحقيقي** :

النفي في الحقيقي الادعائي يتناول كل ماعدا المذكور، والمنفي منزل منزلة العدم، فقولك : إنما محمد كريم، كان كل ما عدا الكرم من فضائل

١- الأطول للعلامة العصام ص ٤٥٣.

منفيا عنه نفيا غير مطابق للواقع، لأنه شجاع وحليم وصبور إلخ لكنك جعلت كل هذه الصفات بجانب الكرم غير موجودة، وكأنها لا شيء إذا قيست بكرمه في موازين القياس .

أما في الإضافي الحقيقي فالنفي يتناول بعض ما عدا المذكور، والمنفي غير منزل منزلة العدم، فإذا قلت : (إنما محمد كريم لا شجاع) كان ذلك قصرا إضافيا، لأن النفي لم يتناول سوى الشجاعة، وكان ذلك واقعا .

رابعا : **الفرق بين القصر الحقيقي الادعائي**، **والإضافي الادعائي** :

قلت إن القصر الحقيقي الادعائي يتناول النفي كل ما عدا المذكور والنفي فيه منزل منزلة العدم، أما الإضافي الادعائي فالنفي فيه يتناول بعض ما عدا المذكور، والمنفي منزل منزلة العدم، **مثل قولك** :

(إنما المتنبي شاعر لا حكيم) حيث تثبت له صفة الشاعرية، وتنفي عنه صفة الحكمة، وهذا ليس معناه أنه لم يكن حكيما، فلقد كانت اللفظة والجملة الواحدة منه تعدل القصيدة من الشعر، لكنك أردت أن إبداعه الشعري غالب على إبداعه في الحكمة .

واعلم أن جميع صور القصر التي حدثتك عنها موجودة في البيان العربي، ما عدا صورة (قصر الموصوف على الصفة قصرا حقيقيا تحقيقيا) لأن هذا لايكاد يوجد، فما من شيء إلا له صفات كثيرة، ولا يصح قصر موصوف على صفة واحدة، ونفي ما عداها بالكلية، ولو تدبرت لعلمت أن هذا من المحال لأن لكل صفة ضدًا ونقيضا، فإذا نفيت جميع الصفات إلا واحدة لزم الجمع بينها وبين نقيضها، وهذا محال .

أما إذا اعتبرت القصر الحقيقي التحقيقي فيما يتعلق بالصفة وجنسها وليس على الإطلاق فإنك واجد جميع الأقسام في البيان العربي، فحين **تقول**: (إنما زيد قاعد) ، فأنت تنفي عنه كل ما يتعلق بالقعود ومن جنسه مثل القيام، والركوع، والجلوس والرقود ... إلخ، لكنك لا تتطرق إلى العلم، والصبر، والشجاعة، والشعر، فكل هذه لا علاقة لها بالقعود ولا تدخل في الحسبان عند نفي الصفات المتعلقة بالقعود.

وحين قال سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام :

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾

[سورة المائدة:٢٥]

هل تظن أنه كان ينفي أيضا أنه يمتلك ثوبا، وعصا، وغنما، وزوجه ... إلخ ؟

لا شك أن هذا ليس في الحسبان، ولا يقول به أحد لأنه كان يتحدث عن قومه، وأنهم لا يسمعون له ويطيعون كما يفعل أخوه، فالمنفي هنا هو طاعة القوم، وليس غير ذلك، وحين نقول إن القصر هنا حقيقي تحقيقي، لا نعنى أن سيدنا موسى كان لا يملك ثوبا، أو عصا . !!

وكذلك في القصر الإضافي، حين تسمع قول الله تعالى :

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ .... ﴿١٤٤﴾ ﴾

[سورة آل عمران:١٤٤]

فأنت تعلم أنه يثبت له صفة الرسالة، وينفي عنه ما يدعون من صفات تضاد الرسالة، وليس غيرها، فهم يزعمون أنه شاعر، وكاهن ومجنون ، **فهذه هي الصفات المنفية عند قوله** :

(وما محمد إلا رسول) ولا يتطرق الأمر إلى نفي كونه كريم أو طويل، أو شديد، أو غير ذلك لأن الذهن لا يتطرق إلى هذه الصفات وليست محل كلام عند الحديث عن رسالة رسول الله ﷺ.

وفي قول النبي ﷺ : (لَيْسَ الْغِنَى عَنْ كَثْرَةِ الْعَرَضِ، وَلَكِنَّ الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ) [1]هنا أثبت الغنى لغنى النفس، ونفى صفة واحدة وهي (غنى كثرة العرض) فالمثبت صفة واحدة، والمنفي صفة واحدة . والقصر من قبيل قصر الموصوف على الصفة قصرا إضافيا .

أما قصر الموصوف على الصفة قصرا حقيقيا تحقيقيا، فتراه في قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾﴾

[سورة المائدة:٣٣]

حيث قصر الجزاء على القتل والصلب والنفي، قصر موصوف على صفة قصرا حقيقيا تحقيقيا، (فجزاء أفراد هذه العصابات المسلحة، التي

---

١ - أخرجه البخاري ومسلم.

تخرج على سلطان الإمام المسلم، المقيم لشريعة الله، وتروع عباد الله في دار الإسلام، وتعتدي على أموالهم وأرواحهم وحرماتهم، أن يقتلوا تقتيلاً عادياً، أو يصلبوا حتى يموتوا (وبعض الفقهاء يفسر النص بأن الصلب بعد القتل للترويع والإرهاب، أو أن تقطع أيديهم اليمنى مع أرجلهم اليسرى.. من خلاف..)(١).

١- من كتاب الشهيد المطارد ٢/ ٨٧٩ وهؤلاء الخارجون على حاكم يحكم بشريعة الله المعتدون على أهل دار الإسلام المقيمين للشريعة (سواء كانوا مسلمين أو ذميين أو مستأمنين بعهد) لا يحاربون الحاكم وحده، ولا يحاربون الناس وحدهم. إنما هم يحاربون الله ورسوله. حينما يحاربون شريعته، ويعتدون على الأمة القائمة على هذه الشريعة، ويهددون دار الإسلام المحكومة بهذه الشريعة. كما أنهم بحربهم لله ورسوله، وحربهم لشريعته وللأمة القائمة عليها وللدار التي تطبقها، يسعون في الأرض فساداً.. فليس هناك فساد أشنع من محاولة تعطيل شريعة الله، وترويع الدار التي تقام فيها هذه الشريعة..
إنهم يحاربون الله ورسوله.. وإن كانوا إنما يحاربون الجماعة المسلمة والإمام المسلم. فهم قطعاً لا يحاربون الله- سبحانه- بالسيف، وقد لا يحاربون شخص رسول الله- بعد اختياره الرفيق الأعلى- ولكن الحرب لله ورسوله متحققة، بالحرب لشريعة الله ورسوله، وللجماعة التي ارتضت شريعة الله ورسوله، وللدار التي تنفذ فيها شريعة الله ورسوله.
كما أن للنص- في صورته هذه- مفهوماً آخر متعيناً كهذا المفهوم- هو أن السلطان الذي يحق له- بأمر الله- أن يأخذ الخارجين عليه بهذه العقوبات المقررة لهذه الجريمة، هو السلطان الذي يقوم على شريعة الله ورسوله، في دار الإسلام المحكومة بشريعة الله ورسوله.. وليس أي سلطان آخر لا تتوافر له هذه الصفة، في أية دار أخرى لا يتوافر لها هذا الوصف..
نقرر هذا بوضوح، لأن بعض أذناب السلطة في كل زمان، كانوا يفتون لحكام لا يستمدون سلطانهم من شريعة الله ولا يقومون على تنفيذ هذه الشريعة، ولا يحققون وجود دار إسلام في بلادهم، ولو زعموا أنهم مسلمون.. كانوا يفتون لهم بأن يأخذوا الخارجين عليهم بهذه العقوبات- باسم شريعة الله- بينما كان هؤلاء الخارجون لا يحاربون الله ورسوله بل يحاربون سلطة خارجة على الله ورسوله..
إنه ليس لسلطة لا تقوم على شريعة الله في دار الإسلام، أن تأخذ الخارجين عليها باسم شريعة الله.. وما لمثل هذه السلطة وشريعة الله؟ إنها تغتصب حق الألوهية وتدعيه فما لها تتحكك بقانون الله وتدعيه؟!.. إنما جزاء أفراد هذه العصابات المسلحة، التي تخرج على سلطان الإمام المسلم المقيم لشريعة الله وتروع عباد الله في دار الإسلام، وتعتدي على أموالهم وأرواحهم وحرماتهم.. أن يقتلوا تقتيلاً عادياً. أو أن يصلبوا حتى يموتوا (وبعض الفقهاء يفسر النص بأنه الصلب بعد القتل للترويع والإرهاب) أو أن تقطع أيديهم اليمنى مع أرجلهم اليسرى.. من خلاف..

تقسيم القصر باعتبار المخاطب

قلت إن النفي في أسلوب القصر هو ما يعول عليه في التقسيم، وهذا النفي قد يتناول كل ماعدا المذكور في القصر الحقيقي، أو بعض ما عدا المذكور في القصر الإضافي، والمخاطب بالقصر الإضافي **له ثلاثة أحوال** :

الحالة الأولى : أن يثبت عكس الواقع، فيأتي المتكلم ليعكس له ما يراه ويصحح له ما يعتقده، فلو افترضنا مثلا : أن المخاطب يعتقد أن الناجح محمد، وأن الراسب خالد، وهذا عكس الحقيقة، فيقول له المتكلم : (إنما الناجح خالد) فيثبت النجاح لخالد، وينفيه عن محمد وهذا قلب لما كان يعتقده المخاطل، لذلك سمي هذا النوع من القصر الإضافي : (قصر قلب)

الحالة الثانية : أن يعتقد المخاطب أن الذي نجح محمد وخالد معا، فكلاهما في معتقده ناجح، وهذا غير حقيقي لأن الناجح خالد، ولم ينجح محمد، فيأتي المتكلم ويصحح ما يعتقده المخاطب، ويقول : إنما الناجح خالد، فيفرد خالد بالصفة دون محمد، ولذلك يسمى القصر : (قصر إفراد) ولا يصح هنا إدخال مثل قولك : (إنما الناجح خالد لا محمد)، لأن قولك ذلك لا يتصور معه إفراد، فحين تثبت الصفة للموصوف، وتتبعها بنفي ضدها فلا مجال للإفراد هنا بل هو إما للقلب ،أو للتعيين.

الحالة الثالثة : أن يعتقد المخاطب أن الذي نجح هو واحد من الاثنين، لكنه لا يعلم أيهما، أهو خالد أم محمد، فيأتي المتكلم ويقول : (إنما الناجح خالد) فيعين له الناجح منهما، ولذلك يسمى القصر : (قصر تعيين)

لا حظ أنني أتحدث عن مخاطب سبق إلى علمه شيئ، وجاء المتكلم ليصحح له، ما ثبت في علمه، فيقلب له الأمر إن علم العكس ويفرد له الأمر إن كان مثبتا الصفة للطرفين، ويعين له الأمر إن شك أو تردد، لكن يبقى شيء ،وهو إذا كان المخاطب خالي الذهن ولم يسبق إلى علمه شيء، فبماذا يسمى القصر حينها ؟

يسمى القصر حينها (قصر حقيقي) وليس قصرا إضافيا .

والسكاكي – رحمه الله – لم يتحدث إلا عن صورتين فقط وهما (قصر القلب وقصر الإفراد) وأدخل قصر التعيين في قصر الإفراد، حيث جعل (من يعتقد الشركة، ومن يتردد ويشك) شيئا واحدا يقول في المفتاح تحت عنوان : في بيان القصر : (اعلم أن القصر كما يجري بين المبتدأ والخبر فيقصر المبتدأ تارة على الخبر، والخبر على المبتدأ تارة أخرى، يجري بين الفعل والفاعل والمفعول، وبين الفاعل والمفعول، وبين المفعولين، وبين الحال وذي الحال، وبين كل طرفين ...

وأنت إذا أتقنته في موضع ملكت الحكم في الباقي، ويكفيك مجرد التنبيه هناك، وحاصل معنى القصر راجع إلى تخصيص الموصوف عند السامع بوصف دون ثان، كقولك: زيد شاعر لا منجم لمن يعتقده شاعرا

ومنجما، أو قولك : زيد قائم لا قاعد، لمن يتوهم على أحد الوصفين من غير ترجيح، ويسمى هذا : قصر إفراد، بمعنى أنه يزيل شركة الثاني أو بوصف مكان آخر، كقولك لمن يعتقده منجما لا شاعرا: ما زيد منجم بل شاعر، أو زيد شاعر لا منجم، ويسمى هذا : قصر قلب بمعنى : أن المتكلم يقلب فيه حكم السامع، أو على تخصيص الوصف بموصوف قصر أفراد، كقولك : ما قائم إلا زيد لمن يعتقد قائمين أو أكثر في جهة من الجهات معينة، أو قصر قلب، كقولك: ما شاعر إلا زيد لمن يعتقد أن شاعرا في قبيلة معينة أو طرف معين لكنه يقول ما زيد هناك بشاعر)(١).

يقول أستاذي محمود توفيق : (ولم يرتض الخطيب القزويني هذا الموقف، فجعل قصر التعيين قسما برأسه، ونص عليه، ثم جعله مشتركا مع قصر القلب، في أن كلا منهما تخصيص شيء بشيء مكان آخر، فإن كان المخاطب به يعتقد العكس فقلب، وإن كان مترددا أو تساوى عنده الأمران فتعيين)(٢).

وأقول : إن التردد بين أمرين، وتساويهما يؤدي إلى نتيجة واحدة فلا داعي لتقسيم القصر إلى إفراد وتعيين ما دام الأمر يعود في النهاية إلى تحديد واحد بين اثنين .

١- مفتاح العلوم للسكاكي ص٢٨٨.

٢- دقائق القصرتحريرا وتصويرا ص ١٩.

واشترط الخطيب القزويني في قصر الموصوف على الصفة قصر إفـراد ألا تتنافى الصفتان ؛ حتى يمكن اجتماعهما في تصور المخاطب، فلا يجـوز أن تقول : (ما محمد إلا عالم)، وتجعل هذا من قبيل قصرـ الإفـراد، لأن قصرـ الإفـراد يعنـي اجـتماع الأمـرين عنـد المخاطـب، ثـم تصـحح لـه، وتفـرد الموصوف بصفة واحدة، ولا يجوز القول بأن المخاطب كان يعتقد أن محمـدا عالم وجاهل في الوقت نفسه، ثم جئت وأفـردت لـه الأمـر وقلـت مـا هـو إلا عـالم !! فهـذا غـير متصـور عقـلا، لـذلك اشـترط الخطيـب في قصـر الموصوف على الصفة قصر الإفراد : ألا تكون الصفتان متناقضتين .

كما اشترط في قصر الموصوف على الصفة أيضا قصرـ قلـب أن تكـون الصفتان المثبتة والمنفية متنافيتين، حتى يكون إثبات إحداهما دالا على انتفـاء الأخرى . فلو قلت : (مـا زيـد إلا كـريم)، تريـد بـه قصرـ القلـب ،كـان خطابك لمن يعتقد أنه بخيل.

ولم يسـلم الخطيـب مـن تعقيـب البلاغيـين المتـأخرين، لأن في قصرـ القلب لا يشترط تناقض الصفتين، فقد يظن أنه شاعر، فتقلب عليـه مـراده وتثبت أنه كاتب، ولا تناقض بين الشعر والكتابة .

❖ **ويطرح هنا سؤال هو :**

لمـاذا لا ينقسـم القصـر الحقيقـي إلى قصـر إفـراد وقلـب وتعيـين مثل الإضافي ؟

يقول السعد:(العاقل لا يعتقد اتصاف أمر بجميع الصفات ولا اتصافه بجميع الصفات غير واحدة، ولا يردده أيضا بين ذلك، وكذا اشتراك صفة بين جميع الأمور) وهذا ناشئ من أن القصر الحقيقي عند السعد يكون المنفي فيه كل ما عدا المذكور أصلا .

فإذا ذهبت إلى مفهوم القصر الحقيقي عند عبد القاهر الجرجاني وهو أن يكون المنفي ما كان من جنسه ومتصلا به، وهذا هو الذي أرتضيه فإن كلام السعد لا وجه له، لأنك من الممكن أن تجد رجلا يتصف بجميع فنون الأدب إلا واحدة، فتجده شاعرا، وكاتبا، وقصاصا، ومسرحيا ... إلخ ولو عكست وجعلت القصر قصر صفة على موصوف لأمكن أيضا وعليه فلا شبهة أنه من الممكن أن يأتي القصر الحقيقي في دائرة (القلب والإفراد والتعيين) .

نماذج تحليلية للقصر الحقيقي والإضافي

لا شك أن ما مضى من بيان تقعيدي يحتاج إلى تطرية بالنماذج والشواهد التي تتبدى فيها أساليب القصر، وجمالياته، وأول شاهد نقف أمامه هو قول الله تعالى :﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبۡلُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلۡفُرۡقَانَۗ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٥﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ كَيۡفَ يَشَآءُۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٦﴾ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ

مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٧﴾﴾ [سورة آل عمران:٧]

هذه الآيات كلها حديث عن الله تعالى، ووحدانيته، وتنزيلـه للكتـب وفيها كثير من صور القصر، وأول ما أقف عنده من صور القصر **هو قوله** :

(الله لا إله إلا هو) يقول صاحب الظلال : (وهذا التوحيد الخالص الناصع، هو مفرق الطريق بين عقيدة المسـلم وسـائر العقائـد، سـواء منهـا عقائـد الملحـدين والمشرـكين، وعقائـد أهـل الكتـاب المنحـرفين: يهـوداً أو نصارى. على اختلاف مللهم ونحلهم جميعاً.

كما أنه هو مفرق الطريق بين حياة المسلم وحيـاة سـائر أهـل العقائـد في الأرض. فالعقيدة هنا تحدد منهج الحياة ونظامها تحديداً كاملاً دقيقاً.

«اللهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ» .. فلا شريك لـه في الألوهيـة.. «الْحَيُّ» .. الـذي يتصف بحقيقة الحياة الذاتية المطلقة من كـل قيـد فـلا شـبيه لـه في صـفته.. «الْقَيُّومُ» .. الذي به تقوم كل حياة، وبـه يقـوم كـل وجـود، والـذي يقـوم كذلك على كـل حيـاة وعـلى كـل وجـود. فـلا قيـام لحيـاة في هـذا الكـون ولا وجود إلا به سبحانه.

وهذا مفرق الطريق في التصور والاعتقاد. ومفرق الطريـق في الحيـاة والسلوك.

مفرق الطريق في التصور والاعتقاد. بين تفرد الله- سبحانه- بصفة الألوهية وذلك الركام من التصورات الجاهلية: سواء في ذلك تصورات المشركين- وقتها في الجزيرة- وتصورات اليهود والنصارى- ... وعقب هذا الإيضاح الحاسم في مفرق الطريق، بإعلان الوحدانية المطلقة لذات الله وصفاته، يجيء الحديث عن وحدانية الجهة التي تتنزل منها الأديان والكتب والرسالات. أي التي يتنزل منها المنهج الذي يصرف حياة البشر في جميع **الأجيال:**

﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ ۗ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤﴾﴾

[سورة آل عمران:٣-٤]

وتتضمن هذه الآية في شطرها الأول جملة حقائق أساسية في التصور الاعتقادي، وفي الرد كذلك على أهل الكتاب وغيرهم من المنكرين لرسالة محمد- ﷺ - وصحة ما جاء به من عند الله، فهي تقرر وحدة الجهة التي تتنزل منها الكتب على الرسل. فالله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم هو الذي نزل هذا القرآن- عليك- كما أنه أنزل التوراة على موسى والإنجيل على عيسى من قبل، وإذن فلا اختلاط ولا امتزاج بين الألوهية والعبودية.

إنما هناك إله واحد ينزل الكتب على المختارين من عباده. وهناك عبيد يتلقون. وهم عبيد لله ولو كانوا أنبياء مرسلين.) ولهؤلاء وهؤلاء قيل :

(هو الذي أنزل) حيث جاء أسلوب القصر ـ بتعريف الطرفين (المبتدأ والخبر) فقصر إنزال القرآن الكريم عليه سبحانه، قصرا حقيقيا تحقيقيا قصر صفة على موصوف، حيث لا يقوى غير الله تعالى على هذا الإنزال سواء الآيات المحكمة الواضحة المعاني، أو الآيات المتشابهة المعاني، فالله تعالى هو الذي اختص بهذا الإنزال لجميع الآيات، والناس تجاه هذا الإنزال فريقان:(الراسخون في العلم)، (والذين في قلوبهم زيغ) ثم تأتي عبارة القصر الثانية في سياق الحديث عن تأويل المتشابه، **حيث قيل** :

(وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ) وذلك لأن الذين في قلوبهم زيغ يخوضون في هذا الميدان، وهو ميدان مغلق دون الخلق، ولا مفاتيح له إلا عند الله تعالى ولذلك قال أبو بكر الصديق حين تعرض لفواتح السور وهي قطعا من المتشابه، قال: (لكل كتاب سر، وسر القرآن الكريم فواتح السور) فأغلق الباب على كل مقتحم، لأن هذا باب لا يعلمه إلا الله تعالى وجملة : (وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ) جاء فيها قصر علم التأويل للمتشابه على الله تعالى ، قصر صفة على موصوف قصرا حقيقيا تحقيقيا .

ثم تختم الآية بجملة قصر أخرى، وهي قوله تعالى :

(وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ) وهي تعني أن ما سبق من بيان وتوضيح لا يفقهه إلا اصحاب العقول السليمة، فهي من باب قصر التذكر والفهم على أصحاب العقول، قصر صفة على موصوف، قصرا إضافيا، لأن السياق

يستحضر فريقين، (الراسخون في العلم – والذين في قلـوبهم زيـغ) وحين تثبت التذكر لفريق، فأنت تنفيه عن الآخر، وأولو الألبـاب هـم بـلا شك : الراسخون في العلم، الذين ثبت لهم التذكر وغـيرهم هـم الـذين في قلوبهم زيغ، وهم المنفي عنهم التذكر ضمنا في قوله (ومـا يتـذكر إلا أولـو الألباب).

ومن نماذج القصر أيضا قوله تعالى :

﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣٤ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٣٥ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ١٣٦ ﴾ [سورة آل عمران:١٣٣-١٣٦]

والسياق هنا سياق مسارعة إلى المغفرة والجنة، وأصل المسارعة تكون في الأعـمال ،فكأنـه قيـل سـارعوا إلى عمـل يوجـب لكـم المغفـرة، يقـول القشيري في لطائفه:(والناس فى المسارعة على أقسام: فالعابـدون يسـارعون بقـدمهم فى الطاعات،والعـارفون يسـارعون بهممهـم فى القربـات

والعاصون يسارعون بندمهم بتجرّع الحسرات.فمن سارع بقدمه وجد مثوبته، ومن سارع بهممه وجد قربته، ومن سارع بندمه وجد رحمته)(١).

وانظر إلى سعة الجنة هنا،لأن سعتها هنا تختلف عن نظيرتها في سورة الحديد حيث قيل : ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٢١﴾﴾ [سورة الحديد:٢١]

فالمسابقة تقل درجة عن المسارعة، (والذين آمنوا) لم يصلوا بعد إلى مرتبة المتقين، لذلك كان وسع الجنة عرضًا : السماوات والأرض، لكن في آية الحديد كان وسعها كعرض السماء والأرض، ولا يخفى عليك الإفراد في لفظ السماء، وعمل الكاف التي تقرب الأمر، المهم أن السياق في المسارعة سياق ثناء على أصحاب هذه الخصال الطيبة (المتقين، المنفقين في السراء والضراء ،الكاظمين الغيظ، العافين عن الناس، المحسنين المسارعين بالاستغفار عند كل هنة) هذا السياق أتبعه الحق جل وعلا **بقوله** : (ومن يغفر الذنوب إلا الله) وهي جملة قصر تفتح باب الرجاء لكل مذنب بالمغفرة، وليست على الله تعالى بواجبة، ورحم الله الزمخشري حيث كبا قلمه هنا، ودفعه فكر المعتزلة بإيجاب المغفرة على الله تعالى

١- لطائف الإشارات للإمام القشيري ١/ ٢٧٧.

للمستغفر **فقال** : (ومن يغفر الذنوب إلا الله وصف لذاته بسعة الرحمة وقرب المغفرة وإن التائب من الذنب عنده كمن لا ذنب له، وأنه لا مفزع للمذنبين إلا فضله وكرمه، وأن عدله يوجب المغفرة للتائب ، لأن العبد إذا جاء في الاعتذار والتنصل بأقصى ما يقدر عليه وجب العفو والتجاوز، وفيه تطييب لنفوس العباد، وتنشيط للتوبة، وبعث عليها، وردع عن اليأس والقنوط، وأن الذنوب وإن جلت فإن عفوه أجل وكرمه أعظم.

والمعنى: أنه وحده معه مصححات المغفرة.)[1] ونسي - رَحِمَهُ اللَّهُ - أن الذي (لا يسأل عما يفعل) لا يجب عليه شيء ،فهو يغفر لمن يشاء ،ويعذب من يشاء.

وأعود إلى جملة القصر : (ومن يغفر الذنوب إلا الله) وهي جمل معترضة بين جملتين هكذا : (ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم -ومن يغفر الذنوب إلا الله- ولم يصروا على ما فعلوا) فالاعتراض يعني أن النسق كان هكذا :(ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم، ولم يصروا على ما فعلوا) وهذا النسق يبين فضل هذا الصنف من المتقين، فالمغفرة هنا مغفرة لفريق من سادة الناس تدينا وتقى وفضلا، لذلك جاء الأسلوب موضحا اعتقادهم أنه لا مغفرة إلا من الله تعالى، ولا يطلبون المغفرة إلا منه سبحانه، والقصر

١- تفسير الكشاف ١/ ٤١٦.

قصر صفة عليى موصوف قصرا حقيقيا تحقيقيا، ويلمح الشيخ الشهيد المطارد ظلا آخر من ظلال الآية يبين فيه مدى رحمة الله تعالى **فيقول** :

(إن الله- سبحانه- لا يدعو الناس إلى السماحة فيما بينهم حتى يطلعهم على جانب من سماحته- ﷻ- معهم. ليتذوقوا ويتعلموا ويقتبسوا: إن المتقين في أعلى مراتب المؤمنين.. ولكن سماحة هذا الدين ورحمته بالبشر تسلك في عداد المتقين .

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ ....﴾ [سورة آل عمران:١٣٥]

والفاحشة أبشع الذنوب وأكبرها. ولكن سماحة هذا الدين لا تطرد أحدا من رحمة الله. ولا تجعله في ذيل القافلة.. قافلة المؤمنين.. إنما ترتفع به إلى أعلى مرتبة.. مرتبة «المتقين» .. على شرط واحد. شرط يكشف عن طبيعة هذا الدين ووجهته، أن يذكروا الله فيستغفروا لذنوبهم، وألا يصرُّوا على ما فعلوا وهم يعلمون أنه الخطيئة، وألا يتبجحوا بالمعصية في غير تحرج ولا حياء.. وبعبارة أخرى أن يكونوا في إطار العبودية لله، والاستسلام له في النهاية. فيظلون في كنف الله وفي محيط عفوه ورحمته وفضله.

إن هذا الدين ليدرك ضعف هذا المخلوق البشري الذي تهبط به ثقلة الجسد أحياناً إلى درك الفاحشة، وتهيج به فورة اللحم والدم فينزو نزوة

الحيوان في حمى الشهوة، وتدفعه نزواته وشهواته وأطماعه ورغباته إلى المخالفة عن أمر الله في حمى الاندفاع. يدرك ضعفه هذا فلا يقسو عليه ولا يبادر إلى طرده من رحمة الله حين يظلم نفسه. حين يرتكب الفاحشة.. المعصية الكبيرة.. وحسبه أن شعلة الإيمان ما تزال في روحه لم تنطفئ وأن نداوة الإيمان ما تزال في قلبه لم تجف، وأن صلته بالله ما تزال حية لم تذبل، وأنه يعرف أنه عبد يخطئ وأن له رباً يغفر.. وإذن فما يزال هذا المخلوق الضعيف الخاطئ المذنب بخير.. إنه سائر في الدرب لم ينقطع به الطريق، ممسك بالعروة لم ينقطع به الحبل، فليعثر ما شاء له ضعفه أن يعثر. فهو واصل في النهاية ما دامت الشعلة معه، والحبل في يده. ما دام يذكر الله ولا ينساه، ويستغفره ويقر بالعبودية له ولا يتبجح بمعصيته.

إنه لا يغلق في وجه هذا المخلوق الضعيف الضال باب التوبة ولا يلقيه منبوذاً حائراً في التيه! ولا يدعه مطروداً خائفاً من المآب، إنه يطمعه في المغفرة، ويدله على الطريق، ويأخذ بيده المرتعشة، ويسند خطوته المتعثرة، وينير له الطريق، ليفيء إلى الحمى الآمن، ويثوب إلى الكنف الأمين.

شيء واحد يتطلبه: ألا يجف قلبه، وتظلم روحه، فينسى الله، وما دام يذكر الله. ما دام في روحه ذلك المشعل الهادي. ما دام في ضميره ذلك الهاتف الحادي. ما دام في قلبه ذلك الندى البليل، فسيطلع النور في روحه من جديد، وسيؤوب إلى الحمى الآمن من جديد، وستنبت البذرة الهامدة من جديد.

إن طفلك الذي يخطىء ويعرف أن السوط- لا سواه- في الدار.. سيروح آبقاً شارداً لا يثوب إلى الدار أبداً. فأما إذا كان يعلم أن إلى جانب السوط يداً حانية، تربت على ضعفه حين يعتذر من الذنب، وتقبل عذره حين يستغفر من الخطيئة.. فإنه سيعود! وهكذا يأخذ الإسلام هذا المخلوق البشري الضعيف في لحظات ضعفه.. فإنه يعلم أن فيه بجانب الضعف قوة، وبجانب الثقلة رفرفة، وبجانب النزوة الحيوانية أشواقاً ربانية، فهو يعطف عليه في لحظة الضعف ليأخذ بيده إلى مراقي الصعود، ويربت عليه في لحظة العثرة ليحلق به إلى الأفق من جديد. ما دام يذكر الله ولا ينساه ولا يصر على الخطيئة وهو يعلم أنها الخطيئة! **والرسول- ﷺ - يقول:**

«ما أصر من استغفر، وإن عاد في اليوم سبعين مرة»

والإسلام لا يدعو- بهذا- إلى الترخص، ولا يمجد العاثر الهابط ولا يهتف له بجمال المستنقع! كما تهتف «الواقعية» ! إنما هو يقيل عثرة الضعف، ليستجيش في النفس الإنسانية الرجاء، كما يستجيش فيها الحياء! فالمغفرة من الله- ومن يغفر الذنوب إلا الله؟ - تُخجل ولا تُطمع، وتثير الاستغفار ولا تثير الاستهتار.

فأما الذين يستهترون ويصرون، فهم هنالك خارج الأسوار، موصدة في وجوههم الأسوار!

وهكذا يجمع الإسلام بين الهتاف للبشرية إلى الآفاق العلى، والرحمة بهذه البشرية التي يعلم طاقتها. ويفتح أمامها باب الرجاء أبداً، ويأخذ بيدها إلى أقصى طاقتها)(١).

ومن نماذج القصر الإضافي قوله تعالى :

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ ۖ وَمَا مِنْ إِلَـٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ ﴾ [سورة ص:٦٥]

أي قل لمن يقولون : هذا ساحر كذاب : أنا منذر، ولست ساحرا أوكذابا، : فكأن قوله : (أنا منذر) يقابل قولهم : (هذا ساحر كذاب) فإذا كنتم تعجبون من أنني أقول إنه لا آلهة، وأن الإله إله واحد، فاعجبوا وما أنا إلا منذر، وليس لي من الأمر شيء، وأن وراءكم أهوال تغفلون عنها، وهذا يعني أن قوله : (ما من إله إلا الله) يقابل قولهم:(أجعل الآلهة إلها واحدا)

يرى البقاعيّ أنّ القصرَ في (إنما أنا منذر) قصر موصوف على صفة قصرَ قلبٍ، وأنَّه في (وما من إله إلا الله الواحد القهار) قصر صفة على موصوف قصر إفرادٍ .

يقول: " ولمَّا كانت قد جرت عادتهم عند التخويف أن يقولوا: عجل لنا هذا إن كنت صادقًا فيما ادعيت، ومن المقطوع به أنَّه لايقدر على ذلك إلاَّ الإله، فصاروا كأنّهم نسبوه إلى أنَّه ادعى الإلهية، قال تعالى منبهًا على

١- من كتاب الشهيد المطارد ١/ ٤٧٧.

ذلك أمرًا له بالجواب (قل) أي لمن يقول لك ذلك (إنّما أنا منـذر) أي مخوف لمن عصى، ولم أدّعِ أنّي إله ليطلبَ منى ذلك ، فإنّه لايقدر على مثله إلا الإله، فهو قصر قلب للموصوف على الصفة.

وأفرد قاصرً للصفة في قوله (وما) وأغرق في النفي بقولـه (مـن إلـه) أي معبود بحق، لكونه محيطا بصفات الكـمال، ولـمَّـا كـان السـياق للتوحيـد الذي هو أصل الدين لفت القول عن مظهر العظمـة إلى أعظـم منـه وأبـين فقال (إلا الله) وللإحاطة عبّر بالاسم العلم الجامع لجميع الأسـماء الحسـنى ولو شاركه شيء لم يكن محيطًا، وللتفرد قال مبرهنا على ذلـك (الواحـد) اي بكلّ اعتبار، فلا يمكن أن يكون له جزء أو يكون له شـبيه، فيكـون محتاجـا مكافئا (القهار) أي الذي يقهر غيره على ما يريد، وهذا برهان على أنّه الإلـه وحده، وأنّ آلهتهم بعيدة عن استحقاق الإلهية لتعددها وتكافؤهـا بالمشـابهة واحتياجها ".

السياق والقصد هاديان إلى انّ التركيب في (إنـما أنـا منـذر) دالٌّ عـلى قصر النبيّ ﷺ وعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ تَسْـلِيمًا كَثِـيرًا عـلى صـفة الإنـذار وإبعاده من مظنة أنه يدَّعِي الإلهية، فإنّ من عادتهم التي درجـوا عليهـا عنـد تخويفه لهم بسوء العقبي أن ينسبوه إلى ادعاء ما لايكون إلا مـن الله – سبحانه وتعالى –، ويطالبونه أن يأتي لهم بما يخوفهم به، فيأتي البيان القرآني الكريم قالبًا علـيهم دعواهم نسبته إلى ذلك مؤكدًا أنَّه لايعدو أن يكون منذرًا مخوفًـا كـما أوحـي إليه.

تعيين الصِّفة المنفيّة في القصر (بإنّما) هنا مرتبط ارتباطا وثيقًا بالسياق، وموقف المخاطبين منه، وهو ناظرٌ إلى السياق القريب القائم في تبيانِ مآب المتقين، ومآبِ الطاغين، وما اشتمل عليه من التهديد للمكذبين، وإلى حال المكذبين حين يواجهون بذلك التهديد والبيان لمآلهم إن هم أقاموا عليه.

وإذا ماكان "البقاعيُّ" يرى أنَّ المنفيّ في (إنما أنا منذر) هو دعوى الألوهية، فإنَّه يشيرُ من بعد قليل إلى أنّ في ذلك أيضًا نفيا لدعوى أنَّه كذّاب.

وكأنّ التركيب في هذا السياق يَرْنُو إلى أوَّلِ السياق وآخره: آخره يهدي إلى أنّ الوصف المنفيّ في (إنما أنا منذر) هو دعوى الألوهية، وأوَّلُ السيَّاق ﴿...وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾ [سورة ص:٤] يهدي إلى أنّ الوصف المنفيّ في (إنّما أنا منذر) هو الكذب .

يقول البقاعيّ : (ولمَّا قصر نفسه الشريفة على الإنذار، وكانوا ينازعونه فيه، وينسبونه إلى الكذب دلَّ على صدقه وعلى عظم هذا النبا بقوله -ﷺ-: ﴿مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ۝٦٩﴾ [سورة ص:٦٩]

فهو يَلْمَحُ في قول الله – ﷻ – (ما كان لي من علمٍ ...) دلالة على صدقه فيما يخبر به عن ربه دمغًا لدعواهم أنّه كذَّاب، ويلمح فيه تأكيد

مفهوم القصر في (إنما أنا منذر) على الوجه الآخر.

وكأنّ القصر في (إنّما أنا منذر) قد اكتنفه ما يهدي إلى أنّه يقصر نفسه على الإنذار وينفي عنها ما يرميه به بعضهم من دعوى الإلهية والقدرة على الإتيان بما يهددهم به، وينفي عنها ما يرميه به الآخرون من أنّه كذّابٌ فالتركيب حاملٌ الدلالة على انتفاء الوصفين بمعونة السياق والقرائن المكتنفة) [1].

ومن النماذج الناطقة بالقصر الإضافي أيضا قوله تعالى :

﴿ **يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (١٨٧)** ﴾ [سورة الأعراف:١٨٧]

والمعلوم أن الساعة غيب استأثر الله تعالى بعلمه، ولم يُطلع عليه أحدا من خلقه، وحين أراد المشركون إحراج النبي ﷺ أخذوا (يسألون سؤال المختبر الممتحن! أو سؤال المتعجب المستغرب! أو سؤال المستهين المستهتر! «أيان مرساها؟» .. أي متى موعدها الذي إليه تستقر وترسو؟! والرسول ﷺ - بشر لا يدعي علم الغيب مأمور أن يكل الغيب إلى صاحبه، وأن يعلمهم أنها من خصائص الألوهية وأنه هو بشر لا يدعي شيئاً خارج بشريته ولا يتعدى حدودها، إنما يعلمه ربه ويوحي إليه ما يشاء: « **قُلْ: إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ رَبِّي، لا يُجَلِّيها لِوَقْتِها إِلَّا هُوَ**» .

١- الإمام البقاعي ومنهاجه في تأويل بلاغة القرآن الكريم لمحمود توفيق سعد ص ٢٧٥.

فهو- سبحانه- مختص بعلمها، وهو لا يكشف عنها إلا في حينها ولا يكشف غيره عنها.ثم يلفتهم عن السؤال هكذا عن موعدها إلى الاهتمام بطبيعتها وحقيقتها، وإلى الشعور بهولها وضخامتها ...

ألا وإن أمرها لعظيم، ألا وإن عبئها لثقيل. ألا وإنها لتثقل في السماوات والأرضين. وهي- بعد ذلك- لا تأتي إلا بغتة والغافلون عنها غافلون : « ثَقُلَتْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ، لا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً» ..

فأولى أن ينصرف الاهتمام للتهيؤ لها والاستعداد قبل أن تأتي بغتة فلا ينفع معها الحذر، ولا تجدي عندها الحيطة، ما لم يأخذوا حذرهم قبلها وما لم يستعدوا لها، وفي الوقت متسع وفي العمر بقية. وما يدري أحد متى تجيء، فأولى أن يبادر اللحظة ويسارع، وألا يضيع بعد ساعة، قد تفجؤه بعدها الساعة! ثم يعجب من أمر هؤلاء الذين يسألون الرسول- ﷺ - عن الساعة.. إنهم لا يدركون طبيعة الرسالة وحقيقة الرسول ولا يعرفون حقيقة الألوهية، وأدب الرسول في جانب ربه العظيم.

« يَسْئَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْها ! » أي كأنك دائم السؤال عنها ! مكلف أن تكشف عن موعدها ! ورسول الله- ﷺ - لا يسأل ربه علم ما يعلم هو أنه مختص بعلمه : « قُلْ: إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ اللَّهِ» ..

قد اختص سبحانه به ولم يطلع عليه أحداً من خلقه. «وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ» .

وليس الأمر أمر الساعة وحده. إنما هو أمر الغيب كله فلله وحده علم هذا الغيب. لا يطلع على شيء منه إلا من شاء، بالقدر الذي يشاء في الوقت الذي يشاء.. لذلك لا يملك العباد لأنفسهم نفعاً ولا ضراً..

فقد يفعلون الأمر يريدون به جلب الخير لأنفسهم، ولكن عاقبته تكون هي الضر لهم. وقد يفعلون الأمر يريدون به رفع الضر عنهم، ولكن عاقبته المغيبة تجره عليهم! وقد يفعلون الأمر يكرهونه فإذا عاقبته هي الخير ويفعلون الأمر يحبونه **فإذا عاقبته هي الضر**:

﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٢١٦﴾ [سورة البقرة:٢١٦] (١).

وتتابعت في الآية صور القصر وتنوعت أشكاله ففي قوله:

(قل إنما علمها عند ربي) تجد القصر من باب قصر الموصوف على الصفة قصرا إضافيا تحقيقيا حيث قصر العلم بأحوال يوم القيامة ووقتها على كونه عند الله تعالى، حيث لا يمكن لمخلوق أن يكون، وعليه فلا علم لرسول، ولا لملك بها .

أما جملة القصر الثانية فهي (لايجليها لوقتها إلا هو) وفيه تجد قصر صفة على موصوف، ثم تأتي الصورة الثالثة : (لا تأتيكم إلا بغتة) وهي قصر موصوف على صفة قصر قلب، والصور الثلاث تعاضدت

١ - من كتاب الشهيد المطارد ٣/ ١٤٠٩.

لتقرر حقيقة لامراء فيها، وهي أن علم الساعة وميقاتها من خصائص الألوهية .

طُرُق القصر :

طرق القصر هي الطرق الاصطلاحية ،وليس كل تركيب دل على معنى تخصيص شيء بشيء يكون من أساليب القصر، والسبب في ذلك أن هذه الطرق تحمل من خصائص البلاغة والبراعة ما يجب التفكر فيه، **وهذه الطرق محصورة فيما يأتي :**

١- طريق النفي والاستثناء، **كقوله سبحانه :** ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ .... ﴾ [سورة آل عمران:١٤٤]

٢- طريق (إنما) **كقوله سبحانه :** ﴿ ....إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ .... ﴾ [سورة النساء:١٧١]

٣- طريق التقديم . **كقوله سبحانه :** ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ ﴾ [سورة الفاتحة:٥]

٤- طريق العطف بـ(لا، وبل، ولكن) **مثل قول الشاعر :**

لعمرك ما الانسان إلا ابن يومه   على ما تحلى يومه لا ابن أمسه

٥-طريق تعريف الطرفين، **نحو قوله تعالى :** ﴿ ....وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ .... ﴾ [سورة البقرة:١٩٧]

٦- طريق ضمير الفصل نحو قول النبي ﷺ: (إنّ الله هو الدهر)[١]

وقد يفاد القصر من وسائل أخرى غير اصطلاحية، مثل استعمال لفظ (وحده) ، أو: (فقط)، أو(لا غير) ، أو: (ليس غير) ، أو: مادة الاختصاص، كأن تقول : (أختص فلانا بكذا) ، أو : (أخصه بكذا دون غيره) ، أو: مادة القصر كأن تقول : (هذا أمر مقصور على فلان) ، وقد أوصلها (السيوطي) في كتابه (الاتقان في علوم القرآن) إلى أربعة عشر طريقا.

وهذه الطرق لا تدخل معنا في الدراسة البلاغية، لأنها تخلو من اللطائف البلاغية، فالطرق الاصطلاحية كلها تعبر عن صور الإيجاز من جهة، ومن جهة أخرى صور التوكيد والمبالغة في المعنى ،حيث تشترك جميعا في إفادة القصر ـ الذي هو تأكيد على تأكيد، ويحمل دلالة جملتين في جملة واحدة، فكل طريق للقصر يحمل جملة إثبات شيء لشيء، وجملة نفيه عن غيره، وهاتان الجملتان اختصرا في جملة واحدة وهي التي نطلق عليها الطريق الاصطلاحي للقصر .

١- كما جاء في مسند الإمام أحمد رقم ٧٥١٨ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: " لَا تَقُولُوا: خَيْبَةَ الدَّهْرِ، إِنَّ اللَّهَ هُوَ الدَّهْرُ، وَلَا تُسَمُّوا الْعِنَبَ الْكَرْمَ "

طريق النفي والاستثناء

النفي باب من أبواب النحو، وكذا الاستثناء باب من أبواب النحو وهذا الطريق يعتمد على هذين البابين النحويين في إفادة معنى القصر ولا يقتصر النفي على أداة (ما)، بل بأي أداة يصلح بها النفي، كالنفي بـ(لا، وليس، وإن)، وكذا لا يقتصر البلاغيون على الاستثناء (بإلا) بل يفتحون الباب للاستثناء (بغير، وسوى وعدا) كل ذلك يدخل العبارة في باب القصر.

ويعد باب النفي والاستثناء أم باب القصر وأقواها ؛ لأنه يصرح بالأدوات الدالة، فتجد فيه أداة النفي (ما) أو ما ينوب عنها، وأداة الإثبات (إلا) أو ما ينوب عنها، ومعلوم أن للنفي أدوات أخرى غير(ما) وفي هذه الأدوات من رحيق المعاني الزائدة على النفي ما يحتاجه السياق وكذلك هناك أدوات أخرى غير(إلا) وفيها من لطائف الدلالات ما يحتاجه السياق، فليس شرطا أن يكون النفي والاستثناء محجورا على (ما وإلا) .

وأعرض عليك الآن بعضًا من ذلك، ففي قول الله تعالى :

﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ ﴾ [سورة الأنعام:١١٦]

ففي هذه الآية تجد جملتين حاملتين لدلالة القصر :

- ✓ **الأولى هي قوله : (إن يتبعون إلا الظن) .**

✓ **والأخرى : (إن هم إلا يخرصون) .**

وفي كلتا الجملتين جيء بحرف النفي (إن) بدلا من (ما)وهذا الحرف يأتي مرة جازمًا، نحو: إن تفعلْ كذا تجدْ كذا، ويأتي مرة نافيًا، **مثل قول الحق:**﴿ .....**إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْ** .....﴾ [سورة المجادلة:٢]

أي: ما أمهاتهم إلا اللائي ولدنهم ؛ فـ«إن» هنا نافية. وقول الحق: {إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظن} أي ما يتبعون إلا الظن.

وقوله : (إن هم إلا يخرصون)، أي : ما هم إلا يخرصون، و(الخارص) هو من يتكلم بغير الحقيقة، بل يخمن تخميناً،أو يقول كلاماً ليس له معنى دقيق.

وهذا يعني أن اتباع الناس يؤدي غالبا إلى الضلال، لأنهم يظنون ويخرصون .

وعلة مجيء (إن) بدلا من (ما) أن في (إن) تشديدا، وحسما لا تجده في (ما) فالسكون الذي تنتهي به (إنْ) يجعل النفي قاطعا جازما والمد الذي تنتهي به (ما) يجعل النفي لا يحمل هذا البت، ولذلك تجد المعاني التي تنفى بـ (إن) أشد خطرا، وأعظم أثرا من المعاني التي تنفى بها (ما) **مثل قوله تعالى** : ﴿ **إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ** ٤ ﴾ [سورة النجم:٤]

والحديث عن القرآن الكريم ،مع أنه لم يذكر آنفا، لكن السياق عن وحي القرآن الكريم، ولأن كلام المنكرين كان في شأن القرآن الكريم

فقوله : (ما ضل صاحبكم وما غوى، وما ينطق عن الهوى) أي :

أنّ كل نطقه بالقرآن مصدره الوحي، وقوله : (إن هو) أي : (ما هو) وعدل عن النفي بما إلى النفي (بإنْ) لما في النفي بها من حسم وبتٍ، ولأن الحديث في أمر له خطورته الشديدة، وهو وحي القرآن الكريم، ولو جعلت الضمير في (إن هو) يشمل القرآن والسنة ما أبعدت، وبخاصة أن الضمير عائد على النطق في قوله (وما ينطق عن الهوى) والنطق يشمل كل ما ينطق به من قرآن وسنة .

وجملة (يوحى) صفة مؤكدة لـ (وحي)؛ ترفع عن معناها احتمال المجاز، وجاءت الجملة المؤكدة في صيغة المضارع ؛ لتجدد الوحي وقتها مرة بعد مرة .

يقول ابن القيم : وقال: " وما ينطق عن الهوى" ولم يقل: وما ينطق بالهوى؛ لأن نطقه عن الهوى أبلغ، فإنه يتضمن أن نطقه لا يصدر عن هوى، وإذا لم يصدر عن هوى فكيف ينطق به؟! فتضمن نفي الأمرين: نفي الهوى عن مصدر النطق، ونفيه عن نفسه، فنطقه بالحق، ومصدره الهدى والرشاد لا الغي والضلال.

يعني: ما يصدر عنه ما هو إلا بالوحي لا عن الهوى، وهذا أقوى من قولك: وما ينطق بالهوى؛ لأنه في هذه الحالة إذا قلنا: (بالهوى) فإن فيه تنزيها لنفس النبي ﷺ أنه لا ينطق بالهوى، وإنما ينطق بالحق؛ لكن حينما نقول: (وما ينطق عن الهوى) يتضمن أمرين: يتضمن نفي الهوى عن مصدر نطقه، ثم أيضا نفي الهوى عن نفسه.

وراجع مثل ذلك في قوله تعالى:

﴿.....إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ .....﴾ [سورة الشورى:٤٨]

﴿إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾ [سورة فاطر:٢٣]

وكذا تجد في (ليس) النافية دلالات أخرى، وفي (لن) نحو : (لن يضروكم إلا أذى) وفي (لا) نحو (لا يكلف الله نفسا إلا وسعها) ونحو: (لا يقاتلونكم جميعا إلا في قرى محصنة أو من وراء جدر) و(هل) الاستفهامية نحو : (هل جزاء الإحسان إلا الإحسان) و (من) الاستفهامية نحو : (ومن يغفر الذنوب إلا الله) كل ذلك تنوعت فيه أداة النفي، واكتست حللا أخرى لتشرب النفي من رحيق الشرط والاستفهام، حتى تتحرك النفوس عند جملة القصر بهذه الأدوات حركة لا تراها مع النفي الخالص بـ (ما) ولو تتبعت كل شاهد لوجدت لكل أداة مناسبتها للسياق الذي وردت فيه، لكن الشائع من أدوات النفي في أسلوب القصر هي (ما) .

وجه إفادة النفي والاستثناء القصر :

صورة الاستثناء في القصر هي الاستثناء المفرغ ، أما الاستثناء التام فلا يدخل في منظومة القصر، عند جمهور البلاغيين، بخلاف البهاء السبكي، الذي أدخل أساليب الاستثناء جميعا (التام منها والمفرغ) في دائرة القصر، ورأي الجمهور هو المعتمد عندي، لأن الذائقة اللغوية تتأبى على إدخال هذا النمط في حيز القصر، **فأنت لا ترى في قولك** :

(حضر الناس إلا خالدًا) قصرا، لأن في القصر رغبة في التأكيد المبالغ فيه، والجملة السابقة خبر مجرد، لا تلمح فيها هذا التأكيد فليس قولك : (حضر الناس إلا خالدا) من القصر، إذ لا بد من النفي ثم الاستثناء، حيث تلمح في البداية بالنفي رد على زعمٍ موجود أو متوهم ثم تجد الاستثناء يخرج لك شيئا جديدا مما سبق نفيه، فهناك صناعة في الكلام، وحوارات بين المتكلم والمخاطب يحركها النفي والاستثناء .

وحين تبدأ بالنفي وتدخله على الصفة، وتقول:(ما حضر إلا خالد) فأنت تنفي جنس الحضور عن الجميع ممن هم على شاكلة خالد، وتوجه النفي إلى هذا المستور المقدر، فإذا استثنيت من هذا المقدر فردا واحدا تحقق مفهوم القصر، وحين تعكس الصورة، وتأتي بالموصوف أولا، وتقول : (ما خالد إلا حاضر) فإن تسليط النفي على الاسم لا يعني أنني أنفي الاسم، لأن الاسم لا ينفى، بل الذي ينفى هو الصفات، فكأنك تنفي عن

هذا الاسم كل الصفات التي يمكن أن يتصف بها، **فإذا قلت** : (إلا حاضر) تكون قد أثبت من بين جميع الصفات التي يمكن أن تثبت لهذا الاسم صفة الحضور وحدها، ويكون القصر : قصر موصوف على صفة .

موقع (المقصور عليه) في طريق النفي والاستثناء

يقع المقصور عليه في طريق النفي والاستثناء بعد أداة الاستثناء فحين تقول : (لا يعلم الغيب إلا الله) تكون قد قصرت علم الغيب (وهذا هو المقصور) على الله تعالى ،(وهذا هو المقصور عليه)، قصر ـ صفة على موصوف، **وحين تقول** :

(وما محمد إلا رسول) تكون قد قصرت اسم (محمد) وهذا هو المقصور، على(رسول) وهذا هو المقصور عليه، قصر ـ (موصوف على صفة) فالأصل أن المقصور عليه هو ما ولي أداة الاستثناء لأن الاختصاص فيه .

والمقصور عليه في طريق النفي والاستثناء هو المستثنى أي الواقع بعد أداة الاستثناء سواء تقدم أو تأخر تقول ما جاء إلا زيد، فتقصر المجيء على زيد، **يقول زهير:**

وما الحرب إلا ما علمتم وذقتم وما هو عنها بالحديث المرجم

فقد قصر الحرب على الذي علموه وذاقوه من ويلاتها قصر موصوف على صفة، **ويقول المتنبي:**

لا يـدرك المجـد إلا سـيد فطـن   لمـا يشـق عـلى السـادات فعـال

حيث قصر إدراك المجـد عـلى السـيد الفطـن الـذي يسـتطيع إدراك ما يشق على السادة الكرماء، وتقول لا أختـار الـوفي إلا مـنكم، ولا أختـار منكم إلا الوفي، فتفيد بالأول قصر اختيارك الـوفي عـلى كونـه مـنهم، وفيـه مدح لهم وتنويه بشأنهم وأن من أراد الوفي فعليه بالاتجاه إليهم، فهـم جميعًـا أوفياء .

وتفيد بالثاني قصر اختيارك منهم على الـوفي، وهـذا يعنـي أن فـيهم الوفي وغير الوفي، فأنت تختار وفيًّـا، وتـترك غـيره، ولا يخفـى عليـك بعـد ما بين القولين، والأدخل منهما في باب القصر.

وفي الجملة التي يكون فيها فعـل وفاعـل ومفعـول، ويقصـد قصـر الفعل على الفاعل، يجوز تقديم المفعول، وتأخير الفاعـل، **فتقـول في** : (مـا كتب إلا محمد الدرس) : (ما كتـب الـدرس إلا محمـد) حتـى لا يلتـبس المقصور عليه بغيره، لأن المعهود أن الواقع بعد (إلا) هـو المقصـور عليـه، ولأن تأخير المفعول سيجعل المقصـور مفرقـا وموزعـا فالصـفة المقصـورة ليست الكتابة على الإطلاق، ولكنها الكتابة المتعلقة بالدرس، لذلك يحسـن ضم المفعول به مع الفعل، ليتحقق المعنى المقصور بكاملة.

و لا يجوز تعدد المقصور عليه إلا بأداة عاطفة، كأن تقول : (ما نجح إلا محمد وعمر) (وما عمر إلا كريم وحليم) وكذا لايجوز تأخير المقصور عن المقصور عليه إلا لحاجة، وقد ذكر سيبويه قول كعب بن مالك وهو يخاطب رسول الله ﷺ:

الناس إلبٌ علينا فيك ليس لنا إلا السيوف وأطراف القنا وزر

المعنى: الناس مجتمعون علي عداوتنا(وليس لنا ورد إلا السيوف وأطراف القنا)[1] فالشاعر قدم المستثنى على المستثنى منه.

والتقدير: ما لنا وزر إلا السيوف برفع السيوف على البدل أو نصبها على الاستثناء، فلما قدمت على المستثنى منه لم يجز الإبدال فوجب نصبها على الاستثناء، فالشاعر أخر المقصور(وزر) إلى نهاية البيت ليجعله غاية له، وليكون آخر ما يسمعه المخاطب، فيبيح للشاعر ما أراد، وما صنع لأن الوزر هو الملجأ الأخير، فهناك حاجة أباحت للمقصور أن يتأخر .....

١- الكتاب لسيبويه ١/ ٣٧١.

ومثله في تقديم (المقصور عليه) على (المقصور)، يقول السّيِّد الحِمْيَرِيّ[1] يمدح السّفّاحَ العبَاسيّ وقد خطب يومًا فأحسن.

دونكموها يا بني هاشمِ　　فجددوا من أيُّها الطَّامسا
دونكموها فألبسوا ناجها　　لا تعدموا منكم لها لابسا
دونكموها لا علا كعبُ　　من أمسى عليكمُ ملكها نافسا
خلافةُ اللهِ وسلطانهُ　　عادَ، وقد كانَ لكم دارسا
قد ساسها من قبلكم ساسةٌ　　لم يتركوا رطباً ولا يابسا
أربعةٌ في طلقٍ واحدٍ　　وأرثها رابعهم خامسا
وداخلٌ من بيتهم من بني　　عمهم كانَ لهم سادسا
لو خيِّرَ المنبرُ فرسانهُ　　ما اختارَ إلا منكم فارسا
والملكُ لو شوِّرَ في ساسةٍ　　ما اختارَ إلا منكموا سايسا
لم نبقِ عبدَ اللهِ بالشّامِ　　من آل أبي العاص امرءاً طسَّا

١- هو إسماعيل بن محمد بن يزيد بن ربيعة ابن مفرغ الحميري، أبو هاشم أو أبو عامر: شاعر إمامي متقدم. قال صاحب الأغاني: يقال إن أكثر الناس شعرا في الجاهلية والإسلام ثلاثة: بشار وأبو العتاهية والسيد، فإنه لا يعلم أن أحدا قدر على تحصيل شعر أحد منهم أجمع.وكان أبو عبيدة يقول: أشعر المحدثين السيد الحميري وبشار. وقد أخمل ذكر الحميري وصرف الناس عن رواية شعره إفراطه في النيل من بعض الصحابة وأزواج النبي ﷺ وكان يتعصب لبني هاشم تعصبا شديدا، وأكثر شعره في مدحهم وذم غيرهم ممن عنده ضد لهم.وطرازه في الشعر قلما يلحق به. ولد في (نعمان) - قال ياقوت: واد قريب من الفرات على أرض الشام، قريب من الرحبة - ونشأ بالبصرة، وعاش مترددا بينها وبين الكوفة، ومات ببغداد(وقيل بواسط) وكان يشار اليه في التصوف والورع، مقدما عند المنصور والمهدي العباسيين.

ولستَ من أن تملكوا إلى هبوطِ عيسى نبيكم آيسا

فالشاعر في البيت الذي قال فيه (لو خير المنبر فرسانه إلخ) قصر اختيار الفارس على كونه من بني هاشم، وهذا يعني أنهم جميعا فرسان، وأن الخطيب منهم كالفارس، ولو أننا خيرنا المنابر، وقلنا لها : من تفضلين ليقف يخطب عليك ؟ لاختارتكم .

ولو وضع الكلام على النسق الطبعي لفسد المراد، فلو قيل : ما اختار منكم إلا فارسا، لفسد المعنى؛ لأنه حينئذ سيختار منهم الفارس، فيكون فيهم الفارس وفيهم غير الفارس، والشاعر لا يريد هذا، بل يريد أنهم جميعا فرسان، والمنبر لا يختار إلا منهم، فهم الفرسان دون غيرهم.

وفي مدح آل البيت يقول الكميت (١):

(طربت وما شوقا إلى البيض أطرب ولا لعبا مني وذو الشيب يلعب)

(ولم تلهني دار ولا رسم منزل ولم يتطربني بنان مخضب)

١- الكُمَيْت الأَسَدي (ت ١٢٦ هـ).

هو الكميت بن زيد بن خنس الأسدي، أبو المستهلّ: شاعر الهاشميين. من أهل الكوفة. اشتهر في العصر الأموي. وكان عالما بآداب العرب ولغاتها وأخبارها وأنسابها، ثقة في علمه، منحازا إلى بني هاشم، كثير المدح لهم، متعصبا للمضرية على القحطانية. وهو من أصحاب الملحمات.أشهر شعره " الهاشميات - ط " وهي عدة قصائد في مدح الهاشميين، ترجمت إلى الألمانية.ويقال: إن شعره أكثر من خمسة آلاف بيت، قال أبو عبيدة: لو لم يكن لبني أسد منقبة غير الكميت، لكفاهم. وقال أبو عكرمة الضبي: لولا شعر الكميت لم يكن للغةترجمان اجتمعت فيه خصال لم تجتمع في شاعر: كان خطيب بني أسد، وفقيه الشيعة، وكان فارسا شجاعا، سخيا، راميا لم يكن في قومه أرمى منه. وقال الميداني: الكميت ثلاثة: الكميت ابن ثعلبة، ثم الكميت بن معروف، ثم الكميت بن زيد، وكلهم من بني أسد. ولعبد المتعال الصعيدي " الكميت ابن زيد - ط " سيرته والهاشميات.

(ولا السانحات البارحات عشية أمر سليم القرن أم مر أعضب)

(ولكن إلى أهل الفضائل والنهى وخير بني حواء والخير يطلب)

(إلى النفر البيض الذين بحبهم إلى الله فيما نابني أتقرب)

(بني هاشم رهط النبي وإنني بهم ولهم أرضى مرارا وأغضب)

(بأي كتاب أم بأية سنة ترى حبهم عارا علي وتحسب)

(ومالي إلا آل أحمد شيعة ومالي إلا مذهب الحق مذهب)

(ومن غيرهم أرضى لنفسي شيعة ومن بعدهم لا من أجل وأرحب)

(إليكم ذوي آل النبي تطلعت نوازع من قلبي ظماء وألبب)

(وجدنا لكم في آل حاميم آية تأولها منا تقي ومعرب)

(فإني على الأمر الذي تكرهونه بقولي وفعلي ما استطعت لأجنب)

(يشيرون بالأيدي إلي وقولهم ألا خاب هذا والمشيرون خيب)

(فطائفة قد أكفرتني بحبهم وطائفة قالوا: مسيء ومذنب)

(يعيبونني من غيهم وضلالهم على حبكم بل يسخرون وأعجب)

(وقالوا ترابي هواه ودينه بذلك أدعى فيهم وألقب)

(فلا زلت فيهم حيث يتهمونني ولا زلت في أشياعهم أتقلب)

(ألم ترني في حب آل محمد أروح وأغدو خائفا أترقب)

(كأني جان محدث وكأنما بهم يتقي من خشية العر أجرب)

(عــلى أي جــرم أم بأيــة ســيرة أعنــف في تقــريظهم وأُأنــب)

وبيت الشاهد هو : (ومـالي إلا آل أحمـد شـيعة ...) وآل أحمـد: أي أتباع النبي ﷺ ،والشيعة في اللغة : الأتباع والأنصار.

يقول: ليس لي من الأنصار إلا أتباع محمد ﷺ ولـيس لي مـن طريـق إلا طريقهم لأنه قويم وصحيح.

والشاهد فيه تقديم المستثنى على المستثنى منـه في سـياق منفـي، **فالأصـل** : مالي شيعة إلا شيعة آل أحمد، ومالي مـذهب إلا مـذهب الحـق، ومـع ذلـك نصب المستثنى .

ومن شواهد تقديم المقصور عليه أيضا ما سطره المتنبي في رثاء جدتـه حيث وافتها المنية، وهو غريب عنها، **فقال** :

تغــرب لا مســتعظما غــير نفســه ولا قــابلا إلا لخالقــه حكــما

ولا ســالكا إلا فــؤاد عجاجــة ولا واجــدا إلا لمكرمــة طعــما

وراجع الشطرة الأخيرة من البيتين حيث ترى تقـديم المقصـور عليـه على المقصـور، والأصـل :(ولا قـابلا حكـما إلا لخالقـه، ولا واجـدا طعـما إلا لمكرمة)، لكن المتنبي عمد إلى تأخير المقصور (حكـما – وطعـما) ليبقـى ذكره في النفس السامعة الواعية، لأن نهايات الابيات من مواضع التذكر .

وقد ذكر أبو العلاء المعري[1] في (معجز أحمد) أنه ورد على أبي الطيب كتابٌ من جدته لأمه من الكوفة تستجفيه فيه! وتشكو شوقها إليه، وطول غيبته عنها، فتوجه نحو العراق، ولم يمكنه دخول الكوفة على حاله تلك فانحدر إلى بغدد، وقد كانت جدته يئست منه، فكتب إليها كتاباً يسألها المسير إليه، فقبلت كتابه وحمت لوقتها سروراً به! وغلب الفرح على قلبها فقتلها! **فقال يرثيها ويتحسر على وفاتها في غيبته ويفتخر بنفسه:**

ألا لا أرى الأحداث حمدا ولا ذما … فما بطشها جهلاً ولا كفها حلما
إلى مثل ما كان الفتى مرجع الفتى … يعود كما أبدى ويكرى كما أرمى
لك الله من مفجوعة بحبيبها … قتيلة شوق غير ملحقها وصما
أحنّ إلى الكأس الذي شربت به … وأهوى لمثواها التراب وما ضما
بكيت عليها خيفة في حياتها … وذاق كلانا ثكل صاحبه قدما
ولو قتل الهجر المحبين كلهم … مضى بلد باق أجدت له صرما

١- أَبُو العَلاء المَعَرِّي (ت ٤٤٩ هـ) هو أحمد بن عبد الله بن سليمان، التنوخيّ المعري: شاعر فيلسوف. ولد ومات في معرة النعمان.كان نحيف الجسم، أصيب بالجدريّ صغيرا فعمي في السنة الرابعة من عمره. وقال الشعر وهو ابن إحدى عشرة سنة. ورحل إلى بغداد سنة ٣٩٨هـ فأقام بها سنة وسبعة أشهر.وهو من بيت علم كبير في بلده. ولما مات وقف على قبره ٨٤ شاعرا يرثونه. وكان يلعب بالشطرنج والنرد. وإذا أراد التأليف أملى على كاتبه علي بن عبد الله بن أبي هاشم.وكان يحرّم إيلام الحيوان، ولم يأكل اللحم خمسا وأربعين سنة. وكان يلبس خشن الثياب.أما شعره وهو ديوان حكمته وفلسفته، فثلاثة أقسام: (لزوم ما لا يلزم) ويعرفباللزوميات، و (سقط الزند - ط) و (ضوء السقط - خ) (١) وقد ترجم كثير من شعره إلى غير العربية (٢) وأما كتبه فكثيرة وفهرسها في معجم الأدباء.

منافعهـا مـا ضر في نفـع غيرهـا … تغذى وتروى ان تجـوع وان تظـما

عرفت الليالي قبل ما صـنعت بنـا … فلـما دهتنـي لم تـزدني بهـا علـما

أتاهـا كتـابي بعـد يـأس وترحـة … فماتـت سروراً بي فمـت بهـا غـما

حرام على قلبـي السـرور فـإنني … أعد الذي ماتـت بـه بعـدها سـما

تعجب من خطـى ولفظـي كـأنما … ترى بحروف السطر أغربة عصـما

وتلثمـه حتـى صـار مـداده … محـاجر عينيهـا وأنيابهـا سـحما

رقى دمعها الجاري وجفت جفونهـا … وفارق حبي قلبها بعـد مـا أدمـى

ولم يسـلها إلا المنايـا وغـنما … أشد من السقم الذي أذهب السقما

طلبت لهـا حظـاً ففاتـت وفـاتني … وقد رضيت بي لو رضيت لها قسما

وأصبحت أستسقي الغمام لقبرها … وقد كنت أستسقي الوغى والقنا الصما

وكنت قبيل الموت أستعظم النوى … فقد صارت الصغرى التي كانـت العظمى

هبيني أخذت الثأر فيك من العدى … فكيف بأخذ الثأر فيك من الحمى

وما انسدت الـدنيا علـيّ لضـيقها … ولكـن طرفـا لا أراك بـه أعمـى

فـوا أسـفي أن لا أكـب مقـبلاً … لرأسك والصدر الذي مليا حزما

وأن لا ألاقي روحك الطيب الـذي … كأنّ ذكى المسـك كـان لـه جسـما

ولـو لم تكـوني بنـت أكـرم والـد … لكان أباك الضخم كونـك لي أمـا

لـئن لـذ يـوم الشـامتين بيومهـا … لقـد ولـدت منـي لآنـافهم رغـما

تغـرب لا مسـتعظما غـير نفسـه ... ولا قـابلاً إلا لخالقـه حكـما
ولا سـالكا إلا فـؤاد عجاجـة ... ولا واجـدا إلا لمكرمـة طعـما
يقولون لي مـا أنـت في كـل بلـدة ... وما تبتغي ما أبتغي جلّ أن يسمى
كـأن بنـيهم عـالمون بـأنني ... جلوب إلـيهم مـن معادنـه اليتما
وما الجمع بين الماء والنار في يـدي ... بأصعب مـن أجمـع الجـدّ والفهـما
ولكننـي مستنصرـ بذبابـه ... ومرتكب في كل حـال بـه الغشـما
وجاعلـه يـوم اللقـاء تحيتـي ... وإلا فلست السيد البطـل القرمـا
إذا قلّ عزمي عن مدى خوف بعـده ... بأبعـد شيء ممكـن لم يجـد عزمـا
وإني لمـن قـوم كـأن نفوسـنا ... بها أنف أن تسكن اللحم والعظـما
كـذا إذا نادينـا إذ شـئت فاذهـب ... ويا نفس زيدي في كرائهها عزمـا
فـلا عـبرت بي سـاعة لا تعـزني ... ولا صحبتني مهجة تقبـل الظلـما

ورحم الله المتنبي، فقد كان ممـن حبـاهم الله تعـالى قـدرة عـلى صـوغ المعاني النفيسة .

يقول الإمام :(واعلم أنّك إن عمدت إلى الفاعل والمفعـول فـأخّرتهما جميعا إلى ما بعد «إلّا»، فإن الاختصاص يقع حينئذ في الذي يلي «إلا» مـنهما. فإذا قلت: «ما ضرب إلّا عمرو زيدا»، كان الاختصاص في الفاعـل، وكـان المعنى أنك قلت: «إن الضارب عمرو لا غيره» **وإن قلت:**

«ما ضرب إلّا زيدا عمرو»، كان الاختصاص في المفعول، وكان المعنى أنك قلت: «إن المضروب زيد لا من سواه».

وحكم المفعولين حكم الفاعل والمفعول فيما ذكرت لك. **تقول:** «لم يكس إلّا زيدا جبّة»، فيكون المعنى أنه خص «زيدا» من بين الناس بكسوة الجبة فإن قلت: «لم يكس إلّا جبة زيدا»، كان المعنى: أنه خصّ الجبة من أصناف الكسوة)[1].

اجتماع طريقي (النفي والاستثناء) والعطف بـ (لا)

معلوم أن طريق العطف بـ(لا) له خصوصية، لا توجد في غيره وهو أن (لا) العاطفة لا تنفي معنى تم نفيه من قبل بأداة أخرى، فلا تقل : (ما حضر إلا محمد لا خالد)، لأن القصر يعني : إثبات شيء لشيء ونفيه عن غيره، ولكل من الإثبات والنفي أداته، ولا توجد حاجة لتأكيد النفي المنفي من قبل، لذلك لم يحسن الجمع بين (ما) النافية، و(لا) النافية وبخاصة أن وضع (لا) النافية في اللغة على أنها تنفي شيئا وجب إثباته من قبل، مثل : (الحق مع محمد لا خالد) (٢).

١- دلائل الإعجاز ٢٢٠.

٢- يرى العلامة العصام أنه يجوز جعل (لا) إن جاءت في الشعر بعد جملة القصرأن تكون تأكيدا لمجموع جملة القصر، وليس تأكيدا للنفي وحده.

وأؤكد هذا وأقول ثانية إن طريق النفي والاستثناء لا يجتمع مع طريق العطف بـ (لا) **فلا يجوز أن نقول** : ما جاء إلا زيد لا محمد . وذلك لأن المنفي في قولك : ما جاء إلا زيد . عام وشامل . فهو يشمل ما عدا محمد، ولكن هنا محمد داخل في دائرة النفي، أما (لا) العاطفة فقد وضعها البلاغيون لأن ينفى بها الشيء ابتداء وليس لأن ينفى بها شيء قد نفي بغيرها .

إذن (لا) العاطفة وضعها البلاغيون لأن ينفى بها الشيء ابتداء وليس لأن ينفى بها شيء قد نفي بغيرها .

مقامات النفي والاستثناء

يأتي النفي والاستثناء في المقامات الآتية :

- ❖ أن يكون المخاطب منكرا .
- ❖ أن يكون المخاطب شاكًا .
- ❖ أن يكون المخاطب جاهلا بالمعنى .
- ❖ أن يكون المعنى في نفسه غير مأنوس .
- ❖ أن يكون المتكلم في حاجة إلى تأكيد المعنى وتقريره، وتحقيقه، لأنه معنى عظيم .
- ❖ أن يكون المقام غير ما سبق لكن المتكلم ينزله منزلة ما سبق لحاجة في نفسه .

ويعد مقام الإنكار من أكثر المقامات التي يعالجها أسلوب القصر بالنفي والاستثناء، فتصدر النفي للأسلوب يعالج هذا الموقف الكائن عند المخاطب، والذي يريد المتكلم أن يقلبه بالكلية، فيأتي بالنفي والاستثناء لما فيه من إشباع حاجة المخاطب إلى تقرير التوكيد **فقولك** :

(ما نجح إلا خالد) يشعرك في الوهلة الأولى أن المخاطب يعتقد أن خالدا لم ينجح، بل وينكر نجاحه، فتعدل له الأمر، وتنكر عليه فهمه واعتقاده فتقول له : (ما نجح إلا خالد) ،

ويوضح لك هذا المراد قول عمرو بن معدي كرب[1] :

ألمم بسلمى قبل أن تظعنا ... إن لليلى عندنا دينا

قد علمت سلمى وجاراتها ... ما قطر الفارس إلا أنا

شككت بالرمح حيازيمه ... والخيل تعدو زيما بيننا

١ - عمرو بن معدي كَرِب (ت ٢١ هـ) هو عمرو بن معدي كرب بن ربيعة بن عبد الله الزبيدي: فارس اليمن، وصاحب الغارات المذكورة.وفد على المدينة سنة٩ هـ في عشرة من بني زبيد، فأسلم وأسلموا، وعادوا. ولما توفي النبي ﷺ ارتد عمرو في اليمن. ثم رجع إلى الإسلام، فبعثه أبو بكر إلى الشام، فشهد اليرموك، وذهبت فيها إحدى عينيه. وبعثه عمر إلى العراق، فشهد القادسية. وكان عصيّ النفس، أبيّها، فيه قسوة الجاهلية، يكنى أبا ثور. وأخبار شجاعته كثيرة. له شعر جيد أشهره قصيدته التي يقول فيها:

" إذا لم تستطع شيئا فدعه... وجاوزه إلى ما تستطيع "توفي على مقربة من الريّ. وقيل: قتل عطشا يوم القادسية. جمع هاشم الطعان ما ظفر به من شعره في " ديوان عمرو بن معد يكرب.

(وقطّر الفارس) تعني : صرع الفارس على أحد قطريه أي على أحد جانبيه. فالقطر: الجانب، والفارس: الشجاع. وكأنه إنما خص النساء بالعلم بشجاعته استمالة لهن إليه، لأنهن يملن إلى الشجاع والفصيح، والمعنى : ما فعل ذلك أحد غيري .

ومن ذلك قول الله تعالى : ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ ﴾ [سورة المائدة:١١٧] **فالمعنى** : ما أمرتهم إلا بما أمرتني به، ولم أغيره، ولاشك أن الله تعالى يعلم ماذا قال سيدنا عيسى، ولكنه يستجوبه أمام الخلق، ليسمعوا منه وينظروا إلى خضوعه وخشوعه بين يديه، لذلك بدأ بالتسبيح ،فقالَ: سُبْحانَكَ!ما قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا ما أَمَرْتَنِي بِهِ: أَنِ اعْبُدُوا اللهَّ رَبِّي وَرَبَّكُمْ»(١).

ومن هذا الضرب قوله تعالى :

﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ ﴾

[سورة المائدة:٧٣]

١- وظاهر النصوص القرآنية يفيد أن الله- سبحانه- قد توفى عيسى بن مريم ثم رفعه إليه. وبعض الآثار تفيد أنه حي عند الله. وليس هنالك- فيما أرى- أي تعارض يثير أي استشكال بين أن يكون الله قد توفاه من حياة الأرض، وأن يكون حياً عنده. فالشهداء كذلك يموتون في الأرض وهم أحياء عند الله. أما صورة حياتهم عنده فنحن لا ندري لها كيفاً. وكذلك صورة حياة عيسى- عليه السلام- وهو هنا يقول لربه: إنني لا أدري ماذا كان منهم بعد وفاتي:«وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً ما دُمْتُ فِيهِمْ، فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ»..

وبداية الآيات استئناف، وشروع في بيان كفر طائفة النصارى التي تقول بعقيدة التثليث، وقوله (قالوا إن الله ثالث ثلاثة) **تعني** :

اعتقدوا هذه العقيدة، ونشروها بين الناس، **ومعنى قولهم:**

(إن الله ثالث ثلاثة) أي أن الله تعالى في عقيدتهم مجموع ثلاثة أشياء،وهذه الثلاثة قد عبروا عنها بالأقانيم **وهي:**

- ❖ أقنوم الوجود، وهو الذات المسمى الله، وسموه أيضا الأب .
- ❖ وأقنوم العلم، وسموه أيضا الابن، وهو الذي اتحد بعيسى وصار بذلك عيسى إلها .
- ❖ وأقنوم الحياة، وسموه الروح القدس.

وقالوا : إنه لما اتحد بمريم حين حملها بالكلمة تألهت مريم أيضا، **فقوله:** (ثالث ثلاثة) معناه واحد من تلك الثلاثة ، أو مكمل للثلاثة، وتلك أبشع من الأولى، ولذلك جاءت الجملة التي تقرر حقيقة الألوهية، وهي أنه لا يجوز أن يكون الإله إلا واحدا فقيل :(وما من إله إلا إله واحد) **يقول الإمام الرازي** : (واعلم أن هذا معلوم البطلان ببديهة العقل، فإن الثلاثة لا تكون واحدا، والواحد لا يكون ثلاثة، ولا يرى في الدنيا مقالة أشد فسادا وأظهر بطلانا من مقالة النصارى.)

وجملة (وما من إله إلا إله واحد) تشير إلى أن الوحدانية موجودة في جميع الكتب، وليست مقصورة على القرآن الكريم، فالجملة من باب قصر الموصوف على الصفة ،قصر قلب، لأن المراد : أنكم إذا سلمتم بأن الله تعالى إله، فإن الإله لا يكون إلا واحدا، فقلب مقصودهم حيث نفى أن يكون ثالث ثلاثة، وأثبت أنه واحد، لأن الألوهية الحقة تستلزم الوحدانية المطلقة، ثم عقب ذلك بالتهديد والوعيد بالعذاب الشديد .

وقد ينزل المخاطب منزلة غيره، فيجعل غير الشاك شاكا وغير المنكر منكرا، كما يجعل العالم بالأمر غير عالم، وينزل منزلة الجاهل بالأمر، **ومن ذلك قول الله تعالى :**

﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [سورة آل عمران:٦٥]

وكأن رب العزة جل وعلا يدافع عن خليله ﷺ ويعرض بهؤلاء الذين يخلطون في الأمور، ويزعمون أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام كان يهوديا، أو نصرانيا !! وكيف يكون إبراهيم على دين من أتى من بعده ؟ !! إن ظاهر الآية يبين أنها ترد على ادعاءات أهل الكتاب حين احتكروا عهد الله تعالى لإبراهيم أن يجعل في بيته النبوة، وأرادوا من وراء ذلك تكذيب النبي ﷺ في أنه على دين إبراهيم، فبينت الآية أن دعواهم هذه مخالفة للعقل بمقياس التاريخ، **لأنه** :(ما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده)

وختم العبارة بقوله (أفلا تعقلون) فالأسلوب أسلوب قصر ـ (بما وإلا) مع أن ذلك أمر ليس بغريب، ولا ينكره أحد، لكنه أخرج مخرجه تسفيها لعقولهم، فنزلوا منزلة من يجهل البدهيات، أعني بدهيات التاريخ والعبارة من قصر الموصوف على الصفة قصرا إضافيا للقلب .

ومن ذلك قوله تعالى :

﴿ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ [سورة فاطر:٢٣]

فالرسول ليس إلا نذير، وقدرته لا تتعدى هذا الحد، ومن قبل قيل له:«فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَراتٍ» **كما قيل :**

﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ﴾ [سورة فاطر:٢٥]

فالكلام إعذار للنبي ﷺ، وتسلية له، حتى لا تذهب نفسه عليهم حسرات .

ويبقى السؤال:ما وجه النفي والاستثناء في جملة (إن أنت إلا نذير)؟

لقد نزل المخاطب منزلة الشاك في الأمر، أو المنكر لما بدا عليه من همٍ وغمٍ، ورغبة شديدة في إيمانهم، **يقول عبد القاهر :**

(وجملة الأمر أنك متى رأيت شيئا هو من المعلوم الذي لا يشك فيه قد جاء بالنفي، فذلك لتقدير معنى صار به في حكم المشكوك فيه، فمن **ذلك قوله تعالى:**

{ وَمَآ أَنتَ بِمُسۡمِعٖ مَّن فِي ٱلۡقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنۡ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ } ٢٣ إنـــما جـــاء والله أعلم، بالنفي والإثبات، لأنه لما قال: {ومـا أنـت بمسـمع مـن في القبـور} وكان المعنى في ذلك أن يقال للنبي ﷺ: إنك لن تستطيع أن تحـول قلـوبهم عـما هـي عليـه مـن الإبـاء، ولا تملـك أن توقـع الإيـمان في نفوسـهم مع إصرارهم على كفرهم، واستمرارهم على جهلهم، وصـدهم بأسـماعهم عما تقوله لهم " كان اللائق بهذا أن يجعل حال النبي ﷺ حال مـن قـد ظـن أنه يملك ذلك، ومن لا يعلم يقينا أنه ليس في وسعه شيء أكثر من أن ينـذر ويحذر، فأخرج اللفظ مخرجه إذا كان الخطاب مع من يشك، **فقيل**:

"إن أنت إلا نذير". ويبين ذلك أنـك تقـول للرجـل يطيـل منـاظرة الجاهل ومقاولته: "إنك لا تستطيع أن تسمع الميت، وأن تفهـم الجـماد، وأن تحول الأعمى بصيرا، وليس بيدك إلا أن تبين وتحـتج، ولسـت تملـك أكثـر من ذلك"

لا تقول ههنا: "فإنما الذي بيدك أن تبين وتحتج"، ذلك لأنـك لم تقـل له "إنك لا تستطيع أن تسمع الميت"، حتى جعلته بمثابة من يظن أنه يملـك وراء الاحتجاج والبيان شيئا. وهذا واضح، فاعرفه) (١).

١- دلائل الإعجاز ص ٣٤٣.

فالإمام عبد القاهر الجرجاني جعل الآية من نوع القصر الإضافي قصر موصوف على صفة، ولم يرد به نفي كل ما عدا الإنذار، وإنما أريد به نفي امتلاك تحويل قلوبهم عما هي عليه من الإباء. ومثل هذا موجود **في قوله تعالى :**

﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ١٨٨﴾

[سورة الأعراف:١٨٨]

فالمعنى أنه لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا، ولا يعلم الغيب ولم يكلف شيئاً غير البلاغ، وليس عليه أن يرغمهم على ما جاءهم به.

ومنه أيضا قوله تعالى :

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوۡ قُتِلَ ٱنقَلَبۡتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡۚ وَمَن يَنقَلِبۡ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۗ وَسَيَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ١٤٤﴾

[سورة آل عمران:١٤٤]

وهذه الآية تصور ما حدث أثناء غزوة أحد حين (رمى عبد الله بن قمئة الحارثي رسول الله ﷺ بحجر فكسر رباعيته، وشج وجهه، ثم أقبل يريد قتله فذب عنه ﷺ مصعب بن عمير وهو صاحب الراية يوم بدر ويوم أحد، حتى قتله ابن قمئة، وهو يرى أنه رسول الله ﷺ ، فقال: قد قتلت محمدا... وصرخ صارخ : ألا إن محمدا قد قتل.

وقيل: كان الصارخ الشيطان، ففشا في الناس خبر قتله فانكفؤا فجعل رسول الله ﷺ يدعو: «إليَّ عبادَ الله» حتى انحازت إليه طائفة من أصحابه، فلامهم على هربهم، **فقالوا**: يا رسول الله فديناك بآبائنا وأمهاتنا أتانا خبر قتلك فرعبت قلوبنا فولينا مدبرين، فنزلت.

وروى أنه لما صرخ الصارخ قال بعض المسلمين: ليت عبد الله بن أبيّ يأخذ لنا أمانا من أبى سفيان.

وقال ناس من المنافقين: لو كان نبيا لما قتل، ارجعوا إلى إخوانكم وإلى دينكم.

فقال أنس بن النضر- عم أنس بن مالك-: يا قوم، إن كان قتل محمد فإن رب محمد حى لا يموت، وما تصنعون بالحياة بعد رسول الله ﷺ فقاتلوا على ما قاتل عليه، وموتوا على ما مات عليه.

ثم قال: اللهم إنى أعتذر إليك مما يقول هؤلاء ، وأبرأ إليك مما جاء به هؤلاء ، ثم شد بسيفه فقاتل حتى قتل.

وعن بعض المهاجرين : أنه مر بأنصارى يتشحط في دمه ، فقال يا فلان ، أشعرت أن محمدا قد قتل، فقال: إن كان قتل فقد بلغ، قاتلوا على دينكم.

والمعنى وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل فسيخلو كما خلوا، وكما أن أتباعهم بقوا متمسكين بدينهم بعد خلوهم، فعليكم أن تتمسكوا بدينه بعد خلوه، لأن الغرض من بعثة الرسل تبليغ الرسالة

وإلزام الحجة، لا وجوده بين أظهر قومه (أفإن مات) الفاء معلقة للجملة الشرطية بالجملة قبلها على معنى التسبيب، والهمزة لإنكار أن يجعلوا خلو الرسل قبله سببا لانقلابهم على أعقابهم بعد هلاكه بموت أو قتل، مع علمهم أن خلو الرسل قبله وبقاء دينهم متمسكا به يجب أن يجعل سببا للتمسك بدين محمد ﷺ ، لا للانقلاب عنه.

فإن قلت: لم ذكر القتل وقد علم أنه لا يقتل؟

قلت: لكونه مجوزا عند المخاطبين.

فإن قلت: أما علموه من ناحية **قوله** : (والله يعصمك من الناس) ؟

قلت: هذا مما يختص بالعلماء منهم وذوى البصيرة. ألا ترى أنهم سمعوا بخبر قتله فهربوا، على أنه يحتمل العصمة من فتنة الناس وإذلالهم.

والانقلاب على الأعقاب : الإدبار عما كان رسول الله ﷺ يقوم به من أمر الجهاد وغيره.

وقيل: الارتداد. وما ارتد أحد من المسلمين ذلك اليوم إلا ما كان من قول المنافقين. ويجوز أن يكون على وجه التغليظ عليهم فيما كان منهم من الفرار والانكشاف عن رسول الله ﷺ، وإسلامه فلن يضر الله شيئا فما ضر إلا نفسه، لأن الله تعالى لا يجوز عليه المضار والمنافع وسيجزي الله الشاكرين الذي لم ينقلبوا كأنس بن النضر وأضرابه. وسماهم (شاكرين) لأنهم شكروا نعمة الإسلام فيما فعلوا.

المعنى: أن موت الأنفس محال أن يكون إلا بمشيئة الله، فأخرجه مخرج فعل لا ينبغي لأحد أن يقدم عليه إلا أن يأذن الله له فيه تمثيلا، ولأن ملك الموت هو الموكل بذلك، فليس له أن يقبض نفسا إلا بإذن من الله.

وهو على معنيين:

أحدهما: تحريضهم على الجهاد وتشجيعهم على لقاء العدو بإعلامهم أن الحذر لا ينفع، وأن أحدا لا يموت قبل بلوغ أجله وإن خاض المهالك واقتحم المعارك.

والثاني : ذكر ما صنع الله برسوله عند غلبة العدو والتفافهم عليه وإسلام قومه له)(١).

وهذا المقام الذي نزلت فيه الاية مقام يصور قلوب بعض الصحابة حين دخلتها الفتنة، فتنة الزيغ عن الدين في غياب رسول الله ﷺ بالموت أو القتل، فحبهم لرسول الله أفقد بعضهم العقل لبرهة، والحب له أثر غير حميد في غيبة العقل، وبخاصة وقت المحن، فجاءت الآية لتصور هؤلاء الكبار في صورة من لا يكاد يعلم رسالة رسول الله ﷺ، ومن لا يكاد يعلم أنه بشر يجري عليه ما يجري على البشر، وأن كثيرا من الرسل قبله ماتوا، أو قتلوا بعد أن بلغوا رسالات ربهم، والاية أنزلت استعظامهم هذا منزلة المنكرين له مما استدعى القصر عن طريق النفي والاستثناء

١- الكشاف للزمخشري ١/ ٤٢٣.

وهو قصر موصوف على صفة قصر إفراد حيث نزل المخاطبون منزلة من يعتقد أن الرسول ﷺ يجمع بين الرسالة والبقاء حيا .

أو أنه قصر إفراد حيث أثبتوا له البقاء مع الرسالة، فأفرد بالرسالة دون البقاء .

أو أن القصر قصر قلب حيث أثبتوا له الرسالة مع البقاء لزوما فكأنهم زعموا أنه رسول لن يموت حتى يوم القيامة، كما هو شأن سيدنا عيسى، **فقيل لهم** : بل يموت كما مات من قبله الرسل . وهناك نوع آخر من الإنزال، وهو الإنزال في سياق المجاراة للخصم .

ومن ذلك أيضا قوله تعالى :

﴿ ۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ ﴾ [سورة إبراهيم: ١٠]

فهذه الآية جاءت في سياق مجاراة الخصم حين زعموا أن الله تعالى لا يرسل رسلا من البشر، وكل من يزعم أنه رسول لا ينبغي أن يكون من البشر، أو من قال إنه رسول فإنه يزعم أنه ليس من البشر .

ومن هنا كان حديث المشركين منطلقا من هذا التصور المريض ولذلك كان ردهم على الرسل : إنكم بشر مثلنا، والواضح أن الرسل لم ينكروا ذلك، لكنهم جاروهم ،وسايروهم على توهمهم، يقول الطاهر بن

عاشور : قول الرسل : " إن نحن إلا بشر مثلكم " جواب بطريق القول بالموجب في علم آداب البحث ، وهو تسليم الدليل مع بقاء النزاع ببيان محل الاستدلال غير تام الإنتاج، وفيه إطماع في الموافقة. ثم كر على استدلالهم المقصود بالإبطال بتبيين خطئهم)(١).

ونظيره قوله تعالى:

﴿**يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾**﴾ [سورة المنافقون:٨]

وهذا النوع من القوادح في علم الجدل شديد الوقع على المناظر فليس قول الرسل : " إن نحن إلا بشر مثلكم" تقريرا للدليل ولكنه تمهيد لبيان غلط المستدل في الاستنتاج من دليله.

ومحل البيان هو الاستدراك في قوله:

﴿..... **وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ** .....﴾ [سورة إبراهيم:١١]

والمعنى: أن المماثلة في البشرية لا تقتضي المماثلة في زائد عليها، فالبشر كلهم عباد الله، والله تعالى يمن على من يشاء من عباده بنعم لم يعطها غيرهم. فالاستدراك رفع لما توهموه من كون المماثلة في البشرية مقتضى الاستواء في كل خصلة) (٢).

---

١ ـ االتحرير والتنوير ٣١/ ٢٣٤.

٢ـ التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ١٣/ ٢٠١.

ومن نماذج مجيء النفي والاستثناء في مقام عظم المعنى، وحب المتكلم وتلذذه بالنطق به جملة (إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت) في الدعاء الشهير بسيد الاستغفار **حيث يقول فيه النبي ﷺ**: **(سَيِّدُ الِاسْتِغْفَارِ اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ وَأَبُوءُ لَكَ بِذَنْبِي فَاغْفِرْ لِي فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ . إِذَا قَالَ حِينَ يُمْسِي فَمَاتَ دَخَلَ الْجَنَّةَ أَوْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَإِذَا قَالَ حِينَ يُصْبِحُ فَمَاتَ مِنْ يَوْمِهِ مِثْلَهُ)**(١).

فليس المقصود هنا من جملة القصر إلا إبراز المعنى في ثوب يليق به فسيد الاستغفار لا بد له من نمط من الأسلوب يشرح لهفة وحب وشوق المستغفر إلى عفو ربه جل وعلا، فالمخاطب (جل وعلا) ليس منكرا والمتكلم ليس شاكا، وليس منزلا منزلة الشاك في الغفران، وجيء بالأسلوب في ثوب القصر وبطريق (النفي والاستثناء) ؟

لأن المعنى متمكن في قلب المتكلم، راسخ في يقينه، لذلك كان من الائق به إبرازه في هذه الصورة المتمكنة، صورة القصر. فللمعاني منازل لا يليق وضعها في غير منازلها، ومنزلة جملة (غفران الذنوب) منزلة عظيمة لذلك وضعت في ثوبها اللائق بها .

١- صحيح البخاري رقم ٥٨٤٨.

ومثل ما سبق تجد قوله تعالى :

﴿ ۞ لَّيۡسَ عَلَيۡكَ هُدَىٰهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۗ وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَلِأَنفُسِكُمۡۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ ٱللَّهِۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾ ﴾ [سورة البقرة:٢٧٢]

فالقصر هنا يعني أن النفقة التي تنفقونها لا تخرج إلا ابتغاء وجه الله تعالى، والجملة قد تحمل معنى الخبر، وقد تحمل معنى الإنشاء أي : لا تنفقوا إلا ابتغاء وجه الله، فهو نهي في صيغة الخبر، وهذا أقرب إلى السياق، لكنك لو تدبرت في الخبر، لعلمت أنه خطاب للمسلمين، وهم لم ينكروا المعنى ولا يجهلونه، ومع ذلك جاء في أسلوب القصر ـ لبيان مدى أهميته ؛ لأنه معنى عظيم، محبوب إلى الله تعالى، ويُبلِّغ صاحبه رضاه .

القصر بإنما

قال البلاغيون وغيرهم بأن (إنما) تفيد القصر، وأن دلالتها وضعية .

❖ لأن كلمة(إن)تفيد تأكيد إثبات المسند للمسند إليه، ثم تأتي (ما) المؤكدة فيصبح التوكيد مضاعفا، لذلك ضمنت معنى القصر، لأن القصر في عرف كثير من العلماء ما هو إلى تأكيد على تأكيد، فحين **تقول مثلا** : (إنما جاء زيد) كأنك قلت :(زيد جاء لا عمرو) فأنت تثبت المجيء صراحة لزيد بقولك : (زيد جاء) وتثبت المجئ لزيد ضمنا حين قلت :(لا عمرو).

❖ وقيل بل إن إفادتها للقصر نابعة من كـون (إن) للتوكيـد، و(مـا) للنفي، ولا يجوز توجيه الأداتين لما بعـد (إنـما) لأنـه لا يتوجـه نفـي وإثبات إلى جملة واحدة، وهذا يعني أن (إنما) يتوجه الإثبات فيها إلى ما بعدها، ويتوجه النفي فيهـا لمـا عـداه، فجعـل الإثبـات للمـذكور صراحة، وجعل النفي لغير المذكور .

❖ وقيل إن (إنما) مكونة من (إن) المفيدة للتوكيد و(ما) الكافة لإن عن العمل، مثل(ليتما، ولكنما، وكأنما) وهـي مفيـدة للقصـر لأنهـا تتضمن معنى(ما وإلا) والدليل على إفادة (إنـما) معنـى (مـا وإلا) **عدة أشياء :**

أولا : قول المفسرين ممن تؤخذ منهم اللغة : أن معنى قول الله تعـالى : (إنـما حرم عليكم الميتة) هو(ماحرم عليكم إلا الميتة) أي :أن الذي حرمه عليكم : الميتةُ .

والكلام على هذا الفهم يعني أن الجملة تفيد القصر بتعريف الطـرفين الطرف الأول هو (ما) الموصولة، والطرف الثاني هو (الميتة) .

ثانيا : قول النحاة : (إنما) لإثبات ما بعدها، ونفي ما سواه، فـدلالتها عـلى الإثبات والنفي تماما مثل : دلالة النفي والإثبات في (ما وإلا)

ثالثا : قول الفرذدق :

أنا الزائد الحامي الذمار وإنما دافع عن أحسابهم أنا أو مثلي

فانفصال الضمير في (يدافع عن أحسابهم أنا) كان من الممكن وصله ويقال : (إنما أدافع عن أحسابهم أنا) ويكون (أنا) توكيدا، والنحو لا يجيز فصل الضمير إلا مع (ما وإلا) وهذا يعني أن (إنما) بمعنى (ما وإلا) .

ومع هذا كله يرى بعض العلماء أن (إنما) لا تفيد القصر، وهي فقط للتوكيد المبالغ فيه، وأن (ما) في (إنما) ليست إلا لكف (إن) عن العمل وتهيئتها للدخول على الجملة الفعلية، وجعل أبو حيان صاحب تفسير البحر المحيط مَنْ يقول إنها للقصر كأنما قال رأيا ركيكا فاسدا صادرًا عن غير عارف بالنحو، يقول : (إنما) ما: صلة لإن وتكفها عن العمل، فإنْ وليتها جملة فعلية كانت مهيئة، وفي ألفاظ المتأخرين من النحويين وبعض أهل الأصول أنها للحصر، وأنها مركبة من (ما) النافية، دخل عليها (إنّ) التي للإثبات فأفادت الحصر.

والذي نذهب إليه أنها لا تدل على الحصر بالوضع، كما أن الحصر لا يفهم من أخواتها التي كفت بها، فلا فرق بين: (لعل زيدا قائم)، (ولعلما زيد قائم)، فكذلك: (إن زيدا قائم)، (وإنما زيد قائم)، وإذا فهم الحصر فإنه مفهوم من سياق الكلام، وليس من (إنما).

وبهذا الذي قررناه يزول الإشكال الذي أوردوه في نحو قوله تعالى: (إنما أنت منذر) ، وقوله : (قل إنما أنا بشر)، وقوله : (إنما أنت منذر من يخشاها)، وإعمال إنما- قيل : - إنه مسموع من لسان العرب، والذي عليه أصحابنا أنه غير مسموع}[1].

لكنك حين تراجع أبا حيان في التفسير الذي قال فيه هذا الكلام تجده يفسر(إنما) على أنها للحصر، **بل ويصرح بذلك في قوله** :

(وهي لفظة تصلح للحصر وتأتي أيضا دونه، وإنما ذلك بحسب المعنى الذي جاءت فيه) [2].

كما في قوله تعالى : (إنما هو إله واحد).

حيث قال: (ولما نهى عن اتخاذ الإلهين، واستلزم النهي عن اتخاذ آلهة، أخبر تعالى أنه إله واحد كما قال: وإلهكم إله واحد بأداة الحصر- وبالتأكيد بالوحدة. ثم أمرهم بأن يرهبوه، والتفت من الغيبة إلى الحضور لأنه أبلغ في الرهبة، وانتصب إياي بفعل محذوف مقدر التأخير عنه يدل عليه فارهبون، وتقديره: وإياي ارهبوا)[3].

وقال أيضا : (لما بين تعالى ما حرم، بالغ في تأكيد ذلك بالنهي عن الزيادة فيما حرم كالبَحِيرة، والسائبة، وفيما أحل كالميتة والدم، وذكر تعالى تحريم هؤلاء

١- البحر المحيط ١/ ١٠٠ بتصرف.

٢- البحر المحيط ٩ / ٣١.

٣- البحر المحيط ٦ / ٥٤٤.

الأربع - في سورة الأنعام وسورة النحل وهما مكيتان - بأداة الحصر)[1].

وفي قوله تعالى :(إنما سكرت أبصارنا) جاء لفظ (إنما) مشعرا بالحصر، كأنه قال: ليس ذلك إلا تسكيرا للأبصار)[2] .. إلخ

كل هذه نصوص من عند أبي حيان في تفسير البحر المحيط، وعليه فإن (إنما) عند أبي حيان تفيد الحصر بالسياق، وليس بالوضع، وقد تبين لك من مراجعته أنه ينص على إفادتها للحصر في أكثر من موضع .

(أنما)المفتوحة الهمزة .

الخلاف حول إفادة (أنما) بفتح الهمزة للقصر كثير، وحديث النحاة عن (أنما) المفتوحة يلي حديثهم عن المكسورة، ويرى بعضهم أن الفتح متفرع عن الكسر، وكل من (إنما و أنما) أصلها (إن) التي تفيد التوكيد والتحقيق، وما ثبت للأصل يثبت للفرع .

يقول الزمخشري عند قوله تعالى :

﴿ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ ﴾

[سورة الأنبياء:١٠٨]

" إنما" لقصر الحكم على شيء، أو لقصر الشيء على حكم، كقولك: إنما زيد قائم، وإنما يقوم زيد. وقد اجتمع المثالان في هذه الآية، لأن

١- السابق ٦ / ٦٠٦.

٢- السابق ٦ / ٤٧٠.

(إنما يوحى إلي) مع فاعله، بمنزلة: إنما يقوم زيد. (وأنـما إلهكـم إلـه واحد) بمنزلة: إنما زيد قائم. وفائدة اجتماعهما:الدلالـة عـلى أن الـوحى إلى رسول الله ﷺ مقصور على استئثار الله بالوحدانية)[1].

وعليه يكون المعنى : ما يوحى إليّ إلا أنه لا إله لكم إلا إله واحد، وتستطيع أن تجعل هذا النوع من القصر داخلا تحت : قصر الإفـراد، أو القلـب أو التعيين .

يقول الألوسي : في قوله تعالى :

(قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ)

ذهب جماعة إلى أن في الآية حصرين بناء على أن (أنما) المفتوحـة تفيـد ذلك كالمكسورة، والأول لقصرـ الصـفة عـلى الموصـوف، والثـاني لقصـر الموصوف على الصفة، فالثاني قصر فيـه الله تعـالى عـلى الوحدانيـة، والأول قصر فيه الوحي على الوحدانيـة، والمعنـى مـا يـوحى إليّ إلا اختصـاص الله تعالى بالوحدانية.

واعترض بأنه كيف يقصـر الوحي على الوحدانيـة وقـد أوحـي إليـه ﷺ أمور كثيرة غير ذلك كالتكاليف والقصص، **وأجيب بوجهين:**

الأول أن معنى قصره عليه أنه الأصل الأصيل وما عـداه راجـع إليـه أو غير منظور إليه في جنبه فهو قصر ادعائي، والثاني أنه قصر قلـب بالنسـبة إلى الشرك الصادر من الكفار، وكذا الكلام في القصر الثاني.

١- الكشاف ٣ / ١٣٩.

وأنكر أبو حيان إفادة أنما المفتوحة الحصر لأنها مؤولة بمصدر واسم مفرد وليست كالمكسورة المؤولة بما وإلا وقال: لا نعلم خلافا في عدم إفادتها ذلك والخلاف إنما هو في إفادة إنما المكسورة إياه.

وأنت تعلم أن الزمخشري وأكثر المفسرين ذهبوا إلى إفادتها ذلك والحق مع الجماعة ويؤيده هنا أنها بمعنى المكسورة ؛ لوقوعها بعد الوحي الذي هو في معنى القول ولأنها مقولة قُلْ في الحقيقة ولا شك في إفادتها التأكيد فإذا اقتضى المقام القصر كما فيما نحن فيه انضم إلى التأكيد، لكنه ليس بالوضع كما في المكسورة، فقد جاء ما لا يحتمله **كقوله تعالى**:

﴿.... وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ ....﴾ [سورة ص:٢٤]

ولذا فسره الزمخشري بقوله ابتليناه لا محالة مع تصريحه بالحصر هنا (١).

فبعض العلماء الذين يرون إفادة (إنما) بالكسر للقصر يرون أيضا إفادة (أنما) بالفتح للقصر في بعض المواضع، أما أبو حيان الذي يرفض دلالة (إنما) بالكسر للقصر، فإنه يرفض بشدة دلالة (أنما) بالفتح للقصر يقول (وأما ما ذكره – يعني : الزمخشري – في (إنما) إنها لقصر ما ذكر فهو مبني على أن (إنما) للحصر، وقد قررنا أنها لا تكون للحصر، وإن (ما) مع (أن) (كما) مع (كان) ومع (لعل) ، فكما أنها لا تفيد الحصر في

١- روح المعاني للألوسي ٩ / ١٠١.

التشبيه ولا الحصر في الترجي، فكذلك لا تفيده مع (أن) .

وأما جعلُه (أنما) المفتوحة الهمزة مثل مكسورتها يـدل عـلى القصرـ، فلا نعلم الخلاف إلا في (إنما) بالكسر، وأما بالفتح فحرف مصدري ينسبك مع ما بعدها بمصدر، فالجملة بعدها ليست جملة مستقلة، ولـو كانـت إنـما دالة على الحصر لزم أن يقـال : إنـه لم يـوح إليـه شيء إلا التوحيـد. وذلـك لا يصح الحصر فيه، إذ قد أوحى له أشياء غير التوحيد)(١).

والذي يظهر لي أن كلام أبي حيـان يحتـاج إلى مراجعـة ؛ لأن التأويـل بالمصدر أمر تقديري، أما القصر فإنه مسـتفاد مـن اللفـظ، كـما أن التأويـل بمصدر لا يمنـع مـن إرادة القصـــر، ولقـد صرح في التفسـير بـأن (أنـما) متضمنة معنى (ما وإلا) أو معنى النفي والاستثناء، **ففي قوله تعالى** :

﴿....فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٢﴾﴾ [سورة التغابن:١٢]

يقول : (أي فإن أعرضتم فليس على الرسول إلا أن يبلـغ أحكـام الله وليس عليه خلق الطاعة فيكم، ولا يلحقه من توليكم شيء بل ذلك لاحـق بكم وفي هذا من الوعيد البالغ مـا لا خفـاء بـه إذ تضـمن أن عقـابكم إنـما يتولاه المرسل لا الرسول وما كلف الرسول من أمركم غير تبليغكم)(٢).

وهذا معناه أن كلمة (أنما) متضمنة معنى (ما وإلا) على حد تفسيره

١- البحر المحيط في التفسير ٧ / ٤٧٣.

٢- السابق ٤/ ٣٥٩.

وقد سبق أيضا أنه يفسر (إنما) بالكسر ـ معنى ما وإلا، فإن قيل إن الأداتين قد لا يفيدان القصر في بعض المواضع، أجيب بأن هذا وارد، فكل الأدوات خاضعة لشأن السياق وسلطانه، والسياق قد يساعد على ظهور المعنى للأداة، وقد يساعد على خفائها بحسب المراد .

موقع المقصور عليه مع إنما

يقع المقصور عليه مع (إنما) أخيرا في الجملة، وحين تكثر المتعلقات فإن الأمر يحتاج إلى فهم ولقانية لتحديد المقصور عليه، ولكي يتضح لك الأمر فإنك حين تريد تحديد المقصور عليه عليك أن تأول الجملة بجملة النفي والاستثناء، وما يأتي بعد (إلا) حين التأويل يكون هو المقصور عليه **فقوله سبحانه** :(إنما أنت نذير) المعنى : ما أنت إلا نذير، فالمقصور عليه هو كلمة (نذير) .

وفي قوله : إنما السبيل على الذي يستأذنونك، تجد المقصور عليه هو (على الذين يستأذنونك) **وفي قوله** : (إنما الله إله واحد) المقصور عليه هو قوله : (إله واحد)... وهكذا.

وقد يقدم المقصور عليه مع (إنما) أيضًا لعارض نحو : (إنما قمت) أي : لا قعدت، فحصر الفاعل في الفعل مع تقديم الفعل لعدم صحة تقديم الفاعل عليه.

ولقد وقف الإمام عبد القاهر وقفة يبين فيها موقع المقصور عليه ودلالته في آية يلتبس على العامة تحريرها، فقال : { وهاهنا كلام ينبغي أن تعلمه، إلا أني أكتب لك من قبله مسألة، لأن فيها عونا عليه.

قوله تعالى﴿:.... **إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟** :.....﴾ [سورة فاطر:٢٨]

في تقديم اسم (الله) **y** معنى خلاف ما يكون لو أخّر. وإنّما يبين لك ذلك إذا اعتبرت الحكم في «ما» و «إلا»، وحصّلت الفرق بين أن تقول: «ما ضرب زيدا إلّا عمرو»، وبين قولك: «ما ضرب عمرو إلّا زيدا».

والفرق بينهما أنك إذا قلت: «ما ضرب زيدا إلّا عمرو»، فقدّمت المنصوب، كان الغرض بيان الضّارب من هو، والإخبار بأنه (عمرو) خاصّة دون غيره وإذا قلت: «ما ضرب عمرو إلّا زيدا»، فقدّمت المرفوع كان الغرض بيان المضروب من هو، والإخبار بأنه « زيد » خاصة دون غيره.

وإذا قد عرفت ذلك فاعتبر به الآية، وإذا اعتبرتها به علمت أن تقديم اسم الله تعالى إنما كان لأجل أنّ الغرض أن يبيّن الخاشون من هم ؟ ويخبر بأنهم العلماء خاصة دون غيرهم.

ولو أخّر ذكر اسم الله وقدّم «العلماء» **فقيل:** «إنّما يخشى العلماء الله» لصار المعنى على ضدّ ما هو عليه الآن، ولصار الغرض بيان المخشيّ من هو؟ ، والإخبار بأنه الله تعالى دون غيره، ولم يجب حينئذ أن تكون الخشية

من الله تعالى مقصورة على العلماء، وأن يكونوا مخصوصين بها كما هو الغرض في الآية، بل كان يكون المعنى أنّ غير العلماء يخشون الله تعالى أيضا إلا أنّهم مع خشيتهم الله تعالى يخشون معه غيره، والعلماء لا يخشون غير الله تعالى.

وهذا المعنى وإن كان قد جاء في التنزيل في غير هذه الآية كقوله تعالى:

﴿وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾﴾ [سورة الأحزاب:٣٩]

فليس هو الغرض في الآية، ولا اللّفظ بمحتمل له البتة. ومن أجاز حملها عليه، كان قد أبطل فائدة التقديم، **وسوّى بين قوله تعالى:**

إِنَّما يَخْشَى اللهَّ مِنْ عِبادِهِ الْعُلَماءُ) وبين أن يقال: «إنما يخشى العلماء الله»، وإذا سوّى بينهما، لزمه أن يسوّي بين قولنا: «ما ضرب زيدا إلّا عمرو» وبين: «ما ضرب عمرو إلّا زيدا»، وذلك ما لا شبهة في امتناعه.

فهذه هي المسألة، وإذ قد عرفتها فالأمر فيها بيّن: أن الكلام «بما و إلا» قد يكون في معنى الكلام «بإنما»، ألا ترى إلى وضوح الصورة في قولك: «ما ضرب زيدا إلّا عمرو» و «ما ضرب عمرو إلّا زيدا»، أنه في الأول لبيان من الضارب، وفي الثاني لبيان من المضروب، وإن كان تكلفا أن تحمله على نفي الشركة، فتريد «بما ضرب زيدا إلّا عمرو أنه لم يضربه اثنان، وما ضرب عمرو إلّا زيدا ،أنه لم يضرب اثنين.

ثم اعلـم أن السـبب في أن لم يكـن تقـديم المفعـول في هـذا كتـأخيره ولم يكن «ما ضرب زيدا إلّا عمـرو» و «مـا ضرب عمـرو إلا زيـدا» سـواء في المعنى أن الاختصاص يقع في واحد من الفاعل والمفعول، ولا يقع فـيهما جميعا.

ثم إنه يقع في الذي يكون بعد «إلا» منهما دون الذي قبلها، لاستحالة أن يحدث معنى الحرف في الكلمة من قبل أن يجيء الحرف. وإذا كان الأمـر كذلك، وجب أن يفترق الحال بين أن تقدّم المفعول على «إلّا» **فتقول**:

«ما ضرب زيدا إلا عمرو»، وبين أن تقدم الفاعل فتقول: «مـا ضرب عمرو إلّا زيدا»، لأنّا إن زعمنا أنّ الحال لا يفترق، جعلنـا المتقـدم كالمتـأخر في جواز حدوثه فيه، وذلك يقتضي المحال الذي هو أن يحـدث معنـى «إلّا» في الاسم من قبل أن تجيء بها، فاعرفه.

وإذا قـد عرفـت أن الاختصـاص مـع «إلا» يقـع في الـذي تـؤخّره من الفاعل والمفعول، فكذلك يقع مع «إنـما» في المـؤخّر مـنهما دون المقـدّم. فـإذا قلـت: «إنّـما ضرب زيـدا عمـرو»، كـان الاختصـاص في الضـارب وإذا قلـت: «إنّـما ضرب عمـرو زيـدا»، كـان الاختصـاص في المضرـوب وكما لا يجوز أن يسـتوي الحـال بـين التقـديم والتـأخير مـع «إلّا»، كـذلك لا يجوز مع «إنّما».

وإذا استبنت هذه الجملة، عرفت منها أنّ الذي صنعه الفرزدق في قوله:

(وإنّما يدافع عن أحسابهم أنا أو مثلي) شيء لو لم يصنعه لم يصحّ له المعنى. ذاك لأنّ غرضه أن يخصّ المدافع لا المدافع عنه.

ولو قال: «إنّما أدافع عن أحسابهم»، لصار المعنى أنّه يخص المدافع عنه، وأنّه يزعم أن المدافعة منه تكون عن أحسابهم لا عن أحساب غيرهم كما يكون إذا قال: «وما أدافع إلّا عن أحسابهم»، وليس ذلك معناه، إنما معناه أن يزعم أنّ المدافع هو لا غيره، فاعرف ذلك، فإن الغلط كما أظنّ يدخل على كثير ممن تسمعهم **يقولون:**

«إنه فصل الضمير للحمل على المعنى»، فيرى أنه لو لم يفصله، لكان يكون معناه مثله الآن.

هذا ولا يجوز أن ينسب فيه إلى الضرورة، .... لأن «أدافع» و «يدافع» واحد في الوزن، فاعرف هذا أيضا.

وجملة الأمر أنّ الواجب أن يكون اللّفظ على وجه يجعل الاختصاص فيه للفرزدق. وذلك لا يكون إلّا بأن يقدم «الأحساب» على ضميره **وهو لو قال:**

«وإنما أدافع عن أحسابهم»، استكن ضميره في الفعل، فلم يتصوّر تقديم «الأحساب» عليه، ولم يقع «الأحساب» إلا مؤخرا عن ضمير الفرزدق، وإذا تأخّرت انصرف الاختصاص إليها لا محالة.فإن قلت: إنه

كـان يمكنـه أن يقـول: «وإنـما أدافـع عـن أحسـابهم أنـا»، فيقـدم «الأحساب» على «أنا».

قيل: إنه إذا قال: «أدافع» كـان الفاعـل الضـمير المسـتكن في الفعـل وكان «أنا» الظاهر تأكيدا له، أعني للمستكنّ، والحكم يتعلّـق بالمؤكّـد دون التأكيد، لأن التأكيد كالتكرير، فهو يجيء من بعد نفـوذ الحكـم، ولا يكـون تقديم الجارّ مع المجرور، الذي هو قوله «عن أحسابهم» على الضمير الـذي هو تأكيد، تقديما له على الفاعل، لأن تقديم المفعول على الفاعل إنـما يكـون إذا ذكرت المفعول قبل أن تذكر الفاعل، **ولا يكون لك إذا قلت:**

«وإنما أدافع عن أحسابهم»، سبيل إلى أن تذكر المفعول قبـل أن تـذكر الفاعل، لأن ذكر الفاعـل هاهنـا هـو ذكـر الفعـل، مـن حيـث أن الفاعـل مستكن في الفعل، فكيف يتصوّر تقديم شيء عليه، فاعرفه)(١).

اجتماع(إنما) مع (لا) العاطفة

معلـوم أن النفـي في(إنـما)لـيس كـالنفي في (مـا وإلا)مـن حيـث الصرـاحة والوضـوح،ولذلك صـح أن يصـحب النفـي في(إنـما)النفـي بـــ(لا) فيقال:(إنما محمد شاعر لا كاتب)(وإنما الشاعر محمد لا خالد) .

و يقع المقصور عليه في جملة القصر بـ(لا) العاطفة مقابلا لما بعدها أي حين تقول : محمد شاعر لا كاتب، فالمعنى : ما محمد إلا شاعر، لكن الأمر

١- دلائل الإعجاز ص ٢٢١.

مختلف مع (إنما) حيث يقع المقصور عليه مؤخرا ،كما سبق، وعليه وجب عند اجتماعهما أن يكون المنفي ضمنا (بإنما) هو عين المنفي صراحة بـ(لا) العاطفة، فإذا قلت : (إنما محمد أخوك) فقل : (لا عدوك)، ولا تقل: (لا خالد) فاجعل مدخول (لا) مقابلا للمقصور عليه بـ(إنما) وقل : إنما هذا لك لا لغيرك، وإنما محمد شاعر لا كاتب، وإنما الشاعر محمد لا خالد ... وهكذا

وعليه حين تنظر إلا قول الله تعالى :

﴿ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٤٢﴾ ﴾ [سورة الشورى:٤١-٤٢]

فإن العطف لو قدر لقيل : إنما السبيل على الظالمين لا على المظلومين (فالذي ينتصر بعد ظلمه، ويجزي السيئة بالسيئة، ولا يعتدي، ليس عليه من جناح. وهو يزاول حقه المشروع. فما لأحد عليه من سلطان. ولا يجوز أن يقف في طريقه أحد. إنما الذين يجب الوقوف في طريقهم هم الذين يظلمون الناس، ويبغون في الأرض بغير الحق. فإن الأرض لا تصلح وفيها ظالم لا يقف له الناس ليكفوه ويمنعوه من ظلمه، وفيها باغ يجور ولا يجد من يقاومه ويقتص منه. والله يتوعد الظالم الباغي بالعذاب الأليم. ولكن على الناس كذلك أن يقفوا له ويأخذوا عليه الطريق).

ويشترط في اجتماع (إنما) مع (لا) العاطفة عدم خصوصية الوصف بالموصوف **كما في قوله تعالى :**

(إنما يستجيب الذين يسمعون) و (إنما يتذكر أولو الألباب) وقول العرب : إنما يعجل من يخشى الفوت لأنه لا يستجيب إلا من يسمع ولا يتذكر إلا صاحب العقل، ولا يعجل إلا من يخشى الفوت ، **وعليه لا يجوز عند السكاكي أن تقول** : إنما يستجيب الذين يسمعون لا الذين لا يسمعون، فهذا مما يجافي العقل، وكذلك لا يجوز أن تقول : إنما يتذكر العاقل لا المجنون .

وإذا كان هذا عند السكاكي لا يصح فإنه عند عبد القاهر لا يحسن فقط، لأنك لو عطفت تريد التوكيد والتحقيق وكان السياق مؤيدا لك جاز، **يقول الإمام** : (واعلم أنّ الأمر بيّن في قولنا: «ما زيد إلّا قائم» أن ليس المعنى على نفي الشّركة، ولكن على نفي أن لا يكون المذكور ويكون بدله شيء آخر. ألا ترى أن ليس المعنى أنّه ليس له مع «القيام» صفة أخرى بل المعنى أن ليس له بدل القيام صفة ليست بالقيام، وأن ليس القيام، منفيّا عنه، وكائنا مكانه فيه «القعود» أو «الاضطجاع» أو نحوهما.

فإن قلت: فصورة المعنى إذن صورته إذا وضعت الكلام «بإنما» فقلت: «إنّما هو قائم»، ونحن نرى أنه يجوز في هذا أن تعطف «بلا» فتقول: «إنما هو قائم لا قاعد»، ولا نرى ذلك جائزا مع «ما» و «إلّا»، إذا ليس من كلام الناس أن يقولوا: «ما زيد إلا قائم لا قاعد».

فإنّ ذلك إنّما لم يجز من حيث أنك إذا قلت: «ما زيد إلا قائم»، فقد نفيت عنه كلّ صفة تنافي «القيام»، وصرت كأنك قلت: «ليس هو بقاعد ولا مضطجع ولا متّكئ»، وهكذا حتّى لا تدع صفة يخرج بها من «القيام». فإذا قلت من بعد ذلك «لا قاعد»، كنت قد نفيت «بلا» العاطفة شيئا قد بدأت فنفيته، وهي موضوعة لأن تنفي بها ما بدأت فأوجبته، لا لأن تفيد بها النّفي في شيء قد نفيته.

ومن ثمّ لم يجز أن تقول: «ما جاءني أحد لا زيد»، على أن تعمد إلى بعض ما دخل في النفي بعموم «أحد» فتنفيه على الخصوص، بل كان الواجب إذا أردت ذلك أن تقول: «ما جاءني أحد ولا زيد»، فتجيء «بالواو» من قبل «لا»، حتى تخرج بذلك من أن تكون عاطفة، فاعرف ذلك.

وإذ قد عرفت فساد أن تقول: «ما زيد إلّا قائم لا قاعد»، فإنك تعرف بذلك امتناع أن تقول: «ما جاءني إلّا زيد لا عمرو» و «ما ضربت إلّا زيدا لا عمرا»، وما شاكل ذلك.

وذلك أنّك إذا قلت: «ما جاءني إلّا زيد»، فقد نفيت أن يكون قد جاءك أحد غيره، فإذا قلت: «لا عمرو»، كنت قد طلبت أن تنفي «بلا» العاطفة شيئا قد تقدمت فنفيته، وذلك كما عرّفتك خروج بها عن المعنى الذي وضعت له إلى خلافه.

فإن قيل: فإنك إذا قلت: «إنّما جاءني زيد»، فقد نفيت فيه أيضا أن يكون المجيء قد كان من غيره، **فكان ينبغي أن لا يجوز فيه أيضا أن تعطف بلا فتقول:«إنّما جاءني زيد لا عمرو».**

قيل: إنّ الذي قلته من أنك إذا قلت: «إنّما جاءني زيد» فقد نفيت فيه أيضا المجيء عن غيره غير مسلّم لك على حقيقته. وذلك أنه ليس معك إلّا قولك:«جاءني زيد»، وهو كلام كما تراه مثبت ليس فيه نفي البتّة، كما كان في قولك: «ما جاءني إلّا زيد»، وإنّما فيه أنك وضعت يدك على «زيد» فجعلته «الجائي»، وذلك وإن أوجب انتفاء المجيء عن غيره، فليس يوجبه من أجل أن كان ذلك إعمال نفي في شيء، وإنّما أوجبه من حيث كان «المجيء» الذي أخبرت به مجيئا مخصوصا، إذا كان لزيد لم يكن لغيره. والذي أبيناه أن تنفي «بلا» العاطفة الفعل عن شيء وقد نفيته عنه لفظا. ونظير هذا أنّا نعقل **من قولنا** : «زيد هو الجائي»، أنّ هذا المجيء لم يكن من غيره ، ثمّ لا يمنع ذلك من أن تجيء فيه «بلا» العاطفة **فتقول:**

«زيد هو الجائي لا عمرو»، لأنا لم نعقل ما عقلناه من انتفاء المجيء عن غيره، وبنفي أوقعناه على شيء، ولكن بأنه لمّا كان المجيء المقصود مجيئا واحدا، كان النصّ على «زيد» بأنه فاعله وإثباته له، نفيا له عن غيره، ولكن من طريق المعقول، لا من طريق أن كان في الكلام نفي، كما كان ثمّ فاعرفه.

فإن قيل: فإنك إذا قلت: «ما جاءني إلا زيد»، ولم يكن غرضك أن تنفي أن يكون قد جاء معه واحد آخر، كان المجيء أيضا مجيئا واحدا.

قيل: إنه وإن كان واحدا، فإنك إنّما تثبت أن «زيدا» الفاعل له، بأن نفيت المجيء عن كلّ من سوى زيد، كما تصنع إذا أردت أن تنفي أن يكون قد جاء معه جاءٍ آخر. وإذا كان كذلك، كان ما قلناه من أنك إن جئت «بلا» العاطفة **فقلت:** «ما جاءني إلا زيد لا عمرو»، كنت قد نفيت الفعل عن شيء قد نفيته عنه مرّة صحيحا ثابتا، كما قلناه ، فاعرفه)([1]).

اجتماع (إنما)مع التقديم

حين تجتمع (إنما) مع التقديم يحدث تنازع في تحديد المقصور عليه لأن المقصور عليه في (إنما) هو المؤخر، والمقصور عليه في التقديم هو المقدم، وهنا التنازع يوجب أن يتخلى طرف منهما عن دلالة القصر للطرف الآخر، والعلماء حين عالجوا هذه المسألة، ذهب بعضهم إلى إعطاء التقديم أحقية دلالة القصر، لأنه دلالة فحوى، وتحتاج إلى ذائقة بلاغية عالية، ومن هؤلاء الشيخ عبد الحكيم السيكالوتي في حاشيته على المطول .

أما الشهاب الخفاجي فيرى أن القصر (لإنما) إذا اجتمعت مع التقديم، لأنه يدل على القصر بالمنطوق، والتقديم يدل على القصر بالفحوى، ودلالة المنطوق أقوى .

وبالنظر إلى النصوص يتبين أن القضية لا ترجع إلى الطريق سواء طريق التقديم، او طريق (إنما) إنما الذي يحدد القصر عند الاجتماع

١- دلائل الإعجاز ص ٢٢٧.

هو السياق، ولا توجد قاعدة تحدد بغير الرجوع إلى السياق، وعليه تجد مرة القصر مدلولا عليه بطريق التقديم، وتتوارى فيه (إنما) ومرة اخرى تجد القصر مدلولا عليه (بإنما) ويتوارى فيه التقديم، وإليك الشاهد لكل .

في قول الله تعالى : ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾﴾ [سورة الرعد:٤٠]

فالقصر هنا (لإنما) والمقصور عليه هو البلاغ، المدلول عليه (بإنما) والمراد : ما عليك إلا البلاغ، وقد جاء بهذا الأسلوب في مواطن أخرى ولا يجوز البتة أن يكون القصر للتقديم، ويكون المعنى : ما البلاغ إلا عليك، فالبلاغ على رسول الله وعلى المؤمنين أيضا قولا وعملا .

فإذا انتقلت إلى الجملة الأخيرة، وهي (وعلينا الحساب) لوجدت القصر للتقديم، لأن المعنى : مالحساب إلا علينا .يقول الألوسي : (وقوله تعالى: " وَعَلَيْنَا الْحِسابُ" الظاهر أنه معطوف على ما في حيز إنما فيصير المعنى إنما علينا محاسبة أعمالهم السيئة والمؤاخذة بها دون جبرهم على اتباعك أو إنزال ما اقترحوه عليك من الآيات.

واعتبر الزمخشري عطفه على جملة فَإِنَّما عَلَيْكَ الْبَلاغُ فيصير المعنى وعلينا لا عليك محاسبة أعمالهم قيل: وهو الظاهر ترجيحا للمنطوق على المفهوم إذا اجتمع دليلا حصرٍ، وحاصل معنى الآية كيفما دارت الحال أريناك بعض ما وعدناهم من العذاب الدنيوي أو لم نُرِكْه، فعلينا ذلك

وما عليك إلا التبليغ، فلا تهتم بها وراء ذلـك فـنحن نكفيكـه، ونـتم ما وعدناك به من الظفر، ولا يضجرك تأخره فإن ذلك لما نعلم من المصـالح الخفية)(١) .

ومن نماذج اعتماد التقديم طريقا للقصر مع وجود (إنما) قـول المتنبـي في داليته الرائعة :

هو الجدّ حتى تفضُل العينُ أختَهـا وحتى يكـون اليـومُ لليـوم سـيّدا
وما قتل الأحْـرار كـالعفْو عـنهُم ومن لك بالحُرّ الذي يحفَـظُ اليَـدا
إذا أنـت أكرَمـت الكـريمَ ملكتَـه وإن أنـت أكرمْـتَ اللئـيم تمـرّدا
أزِل حسَد الحُسّـادِ عنّـي بكبـتِهم فأنـت الـذي صـيّرتَهم ليَ حُسَّـدا
ومـا أنـا إلا سـمهريٌّ حملتَـه فـزيّن معروضـاً وراع مُسـدَّدا
أجِـزْني إذا أُنشِـدْت شِـعراً فـإنّما بشِـعري أتـاكَ المـادِحون مـرَدَّدا
ودعْ كلَّ صوتٍ دون صوتي فإنّني أنا الصائحُ المَحكيُّ والآخرُ الصّدَى
تركتُ السُرى خلفي لِمَن قلّ مالُـه وأنعلْتُ أفراسي بـنُعماكَ عسْـجَدا
وقيّـدتُ نفسـي في ذَراك محبّـةً ومن وجدَ الإحسـانَ قيْـداً تقيّـدا
إذا سـأل الإنسـانُ أيامـه الغِنـى وكُنتَ على بُعـدٍ جعلتـك موعِـدا

١- روح المعاني للألوسي ٧ / ١٦٣.

وبيت الشاهد هو (أجزني... إلخ) والمعنى : أعطني الجائزة إذا مدحك غيري، فإن الشعراء إنما يأخذون معاني شعري، فيمدحونك بها فالمستحق بجوائزك أنا لا هُم، إذ لولا شعري لم يهتدوا إلى ما يمدحونك به فإذا احسنوا فإنما الإحسان لي **كقول الآخر**:

فإن أنشدَ حَمادٌ فقد أحسن بشارُ

أي إن حماداً إنما يأخذ شعر بشار. فالإحسان له، والإنشاد لحماد.

والمقصور عليه في البيت هو (بشعري) وهو المقدم، فطريق التقديم هو الأليق باعتماده هنا رغم وجود (إنما) لكن دلالة إنما على القصر متوارية خلف دلالة التقديم، أي : (ما أتاك المادحون إلا بشعري) وهو ما يفيده التقديم، وهو المراد، أما ما تفيده (إنما) فغير سديد هنا لأنه يعني : (ما بشعري إلا أتاك المادحون) وهذا لغط غير مقبول .

ومن هذا الباب أيضا قول المتنبي في عضد الدولة (١) :

١- كانت شيراز في ذلك الوقت حاضرة ملك أبى شجاع فناخسرو بن ركن الدولة البويهى.الذى آل إليه ملك فارس بعد وفاة عمه عماد الدولة في سنة ٣٣٨، فتلقب بعضد الدولة.

وكان عضد الدولة أميرا عظيم الهيبة، غزير العقل، شديد التيقظ، كثير الفضل، واسع الثقافة، مشاركا في العلوم، وقد تعلم على أحسن المعلمين.

فكان يقدر العلم والعلماء، ويحب الادب والادباء، ويؤثر مجالستهم عن مجالسة الامراء، ويجرى الجرايات على الفقهاء والمحدثين، والنحاة والمفسرين، والشعراء والمتكلمين، والاطباء والمهندسين.

وكانت له خزانة كتب عظيمة، عنى بها عناية فائقة، يدل عليها وصف المقدسي لها بأنها " حجرة على حدة، عليها وكيل وخازن ومشرف.ولم يبق كتاب صنف إلى وقت عضد الدولة من أنواع العلوم إلا وحصله فيها.

وهى أزج طويل في صفة كبيرة، فيه خزائن من كل وجه، وقد ألصق إلى جميع حيطان الازج والخزائن بيوتا طولها قامة في عرض ثلاثة أذرع من الخشب المزوق، عليها أبواب تنحدر من فوق! والدفاتر منضدة على الرفوف، لكل نوع بيوت وفهرستات فيها أسامي الكتب، ولا يدخلها إلا كل وجية ".وكان يقرض الشعر ويتمثل به، ويحكم على معانيه بعد التقرير له، فقصده العلماء من كل فج، وصنفوا له الكتب، كأبى على الفارسى الذى ألف له كتاب " الايضاح " وكتاب " التكملة " في النحو.

وارتحل إليه الشعراء كأبى الطيب المتنبي الذى ورد عليه بشيراز في جمادى الاولى سنة ٣٥٤، وأنشده قصيدته الهائية التى يقول فيها: وقد رأيت الملوك قاطبة * وسررت حتى رأيت مولاها ومن مناياهم براحته * يأمرها فيهم وينهاها أبا شجاع بفارس عضد الد * دولة فنا خسرو شهنشاها أساميا لم تزده معرفة * وإنما لذة ذكرناها وقد أفرد عضد الدولة في داره لاهل الخصوص والحكماء والفلاسفة، موضعا يقترب من مجلسه، فكانوا يجتمعون فيه للمفاوضة والمذاكرة، آمنين من السفهاء ورعاع العامة.

وكان مجلسه هذا يحتوى على شياطين المعتزلة، كأبى سعد: بشر بن الحسين قاضى قضاة شيراز، المتوفى سنة ٣٨٠، والاحدب رئيس المعتزلة ببغداد وأبى إسحق النصيبينى رئيسهم بالبصرة، وأبى الحسن: محمد بن شجاع.

وقد لا حظ عضد الدولة خلو مجلسه من أهل السنة، فقال: هذا ليس مجلس عامر بالعلماء، إلا إنى لا أرى فيه واحدا من أهل الاثبات والحديث، أما لهؤلاء المثبتة من ناصر؟ فقال القاضى بشر بن الحسين: ليس لهم ناصر، وإنما هم عامة، أصحاب وتقليد ورواية، يروون الخبر وضده ويعتقدونهما جميعا، لا يعرفون النظر والمعتزلة هم فرسان الجدل والمناظرة.فقال عضد الدولة: محال أن يخلو مذهب طبق الارض من ناصر! فانظر إلى موضع فيه مناظر يكتب فيه فيجلب.فلما تبين القاضى العزم في حديثه، قال: سمعت أن بالبصرة شيخا وشابا، الشيخ يعرفبأبى الحسن الباهلى، والشباب يعرف بابن الباقلانى.فكتب عضد الدولة يومئذ إلى عامله بالبصرة ليبعثهما إليه، وأرسل إليهما خمسة آلاف درهم من الفضة، فلما وصل الكتاب إليهما قال الشيخ: هؤلاء الديلم قوم كفرة فسقة روافض، لا يحللنا أن نطأ بساطهم، وليس غرض الملك من هذا إلا أن يقال: إن مجلسه مشتمل على أصحاب المحابر كلهم، ولو كان ذلك خالصا لله لنهضت.وشايعه على ذلك بعض أصحابه.

ولكن الباقلانى لم يعجبه رأى شيخه فقال له: كذا قال ابن كلاب والحارث ابن أسد المحاسبى ومن في عصرهم: إن المأمون فاسق ظالم لا نحضر مجلسه، حتى ساق أحمد بن حنبل، وجرى عليه بعد مما عرف، ولو ناظروه لكفوه عن هذا الامر، وتبين له ما هم عليه بالحجة. هو الكفر، فهذا يجوز تكليفه بما لا يطاق.

وأما العاجز فما ورد في الشريعة تكليفه، ولو ورد لكان جائزا وصوابا، وقد أثنى الله تعالى على من سأله أن يكلفه ما لا يطيق، فقال y : (ولا تحملنا مالا طاقة لنا به)، لان الله تعالى له أن يفعل في ملكه ما يريد.

ثم تجاوز الاحدب الكلام إلى غيره، ومال الملك إلى قولى.ثم سألني النصيبينى عن مسألة الرؤية: هل يرى الباري سبحانه بالعين؟ وهل تجوز الرؤية عليه أو تستحيل؟ وقال: كل شئ يرى بالعين، فيجب أن يكون في مقابلة العين.فالتفت الملك إلى وقال: تكلم أيها الشيخ في المسألة.

فقلت: لو كان الشئ يرى بالعين لوجب أن يكون في مقابلة العين على ما قال: ولكن لا يرى الله بالعين.

فتعجب الملك من قولى، والتفت إلى قاضى القضاة، فقال: إذا لم ير الشئ بالعين، فبأى شئ يرى؟ فقال: يسأله الملك.فقال أيها الشيخ: فبأى شئ يرى إذا لم ير بالعين؟ فقلت: يرى بالادراك الذى في العين، ولو كان الشئ يرى بالعين لكان يجب أن ترى كل عين قائمة، وقد علمنا أن الاجهر عينه قائمة ولا يرى شيئا.

فزاد الملك تعجبا، وقال للنصيبينى: تكلم.فقال: إنى لم أعلم أنه يقول هذا، ولا بنيت إلا على ما نعرف، وظننت أنه يسلم أن الشئ يرى بالعين! فغضب الملك وقال: ما أنت مثل الرجل، لانك بنيت المسألة على الظن.

ثم التفت إلى وقال لى: تكلم أنت.فقلت: العين لا ترى، وإنما ترى الاشياء بالادراك الذى يحدثه الله تعالى فيها، وهو البصر، ألا ترى أن المحتضر يرى الملائكة ونحن لا نراهم؟ وكان النبي ﷺ، يرى جبريل عليه السلام ولا يراه من يحضره؟ والملائكة يرى بعضهم بعضا ولا نراهم نحن؟ والدليل على جواز رؤية الباري تعالى أنه ليس فيها قلب للحقائق، ولا إفساد للادلة، ولا إلحاق صفة نقص بالقديم تعالى، فوجب أن يكون كسائر الموجودات، لانه تعالى موجود، والشئ إنما يرى لانه موجود، لان المرئى لم يكن مرئيا لانه جنس، لانا نرى سائر الاجناس المختلفة، ولا لقيام معنى بالمرئى، لانا نرى الاعراض التى لا تحمل المعاني، وقد ثبت بالنص وجوب رؤية الحق سبحانه في الدار الآخرة.ثم جرىفي المجلس كلام كثير، وقال الملك على إثره لقاضي القضاة: ألم أقل لك: إن مذهبا طبق الارض لابد له من ناصر.

ولما انقضى المجلس صحبني بعض الحجاب إلى منزل هيئ لى فيه جميع ما أحتاج إليه، فسكنته.

ولما خرج الباقلانى قال الملك لقاضيه: فكرت بأى قتلة أقتله لجلوسه حيث جلس بغير أمرى، وأما الآن فقد علمت أنه أحق بمكانى منى.ثم دفع ابنه صمصام الدولة، ليعلمه مذهب أهل السنة، فعلمه وألف له كتاب " التمهيد " ولم يزل الباقلانى مع عضد الدولة، إلى أن أقدم بغداد.

أوْهِ لِمَــــنْ لا أرَى مَحَاسِـــنَها	وَأصْـــلُ واهـــاً وَأوْهِ مَرْآهَــــا
شَـــامِيّةٌ طَالَمَــا خَلَـــوْتُ بِهَـــا	تُبْصِـــرُ في نـــاظِرِي مُحَيّاهَـــا
فَقَبّلَـــتْ نَـــاظِرِي تُغـــالِطُني	وَإنّـــمَا قَبّلَـــتْ بِـــهِ فَاهَـــا
فَلَيْتَهَـــا لا تَـــزَالُ آوِيَـــةً	وَلَيْتَـــهُ لا يَـــزَالُ مَأوَاهَـــا
كُـــلُّ جَـــرِيحٍ تُرْجَـــى سَـــلامَتُهُ	إلاّ فُـــؤاداً رَمَتْـــهُ عَيْنَاهَـــا
تَبُـــلُّ خَـــدّيّ كُلّـــمَا ابتَسَـــمَتْ	مِـــنْ مَطَـــرٍ بَرْقُـــهُ ثَنَايَاهَـــا
مَـــا نَفَضَـــتْ في يَـــدي غَـــدائِرُهَا	جَعَلْتُـــهُ في المُـــدامِ أفْوَاهَـــا
في بَلَـــدٍ تُضْـــرَبُ الحِجَـــالُ بِـــهِ	عَـــلى حِسَـــانٍ وَلَسْـــنَ أشْـــبَاهَا
لَقِينَنَـــا وَالحُمُـــولُ سَـــائِرَةٌ	وَهُـــنّ دُرٌّ فَـــذُبنَ أمْوَاهَـــا
كُـــلُّ مَهَـــاةٍ كَـــأنّ مُقْلَتَهَـــا	تَقُـــولُ إيّـــاكُمُ وَإيّاهَـــا
فـيهِنّ مَـنْ تَقْطُـرُ السّيُوفُ دَمـاً	إذا لِسَـــانُ المُحِـــبّ سَـــمّاهَا
أُحِـــبّ حِمْصـــاً إلى خُنـــاصِرَةٍ	وَكُـــلُّ نَفْـــسٍ تُحِـــبّ مَحْيَاهَـــا
حَيـثُ التَقَـى خَـدُّها وَتُفّـاحُ لُبْــ	ـــنَانَ وَثَغْـــرِي عَـــلى حُمَيّاهَـــا
وَصِـــفْتُ فِيهـــا مَصِـــيفَ بَادِيَـــةٍ	شَـتَوْتُ بالصّحصَـحانِ مَشْـتاهَا
إنْ أعشَـــبَتْ رَوْضَـــةٌ رَعَيْنَاهَـــا	أوْ ذُكِـــرَتْ حِلّـــةٌ غَزَوْنَاهَـــا
أوْ عَرَضَـــتْ عَانَـــةٌ مُقَزَّعَـــةٌ	صِـدْنَا بِـأُخْرَى الجِيـادِ أُولاهَـا

أَوْ عَـبَرَتْ هَجْمَـةٌ بنـا تُرِكَـتْ تَكُـوسُ بَـينَ الشُّرُـوبِ عقرَاهَـا
وَالخَيْـــلُ مَطْــرُودَةٌ وَطـــارِدَةٌ تَجُـرّ طُـولى القَنَـا وَقُصْــرَاهَا
يُعْجِبُهَـــا قَتْلُهَـــا الكُـــماةَ وَلا يُنظِرُهَـا الــدّهْرُ بعــدَ قَتْلاهَـا
وَقَــدْ رَأيْــتُ المُلُــوكَ قاطِبَــةً وَسِرْتُ حتــى رَأيْــتُ مَوْلاهَـا
وَمَـــنْ مَنَايَـــاهُمْ بِرَاحَتِهِـــي أمُرُهَـــا فـــيهِم وَيَنْهَاهَــــا
أبَـا شُـجاعٍ بِفـارِسٍ عَضُـدَ الـ ـــدّوْلَةِ فَنّاخُسْـــرُواً شَهَنْشَـاهَا
أسَـــامِياً لم تَـــزِدْهُ مَعْرِفَـــةً وَإنّـــمَا لَـــذّةً ذَكَرْنَاهَـــا
تَقُــودُ مُسْتَحْسَــنَ الكَـلامِ لَنَـا كـما تَقُــودُ السّـحابَ عُظْمَاهَـا
هُـــوَ النّفِـيسُ الــذي مَوَاهِبُــهُ أنْفَـــسُ أمْوَالِـــهِ وَأسْـــنَاهَا
لَـــوْ فَطِنَـــتْ خَيْلُـــهُ لِنَائِلِـــهِ لم يُرْضِـــهَا أنْ تَـــرَاهُ يَرْضَـــاهَ
الا تَجِـــدُ الخَمْـــرُ فِي مَكارِمِـــهِ إذا انْتَشَـــى خَلّـــةً تَلافَاهَـــا
تُصَـــاحِبُ الـــرّاحُ أرْيَحِيّتَـــهُ فَتَسْـــقُطُ الـــرّاحُ دونَ أدْنَاهَـــا
تَســـرُّ طَرْبَاتُـــهُ كَرَائِنَـــهُ ثـــمّ تُزِيـــلُ السّرُــورَ عُقْبَاهَـــا
بكُـــلّ مَوْهُوبَـــةٍ مُوَلْوِلَـــةٍ قَاطِعَـــةٍ زِيرَهَـــا وَمَثْنَاهَـــا
تَعُـــومُ عَـــوْمَ القَـــذاةِ فِي زَبَـــدٍ مِـن جُـودِ كَـفّ الأمـيرِ يَغشَـاهَا
تُشْـــرِقُ تِيجَانُـــهُ بِغُرّتِـــهِ إشْرَاقَ ألْفاظِـــهِ بمَعْنَاهَـــا

دانَ لَهُ شَرْقُهَا وَمَغرِبُهَا   وَنَفْسُهُ تَسْتَقِلّ دُنْيَاهَا
تَجَمّعَتْ في فُؤادِهِ هِمَمٌ   مِلْءُ فُؤادِ الزّمَانِ إحْداهَا
فإنْ أتَى حَظّهَا بأزْمِنَةٍ   أوْسَعَ مِنْ ذا الزّمانِ أبْداهَا
وَصَارَتِ الفَيْلَقَانِ وَاحِدَةً   تَعْثُرُ أحْيَاؤهَا بمَوْتَاهَا
وَدارَتِ النّيّرَاتُ في فَلَكٍ   تَسْجُدُ أقْمارُهَا لأبْهَاهَا
ألفَارِسُ المُتّقَى السّلاحُ بِهِ   المُثْني عَلَيْهِ الوَغَى وَخَيْلاهَا
لَوْ أنْكَرَتْ منْ حَيَائِهَا يَدُهُ   في الحَرْبِ آثَارَهَا عَرَفْنَاهَا
وَكَيفَ تَخْفَى التي زِيادَتُهَا   وَنَاقِعُ المَوْتِ بَعضُ سِيَماها
ألوَاسعُ العُذْرِ أنْ يَتِيهَ على   الدّنْيا وَأبْنَائِهَا وَمَا تَاهَا
لَوْ كَفَرَ العالَمونَ نِعْمَتَهُ   لَمَا عَدَتْ نَفْسُهُ سَجَايَاهَا
كالشَمسِ لا تَبتَغي بما صَنَعَتْ   مَعْرِفَةً عِنْدَهُمْ وَلا جَاهَا
وَلِّ السّلاطِينَ مَنْ تَوَلاّهَا   وَالجَأْ إلَيْهِ تَكُنْ حُدَيّاهَا
وَلا تَغُرّنّكَ الإمَارَةُ في   غَيرِ أمِيرٍ وَإنْ بهَا بَاهَى
فإنّما المَلْكُ رَبّ مَمْلَكَةٍ   قَدْ أفْعَمَ الخافِقَينِ رَيّاهَا
مُبْتَسِمٌ وَالوُجُوهُ عَابِسَةٌ   سِلْمُ العِدى عِنْدَهُ كَهَيْجاهَا
ألنّاسُ كالعَابِدِينَ آلِهَةً   وَعَبْدُهُ كالمُوَحِّدِ اللهّ

وبيت الشاهد قوله :

أسـامیا لم تـزده معرفـةً وإنـما لـذةً ذكرناهـا

فالمقصور في البيت هو قولـه : (ذكرناهـا)، والمقصـور عليـه قولـه : (لذة)، وقدم المقصور عليه على المقصور لأنه من قصر المفعول عـلى الفعـل أي : (ما ذكرناها إلا لـذة)، فدلالـة (إنـما) عـلى القصـر تـوارت خلـف التقديم، ولن يستقيم المعنى إذا جعلـت القصرـ لإنـما، **لأن المعنـى حينئـذ :** (ما لذة إلا ذكرناها) والشاعر بعيـد عـن هـذا كثـيرًا، ولا يحتملـه السـياق فالسياق في مدح عضد الدولة، وذكر اسماء آبائه ضرب من هذا المدح .

إنما وضروب القصر

يرى الإمام عبد القـاهر أن (إنـما) لا تفيـد إلا قصـر القلـب، فـإذا قلت :(إنما نجح عمرو)، قصدك فقط أن تصحح للمخاطب تصـوره بـأن الناجح زيد لا عمرو، فلا مجال هنـا – عـلى رأي الإمـام – لنجـاح الاثنـين في ذهن المخاطب، أو للشك في الناجح منهما، **يقول** : **إذا قلت:**

«إنما جاءني زيد»، لم يكن غرضك أن تنفي أن يكون قد جاء مع «زيد» غيره، ولكن أن تنفي أن يكون المجيء الذي قلت إنـه كـان منـه، كـان مـن «عمرو».

وكذلك تكون الشّبهة مرتفعة في أن ليس هاهنـا جائيـان، وأن لـيس إلّا جاء واحد، وإنما تكون الشّبهة في أن ذلـك الجـائي «زيـد» أم «عمـرو». فإذا قلت: «إنما جاءني زيد»، حقّقت الأمر في أنه «زيد».

وكذلك لا تقول: «إنما جاءني زيد»، حتى يكون قد بلـغ المخاطـب أن قد جاءك جاء، ولكنه ظن أنه «عمرو» مثلا، فأعلمته أنه «زيد».

فإن قلت: فإنّه قد يصحّ أن تقول: «إنّـما جـاءني مـن بـين القـوم زيـد وحده، وإنما أتـاني مـن جملـتهم عمـرو فقـط»، فـإن ذلـك شيء كـالتكلّف والكلام هو الأول، ثم الاعتبار به إذا أطلق فلم يقيّد بـــ" وحـده " ومـا في معناه.

ومعلوم أنك إذا قلت: «إنّـما جـاءني زيـد»، ولم تـزد عـلى ذلـك، أنّـه لا يسبق إلى القلب من المعنى إلا ما قدّمنا شرحه، من أنك أردت النصّ على «زيد» أنّه الجائي، وأن تبطل ظنّ المخاطب أن المجيء لم يكـن منـه، ولكـن كـان مـن «عمـرو» حسـب مـا يكـون إذا قلـت: «جـاءني زيـد لا عمـرو» فاعرفه) [1].

فكأن (إنما) في تصور عبد القاهر جُعلت لـرد مـا يعتقـده المخاطـب وإثبات نقيضه، لا لإفراد أحد الطرفين إن ظن الشركة، ولا لتعيينه إن أبهـم الأمر، ولا لإثبات شيء لخالي الذهن، كل ذلك ليس من مهام إنما عنـد عبـد القاهر، فالذي يسبق إلى الـذهن عنـد سـماع (إنـما) هـو اعتقـاد المخاطـب عكس الواقع .

١- دلائل الإعجاز ص ٢٢٠.

ولكنك حين تراجع النصوص تجد (إنما) تاتي لغير ما ذهب إليه الشيخ، ومن ذلك حديث الانتفاع بالماعز الميتة ، **فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ: مَرَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِشَاةٍ مَيِّتَةٍ كَانَ أَعْطَاهَا مَوْلَاةً لِمَيْمُونَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ ، فَقَالَ: «أَفَلَا انْتَفَعْتُمْ بِجِلْدِهَا»؟ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّهَا مَيْتَةٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّمَا حُرِّمَ أَكْلُهَا»**[1].

فالجميع يعتقد أن كل الميتة حرام، فأفرد النبي ﷺ التحريم بالأكل، وما سوى الأكل فليس بحرام، مما يعني أن (إنما) جاءت لقصر الإفراد .

وفي قول الله تعالى :

﴿ **قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا ۖ فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٧٢)** ﴾ [سورة طه:٧٢]

تجد أيضا أداة القصر (إنما)وهي تعلل عدم المبالاة منهم بالقتل الذي أوعدوا به، والمعنى : إنما تصنع ما تراه، أما نحن فلا يهابنا وعيدك ولا يغرينا وعدك ، **ومن نماذج مجيئ إنما لقصر الإفراد قول البحتري :**

ويوم تلاق في فراق شهدته ... بعين إذا نهنهتها دمعت دما

لحقنا للفريق المستقل ضحى وقد ... تيمم من قصد الحمى ما تيمما

فقلت أنعموا منا صباحا وإنما ... أدت بها قلت الغزال المنعما

فقوله: (إنما أردت الغزال المنعما) تصريح بالقصر حيث لم تنظر عينه في الركب إلا إلى الغزال المنعم، يقصد : محبوبته .

١- أخرجه البخاري في رقم ١٤٩٢ ومسلم برقم ٣٦٣.

وقد تأتي (إنما) في سياق الحديث مع خالى الذهن، ويقصد منها إعلامه بالأمر، **وذلك نحو قوله تعالى :**

﴿.....إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ.....﴾ [سورة فاطر:٢٨]

فهو قصر حقيقي، لا ينظر فيه إلى مخاطب معين و وكذلك الحال في قوله سبحانه : (إنما المؤمنون إخوة) وقول النبي ﷺ : (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق)، **وقول شوقي :**

إنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا

كل ذلك من القصر الحقيقي، وليس من القصر الإضافي، بل هي حقائق يلقى بها إلى خالي الذهن، ولا يراد منها الإفراد، أو القلب أو التعيين .

مقامات (إنما)

تأتي إنما في الخبر الذي لا يجهله المخاطب، أو ما ينزل هذه المنزلة يقول الإمام : (اعلم أن موضع «إنما» على أن تجيء لخبر لا يجهله المخاطب ولا يدفع صحّته، أو لما ينزّل هذه المنزلة.

تفسير ذلك أنّك تقول للرجل: «إنّما هو أخوك» و «إنما هو صاحبك القديم»:لا تقوله لمن يجهل ذلك ويدفع صحّته، ولكن لمن يعلمه ويقرّ به إلّا أنك تريد أن تنبّهه للذي يجب عليه من حقّ الأخ وحرمة الصاحب **ومثله قوله: من الخفيف:**

إنّــما أنــت والــد، والأب القــا طع أحنى من واصـل الأولاد (1)

لم يـرد أن يعلـم كـافورا أنـه والـد، ولا ذاك مما يحتـاج كـافور فيـه إلى الإعلام، ولكنه أراد أن يذكّره منه بالأمر المعلـوم ليبنـي عليـه اسـتدعاء ما يوجبه كونه بمنزلة الوالد.

ومثل ذلك قولهم: «إنّـما يعجـل مـن يخشـى الفـوت» وذلـك أن مـن المعلوم الثابت في النفوس أنّ من لم يخش الفوت لم يعجل.

ومثاله مـن التنزيـل قولـه تعـالى: ﴿ ۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ..... ﴾ [سـورة الأنعـام:٣٦]**وقولــه y** : ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ :..... ﴾ [سورة يس:١١]

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾﴾ [سورة النازعات:٤٥]

كلّ ذلك تذكير بأمر ثابت معلوم.

فكل عاقل يعلم أنه لا تكون استجابة إلا ممّن يسمع ويعقل مـا يقـال له ويُدعى إليه، وأنّ من لم يسمع، ولم يعقل لم يستجب، وكـذلك معلـوم أن الإنذار إنما يكون إنذارًا ويكون له تأثير، إذا كان مع من يؤمن بـالله ويخشـاه ويصدّق بالبعث والساعة، فأمّا الكافر الجاهل، فالإنذار وترك الإنذار معـه واحد، فهذا مثال ما الخبر فيه خبر بأمر يعلمه المخاطب ولا ينكره بحال.

١- البيت للمتنبي في ديوانه (٢/ ٢٢٦)، ط، دار الكتب العلمية، بيروت. من قصيدة مطلعها:

جسم الصلح ما اشتهته الأعادي... وأذاعته ألسن الحساد

وأرادته أنفس حال تدبي... رك ما بينها وبين المراد

والقاطع: أي المقاطع، أي: أنت والده، والوالد دائما أحن على الولد من حنو الولد على والده وإن كان الوالد مقاطعا والابن واصلا.

وأمّا مثال ما ينزّل هذه المنزلة، فكقوله: من الخفيف:

إنّـما مصـعب شـهاب مـن اللهّ   تجلّـت عـن وجهـه الظّلـماء(١)

ادّعى في كون الممدوح بهذه الصفة، أنـه أمـر ظـاهر معلـوم للجميـع على عادة الشعراء إذا مـدحوا أن يـدّعوا في الأوصـاف التـي يـذكرون بهـا الممدوحين أنّها ثابتة لهم، وأنهم قد شهروا بها، وأنهم لم يصـفوا إلا بـالمعلوم الظاهر الذي لا يدفعه أحد، كما قال الحطيئة(٢): من الطويل:

وتعـذلني أفنـاء سـعد علـيهم   وما قلت إلّا بالّذي علمت سعد

وكما قال البحتريّ(٣):

لا أدّعـي لأبي العـلاء فضـيلة   حتّـى يسـلّمها إليـه عـداه

ومثله قولهم: «إنما هـو أسـد»، و «إنّـما هـو نـار»، و «إنـما هـو سـيف صارم».

١- البيت لعبيد الله به قيس الرقيات يمدح مصعب بن الزبير بن العوام وبعده:
ملكه ملك رأفة ليس فيه... جبروت منه ولا كبرياء
يتقي الله في الأمور وقد... أفلح من كان همه الاتقاء

٢- الحُطَيْئَـة ، ت ٤٥ ه ، وهـو جـرول بـن أوس بـن مالـك العبسـيّ، أبـو ملكيـة: شـاعر مخضـرم، أدرك الجاهلية والإسلام. كان هجاءاً عنيفا، لم يكد يسلم من لسان أحد. وهجا أمه وأباه ونفسه. وأكثر من هجاء الزبرقان ابن بدر، فشكاه إلى عمر بن الخطاب، فسجنه عمر بالمدينة، فاستعطفه بأبيات، فأخرجه ونهاه عن هجاء الناس، فقال: إذا تموت عيالي جوعا!

٣- البُحْتُري(٢٠٦ - ٢٨٤ هـ)الوليد بن عبيد بن يحيى الطائي، أبو عبادة البحتري: شاعر كبير، يقال لشعره " سلاسل الذهب ".وهو أحد الثلاثة الذين كانوا أشعر أبناء عصرهم: المتنبي، وأبو تمام، والبحتري. قيل لأبي العلاء المعري: أي الثلاثة أشعر؟ فقال: المتنبي وأبو تمام حكيمان، وإنما الشاعر البحتري. ولد بمنبج (بين حلب والفرات) ورحل إلى العراق، فاتصل بجماعة من الخلفاء أولهم المتوكل العباسي، ثم عاد إلى الشام، وتوفي بمنبج. له " ديوان شعر - ط " وكتاب " الحماسة - ط " على مثال حماسة أبي تمام. وللآمدي " الموازنة بين أبي تمام والبحتري - ط " وللمعري " عبث الوليد.

وإذا أدخلوا «إنما» جعلوا ذلك في حكم الظاهر المعلوم الذي لا ينكر ولا يدفع ولا يخفى.

وأما الخبر بالنّفي والإثبات نحو: «ما هذا إلا كذا»، و «إن هو إلّا كذا»، فيكون للأمر ينكره المخاطب ويشكّ فيه. **فإذا قلت:** «ما هو إلّا مصيب» أو «ما هو إلّا مخطئ»، قلته لمن يدفع أن يكون الأمر على ما قلت، وإذا رأيت شخصا من بعيد فقلت: «ما هو إلّا زيد» لم تقله إلّا وصاحبك يتوّهم أنه ليس بزيد، وأنه إنسان آخر، ويجدّ في الإنكار أن يكون «زيدا».

وإذا كان الأمر ظاهرًا كالذي مضى، لم تقله كذلك، فلا تقول للرجل ترقّقه على أخيه، وتنبّهه للذي يجب عليه من صلة الرّحم ومن حسن التّحابّ: «ما هو إلّا أخوك» وكذلك لا يصلح في «إنّما أنت والد»: «ما أنت إلّا والد»فأما نحو: «إنّما مصعب شهاب»، **فيصلح فيه أن تقول:** «ما مصعب إلّا شهاب»، لأنه ليس من المعلوم على الصحّة، وإنما ادّعى الشاعر فيه أنه كذلك. وإذا كان هذا هكذا، جاز أن تقوله بالنّفي والإثبات إلا أنك تخرج المدح حينئذ عن أن يكون على حدّ المبالغة، من حيث لا تكون قد ادّعيت فيه أنه معلوم،وأنه بحيث لا ينكره منكر،ولا يخالف فيه مخالف .

شُبه تعرض في مجيئ (إنما) في الأمر لا يجهله المخاطب

فإن قيل: قد مضيت في كلامك كلّه على أنه «إنّما» للخبر لا يجهله المخاطب، ولا يكون ذكرك له لأن تفيده إياه، وإنّا لنراها في كثير من الكلام، والقصد بالخبر بعدها أن تعلم السامع أمرا قد غلط فيه بالحقيقة

واحتاج إلى معرفته، كمثل ما ذكرت في أوّل الفصل الثاني **من قولك**: «إنّما جاءني زيد لا عمرو»، وتراها كذلك تدور في الكتب للكشف عن معان غير معلومة، ودلالة المتعلّم منها على ما لا يعلم.

قيل: أمّا ما يجيء في الكلام من نحو: «إنما جاء زيد لا عمرو»، فإنه وإن كان يكون إعلاما لأمر لا يعلمه السامع، فإنه لا بدّ مع ذلك من أن يدّعى هناك فضل انكشاف وظهور في أن الأمر كالذي ذكر.

وقد قسّمت في أول ما افتتحت القول فيها فقلت: «إنّها تجيء للخبر لا يجهله السامع ولا ينكر صحّته، أو لما ينزّل هذه المنزلة».

وأمّا ما ذكرت من أنها تجيء في الكتب لدلالة المتعلم على ما لم يعلمه فإنك إذا تأملت مواقعها وجدتها في الأمر الأكثر قد جاءت لأمر قد وقع العلم بموجبه وبشيء يدلّ عليه.

مثال ذلك: أن صاحب الكتاب قال في باب «كان»:

«**إذا قلت**: كان زيد، فقد ابتدأت بما هو معروف عنده مثله عندك وإنّما ينتظر الخبر. فإذا قلت: «حليما»، فقد أعلمته مثل ما علمت.

وإذا قلت: «كان حليما»، فإنما ينتظر أن تعرّفه صاحب الصفة» .

وذاك أنّه إذا كان معلوما أنه لا يكون مبتدأ من غير خبر، ولا خبر من غير مبتدأ، كان معلوما أنك إذا قلت: «كان زيد» فالمخاطب ينتظر الخبر وإذا قلت:«كان حليما»، أنه ينتظر الاسم، فلم يقع إذن بعد «إنّما» إلّا شيء كان معلوما للسامع من قبل أن ينتهي إليه.

واعلم أنّه ليس يكاد ينتهي ما يعرض بسبب هذا الحرف من الـدقائق يعني : إنما)[1].

وأحسن مواقع (إنما) ما تكون فيـه للتعـريض، **كـما في قولـه تعـالى** : (إنما يتذكر أولو الألباب) فالقصد التعريض بهم، **يقول الإمام** :

(اعلم إذا استقريت وجدتها أقوى ما تكون وأعلق مـا تـرى بالقلـب إذا كـان لا يـراد بـالكلام بعـدها نفـس معنـاه، ولكـن التعـريض بـأمر هو مقتضاه، نحو أنّا نعلم أن ليس الغرض **من قوله تعالى:**

﴿.....إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ (١٩)﴾ [سورة الرعد:١٩]

أن يعلم السامعون ظاهر معناه، ولكن أن يذمّ الكفّار، وأن يقال إنهـم من فرط العناد ومن غلبة الهـوى علـيهم، في حكـم مـن لـيس بـذي عقـل وإنكم إن طمعتم منهم في أن ينظروا ويتذكّروا، كنتم كمـن طمـع في ذلـك من غير أولي الألباب.

وكذلك قوله:

﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا (٤٥)﴾ [سورة النازعات:٤٥]

وقوله عز اسمه:

﴿....إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ....﴾ [سورة فاطر:١٨]

المعنى على أنّ من لم تكن له هذه الخشية، فهو كأنه ليس له أذن تسـمع وقلب يعقل، فالإنذار معه كلا إنذار، **ومثال ذلك من الشعر قوله:**

١- دلائلل إعجاز ت هنداوي ٢١٦.

أنــــــا لم أرزق محبّتهــــــا، إنّـــما للعبــد مــا رزقــا(١)

الغرض أن يفهمك من طريق التعريض أنه قد صار ينصح نفسه ويعلم أنه ينبغي له أن يقطع الطّمع من وصلها، وييأس من أن يكون منها إسعاف.

ومن ذلك أيضا قوله:

وإنّما يَعْذر العشّاق من عشقا

يقول: إنه ليس ينبغي للعاشق أن يلوم من يلومه في عشقه، وأنه ينبغي أن لا ينكر ذلك منه، فإنه لا يعلم كنه البلوى في العشق، ولو كان ابتلي به لعرف ما هو فيه فعذره، **وقوله:**

ما أنت بالسّبب الضّعيف، وإنّما نجح الأمور بقوّة الأسباب

فاليوم حاجتنا إليك، وإنّما يدعى الطّبيب لساعة الأوصاب[٢]

يقول في البيت الأول: إنه ينبغي أن أنجح في أمري حين جعلتك السّبب إليه.

ويقول في الثاني: إنّا قد وضعنا الشيء في موضعه، وطلبنا الأمر من جهته، حين استعنّا بك فيما عرض من الحاجة، وعوّلنا على فضلك كما أنّ من عوّل على الطبيب فيما يعرض له من السّقم، كان قد أصاب

١- والمعنى:أنه قد علم أن لا مطمع له في رحلها فيئس من أن يكون منها إسعاف به.

٢ - ويقول في البيت الأول: إنه ينبغي أن أنجح في أمري حين جعلتك السبب إليه، وفي الثاني: إنا قد طلبنا الأمر من جهته حيث استعنا بك فيما عرض لنا من الحاجة، وعولنا على فضلك، كما أن من عول على الطبيب فيما يعرض له من السقم كان قد أصاب في فعله.

بالتعويل موضعه، وطلب الشيء من معدنه.

ثم إنّ العجب في أنّ هذا التعريض الذي ذكرت لـك، لا يحصـل مـن دون «إنما».

فلو قلت: «يتذكر أولو الألباب»، لم يدلّ مـا دلّ عليـه في الآيـة، وإن كان الكلام لم يتغيّر في نفسه، وليس إلّا أنه ليس فيه «إنما».السـبب في ذلـك أن هذا التعريض، إنّما وقع بأن كان من شأن «إنّما» أن تضمّن الكـلام معنـى النفـي مـن بعـد الإثبـات، والتصريـح بامتنـاع التـذكّر ممـن لا يعقـل. وإذا أسقطت من الكلام فقيل: «يتذكّر أولو الألبـاب»، كـان مجـرّد وصـف لأولي الألباب بأنهم يتذكّرون، ولم يكن فيه معنى نفـي للتـذكّر عمّـن لـيس منهم. ومحال أن يقع تعريض لشيء ليس له في الكـلام ذكـر، ولا فيـه دليـل عليه.

فالتعريض بمثل هذا أعني بأن تقول: «يتذكّر أولو الألباب» بإسقاط «إنما»، يقع إذن إن وقع، بمدح إنسان بالتيقّظ، وبأنه فعل ما فعل، وتنبّـه لمـا تنبّه له، لعقله ولحسن تمييزه، **كما يقال:**

«كذلك يفعل العاقل»، و «هكذا يفعل الكريم».

وهذا موضع فيه دقّة وغموض، وهو مما لا يكاد يقع في نفس أحد أنّه ينبغي أن يتعرّف سببه، ويبحث عن حقيقة الأمر فيه.

وممّا يجب لك أن تجعله على ذكر منك مـن معـاني «إنـما»، مـا عرفتـك أوّلا من أنها قد تدخل في الشيء على أن يخيّل فيه المتكلم أنه معلوم، ويـدّعي أنه من الصحة بحيث لا يدفعه دافع، **كقوله:** **[من الخفيف]**

إنما مصعب شهاب من الله

ومن اللطيف في ذلك قول قتب بن حصن: [من الطويل]

ألا أيّها النّاهي فزارة بعد ما أجدّت لغزو، إنّما أنت حالم (١)

ومن ذلك قوله تعالى حكاية عن اليهود:

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ ﴾

[سورة البقرة:١١]

دخلت «إنّما» لتدلّ على أنهم حين ادّعوا لأنفسهم أنهم مصلحون أظهروا أنهم يدّعون من ذلك أمرا ظاهرا معلوما، ولذلك أكّد الأمر في تكذيبهم والردّ عليه، فجمع بين «ألا» الذي هو للتنبيه، وبين «إنّ» الذي هو التأكيد، فقيل:

﴿ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [سورة البقرة:١٢]

طريق التقديم

الجملة العربية جملتان، جملة اسمية، وجملة فعلية، وترتيب الجملة الاسمية يبدأ بالمسند إليه، وهو (المبتدأ) ثم يتم المعنى بالمسند وهو(الخبر) أما الجملة الفعلية، فتبدأ بالمسند وهو الفعل، ثم المسند إليه وهو الفاعل ويلحق بكل من الجملتين متعلقات مثل المفاعيل والتوابع المختلفة، وهذه

١- البيت لعويف بن معاوية بن عقبة بن حصن الفزاري، ويسمى عويف القوافي لبيت قال فيه:
سأكذب من قد كان يزعم أنني... إذا قلت قولا لا أجيد القوافيا

المتعلقات وتلك التوابع لها مكانها الخاص في الجملة، لكنها تقدم وتؤخر بحسب حاجة السياق والمقام .

لكن هذه الحركة التي تجعل الكلمة تتقدم أو تتأخر تؤدي إلى إنتاج معنى القصر، **وسوف أعرض لك شيئا من هذه النماذج :**

القصر من تقديم المسند إليه على المسند :

إذا تقدم الفاعل على الفعل (أو المسند إليه على المسند) فإما أن يكون في الجملة نفي أو لا، فإن كان في الجملة نفي، فإما أن يكون التقديم واقعا في حيز النفي، أو لا، **فترتب علي ذلك ثلاث صور :**

- التقديم في جملة لا نفي فيها، مثل : (أنا قلت هذا)
- التقديم في جملة تسلط النفي فيها على المسند مثل : (أنا ما قلت هذا)
- التقديم في جملة تسلط فيها النفي على المسند إليه مثل : (ما أنا قلت هذا)

في الجملتين الأولتين قد تجد القصر مفادا منهما، وقدلا تجد، بحسب السياق، ففي قوله تعالى:﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ (١٠١)﴾ [سورة التوبة:١٠١]

فقوله (نحن نعلمهم) يفيد القصر، أي : لا يعلمهم إلا الله، يقول ابن عاشور : وأشير بقوله : " لا تعلمهم نحن نعلمهم " إلى أن هذا الفريق الباقي من المنافقين قد أراد الله الاستيثار بعلمه، ولم يُطلع عليهم

رسوله ﷺ كما أطلعه على كثير من المنافقين من قبل. وإنما أعلمه بوجودهم على الإجمال لئلا يغتر بهم المسلمون، **فالمقصود هو قوله : لا تعلمهم)**[1].

ومن ذلك أيضا قوله تعالى :

﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾﴾ [سورة المنافقون:١]

فتكرر تقديم المسند إليه على المسند، وقيل:(والله يعلم، والله يشهد) وفُهم من هذا التقديم قصر العلم والشهادة على الله تعالى، قصر صفة على موصوف، أي : لا يعلم حقا إنك رسول الله إلا الله لا هؤلاء، ولا يشهد إنك رسول الله إلا الله لا هؤلاء .

لكنك في سياقات أخرى تجد تقديم المسند إليه على الخبر الفعلي (المسند) لا يفيد القصر، **مثل قوله سبحانه :**

﴿ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [سورة النحل:٢٠]

إذ ليس المراد تخصيص المخلوقية لهم، لأن غيرهم يخلق أيضا .

الصورة الثانية : (أنا ما قلت هذا) :

في هذه الصورة تقدم المسند إليه على المسند، وسبق النفي المسند وهي صورة مثل أختها السابقة، قد تجد فيها أمارات القصر، وقد لا تجد وذلك

١- التحرير والتنوير ١١: ٢٠.

بحسب السياق، **ومن الصور التي فيها أمارات القصر قوله تعالى :**

﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [سورة الأنفال:٥٥-٥٦]

ففي قوله : (فهم لا يؤمنون – وهم لا يتقون) في هذا السياق يفاد منه نقي الإيمان عن هؤلاء خاصة، ونفي التقوى عن هؤلاء خاصة أعني : الذين عاهدت منهم، فالحديث عنهم وفي شأنهم .

أما عدم إفادة القصر في هذه الصورة فكثير، ومنه قوله تعالى:

﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [سورة النمل:٢٤]

وقوله :

﴿ .....وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾﴾

[سورة البقرة:٢٧٢]

لا شك أن عدم الهداية ليست خاصة بهؤلاء، ونفي الظلم ليس مقصورا على هؤلاء .

الصورة الثالثة : ما أنا قلت هذا :

وهذه الصورة يرى الإمام عبد القاهر إفادتها للقصر لزوما، وهي من قبيل قصر الصفة على الموصوف، لأن الفعل موجود وثابت، والنفي مسلط على الفاعل المقدم، ثم أسند الفعل إلى ضمير يعود على الفاعل المقدم،

والحق أن هذه الصورة مثل الباقي، قد تفيد القصر ـ وقد لا تفيد بحسب السياق، ففي قوله تعالى : (ولا هم عنها ينزفون) لا يمكن بحال اعتبار تقديم المسند إليه على الخبر الفعلي في حيز النفي مفيدا للقصر، بدليل التقييد **بقوله** : (عنها) ومعنى الآية : أي : لا يوجد من وراء خمر الجنة أمراض ولا أوجاع ولا أشياء يكرهها شاربها، وهذا تعريض بخمر الدنيا ففيها هذا كله، فالذين يشربون الخمور في الدنيا يعلمون مرارة مذاقها، كما أنه بعد أن يشرب الخمرة يذهب عقله، فيفرِّط في ماله، ويفرط في عِرضه ويفرّط في دينه ودنياه ، ثم يأتي الصداع بعد أن تذهب الخمر، ويكثر بوله أما خمر الجنة فلا وجع فيها، ولا ألم، ولا قيء، ولا بول، ولا شيء يزعج من يشربها) ([1]).

ومنه أيضا قوله تعالى :

﴿ وَإِذَا رَءَا الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾

[سورة النحل:٨٥]

والإنظار لا ينفى عن هؤلاء فقط، بل إنه لن يكون لأحد قط يوم القيامة، فالكل محاسب، (والمشهد يبدأ بموقف الشهداء من الأنبياء يدلون بما يعلمون مما وقع لهم في الدنيا مع أقوامهم من تبليغ وتكذيب والذين كفروا واقفون لا يؤذن لهم في حجة ولا استشفاع، ولا يطلب منهم أن

١- تفسير القرآن لأحمد حطيبة ٣٣٣/٦.

يسترضوا ربهم بعمل أو قول، فقد فات أوان العتـاب والاسترضـاء، وجاء وقت الحساب والعقاب.

«وَإِذا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذابَ فَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ» ..

المهم هنا أن تعلم أن تقديم المسـند إليـه عـلى الخـبر الفعـلي بجميـع صـوره لا يفيد القصر على سبيل اللزوم، بل إن الأمر متروك للسياق، فقط يكثر إذا تقدم المسند إليه على خبره الفعلي في حيز النفي، ودون ذلـك إن كـان الخـبر شبيها بالفعل مثل: (وما أنت عليهم بوكيل) (وما أنت علينـا بعزيـز) ثـم يقلّ إذا كان التقديم على الخبر الفعلي في حيز الإثبات .

هل يفيد تقديم المسند على المسند إليه القصر ؟

قد يفيد تقديم المسند على المسند إليه القصر، في نحو قول أبي فراس :

أراك عصي الدمع شيمتك الصبر ... أما للهوى نهي عليك ولا أمر
بلى أنا مشتاق وعندي لوعة ... ولكن مثلي لا يذاع له سر
إذا الليل أضواني بسطت يد النوى ... وأذللت دمعاً من خلايقه الكبر
تكاد تضيء النار بين جوانحي ... إذا هي أذكتها الصبابة والهجر
معللتي بالوصل والموت دونه ... إذا مت عطشاناً فلا نزل القطر
بدوت وأهلي حاضرون لأنني ... أرى أن داراً لست من أهلها قفر
وحاربت أهلي في هواك وإنهم ... وأياي لولا حبك الماء والخمر
وفيت وفي بعض الوفاء مذلة ... لإنسانة في الحي شيمتها الغدر

وقــور وريعــان الصــبا يســتفزها ... فتــأرن أحيانــاً كــما أرن المهــر
فإن كان ما قــال الوشــاة ولم يكــن ... فقد يهدم الإيـمان مـا شـيد الكفـر
تسائلني مــن أنــت وهــي عليمــة ... وهل للفتى مثلي عـلى حالـه نكـر
فقلت كما شاءت وشاء لها الهــوى ... قتيلك، قالت : أيهم وهـم كثـر؟
فأيقنت أن لا عــز بعــدي لعاشــق ... وأن يـدي ممـا علقـت بـه صـفر
فلا تنكرينــي يــا ابنــة العــم إننــي ... ليعرف ما أنكرته البـدو والحضر
وقلبــت أمــري لا أرى لي راحــة ... إذا البــين أنســاني ألــح بي الهجــر
فعدت إلى حكم الزمان وحكمهــا ... لها الذنب لا تجزي بـه ولي الغـدر
وإني لحــراب نــزال بكــل مخوفــة ... كثــير إلى نزالهــا النظــر الشــزر
فأظمأ حتى يرتوي البيض والقنــا ... وأسغب حتى يشبع الذئب والنسر
ويــا رب دار لم تخفنــي منيعــة ... طلعت عليها بالردى أنا والفجـر
وحين ملكت الخيل حتــى رددتــه ... هــزيماً فردتنــي البراقــع والخمــر
وما حــاجتي بالمــال أبغــي وفــوره ... إذا لم أفر عـرضي فـلا وفـر الـوفر
أسرت وما صحبي بعزل لدى الــوغى ... ولا فـرسي مهـر ولا ربـه عمـرو
ولكن إذا جم القضاء على امرىء ... فلــيس لــه برتقيــه ولا بحــر
هو الموت فاختر ما علالك ذكــره ... ولم يمت الإنسان ما حيـي الـذكر

ولا خـير في دفـع الـردى بذلـة	كـما ردهـا يومـاً بسـوأته عمـرو
فإن عشت فالطعن الذي يعرفونه	وتلك القنا والبيض والضـمر والشـقر
وإن مـت فالإنسـان لابـد ميـت	وإن طالت الأيام وانفسـح العمـر
تمنـون أن خلـوا ثيـابي وإنـما	عـلي ثيـاب مـن دمـائهم حمـر
وقـائم سـيفي فـيهم دق نصـله	وأعقاب رمحي منهم حطـم الصـدر
سـيذكرني قـومي إذا جـد جـدها	وفي الليلـة الظلـماء يفتقـد البـدر
ولو سد غيري ما سددت اكتفوا بـه	وما كان يغلو التبر لو نفق الصـفر
ونحـن أنـاس لا توسـط بيننـا	لنا الصـدر دون العـالمين أو القـبر
تهـون علينـا في المعـالي نفوسـنا	ومن خطب الحسناء لم يغلـه المهـر

وبيت الشاهد هذا المرقوم باللون السميك، ويبدأ بـ(نحن أناس لا توسط بيننا) وهو يبين أنه عالي الهمة لا يعرف التوسط ، **يعني** : أنه إما أن يصل إلى غايته، وإما أن يموت، فتقديم (لنا) في قوله : (لنا الصـدر) أفـاد قصر الصدر على كونه (لنا) ولذلك عقب بقوله : (دون العالمين) .

ومثل هذا قوله تعالى :

﴿......لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ......﴾ [سورة البقرة:٢٨٦]

وقوله : ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾ [سورة الغاشية:٢٥-٢٦]

وقوله : ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾﴾ [سورة القيامة:٣٠]

وقوله : ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾ ﴾ [سورة الكافرون:٦]

كل ذلك من باب قصر الموصوف على الصفة لأن الجار والمجرور في مقام الصفة ، والمسند إليه في مقام الموصوف، والمعنى : ما الصدر إلا لنا، ما الكسب إلا لها، وما الاكتساب إلا عليها، ما الإياب إلا إلينا وما الحساب إلا علينا، ما المساق إلا إلى الله، ما دينكم إلا لكم، وما ديني إلا لي ... وهكذا .

إن التقديم في حيز الإثبات قد يفيد في سياقٍ القصر، وقد لا يفيد في سياق آخر .

ومن نماذج إفادته للقصر قوله تعالى : (إياك نعبد وإياك نستعين) فالمعنى : ما نعبد إلا إياك، وما نستعين إلا بك ، وقد لايفيد القصر كما **في قول الشاعر** :

له همم لا منتهى لكبارها وهمته الصغرى أجل من الدهر

له راحة لو أن معشار جودها على البر صار البر أندى من البحر

فكلمة (له) خبر مقدم، و(همم) مبتدأ مؤخر، ولا دلالة على القصر هنا، ولو قال : همم له لا منتهى لكبارها، لتغير الإعراب، وصارت (له) صفة للهمم، و جملة (لا منتهى)هي الخبر، والسياق لا يؤيد هذا لأن الشاعر يمدح، ولا يخبر .

أما إذا كان التقديم للمسند في حيز النفي فإنه يفيد القصر، **كما في قوله تعالى** : ﴿ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [سورة الصافات:٤٧]

أي : أنها لا تغتال العقول كما تغتالها خمر الدنيا، **قال مطيع بن إياس** :

ومـا زالـت الكـأس تغتـالهم   وتـذهب بـالأول الأول

والمقصود: ليس نفي الغول، بل نفي أن يكون خمر الجنة محلا للغول أما غيرها فكلها غول، **يقول الشهاب في حاشيته على تفسير البيضاوي** :

(" وأما لا فيها غول " ، فإن نظر إلى حاصل المعنى كان قصر الصفة الاغتيال على خمور الدنيا وإن روعي القاعدة القائلة بأنّ تقديم المسند يفيد الحصر المستدير قصراً للموصوف على الصفة أي الغول مقصور على عدم الحصول في خمر الجنة لا يتجاوزه إلى عدم الحصول فيما يقابلها، أي : عدم الغول مقصور على الحصول فيها لا يتجاوزه إلى الحصول في هذه الخمور فتقديم الظرف للتخصيص، والمعنى ليس فيها ما في خمر الدنيا من الخمار) [1]**أما قوله** : (لا ريب فيه) فليس فيها تخصيص، فقط فيها نفي الريب عن القرآن الكريم، وليس السياق في موازنة بين القرآن الكريم وغيره، ولو قدم (فيه)على الريب **وقيل** : (لا فيه ريب) لأفاد معنى بعيداً عن المراد، وهو أنّ الريب ثابت في كتاب آخر من الكتب السماوية،

١- حَاشِيةُ الشِّهَابِ عَلَى تفْسيرِ البَيضَاوِي، الْمُسَمَّاة: عِنَايةُ القَاضِى وكِفَايةُ الرَّاضِى عَلَى تفْسيرِ البَيضَاوي المؤلف: شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الخفاجي المصري الحنفي (المتوفى: ١٠٦٩هـ)دار النشر: دار صادر - بيروت ١/ ٢٠٠.

لا في هذا الكتاب، وهذا المعنى - سواء استقام أو لا - لا يناسب المقام إذ لا منازعة فيه .

وخلاصة الأمر : أن تقديم المسند على المسند إليه له أحوال :

إن كان في حيز الإثبات فالأكثر أنه لا يفيد القصر . وإن كان في حيز النفي فالأكثر أنه يفيد القصر، والحكم في كل ذلك هو السياق والمقام لأن دلالة التقديم على القصر دلالة فحوى، وليست دلالة وضع .

تقديم المتعلقات على ركني الجملة

التقديم في المتعلقات إما أن يكون على الفعل نفسه، وإما أن يكون تقديم بعض المتعلقات على بعض، ويتحكم السياق في إبراز دلالة القصر أو إخفائها عند وجود تقديم للمتعلِّق، على المتعلَّق في حيز الإثبات، فحين تنظر إلى قوله تعالى:(إياك نعبد وإياك نستعين) تجد دلالة القصر بارزة فالمعنى : ما نعبد إلا إياك، وما نستعين إلا بك.

وكذلك الحال في قوله تعالى :

﴿ .... لِتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا .... ﴾

[سورة البقرة:١٤٣]

قال السكاكي :(يقولون : أُخِّرت صلة الشهادة أولا، وقدمت ثانيا ؛ لأن الغرض في الأول إثبات شهادتهم على الأمم، وفي الآخر اختصاصهم بكون الرسول شهيدا عليهم) (١).

١- مفتاح العلوم ص ٢٣٤.

فتقـديم المتعلـق (علـيكم) عـلى المتعلـق بـه (شـهيدا) لإفـادة اختصاصهم بكون الرسول ﷺ شهيدا عليهم .

وقد يكون تقديم المتعلقات لا يحمـل معنـى الاختصـاص، ولا يفيـد القصر، ومن ذلك قوله تعالى :

﴿ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝٦ ﴾ [سورة النحل:٥-٦]

وكذلك في قوله سبحانه :

﴿ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ۝٣١ ﴾ [سورة الحاقة:٣١]فلا قصر هنا .

وخلاصة ذلك :

أن تقديم المتعلقات في حيز الإثبات لا يفيد غالبا القصر، وقـد يفيـد القصر بمعاونة السياق والمقام .

ولكنك حين تجعـل هـذا النـوع مـن الكـلام – المتعلقـات – مقـدما في حيز النفي فالأمر يختلف، لأنها في الغالب تفيد القصر، **يقول الإمام** :

وإذا قلت: «ما زيدا ضربت»، فقدمت المفعـول، كـان المعنـى عـلى أنّ ضربا وقع منك على إنسان، وظنّ أن ذلك الإنسان زيـد، فنفيـت أن يكـون إياه فلك أن تقول في الوجه الأول: «ما ضربت زيدا ولا أحدا مـن النـاس» وليس لك ذلك في الوجه الثاني. فلو قلت: «ما زيدا ضربت ولا أحـدا مـن الناس»، كان فاسدا على ما مضى في الفاعل.

وممّا ينبغي أن تعلمه، أنه يصحّ لك أن تقول: «ما ضربت زيدا ولكني أكرمته»، فتعقب الفعل المنفيّ بإثبات فعل هو ضدّه، ولا يصحّ أن **تقول**: «ما زيدا ضربت، ولكني أكرمته»، وذاك أنّك لو ترد أن تقول: لم يكن الفعل هذا ولكن ذاك، ولكنك أردت أنه لم يكن المفعول هذا، ولكن ذاك.

فالواجب إذن أن تقول: «ما زيدا ضربت ولكن عمرا».

وحكم الجارّ مع المجرور في جميع ما ذكرنا حكم المنصوب فإذا قلت: «ما أمرتك بهذا»، كان المعنى على نفي أن تكون قد أمرته بذلك ولم يجب أن تكون قد أمرته بشيء آخر، وإذا قلت: «ما بهذا أمرتك»، كنت قد أمرته بشيء غيره)(١).

وهذه كلها دلالات القصر، لكنك لا تعدم أن تجد تقديما للمتعلقات في حيز النفي ولا يفيد القصر، **مثل قوله تعالى**:﴿ **أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ** ﴾ [سورة الأعراف:١٩١-١٩٢]

لأنهم لا ينصرون أنفسهم، ولا أنفس غيرهم، بدليل قوله قبلها " ولا يستطيعون لهم نصرا ".

١- دلائل الإعجاز ت هنداوي ص ٨٩.

تقديم بعض المتعلقات على بعض .

هـذا النـوع مـن التقـديم متشـعب، ومتعـدد، ويجـري عـلى حسـب ما يقتضيه السياق، وأغراض الكلام فقد تجد التقديم مفيدا للقصر في نحو :

﴿ .... وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾

[سورة النحل:٤٤]

حيث تقدم الجار والمجرور (إليك) على المفعول بـه (الـذكر) وأفـاد هذا التقديم قصر الإنـزال عـلى كونـه لرسـول الله ﷺ، **ومنـه أيضـا قولـه تعـــــالى** : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [سورة النحل:١١]

حيث ترى التقديم بين المتعلقات كـما هـو بـين المتعلـق والمسـند إليـه ففي تقديم (منه) وتوسيطها بين المبتدأ والخبر أفاد التخصيص، أي لكم منه خاصة شراب، وكذا الترتيب بين هذه الألفـاظ الثلاثـة (لكـم بـه الـزرع) وكلها متعلقات، حيث تمت الجملة بالفعل والفاعل (ينبت) أي رب العزة سبحانه، فتقديم (لكم) يشير إلى أن الإنبـات خـاص بهـم، مـع أن الـزرع يأكـل منـه الطـير والحيـوان، لكـن السـياق قـدم لكـم لـيعلمهم أنهـم المخصوصون بهذا الإنبات، وأن غيرهم تبع، مما يذكر بالنعمة حتى يعجلـوا بشكرها ....

وقل مثل ذلك في قوله تعالى:

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [سورة النحل:١٤]

فتقديم (منه) قد يفهم على أن (من) للابتداء، أي : صادرا منه أو للظرفية، أي تأكلوا منه خاصةً لحمًا طريًا، ويكون الكلام على القصر لأنه ليس هناك أطرى من لحم السمك، إما على الحقيقة أو المبالغة .

طريق العطف

أدوات العطف كثيرة، أقيم باب (الفصل والوصل) على إحداها وهي الواو، وأقيم أحد طرق القصر على ثلاثة أحرف، وهي (لا – وبل ولكن) وسبب اصطفاء هذه الحروف من بين حروف العطف أنها تفيد ثبوت شيء لشيء ونفيه عن غيره، وتعجب حين تعلم أن طريق العطف هو المقدم من بين الطرق على غيره عند البلاغيين في باب القصر، وذلك لأنه الطريق الوحيد الذي يصرح فيه بالجملتين(جملة الإثبات وجملة النفي) وهذا الطريق يدل على القصر بالوضع، مثل : النفي والاستثناء، وإنما .

القصر بلا العاطفة

وأول هذه الأدوات (لا) العاطفة، وهي إحدى أقسام (لا) النافية غير العاملة، وشأنها شأن حروف العطف في إدخال الثاني في حكم الأول لفظًا، فهي حرف يشرك في الإعراب دون المعنى، لأن معناها النفي

فإذا قلت : أكرمت زيدا لا عمرًا، فقد نفيت عن عمرو ما أثبته لزيد فهي موضوعة لأن تنفي ما بدأت فأوجبته، لا لأن تفيد بها النفي عن شيء قد نفيته، ومن ثم فإنها لا ينبغي أن تسبق بنفي ،أو ما شابهه،وذهب العلماء إلى أن إفادتها للقصر **تستلزم ثلاثة شروط** :

١- أن يتقدم عليها كلام مثبت .

٢- ألا تقترن بعاطف، فإن قيل: (جاء محمد لا بل خالد)، فلا قصر فيها لأن العاطف حينئذ (بل) ولا نفي لما قبلها، ومن نماذج فقد الشرطين السابقين **قوله تعالى** : " ولا الضالين " حيث اقترنت بعاطف، واقترنت كذلك بنفي .

٣- أن يكون معطوفها مفردًا .

وعليه فإذا قلت : (جاء محمد لا خالد) فلقد أثبت المجيء لمحمد صراحة، وأثبت له أيضا المجيء ضمنا بقولك : لا خالد، وهذا هو مقصود القصر .

وشيء آخر وهو أن هذه الأداة تحرك في الذهن سياقا خاصا بها فأنت لا تقول : جاء محمد لا خالد، إلا وأنت تريد أن تشعر السامع بأن المخاطب يتوهم مجيء خالد (إما وحده، أو مع محمد، أو لا يعرف أيهما جاء) فالقصر هنا فيه رد على المخاطب، أو تصحيح المفهوم لديه، فتنفي ما يراه هو، وتثبت ما تراه أنت، ويحدد المقصور عليه بأنه : المقابل لما بعدها فإن قلت : مررت بعلي صباحا لا مساء، فالمقصور عليه هو (الصباح

وإن قلت:مررت بعلي صباحا لا خالد،فالمقصور عليه هو (عليّ) وهكذا .

رأي الشيخ أبي موسى في (لا) العاطفة :

قال الشيخ الجليل أبوموسى عن (لا) العاطفة : (إنها لا دقة فيها ولا وجازة، ولا إيماض، ولا نراها طريقا جديرا بالبحث في هذا الباب)[1].

وذكر السبكي كلام الخطيب القزويني في هذا الطريق وهو : (وللقصر طرق منها العطف، كقولك في قصر الموصوف على الصفة إفرادا: زيد شاعر لا كاتب ،وفي قصر الصفة على الموصوف إفرادا أو قلبا بحسب المقام : زيد قائم لا عمرو).

وبعد أن ذكر السبكي هذا الكلام عقب عليه فقال : (أما العطف بـ"لا" فأي قصر فيه ؟!

إنما فيه نفي وإثبات، **فقولك** : زيد شاعر لا كاتب، لا تعرض فيه نفي صفة ثالثة، والقصر إنما يكون بنفي جميع الصفات، غير المثبت إما حقيقة، وإما مجازا، وليس هو خاص بنفي الصفة التي يعتقدها المخاطب)[2].

١- دلالات التراكيب لأبي موسى ص١٠٣.

٢- راجع مختصر السعد ٢/ ١٨٧ وبغية الإيضاح ٢/ ١٤ وشروح التلخيص ٢/ ١٨٩.

وقال الشيخ أبو موسى: (وهذا الرأي كما ترى يقتلع طريق العطف من جذره، ويبعده عن باب القصر - **ثم قال** : وأجد في نفسي ميلا إلى هذا الرأي ،**وذلك لأمور**:

منها : أننا لا نحصي هنا طرق القصر، وإنما نشغل بالطرق التي يكشف البحث فيها عن دقائق معنوية، وأسرار من الدلالة تفيض بها أداة القصر في السياق البارع، وحين تتكشف لنا هذه الدقائق والأسرار، نجد للجملة مغزى وسرا، ومتاعا ،ولست واجدا شيئا من ذلك في طريق العطف، ولذلك نجد أن طبيعة البحث فيه كانت أقرب إلى تحديد الدلالة الأولية منها إلى التحليل الممتع .

ومنها : أننا إذا أردنا تأصيل بحث هذا الطريق في المصادر الأصلية نجد جذوره لا تتصل اتصالا وثيقا وجوهريا بالتربة التي تمتد فيها جذور بقية الطرق)(١).

هذا هو رأي الشيخ ،ولي فيه تأمل، فما ذكره أولا من قلة دقائق هذا الطريق وأسراره، فإن طرق القصر مختلفة في إفادتها، وقد تظهر الدلالة فيها ظهورا بينا في طريق، وتخبو وتخفت في طريق آخر، وليس معنى خفائها وخفوتها أن نهمل هذا الطريق، وإلا أهملت أكثر مباحث البلاغة .

وما ذكره ثانيا من أن جذور العطف لا تتصل اتصالا جوهريا بالتربة التي تمتد فيها جذور بقية الطرق، فليس ذلك مدعاة لإهمال هذا الطريق

١- دلالات التراكيب ص ١٠١.

فكم من كتب بلاغية طواها الزمان قد تكون حافلة به، وفي الشعر العربي ميدان لهذه الأداة يحتاج إلى دراسات أوفى وأوسع، وليس كل ما أهمله العلماء نهمله، فالفراء مثلا لم يذكر طريق التقديم ،ومع ذلك درسناه وكلام الإمام عبد القاهر يكفي في الوقوف عند هذه الأداة، حتى وإن كان كلامه في بيان المشتركات بين الأداتين ، ومتى يجتمعان ؟

إن العطف هو أحد طرق القصر الأربعة المعتبرة عند البلاغيين وقد ذكر السيوطي أن ذلك لا خلاف فيه عندهم، بل إنهم قدموه على باقي الطرق لقوته بالنص على المثبت والمنفي معا .

" لا " العاطفة وقصر القلب :

يرى الإمام أن(لا)لا تفيد إلا قصر القلب، وكأن المتكلم وهو يسلك معناه في سلك (لا) العاطفة استشعر أن المخاطب يعتقد عكس الصواب، فكان لا بد من قلب المعنى له، فإذا قلت : هذا لك لا لغيرك، فأنت ترد ما يعتقده بأن هذا لغيره، فتصحح له .

وأنا أسأل : إذا كان الأمر متوقفا على استشعار حال المخاطب، فلماذا يقتصر فيه على حالة واحدة، وهي حالة القلب، وفي الأحوال سعة، فقد يعتقد المخاطب الشركة، فيكون القصر قصر إفراد، وقد يعتقد الشك بين اثنين، فيكون القصر على التعيين، لكن الإمام لا يراها إلا ردا على من يغلط **يقول** : (اعلم أن قولنا في «لا» العاطفة: «إنها تنفي عن الثاني ما وجب للأول»، ليس المراد به أنها تنفي عن الثاني أن يكون قد شارك

الأول في الفعل، بل أنها تنفي أن يكون الفعل الذي قلت إنه كان من الأوّل، قد كان من الثاني دون الأوّل. **ألا ترى أن ليس المعنى في قولك:** «جاءني زيد لا عمرو»، أنه لم يكن من عمرو مجيء إليك، مثل ما كان من «زيد»، حتّى كأنه عكس قولك: «جاءني زيد وعمرو»، بل المعنى أن الجائي هو زيد لا عمرو، فهو كلام تقوله مع من يغلط في الفعل قد كان من هذا، فيتوهم أنه كان من ذلك.

والنّكتة أنه لا شبهة في أن ليس هاهنا جائيان، وأنه ليس إلّا جاء واحد، وإنما الشّبهة في أن ذلك الجائي زيد أم عمرو، فأنت تحقّق على المخاطب بقولك:«جاءني زيد لا عمرو»، أنه «زيد» وليس بعمرو.

ونكتة أخرى: وهي أنك لا تقول: «جاءني زيد لا عمرو»، حتى يكون قد بلغ المخاطب أنه كان مجيء إليك من جاء، إلّا أنه ظنّ أنه كان من «عمرو»، فأعلمته أنه لم يكن من «عمرو» ولكن من «زيد»)(1).

وأرى أن الذي دفعه إلى ذلك اعتقاده بأن" لا "العاطفة مثل " إنما " وهذا عند التحقيق لا يسلم به ، **ففي قول الله تعالى حكاية عن السحرة** :

﴿ قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ ﴾ [سورة طه:٧٢]

لا يمكن الزعم بأن فرعون كان يعتقد أنه يقضي الحياة الآخرة فقط فقلب عليه المؤمنون اعتقاده ،وقالوا إنما تقضي هذه الحياة الدنيا، فهذا

١- دلائل الإعجاز ص ٢٢٠ هنداوي.

لا يقال، إنما الأقرب هو اعتقاده بأنه يقضي الحياتين، الدنيا والآخرة فأفردوا هم (بإنما) الحياة الدنيا)(١)، (فالذي قاله الإمام لم يعتمد فيه على الاستقصاء، أو التأمل لكثير من المقامات التي كانت فيها " لا " العاطفة ففي قول ابن الرومي :

أمواله في رقاب الناس من منن ... لا في الخزائن من عين ومن نشب

الى الله أشكو لا الى الناس انّني ... أرى الأرض تبقى والأخلاء تذهب

تجد الأسمى والأليق بمقام المدح أن يجعل الخطاب لمن اعتقد أن أموال الممدوح في كل من : الخزائن، ورقاب الناس، فأبان الشاعر له أنه قد ضل الحقيقة فإن أمواله في رقاب الناس)(٢).

أضف إلى ذلك أن مدار اعتبار القصر قصر قلب، أو قصر إفراد أو قصر تعيين، قائم على المتبادر إلى الوعي، والسابق إلى القلب، وهذه أمور تتغير وتتبدل، وتتحول من متكلم إلى آخر، ومن مقام إلى مقام، ومن سياق إلى سياق، وقد ذكر الخطيب القزويني أن " لا " العاطفة يفاد بها القصر في كل صوره، الحقيقي والإضافي، الإفراد والقلب والتعيين (٣).

١- دقائق القصرلمحمود توفيق سعد ص ٩٤ بتصرف.

٢-دقائق القصر ص ١١٥.

٣- انظر شروح التلخيص ٢/ ١٨٩.

وأنا أكتب لك بعض أبيات أبي تمام لتتمرن على تحديد القصر فيها يقول أبو تمام في بديعيته :

أَلسَّيْفُ أَصْدَقُ أَنْباءً مِنَ الكُتُبِ	**فِي حَدِّه الحَدُّ بَين الجِدِّ واللعِبِ**
بِيضُ الصَّفَائِحِ لاَ سُودُ الصَّحَائِفِ فِي	**مُتُونِهِنَّ جَلاَءُ الشَّكِّ والرِّيَبِ**
والعِلْمُ فِي شُهُبِ الأَرْماحِ لاَمِعةً	**بَين الخَمِيسَينِ لاَ فِي السَّبْعَةِ الشُّهُبِ**
بسنة السيف والخطي من دمه	**لا سنة الجدين والإسلام مختضب**
إن الأسود أسود الغيل همتها	**يوم الكريهة في المسلوب لا السلب**

العطف بـ(لكنْ):

(لكن)العاطفة هي الساكنة النون، غير مشددة النون، وفرق بين هذه وبين لكنْ المخففة من الثقيلة، إحدى أخوات إن، مثل ماالأرض ثابتة لكن متحركة.

وهذه التي معنا لها ثلاثة شروط :

١- أن يتقدم عليها نفي ،أو نهي .

٢- أن يكون ما بعدها مفردا .

٣- ألا تقترن بالواو .

والمقصور مع هذه الأداة هو ما بعدها، **فحين تقول** : (ما نجح خالد لكن محمد) فقد قصرت النجاح على محمد، وأثبته له دون خالد، وظاهر

كلام المفتاح والإيضاح في باب العطف أنه يصلح طريقًا للقصر ولم يذكروا مثالًا له ، **وقد عثر أستاذي محمود توفيق على شاهد واحد وهو قول أبو العلاء :**

والدار تدمر من كل وما غرضي كون بتدمر لكن منزل دمرا

والذي يكثر في النصوص المعتبرة اقتران حرف العطف (لكن) بالواو، **ومنه قول الله تعالى :**

﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [سورة يونس:٣٧]

ولو أردت أن تضع هذه الجملة في إطار النفي والاستثناء فقل : وما كان هذا القرآن إلا تصديقا لما بين يديه، أي ما كان من شأنه أصلاً أن يفترى، ولا حظ أن أداة النفي قد دخلت على (هذا القرآن) لبيان أنه ليس الافتراء هو المنفي، ولكن جواز وجوده هو المنفي. وهو أبلغ في النفي وأبعد "**وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ** "من الكتب التي أرسل بها المرسلون .

ومنه قوله تعالى :﴿ .... وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾
[سورة البقرة:٥٧]

وقوله : **﴿ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ ﴾**
[سورة البقرة:١٠٢]

وقوله : **﴿ لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾ ﴾** [سورة البقرة:٢٢٥]

وقولـه :﴿ ۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ .... ﴾
[سورة البقرة:٢٧٢]

العطف بـ(بل)

يقول أبو حيان :(العطف ببل يكون للإضراب عن الحكم الأول وإثباته للثاني على جهة إبطال الأول، أو الانتقال عاما في كتاب الله في الإخبار، فلا يكون إلا للانتقال. ويستفاد من الجملة الثانية ما لا يستفاد من الجملة الأولى)([1]).

ويحكي عبد القاهر وجهين في نحو(ما جاءني زيد بل عمرو) ويقول : إن فيها وجهين، **أحدهما** : أن يكون التقدير : ما جاءني زيد بل ما جاءني عمرو، فكأنك قصدت أن تثبت نفي المجيء لزيد، ثم استدركت فأثبته لعمرو . **والثاني** : أن يكون المعنى : ما جاءني زيد بل عمرو، فيكون نفي المجيء ثابتا لزيد، وإثبات المجيء لعمرو، والاستدراك في الفعل فقط .

والمشهور عن (بل) عند النحاة وغيرهم أنها حرف عطف، إلا إذا كان ما بعدها مفردا، وحين يكون ما بعدها مفردا في أسلوب الإثبات تجعل ما قبلها كالمسكوت عنه، فلا يحكم عليه بشيء، والحكم ثابت لما بعدها **تقول** : (جاء زيد بل عمرو) فالمجيء في مثل ذلك لعمرو، وأما مجيء زيد فكأنه لغو .

١- البحر المحيط ٤/ ١٢٤.

فإن جاءت في أسلوب نفي فهي تقر ما قبلها على حالته، وتثبت ضده لما بعدها، فإن قلت : (ما جاء زيد بل عمرو) فهي تبقي نفي مجيء زيد وتثبت المجيء لعمرو . ويتولد من ذلك أسلوب القصر، لأن العبارة تضمنت النفي والإثبات، فكأنك قلت : (ما جاء إلا عمرو) و ومن ذلك قول الشاعر :

ليس التعجب من مواهب ماله بل من سلامتها إلى أوقاتها

فالتعجب من سلامة المال إلى وقت الإنفاق، وليس التعجب من عطاياه الكثيرة، أعني أن الشاعر لا يتعجب من الهبات، بل يتعجب : كيف بقيت هذه الأموال إلى هذا الوقت ؟ !!

المهم أن تعرف أن هذه الحروف الثلاثة (لا وبل ولكن) لا تقوى قوة النفي والاستثناء، حتى وإن صرح فيها بالجملتين، وكثير من سياقاتها لاتحمل دلالة القصر، وهذا يؤكد أنها تابعة للسياق والمقام .

طريق التعريف

تعريف الاسم يعني أنه معلوم متعين، إذا أطلق حضر تصوره في ذهن المخاطب، وللتعريف أدوات كثيرة، والذي يدخل معنا هنا في باب القصر هو تعريف المسند إليه، أو تعريف المسند بالألف واللام أو باللام اختصارا، فالطرفان يعني: ركني الجملة، المبتدأ والخبر

وحين تدخل أل الجنسية على أحد طرفي الجملة، وكان الطرف الآخر معرفا أيضا بأحد أدوات التعريف أفادت الجملة القصر، **فمثلا حين تقول** :

(كل شيء من الماء) ، تعني أن كـل شيء مخلـوق مـن المـاء، فـالألف واللام في (الماء) للجـنس، أي جـنس المـاء، فـإن حـذفت الألـف والـلام ووضعت كلمة (جنس) صح المعنى، ولا يصح وضع كلمة كل، أو بعض ، مكان أل الجنسية .

فإن أريد بـ(أل) جميع الأفراد فهي لام الاستغراق، وهي التي يصـح وضع كلمة (كل) مكانها، مثل (والعصر إن الإنسان لفي خسر) **أي** : كل إنسان .

وإن أريد بعض الأفراد سميت (لام العهد) وهذا العهد قد لايتعـين فيسمى العهد الذهني ،**مثل قوله تعالى** : (فأكله الذئب) ليس المقصود ذئبـا معينا، ولا جنس الذئاب، ولا كل الذئاب، بل أي ذئب ،فالاسم المعرفة هنا كالنكرة سواء بسواء، **وكأنك قلت** : فأكله ذئب، **ومثـال ذلـك مـن الشـعر قول** :

ولقـد أمـر عـلى اللئـيم يسـبني فـأجوز ثـم أقـول لا يعنيـي

يعني : أي لئيم .

وقـد يتعـين العهـد فيسـمى لام العهـد الخارجي(الـذكري أو الحضوري) فالذكري مثل قولك : اشتريت أرضا ثم زرعت الأرض ومنه قوله تعالى : ﴿...**قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ** ﴾ [سورة آل عمران:٣٦]

وقولـــــه : ﴿....**كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ** .... ﴾ [سورة المزَّمل:١٥-١٦]

أما العهد الحضوري فمثاله أن يقول الأستاذ، كما يصنع أستاذنا أبو موسى في شرحه لدلائل الإعجاز مثلا : أخرجوا الكتاب، فمما لا شك فيه لا يقصد إلا كتاب دلائل الإعجاز ،أو يقول الوالد لولده وهو في المنزل : أغلق الباب . .. وهكذا .

والأصل أن يكون المسند إليه معرفة، لأنه محكوم عليه، ولا يحكم على مجهول .

والمعرف بلام الجنس هو المقصور مطلقًا تقدم أو تأخر .

كقوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ﴾ [سورة البقرة:٢]

حيث تجد جملة {ذلك الكتاب} أفادت بهذا التعريف للمبتدأ والخبر معنى أن القرآن الكريم هو الكتاب الكامل ، وهو الذي بلغ الغاية القصوى في كمال الهداية ؛ فتعريف المسند إليه باسم الإشارة دل على بعد المنزلة وعلو المكانة، وتعريف المسند بالألف واللام "الكتاب " دل على الكمال في حقيقة معنى الكتاب، فلا كتاب كامل إلا هذا .

ومنه قوله تعالى :﴿ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ .... ﴾ [سورة طه:١٤]

حيث جاءت جملتان للقصر، أفادت الأولى القصر عن طريق التعريف ،وهي : (أنا الله) حيث قصر الألوهية عليه سبحانه ،ثم أكد ذلك بالقصر أيضا عن طريق (النفي والاستثناء) فقال : (لا إله إلا أنا).

ومنه أيضا قوله تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ [سورة النحل:١٠]

حيث جاء تعريف الطرفين (هو الذي) مفيدا للقصر، فكأنَّه قيل: ما أنزل من السماء ماء إلا هو.

ومنه أيضا قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ .... ﴾ [سورة البقرة:٢٥٨]

حيث عرف الطرفين بمعنى أن الإحياء والإماتة مقصوران على ربي .

وفي حديث النبي ﷺ:

عَنْ مُحَمَّدِ ابْنِ الْحَنَفِيَّةِ، عَنْ عَلِيٍّ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ ، قَالَ: «مِفْتَاحُ الصَّلَاةِ الطُّهُورُ، وَتَحْرِيمُهَا التَّكْبِيرُ، وَتَحْلِيلُهَا التَّسْلِيمُ»[١] **حيث جاء قوله :**

(مفتاح الصلاة الطهور) بتعريف المسند إليه والمسند ... وتعريف أحد الطرفين يفيد القصر إذا كان الطرف الآخر مشتملاً على معين كـ (اللام)أو (في) أو غيرهما، مثل: الحمد لله، والكرم في العرب.

وقال الزمخشري في الفائق في حديث: (إن الله هو الدهر) : إن فيه قصر المُسنَد إليه على المُسنَد، والمعنى: إن الله هو جالب الحوادث لا غير الجالب، وقيل: فيه قصر المسند على المسند إليه، ويكون المعنى : إن الله

١- سنن الترمذي بتحقيق شاكر ١:٨.

هو جالب الحوادث، لا غيره الجالب، فتعريف الطرفين يصلح لقصر المسند إليه على المسند ويصلح للعكس.

وعن أبي هريرة قال: ((سأل رجل رسول الله – ﷺ – فقال: يا رسول الله إنا نركب البحر، ونحمل معنا القليل من الماء فإن توضأنا به عطشنا، أفنتوضأ بماء البحر؟ فقال رسول الله ﷺ: هُوَ الطَّهُورُ مَاؤُهُ الْحِلُّ مَيْتَتُهُ) ومعنى (الطهور) بفتح الطاء أي: الطاهر المطهر. (ماؤه) قوله: هو مبتدأ، والطهور مبتدأ ثان، و(ماؤه) خبر المبتدأ الثاني ، والجملة خبر المبتدأ الأول. ويحتمل أن يكون (هو) مبتدأ، والطهور خبراً، وماؤه فاعل لصيغة المبالغة ،والمعنى: أن ماءه طاهر في ذاته، مطهر لغيره، ولو قال رسول الله في الجواب : (نعم) لأجاز الوضوء فقط من ماء البحر، وتعريف الطهور باللام الجنسية المفيدة للحصر لا ينفي طهورية غيره من المياه، لوقوع ذلك جواباً لسؤال من شك في طهورية ماء البحر من غير قصد للحصر. وقيل: التعريف ههنا للدلالة على انحصار المسند إليه في المسند.

قال الرافعي: لما عرف – ﷺ – اشتباه الأمر على السائل في ماء البحر أشفق أن يشتبه عليه حكم ميتته، وقد يبتلى بها راكب البحر، فعقب الجواب عن سؤاله ببيان حكم الميتة.

وفي الحديث أيضا عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه»(١) وهذا الحديث جاء بهذه الصيغة عند كل الرواة، ولم يتغير فيه لفظ، وكلمة (المسلم) مبتدأ، والخبر اسم الموصول : (مَنْ) أي : الذي سلم المسلمون من لسانه ويده، فالجملةُ تشتملُ على تعريف الطرفين وهذا يفيدُ القصر، لكن السؤال، هل هو من قبيل قصر المسند إليه على المسند ويكون المعنى : ما المسلم إلا من سلم المسلمون من لسانه ويده ؟ فيكون قصر موصوف على صفة . أم أنه من قبيل قصر المسند على المسند إليه ويكون المعنى : ليس من سلم المسلمون من لسانه ويده إلا المسلم .

ويكون قصر صفة على موصوف ؟

الذي أراه أن العبارة تصلح لكليهما .

وقد يأتي الطرف الأول معرفا بأل، ويأتي الطرف الثاني مجرورا بحرف الجر، ويحمل هذا الأسلوب دلالة القصر كما في قول النبي ﷺ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما (اليمينُ على المدَّعَى عليه) وقد رواه البيهقيُّ والنوويُّ تامًّا، هكذا: «البينةُ للمدَّعِي، واليمينُ على المدَّعَى عليه».

يقول السُّيوطي أنَّ تعريفَ الطرفين يفيدُ القَصْر وثبت عندي بالاستقراء أنَّ لام الجِنْس إذا كانت في طَرَفٍ وحَرْف، يُعيِّنُ القَصْرَ في طرفٍ آخَر. فهذا التركيبُ أيضًا يفيدُ القَصْر.

١- البخاري رقم١٠.

وحروفُ القَصْرِ على هذا هي (الباء، واللام ومِن، وإلى، وفي، وعن وعلى) كقوله تعالى: ﴿...ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ.....﴾ [سورة البقرة:١٧٨]

وكقولهم: والأَمْرُ من اللهِّ، والأَمْرُ إلى اللهِّ، والكَرَم في العرب، والرَّمْي عن القوس، واليمينُ على المدَّعَى عليه) ولو تفرست في هذه العبارات جميعا لوجدتها تحمل دلالة الحصر، وسهل عليك تأويل كل، ووضعه في دائرة النفي والاستثناء .

وفي ختام الحديث عن دلالة التعريف على القصر أنبه إلى أن أكثر الجمل التي ختمت بها الآيات بالمغفرة، ختمت بما يفيد القصر، نحو : وهو الغفور الرحيم، وهو الغفور الودود ،مثل [إنه هو الغفور - أني أنا الغفور - ربك الغفور - إنه هو الغفور - هو الرحيم الغفور - إنه هو الغفور - إن الله هو الغفور - وهو الغفور - وهو العزيز الغفور - وهو الغفور الودود].حيث تجد دلالة القصر لا تخلو من واحدة منها، إما بسبب تعريف الطرفين، وإما بسبب ضمير الفصل بين الاسم والخبر وقد ذكر البقاعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ - تعقيباً على هذه الجمل بما يفيد دلالتها على القصر حيث يقول مثلاً تعقيباً على قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ((إنه هو الغفور الرحيم)) **قال: [أي وحده]وفي قوله (أني أنا الغفور الرحيم) قال**:[أي: وحدي لا اعتراض لأحد عليه]وفي قوله ((وربك الغفور)) قال:[أي هو وحده الذي يستر الذنوب إما بمحوها أو بالحلم عنها إلى وقت]والنظر في سياق هذه الآيات

يجد كل جملة ذكر فيها اسمه (الغفور) معرفاً بأل يشير إلى اختصاص الله تعالى بهذه الصفة .

القصر بضمير الفصل

ضمير الفصل حرف يؤتى به غالبا لدفع الالتباس، ويسمى ضمير الفصل لأنه يفصل بين المبتدأ والخبر، وهو يفيد مع الفصل فائدتين:

❖ **الأولى** : قوة الإسناد.

❖ **والأخرى** : اختصاص المسند إليه بالمسند .

كقوله:

﴿.....وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾﴾ [سورة الحج:٦٤]

﴿.....وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾﴾ [سورة المائدة:٧٦]

ولا يلزم الإتيان به إلا بشروط، منها :

❖ **أن يكون المبتدا غير مسبوق بناسخ .**

❖ **أن يكون المبتدأ اسما ظاهرا .**

❖ **أن يكون الخبر صالحا لأن يكون نعتا للمبتدأ .**

ففي هذه الحالة يجب المجيء بضمير الفصل دفعا للبس، **فلو قلت** : (الله الغني) جاز أن يكون لفظ (الغني) خبرا، وجاز أن يكون نعتا للمبتدأ، على الظن بأن الخبر سيأتي، أما إذا قلت : (الله هو الغني) فإن اسم (الغني) يتعين أن يكون خبرا، وعليه فإن ضمير الفصل يحمل في جعبته **ثلاث فوائد هي :**

الدلالة على أن الوارد بعده خبر، وليس صفة .

- ❖ توكيد ربط المسند بالمسند إليه .
- ❖ قصر المسند على المسند إليه قصر صفة على موصوف، ما لم يعرف الطرفان، فإن جاء المسند والمسند إليه معرفة فالقصر لتعريف الطرفين، وليس لضمير الفصل، وقد يكون الطريقان للحصر وفي الجمع بينهما إفادة تحقيق معنى القصر وتأكيده للعناية به فأيهما اعتبرته طريق قصر كان الآخر تأكيدا للقصر وللخبر أيضا..

ومن ذلك قوله تعالى :

﴿....وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾﴾ [سورة البقرة:٢٥٤]

فلفظ (الكافرون) مبتدأ ولفظ (الظالمون) خبر، و{هُمُ} ضمير فصل لا محل له من الإعراب، المراد به الحصر. والمعنى : الْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ لاغيرهم، وأطلق الظلم على الكفر لأنه أقبح الظلم، ويجوز في الجملة وجه آخر، وهو : {الْكَافِرُونَ} مبتدأ، و{هُمُ} مبتدأ ثاني {الظَّالِمُونَ} خبر المبتدأ الثاني، والجمله من المبتدأ الثاني وخبره في محل رفع خبر المبتدأ الأول.لكن الحصر لا يقال به هنا، لأنه لا يقال بالحصر إلا إذا كان {هُمُ} ضمير فصل لا محل له من الإعراب، وهذا أولى وأبلغ.

ومن الشواهد أيضا قوله تعالى:

﴿.....وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَا.....﴾ [سورة التوبة:٤٠]

وقل في إعرابها مثلما قلت في الجملة السابقة إلا أن ههنا لفتة لا بـد أن تلتفت إليها في أيامنا هذه ،وهي أن هـذه الجملـة جـاءت مقابلـة لقـول الله تعالى : (كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا) وعلى كل مسـلم أن يتدبر هذه المقابلة، وأن يحققها في حياته، لأنه تشخيص ،وقراءة سـلوكية لقوله تعـالى: "وكلِمَـةُ الله هِـيَ العلْيَـا "، إن علينـا أن نعلـم أبناءنـا وبناتنـا في بيوتنا ومعاهد علومنا ثقافة المجاهـدة في سـبيل الله **y** ،وأن نعلمهـم أن الجنة التى خلقنا لطلبها والعـودة إليهـا إنـما هـي بتحقيـق قـول الله تعـالى : (وكلمة الله هي العليا) وأن نعلمهـم أننـا وَلَـدْنَاهم لإعـمار الأرض التـى استخلفنا فيها .

ولقد اعتني المفسرون بدلالة هذا الضمير على القصر، وأعـرض لـك نموذجين من التفاسير التي تناولته، **أولهم** : الطـاهر بـن عاشـور في تفسـير التحرير والتنوير، **حيث قال في تناوله لقول الله تعالى** :

﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾ ﴾

[سورة الأنعام:١١٧]

يقول : (تعريف المسند إليه بالإضافة في قوله: (إن ربـك) لتشريـف المضاف إليه، وإظهار أن هدي الرسول ﷺ هو الهـدى، وأن الـذين أخـبر عنهم بأنهم مضلون لا حظ لهم في الهدى ؛ لأنهم لم يتخذوا الله ربا لهم.

وقد قال أبو سفيان يـوم أحـد: «لنـا العـزى ولا عـزى لكـم- فقـال رسول الله ﷺ: أجيبوه قولوا: «الله مولانا ولا مولى لكم» .... إلخ

وكلمة (أعلم) اسم تفضيل للدلالة على أن الله لا يعزب عن علمه أحد من الضالين، ولا أحد من المهتدين، وأن غير الله قد يعلم بعض المهتدين وبعض المضلين، ويفوته علم كثير من الفريقين، وتخفى عليه دخيلة بعض الفريقين،والضمير في قوله: (هو أعلم) ضمير الفصل، لإفادة قصر المسند على المسند إليه، فالأعلمية بالضالين والمهتدين مقصورة على الله تعالى، لا يشاركه فيها غيره، ووجه هذا القصر ـ أن الناس لا يشكون في أن علمهم بالضالين والمهتدين علم قاصر، لأن كل أحد إذا علم بعض أحوال الناس تخفى عليه أحوال كثير من الناس، وكلهم يعلم قصور علمه ويتحقق أن ثمة من هو أعلم من العالم منهم، لكن المشركين يحسبون أن الأعلمية وصف لله تعالى ولآلهتهم، فنفي بالقصر أن يكون أحد يشارك الله في وصف الأعلمية المطلقة)(1).

والنموذج الآخر للشيخ الشعراوي رحمه الله عن قول الله تعالى :

﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ ﴾ [سورة التوبة:١٠٤]

يقول : {أَلَمْ يعلموا} مكونة من ثلاث كلمات هي: همزة استفهام وحرف نفي، والفعل (يعلم) . فهل يريد الله هنا أن ينفي عنهم العلم أم يقرر لهم العلم؟

١- التحرير والتنوير ١/ ٢٣٤.

لقد جاء سبحانه بهمزة يسمونها : همزة الاستفهام الإنكاري والإنكار نفي، فإذا دخل نفي على نفي فهو إثبات، أي : (فليعلموا) ولماذا لم يأت بالمسألة كأمر؟

نقول: إن الحق حين يعرضها معرض الاستفهام فهو واثق من أن المجيب لا يجيب إلا بهذا، وبدلاً من أن يكون الأمر إخباراً من الله، يكون إقراراً من السامع.

{ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ } جاء السياق بكلمة {هُوَ} ؟ وكان يمكن أن يقال:» ألم يعلموا أن الله يقبل التوبة «ولن يختل الأسلوب؟

أقول: لقد جيء بضمير الفصل، مثلما نقول: فلان يستطيع أن يفعل لك كذا.

وهذا القول لا يمنع أن غيره يستطيع إنجاز نفس العمل، لكن حين تقول: فلان هو الذي يستطيع أن ينجز لك كذا. فهذا يعني أنه لا يوجد غيره. وهذا هو ضمير الفصل الذي يعني الاختصاص والقصر ويمنع المشاركة.

لذلك قيل: أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ... [التوبة: ١٠٤]

وهل كانت هناك مظنة أن أحداً غير الله يقبل التوبة؟

لا. بل الكل يعلم أننا نتوب إلى الله، ولا نتوب إلى رسول الله. ونحن إذا استعرضنا أساليب القرآن، وجدنا أن ضمير الفصل هو الذي يمنع

المشاركة فيما بعدها لغيرها؛ وهو واضح في قصة سيدنا إبراهيم حين قال:

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَـٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [سورة الشعراء: ٧٠-٧٧](١).

١- تفسير الشعراوي ٩ / ٥٤٧٥.

الفصل الثالث

الإنشاء

توطئة :

الإنشاء في العقل البلاغي قسيم الخبر، فلا يقال : الخبر، إلا ويستدعي الذهن لفظ الإنشاء، وهذا اللفظ في اللغة يعني : الابتداع والاختراع، **يقول الراغب في المفردات** : (النَّشْءُ والنَّشْأَةُ: إِحداثُ الشيءِ وتربيتُهُ.

قال تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ** ..... ﴾ [سورة الواقعة:٦٢]

ويقال: نَشَأَ فلان، والنَّاشِئُ يراد به الشَّابُّ، **وقوله:**

﴿ **إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا** ..... ﴾ [سورة المزَّمل:٦]

يريد القيامَ والانتصابَ للصلاة، **ومنه:** نَشَأَ السَّحابُ لحدوثه في الهواء،وتربيته شيئا فشيئا.

قال تعالى: ﴿ ..... **وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ** ﴿١٢﴾ ﴾ [سورة الرعد:١٢]

والإنْشَاءُ: إيجادُ الشيءِ وتربيتُهُ، وأكثرُ ما يقال ذلك في الحَيَوانِ.

قال تعالى:

﴿ **قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ** .... ﴾ [سورة المُلك:٢٣]

وقال: ﴿ ..... **هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ** ..... ﴾ [سورة النجم:٣٢]

وقال: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾﴾ [سورة المؤمنون:٣١]

وقال: ﴿......ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ......﴾ [سورة المؤمنون:١٤]

وقال: ﴿.....وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾ [سورة الواقعة:٦١]

وقال: ﴿.....يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ .....﴾ [سورة العنكبوت:٢٠]

وأنشأ الكاتب الكتاب ابتدأ عمله على غير مثال يحتذيه قال الله تعالى:

﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ....﴾ [سورة يس:٧٩]

وتقول العرب: أنشأ يفعل كذا، وأنشأ يقول كذا إذا ابتدأ. وأنشأ الله الخلق. ينشئهم إنشاءً إذا ابتدأ خلقهم.

فهذه كلُّها في الإيجاد المختصِّ بالله، **وقوله تعالى:** ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾﴾ [سورة الواقعة:٧١-٧٢]

حيث شبه إيجادِ النَّارِ المستخرَجة بإيجادِ الإنسانِ، **وقوله:**

﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ ....﴾ [سورة الزُّخرُف:١٨]

أي: يُرَبَّى تربيةً كتربيةِ النِّسَاء، وقرئ: يَنْشَأُ، أي: يَتَرَبَّى.

فالإِنشاءُ إِيجاد، وتربية، وحدوث .

وكان الخلفاء والأمراء يضعون من بين مهام الإدارة للدولة الإسلامية : ديوان الإنشاء، وهو المعنيّ بالرسائل والمكاتبات والبريد والأجوبة، وقد كان لديوان الإنشاء أهمية خاصة في الولايات الإسلامية وكان على المرشّح للعمل في هذا الديوان أن يكون من أقطاب النثر والبلاغة، الذين تؤهلهم معارفهم الواسعة للوقوف على شؤون الحكم

والسياسة الداخلية والخارجية، وسير العلاقات الدبلوماسية بين بلاده وباقي الأمم؛ كما كان على كاتب الإنشاء أن يتحلى بمجموعة من الصفات اللازمة له : كصباحة الوجه وفصاحة اللفظ، وطلاقة اللسان. وإيثارة الجد على الهزل، وتوقد الفهم، وحسن الإصغاء، كما تطلبوا فيه كتمان السرّ، لأنه يعد كاتم سر الوالي أو الخليفة.

أما تعريف الإنشاء في الاصطلاح :

فالإنشاء يعني : الكلام الذي ليس لنسبته خارج يقصد مطابقتها أو عدم مطابقتها .

فإذا قلت:(اقرأ) فأنت تعني : إحداث القراءة، ولا تقصد بفعل الأمر الحكاية عن أمر خارج يراد مطابقته أو عدم مطابقته .

وقيل : الإنشاء ما لا يحتمل الصِّدق والكذب لذاته، نحو : اللهم اغفر وارحم، وتجاوز.. إلخ ، فلا يُنسب إلى قائله صدق أو كذب.

وقيل : ما لا يحصل مضمونه ولا يتحقَّق إلا إذا تلفظت به، فطلب القول في (قل) وطلب الكفِّ عن الطاعة في (لاتطع) وطلب رؤية المحبوب في (ليتني أراه) وطلب معرفة الطريق في (أين الطريق ؟) وطلب الإقبال من محمد، في : (يا محمد) كل ذلك ما حصل إلا بنفس الصيغ المتلفظ بها .

وقيل:هو الكلام الذي لا ينطبق عليه تعريف الخبر، ويتوقف تحقق مدلوله على النطق به، فلو قال شخص لأخر (قم) سيفهم من كلامه أن الشخص المخاطب ليس قائما وقت أمره بالقيام، بل يكون جالسا والمخاطب يطلب منه أمرا غير حاصل وقت طلبه، وهو القيام وهذا يسمى إنشاء .

أقسام الإنشاء

الإنشاء قسمان : طلبي، وغير طلبي .

أما الإنشاء الطلبي فهو الذي يستدعي مطلوبا غير حاصل وقت الطلب، أو هو ما يتأخر وجود معناه عن وجود لفظه، أو أن معناه : أن تحدث النسبة الخارجية بعد النسبة الكلامية، **ويدخل فيه** :

{ الأمر، والنهي، والاستفهام، والتمني، والنداء}

ففي قول ابن عباس رضي الله عنهما يوصي رجلاً:

"لا تتلكم بما لا يعنيك، ودع الكلام في كثير مما يعنيك حتى تجد له موضعاً) تجد النهي في قوله : (لا تتكلم)، والأمر في قوله : (دع) كلاهما من الإنشاء، وهو كلام يستدعي مطلوبا غير حاصل وقت الطلب .

أما الإنشاء غير الطلبي فهو ما لايستدعي مطلوبا غير حاصل وقت الطلب، ويدخل فيه : أفعال المدح والذم، وفعلا التعجب، والقسم وأفعال المقاربة و ألفاظ العقود (كبعت واشتريت)، وألفاظ الفسخ (كطلقت وأعتقت، وظاهرت) ، ونحوها ، وصيغ قضاء القاضي **كقوله:**

(حكمتُ بكذا، وأمرت بكذا، وقضيت بكذا)، لأنها أريد بها إنشاء العقد أو التصرف، .. إلخ .

وعناية البلاغيين كانت شديدة بالقسم الأول دون الثاني لأن مباحثه تقل بسبب أن أكثره منقول من الخبر إلى الإنشاء، فبقيت دلالته وأغراضه التي كانت فيه قبل النقل كما قال شراح التلخيص .

الاستفهام

هو طلب حصول صورة الشيء في الذهن، بألفاظ مخصوصة والألفاظ المخصوصة الموضوعة للاستفهام أحد عشر هي :

(الهمزة، وهل، وما، ومن، وأي، وكم، وكيف، وأين، وأنّى، ومتى، وأيّان)

ووردت جميعها في القرآن الكريم .

فمن نماذج الاستفهام بالهمزة قوله تعالى :

﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا
كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ
قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ
ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ
وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن

﴿يَهۡدِيكُمۡ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَمَن يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦٓۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٦٣ أَمَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٦٤﴾

[سورة النمل:٥٩-٦٤]

ومن نماذج الاستفها (بهل) قوله تعالى:

﴿قُلۡ هَلۡ أُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيۡهِ وَجَعَلَ مِنۡهُمُ ٱلۡقِرَدَةَ وَٱلۡخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَۚ أُوْلَٰٓئِكَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ٦٠﴾ [سورة المائدة:٦٠]

ومن نماذج الاستفهام (بما) قوله تعالى :

﴿أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ إِذۡ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعۡبُدُونَ مِنۢ بَعۡدِيۖ قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٣﴾

[سورة البقرة:١٣٣]

ومن نماذج الاستفهام (بمن) :

﴿قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥٩﴾ [سورة الأنبياء:٥٩]

ومن نماذج الاستفهام (بأي) قوله تعالى :﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَنۡعَٰمَ لِتَرۡكَبُواْ مِنۡهَا وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ٧٩ وَلَكُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبۡلُغُواْ عَلَيۡهَا حَاجَةٗ فِي صُدُورِكُمۡ وَعَلَيۡهَا وَعَلَى ٱلۡفُلۡكِ تُحۡمَلُونَ ٨٠ وَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ فَأَيَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ٨١﴾ [سورة غافر:٧٩-٨١]

ومن نماذج الاستفهام (بكم) قوله تعالى :

﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ .... ﴾

[سورة البقرة:٢٥٩]

ومن نماذج الاستفهام (بكيف) قوله تعالى :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾ ﴾ [سورة البقرة:٢٦٠]

ومن نماذج الاستفهام (بمتى) قوله تعالى :

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [سورة الأنبياء:٣٨]

ومن نماذج الاستفهام (بأين)قوله تعالى:

﴿ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾ [سورة الشعراء:٩٢]

ومن نماذج الاستفهام (بأيان) قوله تعالى :

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَاهَا ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴿٤٦﴾ ﴾

[سورة النازعات:٤٢-٤٦]

ومن نماذج الاستفهام (بأنّى) قوله تعالى :

﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًاۚ قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ ﴾ [سورة البقرة:٢٤٧]

وتنقسم هذه الأدوات من حيث التصور والتصديق إلى ثلاثة أقسام:

١- «الهمزة» مشتركة بين التصور والتصديق.

٢- «هل» للتصديق فقط.

٣- بقية أسماء الاستفهام لطلب التصور دون التصديق.

فماذا يقصد بالتصور والتصديق ؟

يقصد بالتصور، أو التصديق ما يطلب إدراكه، وما يراد معرفته أهو صورة الشيء في العقل، كأن أرغب في حصول صورة البحر أو الجبل، أو شجرة العنب، المهم أنني أريد معرفة شكل وصورة شيء ما فهذا هو التصور، أو سؤال عن الصورة، والشكل .

أم أن يراد معرفة ثبوت شيء أو نفيه، كالسؤال عن نجاح خالد أنجح أم لا، وحضور زيد، هل حضر أو لم يحضر، وسفر عمرو هل سافر أو أقام ؟

فكل ذلك سؤال عن نسبة، وعن إسناد بثبوت أو نفي .

فالاستفهام مرة أخرى نوعان :

الأول : التصور .

وهو إدراك الصورة، أو الماهية ،أو المفـرد، مـن غـير أن تحكـم عليهـا بنفي أو إثبات، كقولك (ما الإنسان ؟) فإنك أولا تتصوره، وتفهـم المـراد منه، فالتصور هـو تحصـيل المفـردات، كـأن تعلـم معنـى " العـالم، ومعنـى "الجسم "ومعنى " القديم "، ومعنى " الحركة "تعلم معاني تلـك الكلـمات وتفهمها كل واحدة عـلى حـدة بـدون إضـافتها إلى غيرهـا، وهـذا يُسـمَّى التصوّر. أي: إدراك ماهية الشيء بلا حكم عليها بنفي أوإثبات، فلم يحصل سوى صورة الشيء في الذهن – فقط .

ثانيا : التصديق :

وهـو إدراك الحكـم، أو إدراك النسـبة بـين شـيئين ، فـإذا حكمـت بإثبات شيء لشيء، أو نفيته عنه فهذا هو التصديق، فالتصديق يعني : العلم بالنسبة بين المسند والمسـند إليـه (ثبوتـا أو نفيـا) أو إدراك مطابقـة النسـبة الكلامية للواقع أو عـدم مطابقتهـا لـه، مثـل : (نجـح محمـد ؟ ولم يـنجح خالد) فلو سألت عن الجملتين لكان الجواب بنعم، أو بلا.

هذان المصطلحان من المصطلحات البلاغية، وكذا مـن المصـطلحات الأصولية، ولا يختلف المعنى عند البلاغيين عما هو عند الأصوليين .

فالاستفهام التصوري هو في الغالب ما يتردد المستفهم فيه بين شيئين .

أما الاستفهام التصديقي فيكون بين ثبوت النسبة أو انتفائها .

ومن شواهد التصديق في القرآن الكريم قول الله تعالى:

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ۖ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ [سورة يونس:٥٩]

فالسؤال هنا عن تحقق الإسناد، ووقوع الإذن، وكأنه قيل : أوقع إذن من الله تعالى لكم في تحريم أو تحليل ؟ .

ومن نماذج (هل) قوله سبحانه :

﴿ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ رضي الله عنهم [سورة آل عمران:١٥٤]

أما شواهد التصور مع الأدوات الأخرى فكثيرة،ومنها قوله سبحانه :

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [سورة يونس:٤٨]

وقوله : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾ ﴾ [سورة البقرة:٢٦٠]

والإمام عبد القاهر درس التصور والتصديق بطريقة أخرى، حيث تحدث عن دخول الاستفهام على الفعل، أو الفاعل وبيّن ما بينهما من دقائق بلاغية، فإذا سألت شاعرا مثلا: (أأنت قلت هذا الشعر ؟) فقدمت الضمير على الفعل كان الشك في قائل الشعر أهو المخاطب أم غيره، أما الشعر فلا شك فيه .

وإذا سألته : (أقلت هذا الشعر ؟) كان الشك في الفعل نفسه، وهل قاله حقا أو لم يقله؟

ورتب الإمام على هذا الكلام أن السائل يستطيع أن يسأل ويقول :

(أقلت شعرا قط ؟) فيكون كلامه صحيحا، لكنه لو سأل : (أأنت قلت شعرا قط ؟) كان قد أخطأ في سؤاله، لأنه ساعتها يكون قد جمع بين إثبات الفعل والشك في حدوثه، لأن همزة الاستفهام مسلطة على الفاعل ولا يسأل عن الفاعل إلا بعد حدوث الفعل الخاص، وكلمة (قط) تعني إما أنه قال كل الشعر، أو قال غيره كل الشعر، وكلاهما خطأ .

وفي التصور يعطف على المسؤول عنه (بأم) فتقول (أعلي مقيم أم محمد ؟) ونحو قوله تعالى : ﴿ **أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَـٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ١٤٠** ﴾ [سورة البقرة: ١٤٠]

وقوله :

﴿ وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ۚ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ ۖ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ (٢١) ﴾ [سورة إبراهيم:٢١]

فهذه الآيات يجاب عنها بالتعيين، ولا يجاب بنعم أو لا .

ومن الاستفهام التصديقي في القرآن الكريم قوله تعالى :

﴿ أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ (١١) أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ (١٢) أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (١٣) أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ (١٤) ﴾

[سورة العلق:١١-١٤]

ومن ذلك قول الشاعر :

أأترك إن قلت دراهم خالد زيارته إني إذا للئيم

فالجواب هنا : لا أترك زيارته، والسؤال تقديره : أيقع ذلك أم لا ؟ والجواب :لا يقع .

وهناك فرق بين الاستفهام بالهمزة عن التصور، والاستفهام بها عن التصديق، فالاستفهام بها عن التصور يقع بعده (أم المتصلة)، والاستفهام بها عن التصديق لا يصلح إلا بعد أم المنقطعة .

وأيضا الاستفهام عن التصديق يكون عن نسبة تردد الذهن بين ثبوتها أو نفيها، والاستفهام عن التصور يكون عند التردد في تعيين أحد الشيئين .

أدوات الاستفهام

أولا : الهمزة .

والهمزة في العموم هي أول حروف العربية، وأحد حروف الحلق وحين تكون للاستفهام يكون لها الحق في الصدارة، وهي أم باب الاستفهام، أو أصل أدوات الاستفهام لذلك كان لها تمام الصدر حتى مع حروف العطف، فإذا كانت في جملة معطوفة بالواو أو الفاء أو ثم قدمت على العاطف تنبيهاً على أصالتها في التصدير، ولهذا يجوز أن يقع بعد (أم) سائر كلمات الاستفهام سوى الهمز **كقوله تعالى:**

﴿......**أَمْ هَلْ تَسْتَوِي ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ** ......﴾ [سورة الرعد:١٦]

وعند حذف أداة الاستفهام من العبارة لا يقدر غير الهمزة، ويطلب بها التصور، أي إدراك المفرد، كما يطلب بها التصديق، أي إدراك النسبة.

موقع المسئول عنه بالهمزة :

إذا كان المسئول عنه بالهمزة هو المفرد، أي المطلوب بها التصور، فإن المسؤول عنه هو ما يليها، سواء كان هو المسند، أم المسند إليه، أم أحد المتعلقات .

فمثال ما السؤال فيه عن المسند إليه قول الله تعالى :

﴿**ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾**﴾ [سورة النازعات:٢٧]

بدأت الآية بالمسند إليه، لأن الشك في المسند غير متوقع، (وهو استفهام لا يحتمل إلا إجابة واحدة بالتسليم الذي لا يقبل الجدل:

«أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّماءُ؟» ..

السماء! بلا جدال ولا كلام! فما الذي يغركم من قوتكم والسماء أشد خلقا منكم، والذي خلقها أشد منها؟

هذا جانب من إيحاء السؤال. وهناك جانب آخر. فما الذي تستصعبونه من أمر بعثكم ؟ وهو خلق السماء وهي أشد من خلقكم وبعثكم هو إعادة لخلقكم، والذي بنى السماء وهي أشد، قادر على إعادتكم وهذا أيسر! هذه السماء الأشد خلقا بلا مراء.. «بَناها» .. والبناء يوحي بالقوة والتماسك، والسماء كذلك. متماسكة.لا تختل ولا تتناثر نجومها وكواكبها. ولا تخرج من أفلاكها ومداراتها، ولا تتهاوى ولا تنهار. فهي بناء ثابت وطيد متماسك الأجزاء) [1].

ومثال السؤال عن المسند قول النبي ﷺ لأبي ذر(أعيّرته بأمه ؟!) (وهذا استفهام إنكاري تعجبي، أي كيف تعيبه بسواد أمّه، وتستنقصه بذلك، وأنت تعلم أن الإِسلام لا يميز بين الناس بالألوان، وإنما يفاضل بينهم بالتقوى والعمل الصالح " إنك امرؤ فيك جاهلية " أي إن ما فعلته معه من تعيير بسواد أمّه نعرة جاهلية ، وأثر من آثار التمييز العنصري الذي كان موجوداً قبل الإِسلام) (٢).

١- من كتاب الشهيد المطارد ٢/ ٣٤٢.

٢- منار القاري شرح مختصر صحيح البخاري لحمزة محمد قاسم ١/ ١١٥.

وقوله تعالى : («أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ؟» حيث دخلت الهمزة على الفعل المنفي، وأريد ألا يعلم وهو الذي خلق؟

وحين تسأل عن المفعول تُدخل همزة الاستفهام على المفعول نحو قوله تعالى: ﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾﴾ [سورة الصافات:٨٦]

فكلمة (إفكا) مفعول به للفعل (تريدون) والتقدير : أتريدون إفكا وكذا **في قوله تعالى** :

﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾﴾ [سورة الأنعام:١٤]

فقوله : (غير الله) مفعول به للفعل : (أتخذ) وجاء في الحديث :

عنْ جابِرٍ قَالَ قَالَ لِي رسُولُ الله ﷺ هَلْ نَكَحْتَ يَا جابِرُ قُلْتُ نَعَمْ قَالَ مَاذَا أَبِكْراً أَمْ ثَيِّباً قُلْتُ لاَ بَلْ ثَيِّباً قَالَ فهَلاَّ جارِيَةً تُلاَعِبُكَ قُلْتُ يَا رسُولَ الله إنَّ أَبِي قُتِلَ يَوْمَ أُحُدٍ وتَرَكَ تِسْعَ بَناتٍ كُنَّ لِي تِسْعَ أَخَوَاتٍ فكَرِهْتُ أَنْ أَجْمَعَ إِلَيْهِنَّ جارِيَةً خَرْقَاءَ مِثْلَهُنَّ ولَكِنِ امْرَأَةً تَمْشُطُهُنَّ وتَقُومُ عَلَيْهِنَّ قَالَ أَصَبْتَ [1].

جاء السؤال عن المفعول، ولذلك جيء بأم، وحين تجد (أم) فالسؤال عن التصور، لأنها تعطف شيئا مقابلا لما قبلها، ولذلك قيل : (أبكرًا أم ثيبًا) (وجاء في رواية (بكر أم ثيب) بالرفع، والتقدير : زوجتك بكر أم ثيب ؟

١- البخاري رقم ٤٠٥٢.

وكانت إجابة سيدنا جابر : (ثيبا) فعيَّن الثيبَ، لأن السؤال عن ذلك) .

المهم أن المسئول عنه بالهمزة هو ما يليها، سواء كان مسندا أم مسنداإليه ،أم شيئا من المتعلقات .

وإذا كان المطلوب بالهمزة (التصديق) بالنسبة وجب أن يليها الفعل لأن النسبة شيء مفهوم ملاحظ، وليس لها لفظ خاص في الجملة تدخل عليه الهمزة، والنسبة جزء من الفعل، لذلك حين تدخل الهمزة على الفعل كأنك سألت عن النسبة، فتقول : كما سبق في الحديث : أعيرته بأمه؟

وكل مثال دخلت فيه الهمزة على الفعل جاز لك أن تجعل المراد (التصور)، أو (التصديق) بحسب القرائن، فإن قلت : أنجحت أم لا ؟ كان سؤالك عن النسبة، وهذا هو التصديق، أما إذا قلت : أنجحت أم رسبت ؟ فأنت تسال عن التصور، وليس عن التصديق .

يقول الإمام :(ومن أبين شيء في ذلك "الاستفهام بالهمزة"، فإن موضع الكلام على أنك إذا قلت: "أفعلت؟ "، فبدأت بالفعل، كان الشك في الفعل نفسه، وكان غرضك من استفهامك أن تعلم وجوده.

وإذا قلت: "أأنت فعلت؟ " فبدأت بالاسم، كان الشك في الفاعل من هو، وكان التردد فيه. ومثال ذلك أنك تقول: "أبنيت الدار التي كنت على أن تبنيها؟ "، "أقلت الشعر الذي كان في نفسك أن تقوله؟ "، "أفرغت من الكتاب الذي كنت تكتبه؟ ".

تبدأ في هذا ونحوه بالفعل، لأن السؤال عن الفعل نفسه والشك فيه، لأنك في جميع ذلك متردد في وجود الفعل وانتفائه، **مجوز** أن يكون قد كان، وأن يكون لم يكن.

وتقول: "أأنت بنيت هذه الدار؟ "، "أأنت قلت هذا الشعر؟ " "أأنت كتبت هذا الكتاب؟ " فتبدأ في ذلك كله بالاسم، ذاك لأنك لم تشك في الفعل أنه كان. كيف؟ وقد أشرت إلى الدار مبنية، والشعر مقولا والكتاب مكتوبا، وإنما شككت في الفاعل من هو؟) [1].

فإذا لم توجد قرينة تحدد المراد بقي السؤال محتملا، إما التصور، وإما التصديق .

حذف همزة الاستفهام :

حين يدل الكلام على الاستفهام، ولا تجد أداة الاستفهام فلا يقدر مكانها إلا الهمزة، ، وتحذف الهمزة وتبقى (أم) دليلا عليها، وقد جاء في مواضع بغير ألف اكتفاء بدلالة أم، **قال امرؤ القيس**:

تروح من الحي أم تبتكر ... وماذا يضرك لو تنتظر

وقال آخر:

لعمرك ما أدري وإن كنت داريا ... شعيب بن سهم أم شعيب بن منقر

١- دلائل الإعجاز ص ١١١.

وقال ابن أبي ربيعة:

فـوالله مـا أدري وإن كنـت داريـا بســـبع رمـــين الجمـــر أم بـــثمان

وقـد أجـاز قـوم حـذف ألـف الاسـتفهام وإن لم تكـن أم في الكـلام وتأولوا مثل هذا في القرآن، كقوله " هذا ربي " والتقدير : أهذا ربي ؟

وقد تقرر في علم النحو أنه يجوز حذف همزة الاستفهام إذا دل المقـام عليها، **فمن أمثلته قول الكميت:**

طربت وما شوقا إلى البيض أطـرب ولا لعبا مني، وذو الشيب يلعـب

يعني : أذو الشيب يلعب؟

وقول أبي خراش الهذلي واسمه خويلد:

رفـوني وقـالوا يـا خويلـد لم تـرع فقلت وأنكرت الوجوه : هم هـم ؟

والمعنى : أهم هم ؟

فحذفت همزة الاسـتفهام لدلالـة السـياق عليهـا، وعليـه فـإن همـزة الاستفهام تحذف إما لدلالة (أم) عليها، أو لدلالة المعنى والسياق عليها .

و(أم) تكون متصلة، وتكون منقطعـة، (فـإن كانـت متصـلة يصـير معها الاسمان بمنزلة "أي" ويكون ما ذكر خبرا عن "أي" فـإذا قلـت أزيـدٌ عندك أم عمرو؟

فالمعنى أيهما عندك ؟ والظرف خبر لهما.

ثم المتصلة تكون في عطف المفرد على مثله نحو أزيد عندك أم عمرو **كقوله تعالى :**

﴿ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ٣٩﴾ [سورة يوسف:٣٩]

أي : أيُّ المعبودين خير؟

وفي عطف الجملة على الجملة المتأولتين بالمفرد نحو:

{أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون} ،أي الحال هذه أم هذه؟

والمنقطعة إنما تكون على عطف الجمل، وهي في الخبر والاستفهام بمثابة (بل) والهمزة ومعناها في القرآن التوبيخ كما كان في الهمزة **كقوله تعالى**: {أم اتخذ مما يخلق بنات} أي بل أتخذ ؟ لأن الذي قبلها خبر والمراد بها التوبيخ لمن قال ذلك)([1]).

١- البرهان في علوم القرآن للزركشي ٤/ ١٨١.

الاستفهام بـ(هل)

الاستفهام بـ(هل) لطلب التصديق فقط، فلا يطلب بها التصور والأصل فيها أن تدخل على الجملة الفعلية، **كما في قوله تعالى** :

﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١١٢)﴾ [سورة المائدة:١١٢] (١).

وقوله :

﴿فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ (١٠٢)﴾ [سورة يونس:١٠٢]

وقوله :

﴿مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ (١٥)﴾ [سورة الحج:١٥]

١- ذكر الزمخشري تفسيرا لهذا السؤال منهم لا يخلومن وجه مقبول ، وهو (ان قلت كيف قالوا هل يستطيع ربك بعد إيمانهم وإخلاصهم- في قوله: (وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بي وبرسولي قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون) - قال: قلت ما وصفهم بالايمان والإخلاص وإنما حكى ادعاءهم لهما... الخ» قال أحمد: وقيل إن معنى (هل يستطيع) هل يفعل، كما تقول للقادر على القيام: هل تستطيع أن تقوم: مبالغة في التقاضي. ونقل هذا القول عن الحسن، فعلى هذا يكون إيمانهم سالما عن قدح الشك في القدرة، فان استقام التعبير عن الفعل بالاستطاعة فذاك- والله أعلم- من باب التعبير عن المسبب بالسبب، إذ الاستطاعة من جملة أسباب الإيجاد وعلى عكسه التعبير عن إرادة الفعل بالفعل، تسمية بالسبب الذي هو الارادة، باسم المسبب الذي هو الفعل، في مثل قوله: (إذا قمتم إلى الصلاة) ولقد جاءت قراة فيها حرف المضارعة تاء مع نصب (ربك) على أنهمفعول به ، وقيل: (هل تستطيع ربك) أي هل تستطيع أن تسأل ربك.

فإذا دخلت على الجملة الاسمية يكون دخولها لغرض بلاغي وهو جعل ما يُنتظر حصوله كالموجود الحاصل فعلا، وذلك للاهتمام به **كما في قوله سبحانه :**

﴿.....فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾ [سورة المائدة:٩١]

فطلب الانتهاء بهذا الأسلوب أشد من قوله : (هل تنتهون ؟) **وكذا في قوله سبحانه :**

﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [سورة الشعراء:٣٩]

تجد طلب الاجتماع أشد وأقوى من قولك : (هل تجتمعون ؟) وهكذا في : هل أنتم شاكرون، وغيرها، ذلك لأن إبراز ما سيتجدد في معرض الثابت أدل على كمال العناية بحصوله من إبقائه على أصله ولقد قالوا إن هذا التحويل في إدخال (هل) على الجملة الاسمية لا يحسن إلا من بليغ(١).

يقول بهاء الدين السبكي :

(ولكون (هل) لا يطلب بها إلا التصديق امتنع (هل زيد قام أم عمرو؟) لأن (أم) المتصلة إنما تستعمل عند طلب التصور وإرادة التعيين بعد العلم بالنسبة ، والتصديق طلب النسبة فيلزم طلبها وكونها حاصلة وهما متنافيان.

١-المطول ٢ / ٢٣١.

ولا يجوز استعمال (أم) بعد (هل)   رحى الحرب أم أضحت بفلج كما هيا)(1)

---

١ - عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح ١/ ٤٣٢ ويقول مالك بن الريب التميمي في قصيدته:
أَلاَ لَيْتَ شِعري هَلْ أبيتَنّ ليلةً... بجَنبِ الغَضَا، أُزجي القِلاص النّواجِيا
فَلَيتَ الغَضَا لم يقطَعِ الركبُ عَرضَهُ،... وليتَ الغَضَا مَاشىَ الركابَ لَياليا
لقد كان في أهل الغضا، لو دنا الغضا،... مزارٌ، ولكنّ الغضا ليْسَ دانيا
أَلمْ تَرَني بِعِتُ الضّلالةَ بالهُدى،... وَأَصْبَحْتُ في جيشِ ابنِ عفّان غازيا
دَعاني الهَوى من أهل وُدّي وصُحبتي،... بِذِي الطَّبَسَين، فالتفتُّ وَرَائِيا
أَجَبْتُ الهَوَى لَمّا دَعَاني بِزَفْرَةٍ،... تَقَنّعْتُ مِنْهَا، أنْ أُلامَ، ردائيا
لَعَمْري لئن غالتْ خُراسانُ هامَتي... لقد كُنْتُ عن بابَيْ خراسان نائيا
فلله درّي يَوْمَ أَتْرُكُ طائعاً... بَنيّ بأَعْلى الرّقمَتَيْنِ، وماليا
ودَرُّ الظّباءِ السّانِحاتِ عَشِيّةً،... يُخَبّرْنَ أني هالِكٌ مِن وَرَائِيا
وَدَرُّ كَبيرَيَّ اللّذين كِلاهُمَا... عَليّ شَفيقٌ، ناصِحٌ، قد نَهانِيا
وَدرُّ الهَوَى من حَيْثُ يدعو صِحَابَهُ،... وَدَرُّ لَجاجاتي، ودَرُّ انتِهائيا
تَذَكّرْتُ من يَبْكي عليّ، فلمْ أَجِدْ... سِوَى السَيْفِ والرّمح الرُّدَينيّ باكيا
وَأَشْقَرَ خِنْذِيذٍ يَجُرّ عِنَانَهُ... إلى الماء، لم يتْرُكْ لَهُ الدهْرُ ساقيا
ولَكِنْ بِأَطْرَافِ السُّمَيْنَةِ نِسْوَةٌ،... عَزيزٌ عَلَيْهِنّ، العشيّةَ، ما بيا
صَرِيعٌ على أيْدِي الرّجَالِ بِقَفْرَةٍ... يُسَوَّوْنَ قَبْري، حَيْثُ حُمّ قضائيا
وَلَمّا تَرَاءَتْ عِنْدَ مَرْوٍ مَنيّتي،... وَحَلَّ بِهَا جِسْمي، وَحَانَتْ وَفَاتِيا
أَقُولُ لأصْحابي ارْفعوني لأنّني... يَقِرّ بِعَيْني أن سهَيلٌ بَدَا لِيا
فيا صاحبَي رحلي! دنا المَوْتُ، فأنزلا... بِرابِيَةٍ، إنّي مُقِيمٌ لَياليا
أَقيما عليّ اليَوْمَ، أو بَعْضَ ليلةٍ،... ولا تُعْجِلاني قد تبيّنَ ما بِيا
وَقوما، إذا ما استُلّ روحي، فهيّئا... ليَ القبرَ والأكفانَ، ثُمّ ابكيا ليا
وخُطّا بأطْرَافِ الأسِنّةِ مضجعي،... ورُدّا على عَيْنَيَّ فضلَ ردائيا
ولا تحسُداني، باركَ اللَّهُ فيكما،... من الأرْضِ ذَاتِ العَرضِ أن توسِعاليا
خُذَاني، فجُرّاني بِبُردي إليكما،... فقد كُنْتُ، قبل اليوم، صَعباً قياديا
فقد كنتُ عطّافاً، إذا الخيلُ أدْبَرَتْ،... سَريعاً لدى الهَيْجا، إلى مَن دعانِيا
وقد كُنْتُ محموداً لدى الزّاد والقِرَى،... وعنْ شَتْمِ إبنِ العَمّ وَالجارِ وانِيا
وَقد كُنْتُ صَبّاراً على القِرْنِ في الوَغى،... ثَقِيلاً على الأعداء، عَضْباً لسانيا
وَطَوْراً تراني في ظِلالٍ وَمَجْمعٍ،... وَطَوْراً تَراني، والعِتَاقُ ركابيا
وَقُوما على بِئْرِ الشُّبَيكِ، فأسمِعا... بها الوَحْشَ والبِيضَ الحسانَ الروانيا
بِأنّكُما خَلّفْتُماني بِقَفْرَةٍ،... تُهيلُ عليّ الرّيحُ فيها السَّوافيا
ولا تَنْسَيا عَهْدي، خَليليّ، إنّني... تَقَطَّعُ أوصالي، وَتَبْلى عِظامِيَا
فلنْ يَعْدَم الوِلْدَانُ بيتاً يَجُنُّني،... وَلَنْ يَعْدَمَ الميراثَ منّي الموالِيا

إلا أن تريد المنقطعة، كقول مالك بن الريب :ألا ليت شعرى هل تغيّرت الرّحى

من خصائص الاستفهام بهل

زيادة (من) عند توكيد العموم كقوله تعالى:

﴿يَوۡمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمۡتَلَأۡتِ وَتَقُولُ هَلۡ مِن مَّزِيدٍ ۝٣٠﴾ [سورة ق:٣٠]

وفي هذا الاستفهام معنيان :

يقولون: لا تُبْعَدْ، وهُم يدفِنونني،... وأيْنَ مَكانُ البُعْدِ إلاّ مَكانِيا؟
غَدَاةَ غَدٍ، يا لَهْفَ نَفْسي على غدٍ،... إذا أَدْلجوا عني، وخُلّفتُ ثاويا
وَأَصْبَحَ مالي، من طَريفٍ، وتالدٍ،... لِغَيْري وكان المالُ بالأمسِ ماليا
فيا لَيْتَ شعري، هل تغيّرَتِ الرّحى،... رحى الحَرب، أو أضْحت بفَلج كماهيا
إذا القَوْمُ حلّوها جميعاً، وأَنْزَلوا... لها بَقراً حُمَّ العيونِ، سواجِيا
وَعِينٌ وَقَدْ كان الظّلامُ يَجُنّها،... يَسُفْنَ الخُزامي نَورَها والأقاحيا
وَهَلْ تَرَكَ العيسُ المَرَاقيلُ بالضّحى... تَعَالِيَهَا تَعلو المُتونَ القَياقيا
إذا عَصِبَ الرُّكْبَانُ بَيْنَ عُنيزةٍ... وبُولانَ، عاجُوا المُنْقِياتِ المَهَاريا
ويا لَيْتَ شعري هل بَكَتْ أُمُّ مالكٍ،... كما كُنْتُ لَوْ عَالَوا نَعِيَّكَ باكيا
إذا مُتُّ فاعْتَادي القُبُورَ، وسلّمي... على الرَّيمِ، أُسقيتِ الغَمامَ الغَواديا
تَرَيْ جَدَثاً قد جَرّتِ الرّيحُ فوقَه... غُباراً كلونِ القسْطَلانيّ هَابِيا
رَهِينَة أَحْجَارٍ وتُرْبٍ تَضَمّنَتْ... قَرارَتُها منّي العِظَامَ البَوالِيا
فيا راكِباً إمّا عَرَضتَ فبلّغَنْ... بني مالكٍ والرَّيْبِ أنْ لا تلاقِيا
وَبَلّغ أخي عِمران بُردي وَمِئزَري؛... وبلّغ عَجُوزي اليومَ أن لا تدانيا
وَسَلّمْ على شيخيّ مِنيّ كِلَيْهِما،... وبلّغ كَثيراً وابْنَ عمّي وخَاليا
وعطّل قَلوصي في الرِّكاب، فإنّها... ستُبردُ أكباداً وتُبكي بَواكِيا
أُقَلبُ طَرْفي فَوْقَ رَحْلي، فلا أرَى... بهِ من عُيُونِ المُؤْنِساتِ مراعِيا
وبالرَّملِ منّي نِسْوَةٌ لو شَهِدنَني،... بَكَيْنَ وَفَدّيْنَ الطّبيبَ المُداويا
فمِنْهُنّ أُمّي، وابْنتاها، وخالتي،... وباكِيَةٌ أُخرى تَهيجُ البَواكِيا
وما كانَ عَهْدُ الرّمْل منّي وأهلِه... ذميماً، ولا بالرّمْل ودّعْتُ قَاليا

الأول : أن معناه: ما من مزيد.

فعن مجاهد قال: وعدها الله ليملأنها فقال: هلا وفيتك؟ قالت: وهل من مسلك؟ **وذلك بقوله تعالى**:

﴿.....وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ١٣﴾

[سورة السجدة:١٣]

أي: فوعدها الله ليملأنها؛ فقال بعدما ألقي فيها أهلها: هلا وفيتك؟ **فتقول**: وهل من مسلك ؟ أي: قد امتلأت بالفعل.

فالاستفهام إنكاري على هذا ومعناه النفي، وتؤيده بآية: ((لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين)) والقرآن يفسر بعضه بعضا.

القول الثاني: أن المعنى: زدني زدني، وعلى هذا يكون الاستفهام تقريريا، دلالة على سعتها بحيث يدخلها من يدخلها وفيها فراغ وخلو فكأنها تطلب الزيادة.

والفريق الذي يذهب إلى المذهب الثاني ورد عليه اعتراضٌ من أصحاب القول الأول وهو تعارضه **مع قوله تعالى**:

(لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ).

فأجاب الفريق الثاني بأن المقصود أن الامتلاء قد يراد به أنه لا يخلو طبقة منها عمن يسكنها، وإن كان فيها فراغ كثير، **كما تقول**: إن البلدة ممتلئة بأهلها ليس فيها دار خالية، مع ما بينها من الأبنية والأغطية، أو أن هذا باعتبار الحالين، فالفراغ في أول دخول أهلها فيها، ثم يساق إليها الشياطين ونحوهم فتمتلئ) (١).

وقوله:

﴿.....**فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشۡفَعُواْ لَنَآ** .....﴾ [سورة الأعراف:٥٣]

زيدت(من) أيضا لتأكيد النفي.

ومن خصائص(هل)أنها إذا دخلت على المضارع تخلصه للاستقبال،فهي كالسين وسوف مثل قوله : (هل آمنكم – هل ينتظرون – هل يستوون – هل أتبعك)، كما أن الاستفهام(بهل)متعدد المعاني والدلالات، ومن معانيه :**التقرير كما في قوله تعالى:**

﴿**هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا** ١﴾ [سورة الإنسان:١]

وبمعنى (ما) كما في:

﴿ **هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ** .....﴾ [سورة البقرة:٢١٠]

وبمعنى (قد) كما في قوله تعالى:

﴿**هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ** ١٥﴾ [سورة النازعات:١٥]

١- تفسير القرآن الكريم لمحمد اسماعيل المقدم ٦/ ١٤٠.

وبمعنى (ألا) كما في قوله تعالى:

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾﴾ [سورة الكهف:١٠٣]

وبمعنى الأمر كما في قوله تعالى:

﴿ ....فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾ [سورة المائدة:٩١]

وبمعنى السؤال كما في قوله تعالى:

﴿ ...لذي حجر وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾﴾ [سورة ق:٣٠]

وبمعنى التمني كما في قوله تعالى:

﴿هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ﴿٥﴾﴾ [سورة الفجر:٥]

وبمعنى (أدعوك) كما في قوله تعالى:

﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾﴾ [سورة النازعات:١٨]

الاستفهام بـ(ما)

ومعناها: (أي شيء) مثل قوله تعالى: {مَا هِي} {ما لونُها}.

ويطلب بها واحد من ثلاثة :

١ - إيضاح الاسم: كما في قول فرعون، وحكاه القرآن الكريم :

﴿...وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [سورة الشعراء:٢٣]

٢ - بيان حقيقة المسمَّى أعني : ماهيَّته وجوهره : **كما في قول سيدنا إبراهيم لقومه :**

﴿ .... مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمۡ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [سورة الأنبياء:٥٢]

كما أن الاستفهام بما يكون غالبا لتعيين غير العاقل، ولذلك قيل :

﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا تَعۡبُدُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾

[سورة الشعراء:٦٩-٧٠]

بمعنى : أي شيء تعبدون؟ فاستفهم عن الأصنام بما .

٣ - بيان الصفة أعني : الأحوال الخاصة أو العامة، كقولك : ما صديقك. فيقال: سمين أو نحيف مثلاً، حتى قيل إن (ما) عامة يستفهم بها عن كل شيء، أما (من) فهي للسؤال عمن يعقل، وأجازوا أن يقال: (ما تعبدون)؟ **بمعنى** : السؤال عن صفة المعبود.

كما تقول: ما زيد؟ تريد: أفقيه أم طبيب أم غير ذلك من الصفات، **ولذلك قيل:**

﴿ أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ إِذۡ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعۡبُدُونَ مِنۢ بَعۡدِي قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ .... ﴾ [سورة البقرة:١٣٣]

فوجه السؤال (بما) لأنه أراد صفاته، ولذلك لم يقولوا : نعبد الله بل قالوا : نعبد إلهك وإله آبائك .

وعند الخط يجب حذف ألف ما الاستفهامية إذا جُرَّت بحرف جر وإبقاء الفتحة دليلا عليها نحو (فيم، وإلام، وعلام، وبم) **قال الشاعر :**

(فتلك ولاة السوء قد طال مكثهم   فحتام حتام العناء المطول)

أراد : حتى ما العناء ؟ أي : إلى متى ؟

وربما تبعت الفتحة الألف في الحذف وهو مخصوص بالشعر **كقوله:**

يا أبا الأسود لم خلقتني   لهموم طارقات وذكر

وعلة حذف الألف الفرق بين الاستفهام والخبر ؛ فلهذا حذفت في نحو " فيم أنت من ذكراها " ونحو: " فناظرة بم يرجع المرسلون"ونحو : "لم تقولون ما لا تفعلون "، فلو ثبتت في كل ذلك لتوهم الخبر) **(١)**، فإذا غاب التوهم، عادت الألف إلى (ما) **كما في قوله تعالى** :

﴿ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [سورة يونس:٦٠]

١١- مغني اللبيب ١/ ٣٩٣.

فكلمةُ (ما) استفهاميةٌ وقعت مبتدأً و(ظن) خبرُهـا، والمعنـى : أي شيء ظنهم ؟ ومفعولا (ظـن) محـذوفان ؛ لأن إعـراب أسـماء الاسـتفهام هو إعراب جوابها .

بين (ما) وملحقاتها :

قد تضاف (ذا) إلى (ما) فيقال:(ماذا) وحين تركب (ما)مع(ذا) لا تحذف الألف، كما في قوله تعالى :

﴿ ..... وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ...... ﴾ [سورة المدَّثر:٣١]

(ومـاذا أراد الله) اسـتفهام إنكـاري لأن (مـا) اسـتفهامية، و (ذا) أصلها اسم إشارة فإذا وقع بعد (مـا) أو (مـن) الاسـتفهاميتين أفـاد معنـى الذي، فيكون تقديره : ما الأمـر الـذي أراده الله بهـذا الكـلام في حـال أنـه مثل ؟

والمعنى: لم يرد الله هذا العدد الممثل به، وقد كني بنفي إرادة الله العدد عن إنكار أن يكون الله قال ذلك، **والمعنى**: لم يرد الله العدد الممثل به، فكنـوا بنفي إرادة الله وصف هذا العدد عن تكذيبهم أن يكون هـذا العـدد موافقـا للواقع لأنهم ينفون فائدته، وإنما أرادوا تكذيب أن يكون هذا وحيا من عند الله، **والإشارة بهذا إلى قوله:**

﴿ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [سورة المدَّثر:٣٠]

و(مثلا) منصوب على الحال من (هذا) ، والمثل: الوصف، أي بهذا العدد وهو تسعة عشر، أي ما الفائدة في هذا العدد دون غيره مثل عشرين)[1].

ويشيع عند طلاب العلم أنه لايجوز إدخال (ما) على ضمير الفصل مع أن النحاة يقولون : إنَّ ضمير الفصل يتوسط بين المبتدأ وخبره قبل دخول العوامل اللفظية وبعده ، فضمير الفصل يقعُ بين المبتدأ والخبر، أو ما أصله مبتدأ وخبر، **نحو قوله تعالى** :

﴿.....إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ .....﴾ [سورة الأنفال:٣٢]

وليس لضمير الفصل إعراب، فهو ضمير يفيد التوكيد، ولا محل له من الإعراب .

ولك أن تقول: " ما هو إعرابُ كذا ؟ "أو تحذف الضمير، وتقول : ما إعراب كذا ؟

وهو الأفصح، لأنه لم يرد إدخال (ما) الاستفهامية على ضمير الفصل في القرآن الكريم ولا في السنة المطهرة، وإن كان ورد في شعر الشعراء، وكلام الصحابة، والشراح .

ويلحق (بما) الاستفهامية أيضا هاء السكت، وهي هاء ساكنة تلحق بها إذا جرت بحرف جر، ووقف عليها، مثل : لمه، وفيمه، وعمه .

١- التحرير والتنوير ٢٩ / ٣١٧.

الاستفهام بـ(من)

(مَنْ) اسم استفهام يسأل به عن مُعيّن، سواء كان التعيين بالاسم أو بالوصف، **ومنه قوله تعالى** : ﴿....**مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜ** ....﴾ [سورة يس:٥٢]

لأن الكفار حين يبعثون يسألون هذا السؤال لأنهم رأوا ما يبهرهم من الأمر الفظيع ، **فيقولون**: من بعثنا من مرقدنا ؟ ، فأما المؤمن **فيقول**: هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون.

ومنه قوله تعالى : ﴿**قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ** ﴿٤٩﴾﴾ [سورة طه:٤٩]

حيث أراد تحديده، يظن أنه مثله، **ومنه قوله تعالى** :

﴿**وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَهُمۡ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ** ﴿٨٧﴾﴾ [سورة الزُّخرُف:٨٧]

والسؤال هنا واضح صريح، من خلقكم، والجواب(الله) .(١)

---

١ - **وهنا لفتة عقدية مهمة ، وهي أن الكفار يقرون بتوحيد الربوبية ، (ويقولون الله هو الذي خلقنا؛ لتعذر المكابرة من فرط ظهوره، وهذا أحد الأدلة الكثيرة التي تثبت أن المشركين كانوا يقولون: لا رب إلا الله والنصارى يقولون: لا رب إلا الله، وهكذا جميع طوائف المشركين، حتى اليهود يقولون: لا رب إلا الله.**
وأبو جهل وأبو لهب كانا يقولان: لا رب إلا الله، وتوحيد الربوبية هو توحيد الله بأفعاله التي تأتي من آثار ربوبيته، كالخلق والإحياء والإماتة والرزق، ونحو ذلك، فكل ما يأتي من الله إلى العباد فهو من أفعال الربوبية، فهم جميعا كانوا يقرون أنه لا رب إلا الله، ولا خالق إلا الله، ولا رازق إلا الله، ولا محيي إلا الله، ولا مميت إلا الله.... وهكذا.
فتوحيد الله في أفعاله عقيدة مشتركة بين كافة الأمم الكافرة، ولم يقص الله في القرآن عن أمة واحدة أنها أنكرت وجود الله، لقد أنكروا البعث ، لكنهم لم ينكروا وجود الله ، فلا مشكلة في هذا الأمر.
المشكلة تكمن في توحيد الألوهية ، أعني توجيه عبادة الإنسان ، فالإنسان مع اعترافه بوجود الله ، وأنه خالق رازق محيي ومميت (عدى الدهريين) ، إلا أن هذا الإنسان لا يعبد هذا الإله الخالق الرازق ، بل يعبد آلهة أخرى ، يعبد الشمس والقمر ، ويعبد الملائكة والشياطين ، ويعبدالحجر والشجر ، وهذا هو الانحراف في توحيد الألوهية ، توحيد العبادة لله الواحد الأحد ، وعليه فكلمة النجاة يوم القيامة لن تكون: لا رب إلا الله ، بل كلمة النجاة ستكون: لا إله إلا الله ، والفرق بينهما كبير.

وقد يضاف إلى الاستفهام المستقر في (من) معنى النفي فيأتي الاستفهام بها مُشرَبا معنى النفي مثل **قوله تعالى** :

﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٣٥ ﴾

[سورة آل عمران:١٣٥]

والمعنى : ولا يغفر الذنوب إلا الله، **وكذلك قوله تعالى**:

﴿ .....مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ ..... ﴾ [سورة البقرة:٢٥٥]

والمعنى : لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه، فالاستفهام فيه معنى النفي .

الاستفهام بـ(أي– وكم – وكيف)

(أي) من الأسماء الملازمة للإضافة، لأنها من الأسماء المبهمة التي تحتاج إلى ما يزيل إبهامها، ولا تتعين إلا بالمضاف إليه، ولا تضاف إلى المعرفة إلا إذا دلت المعرفة على متعدد، **مثل قوله تعالى**:

﴿ ....لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۗ .... ﴾ [سورة هود:٧]

وتعرب(أي) هنا مبتدأ مرفوع وعلامة رفعه الضمة الظاهرة على آخره، و(أحسن) خبر مرفوع وعلامة رفعه الضمة الظاهرة على آخره (وعملاً) تمييز منصوب وعلامة نصبه الفتحة الظاهرة

وتأتي (أي) اسم استفهام مثل : أي الناس أفضل؟ ومنه قوله تعالى :

﴿......فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾﴾ [سورة الأنعام:٨١]

وقد تضاف (أي) إلى (ما) فتقول : (أيما، وأيهما) (أيما أو أيهما أفضل البحترى أم المتنبي ؟)

وتحمل أداة الاستفهام (أي) معنى التعجب فتقول :(سمعت شاعرا أي شاعر ؟!، أو : أي شاعر هذا الذي سمعت ؟ !!) فتنصب (أي) على الحال بعد المعرفة، أو ترفعها على أنها اسم استفهام مبتدأ .

وتقول في التذكير (أي) وفي التأنيث : (أيّة) ويجوز التذكير في الحالتين .

ومن نماذج ورودها استفهامًا في القرآن الكريم قوله تعالى :

﴿....وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾ [سورة الشعراء:٢٢٧]

أي : المنقلب الذي ينقلبونه وعمل (يَنْقَلِبُونَ) في (أَيَّ) فنصبها والجملة تهديد شديد ووعيد أكيدٌ لما في (سيعلمُ) من تهويلٍ، وفي (الذين ظلموا) من الإطلاقِ والتعمي، وفي (أيَّ منقلبٍ ينقلبون) من الإبهامِ والتهويلِ.

وتأتي (أي) حرف تفسير، وهذا هو المشهور عنها **كما في قول الشاعر:**

وترمينني بالطّرْف أيْ أنت مذنب   وتقلينني لكن إيّاك لا أَقلي

فقوله : أي : أنت مذنب، تفسير لقوله : وترمينني بالطرف، لأن الرمي بالطرف يعني : النظر بغضب .

وتفسر:(أي) المفردات، والجمل، ويكون بعدها اللفظ منصوبا على تقدير:(أعني) .

الاستفهام بـ (كم)

يستفهم بـ (كم) عن العدد ،**قال تعالى** :

﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ ﴾ [سورة الكهف:١٩]

ونحوه قوله تعالى : ﴿ قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ ﴾ [سورة المؤمنون:١١٢-١١٣]

وقد يراد بـ(كم) الاستفهامية التقليل، أو التكثير، فتقول : (كم أعطيتك) تعني أعطيتك كثيرا، وتقول أيضا : (كم أعطيتني) أي : أعطيتني قليلا .

وتمييز كم الاستفهامية منصوب، تقول : كم يومًا قضيت في سفرك ؟ أما تمييز كم الخبرية فمجرور، تقول : كم مرةٍ هفوتَ وعفوتُ عنك، **قال تعالى** : ﴿ كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ ﴾ [سورة الدخان:٢٥]

والمعنى : تركوا كثيرا .

وكم الاستفهامية تحتاج إلى جواب، أما كم الخبرية فلا تحتاج إلى جواب، وقد ذكر أهل النحو الفروق التي بين الكلمتين فقالوا : (كم الاستفهامية وكم الخبرية **يشتبهان في خمسة أمور**:

١ـ أنهما كنايتان مبهمتان عن معدود مجهول الحقيقة والكمية .

٢ـ أنهما مبنيتان.

٣ـ أن بناءهما على السكون في محل رفع أو نصب أو جر بحسب موقعهما .

٤ـ أنهما ملازمتان للصدارة، إلا إن سبقهما حرف جر أو مضاف .

٥ـ أن حاجة كل منهما إلى تمييز قد يصح حذفه عند اللبس .

ففي الاستفهامية تقول : كم كتابا قرأت ،حيث يجوز أن تقول: كم قرأت ؟

وفي الخبرية تقول : كم رجالٍ حسنت مظاهرهم وساءت مخابرهم فتحذف (رجال) وتقول : كم حسنت مظاهرهم وساءت مخابرهم .

ويفترقان في خمسة أمور كذلك:

١ـ أن الخبرية تتضمن الإخبار بكثرة شيء معدود فتختص بالزمن الماضي، والاستفهامية يجوز أن تقول فيها : كم رحلة ستقوم بها ؟

٢ـ أن المتكلم بالخبرية لايتطلب جوابا من السامع لأنه مخبِر غير مستخبر بخلاف الاستفهامية .

٣ـ أن المتكلم بالخبرية يتعرض للتصديق والتكذيب لأن الخبر عرضة لأن يصدقه السامع أو يكذبه .

٤ـ أن الأغلب في تمييز الاستفهامية أن يكون مفردا منصوبا بها أومجـرورا بالإضافة

أو بمن إن جرت كم بحرف ظاهر .

٥ـ أن البدل من كم الخبرية لايصح اقترانه بهمزة الاستفهام نحـو: كـم طلابٍ حضروا الصف!! ثلاثين بل عشرين، أما الاستفهامية فيجـب اقتران البدل منها بهمزة الاستفهام: كـم طـلاب حضر ـوا الصـف؟ أثلاثين أم عشرين؟

الاستفهام بـ (كيف)

تأتي (كيف) للسؤال عن الحال، تقول: "كيف أبوك ؟ " أي: عـلى أي حال هو؟

وتتضمّن (كيف) دلالة همزة الاستفهام، فإذا قلت: "كيـف زيـدٌ؟ " فكأنك قلت: "أصحيح زيد أم سقيم؟ أآكل زيدٌ، أم شاربٌ؟ إلى غيرِ ذلـك من أحواله. والأحوالُ أكثرُ من أن يحاط بها، فجاؤوا بـ "كَيْفَ" اسـمًا مـبهمًا ليتضمن جميعَ الأحوال. فإذا قلت: "كيف زيدٌ؟ " أغنى عن ذلك كلِّه.

وتعد (كيف) من الأسماء لأنها تـدخل عـلى الاسـم ويكـون كلامًـا نحو: "كيف أنت؟ " والحرفُ لا يفيد مع الاسم إلَّا في باب النـداء. ولـيس هذ بنداء، ولا تكون فعلًا ؛ لأنّها تفيد مع الفعل، نحو: "كيف أصبحتَ؟

والفعلُ لا يفيد مع الفعل، ولا يكون منهما كلام،فلا يصح أن تقول : ضرب نجح، وأيضا فإنه على زنةِ "فَعْلَ"، بسكون العين، وليس في الأفعال ما هو على هذه الزنة.

وفي "كيف" لغتان، قالوا: "كَيْفَ"، و"كَيْ".

قال الشاعر :

أو راعِيــانِ لبُعْــران لنــا شَرَدَتْ   كَيْ لا يُحِسانِ مـن بُعْرانِنَـا أَثَـرَا ؟

يريد : كيف لا يحسان، فكي بمعنى كيف، أو أن أصلها (كيـف) ثـم حذفت الفاء لضرورة الشعر .

الاستفهام بـ(أين – ومتى – وأيان)(١)

يسأل (بأين) عن المكان، وتغنـي عـن السـؤال عـن جميـع الأمـاكن فلو سأل سائل عن مستقَر زيد، فقـال: أفي الـدار زيـدٌ، أفي المسـجد زيـد ؟ ولم يكن في واحد منهما، جاز أن يكون الجواب "لا"، لكنه لـو سـأل : أيـن زيد ؟ لوجب تحديد مانه .

واسم الاستفهام (أين) مبني أصلا على السكون، ثم حركـت النـون بالفتح لسكون الياء قبلها، واختير البناء على الفتح، لأن البنـاء عـلى الكسر بعد الياء ثقيل، وتتضمن (أين) معنى الشرط، فإذا قلت: "متى تَقُمْ أَقُـمْ"، كان معناه: "إنْ تقم يومَ الجمعة أقم فيـه، إنْ تقـم يـومَ السـبْت أقـم فيـه"؟ وكذلك إذا قلت: "أيْنَ بيتُك آتِه"، معناه: أين بيتُك، إنْ أعرفـه آتِـه و"أيـن تكن أكن" معناه: إن تكن في المسجد، أكن فيه، إن تكن في السوق أكن فيـه. فلما كانت "مَتَى" و"أيْنَ" يشتمِلان على كل اسم من أسماء الزمان والمكـان، جازت المجازاةُ بهما.

١- راجع فيكلذلك مغنى اللبيب لابن هشام ، وشرح المفصل لابن يعيش ، وغيرها من كتب النحو الجامعة.

كما قال الشاعر :

أنــا ابــنُ جَــلَا وطَــلاع الثنايَــا ... متــى أَضَــعِ العِمامَــةَ تَعْرِفُــوني(١)

والمعنى على جعل (متى) شرطية، والتقدير : إن أضع العمامة تعرفوني .

وقول آخر :

أَيْـنَ تَضـــرب بنـا العُـداةَ تَجِـدْنا ... نصرِفُ العِيسَ نَحْوَهـا للتلاقِـي

حيث وقعت : (أين) أداة شرط، و(تضرب) فعل الشرط و(تجدنا) جوابه، وتزاد بعد أين (ما) فيقال : أينما، نحو : (أينما تكونوا يدرككم الموت) أي : في أي مكان تكونون يدرككم الموت .

وأمّا "أيانَ"، فظرف من ظروف الزمان مبهمٌ بمعنى "مَتَى".

والفرقُ بينها وبين "مَتَى" أنّ "مَتَى" لكثرة استعمالها صارت أظهرَ من "أيانَ" في الزمان.

ووجهٌ آخرُ من الفرق أن "مَتَى" يُستعمل في كلّ زمان، و"أيانَ" لا يُستعمل إلَّا فيما يراد تفخيمُ أمره وتعظيمُه، نحو قوله تعالى: {أَيَّانَ مُرْسَاهَا} ، أي: متى مرساها؟

١- أنا ابن جلا: يعني أنا مشهور ، وابن رجل واضح النسب فكأنه قال: أنا ابن رجل يقال له: جلا الأمور وكشفها. وطلاع: صيغة مبالغة من طلع، والثنايا: الطرق الجبلية، وطلاع الثنايا: الذي يتحمل الصعاب. وهذا القول هو للحجاج بن يوسف الثقفي من خطبة في أهل العراق يوم تولى أمره.

المعاني التي يأتي لها الاستفهام

يفيد أسلوب الاستفهام معاني أخرى غير معنى الاستفهام، ولعل هذا يرجع إلى قولهم أن الأساليب الإنشائية أكثرها منقول من الخبر إلى الإنشاء، فبقي فيها مكان قبل النقل من دلالات وأغراض .

ولقد أطال الشيخ عبد القاهر في حديثه عن التقديم في حيز الاستفهام، وذكر أن الاستفهام قد يأتي بمعنى آخر غير معناه الحقيقي فقد يأتي بمعنى التقرير، وبمعنى الإنكار، وهذه المعاني تكون بلا شك بمعونة قرائن الأحوال .

ولكن ما طرق الإفادة على هذه المعاني ؟ وهل تدل هذه الأساليب على المعاني الأخرى غير الحقيقية عن طريق المجاز ؟

يقول البهاء السبكي: (هذه الكلمات الموضوعة للاستفهام قد تستعمل في غيره مجازا)(١).

ويوضح العلامة السيد الشريف في حاشيته على المطول هذه العلاقة فيقول معلقا على دلالة قول السائل : كم دعوتك ؟ : (الاستفهام عن عدد دعائه إياه يستلزم الجهل به ،المستلزم استكثاره عادة أو ادعاءً، لأن القليل منه يكون معلوما ،واستكثاره يستلزم الاستبطاء بهذه الوسائط ،فاستعمل لفظه فيه)(٢).

١- عروس الأفراح ٢/ ٢٩٠.

٢- حاشية السيد الشريف على المطول ص ٢٣٥.

فكأن العلاقة اللزوم العقلي، مثل اللزوم بين النار والحرارة والشمس والشعاع، والانسان والناطق، وهذا كله داخل في المجاز المرسل الذي علاقته اللزوم .

وقد يكون طريق الإفادة هو طريق الكناية، وإذا كانت العلاقة في الكناية هي علاقة اللزوم، فإن اللزوم فيها أوسع لأنه يشمل اللزوم العقلي كما سبق، ومثل العلاقة بين طول القامة وطول النجاد، ويشمل اللزوم العرفي مثل اللزوم بين الكرم وكلٍ من (كثرة الرماد، وهزال الفصيل، وجبن الكلب) وكذلك اللزوم بين الترف ونؤوم الضحى وبخاصة أن المعاني الحقيقية في كل ذلك جائزة .

وقد يكون طريق الإفادة هو القول بمستتبعات التراكيب، كما قال السبكي متسائلاً : (هل نقول إن معنى الاستفهام فيه موجود، وانضم إليه معنى آخر، أو تجرد من الاستفهام بالكلية ؟ محل نظر، والذي يظهر الأول ويساعده ما قدمناه عن التوخي من أن (لعل) تكون للاستفهام مع بقاء معنى الترجي ، ومما يرجح الأول أن الاستبطاء في قولك : كم دعوتك ؟ معناه أن الدعاء قد وصل إلى حد لا أعلم عدده، فأنا أطلب أن أفهم عدده والعادة تقتضي بأن الشخص إنما يستفهم عن عدد ما صدر منه إذا كثر فلم يعلمه، وفي طلب فهم عدده ما يشعر بالاستبطاء ...) (١).

١- عروس الأفراح ٢/ ٢٠٦.

وعليه يكون قوله تعالى :

﴿....ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ....﴾ [سورة المائدة:١١٦]

حقيقة، لأن المطلوب به أن يقر بذلك في هذا المشهد العظيم تكذيبا للنصارى .

فالمعنى الأصلى للاستفهام موجود، مع وجود المعنى الآخر ، ويحفظ هذين المعنيين القرائن والأحوال .

ومن نماذج هذا قوله تعالى:

﴿ قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ .....﴾

[سورة هود:٨٧]

فالاستفهام عن الشيء يقتضي الجهل به، والجهل به يقتضي الجهل بفائدته، والجهل بفائدته يقتضي الاستخفاف به، وهو ينشأ عن الهزء، فهو مجاز مرسل علاقته اللزوم .

وعند التحقير تقول :(من هذا ؟) فالاستفهام عنه يقتضي الجهل به والجهل به يقتضي عدم الاعتناء به، لأن الشيء المجهول غير ملتفت إليه وعدم الاعتناء بالشيء يقتضي استحقاره .

فاستعمال الاستفهام في التحقير، يحمل على المجاز المرسل، أو الكناية أو مستتبعات التراكيب .

ويرى الدكتور المطعني أن الأنسب في دلالة الاستفهام على غير معناه الحقيقي أن يكون من باب المجاز المرسل الذي علاقته الإطلاق والتقييد[1].

ويقول الدكتور أبو موسى: (ليس من المحقق عندنا أن نطلق على هذه الصور هذه التسمية الشائعة (المعاني المجازية) لأننا لم نقنع بأنها في هذه المعاني مجاز،لبقاء الاستفهام قويا وراء كل معنى من هذه المعاني)[2].

ولا شك أن البلاغيين يتنوعون في وضع هذه الدلالة، بين المجاز والكناية ومستتبعات التراكيب، كما أنه لا شك أن هذه الأساليب أريد بها غير معانيها الحقيقية، فتقول : أريد بالاستفهام النفي، أو أريد به التهكم أو التعجب ...إلخ.

ويقف الدكتور محمود حمدان ليجلِّي الأمر، ويضع أولا بعض الحقائق قبل الحكم بنوعية هذه الأساليب، **ومن هذه الحقائق** :

١- أن الألفاظ عنداستعمالها في معانيها الوضعية الصرفة حقائق .

٢- أن الألفاظ إذا استعملت في غير معناها مع قرينة مانعة منه فهي مجاز .

١- المجاز في القرآن الكريم للدكتور عبد العظيم المطعني ١ / ٤٢٥.

٢-دلالات التراكيب ٢٢٧.

٣- أن الألفاظ إذا استعملت في غير معناها مع قرينة غير مانعة فهي كناية، وهذه الدلالات الثلاث على المعاني (الحقيقية والمجازية والكنائية) دلالات لفظية، فهمت باللفظ على سبيل التحقيق أو التأويل .

٤- أن الألفاظ إذا استعملت في معانيها، ثم فهم عن طريق السياق معنى آخر خلاف المعنى الحقيقي والمجازي والكنائي، كان هذا المعنى من مستتبعات التراكيب .

ومستتبعات التراكيب تعني : أن يدل الكلام على معنى (ليس من قبيل الحقيقة ولا المجاز ولا الكناية) بقرينة المقام والسياق، ويفهم من عرض اللفظ، **كما في قوله تعالى** :

﴿.....**وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦ**.....﴾ [سورة البقرة:٤١]

فهذا تعريض بأنه كان ينبغي أن يكونوا أول المؤمنين، وأن يسارعوا في الإيمان بدلا من أن يسارعوا في الكفر . ولو عرضت هذا المعنى على الحقيقة، أوالمجاز، أوالكناية وجدته لا يندرج تحت واحد منها .

إذا المعاني التي يفيدها الاستفهام هي من مستتبعات التراكيب .

تعدد دلالات الاستفهام

حين ذكر عبد القاهر قول الله تعالى :

﴿ قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ ﴾ [سورة الأنبياء:٦٢]

قال : (اعلم أن الهمزة فيما ذكرنا تقرير بفعل قد كان، وإنكار له لم كان ؟ وتوبيخ لفاعله عليه)[1].

فنحن في كثير من الصور لا نستطيع ضبط معنى الاستفهام في شيء محدد، لهذا نلجأ إلى ذكر جملة معان حول الاستفهام الواحد، **فنقول في مثل قوله تعالى** : ﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ ﴾ [سورة العنكبوت:٢]

نقول إن الاستفهام معناه : الإنكار، والتوبيخ، والعتاب، والتعجب ... إلخ .

ولا يمكنك حصر الدلالة في شيء واحد، لأن دلالة الاستفهام دلالة خفية متفلتة، فترى البلاغيين يحاولون محاصرتها بهذه الأوصاف الكثيرة الناقصة .

وهذا يؤكد أن دلالة الإنشاء وعلى رأسه الاستفهام دلالة استتباع وليس دلالة حقيقة، أو مجاز، أو كناية، لأن طبيعة المعاني الاستتباعية الخفاء والسعة.

١- دلائل الإعجاز ص ١١٤.

أهم دلالات أسلوب الاستفهام :

للاستفهام دلالات كثيرة يحملها معه السياق، ومن هذه الدلالات :

١-الاستبطاء :

وذلك نحو قوله تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ ﴾ [سورة البقرة:٢١٤]

(وما يقف الرسول هذا الموقف إلا وقد بلغ الكرب والحرج والضيق فوق ما يطيقه بشر) [1].

---

١ - من كتاب الشهيد المطارد ويقول: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ ﴾ [سورة البقرة:٢١٤] ما قرأت هذه الآية أو تلك إلا وشعرت بقشعريرة من تصور الهول الذي يبلغ بالرسول هذا المبلغ، ومن تصور الهول الكامن في هذه الهواجس، والكرب المزلزل الذي يرجّ نفس الرسول هذه الرجّة، وحالته النفسية في مثل هذه اللحظات، وما يحس به من ألم لا يطاق.

في هذه اللحظة التي يستحكم فيها الكرب، ويأخذ فيها الضيق بمخانق الرسل، ولا تبقى ذرة من الطاقة المدخرة.. في هذه اللحظة يجيء النصر كاملاً حاسماً فاصلاً:

«جاءَهُمْ نَصْرُنا، فَنُجِّيَ مَنْ نَشاءُ، وَلا يُرَدُّ بَأْسُنا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ»..

تلك سنة الله في الدعوات. لا بد من الشدائد، ولا بد من الكروب، حتى لا تبقى بقية من جهد ولا بقية من طاقة. ثم يجيء النصر بعد اليأس من كل أسبابه الظاهرة التي يتعلق بها الناس. يجيء النصر من عند الله، فينجو الذين يستحقون النجاة، ينجون من الهلاك الذي يأخذ المكذبين، وينجون من البطش والعسف الذي يسلطه عليهم المتجبرون. ويحل بأس الله بالمجرمين، مدمراً ماحقاً لا يقفون له، ولا يصده عنهم ولي ولا نصير.

ذلك كي لا يكون النصر رخيصاً فتكون الدعوات هزلاً. فلو كان النصر رخيصاً لقام في كل يوم دعيٌّ بدعوة لا تكلفه شيئاً. أو تكلفه القليل. ودعوات الحق لا يجوز أن تكون عبثاً ولا لعباً. فإنما هي قواعد للحياة البشرية ومناهج، ينبغي صيانتها وحراستها من الأدعياء. والأدعياء لا يحتملون تكاليف الدعوة، لذلك يشفقون أن يدَّعوها، فإذا ادَّعوها عجزوا عن حملها وطرحوها، وتبين الحق من الباطل على محك الشدائد التي لا يصمد لها إلا الواثقون الصادقون الذين لا يتخلون عن دعوة الله، ولو ظنوا أن النصر لا يجيئهم في هذه الحياة! إن الدعوة إلى الله ليست تجارة قصيرة الأجل إما أن تربح ربحاً معيناً محدداً في هذه الأرض، وإما أن يتخلى عنها أصحابها إلى تجارة أخرى أقرب ربحاً وأيسر حصيلة! والذي ينهض بالدعوة إلى الله في المجتمعات الجاهلية- والمجتمعات الجاهلية هي التي تدين لغير الله بالطاعة

التعجب :

ومثاله قوله تعالى حكاية لما قاله سليمان :

﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ .....﴾ [سورة النمل:٢٠]

فالغرض من هذا السؤال هو التعجب، لأن الهدهد ما كان يغيب عن سليمان إلا بإذنه، فلما لم يبصره تعجب من حال نفسه وعدم رؤيته. والمتعجب منه في الحقيقة هو غيبة الهدهد من غير إذن.

ووجه خروج الاستفهام إلى التعجب أن السؤال عن السبب في عدم الرؤية يستلزم الجهل بذلك السبب، والجهل بسبب عدم الرؤية يستلزم التعجب.

ومن أمثلته في شعر المتنبي، قوله حينما صرع بدر بن عمار أسدا:

أمعفّر الليث الهزبر بسوطه ... لمن ادخرت الصارم المسلولا؟

ويعلق المعري على البيت فيقول : (المعفر: من عفرته، إذا ألقيته على العفر: وهو التراب. والهزبر. من أسماء الأسد. فكأنه وصفه بشدة الصوت.يقول: يا من يعفر الأسد بشديد صوته! لمن ادخرت سيفك

والاتباع في أي زمان أو مكان- يجب أن يوطن نفسه على أنه لا يقوم برحلة مريحة، ولا يقوم بتجارة مادية قريبة الأجل! إنما ينبغي له أن يستيقن أنه يواجه طواغيت يملكون القوة والمال ويملكون استخفاف الجماهير حتى ترى الأسود أبيض والأبيض أسود! ويملكون تأليب هذه الجماهير ذاتها على أصحاب الدعوة إلى الله، باستثارة شهواتها وتهديدها بأن أصحاب الدعوة إلى الله يريدون حرمانها من هذه الشهوات!.. ويجب أن يستيقنوا أن الدعوة إلى الله كثيرة التكاليف، وأن الانضمام إليها في وجه المقاومة الجاهلية كثير التكاليف أيضاً. وأنه من ثم لا تنضم إليها- في أول الأمر- الجماهير المستضعفة، إنما تنضم إليها الصفوة المختارة في الجيل كله، التي تؤثر حقيقة هذا الدين على الراحة والسلامة، وعلى كل متاع هذه الحياة الدنيا. وأن عدد هذه الصفوة يكون دائماً قليلاً جدا.) / ٢٠٣٦

المصقول! أي لا تدخره؛ فإنك لا تحتاج إليه، لأن السوط إذا كفاك معركة الأسد مع أنه لا يقاومه أحد واستغنيت عن السيف، فإنك لا تحتاج إليه ولا إلى أحد، لأن كل شجاع دون الأسد) (١).

وقوله وقد أصابته الحمّى:

أَبِنْتَ الدَّهْرِ عِنْدي كُلُّ بِنْتٍ … فَكَيْفَ خَلَصْتِ أَنْتِ مِنَ الزِّحَامِ؟!

جَرَحْتِ مُجَرحاً لم يَبْقَ فِيْهِ … مَكَانٌ لِلسُّيُوفِ ولا السِّهامِ

يقول: وهو يخاطب الحمى: أبنت الدهر، الطارقة من حوادثه وناشئته الواردة من مكارهه، عندي كل بنت من نكباته يحدثها، وكل طارقة من صروفه يبعثها، فكيف خلصت أنت من زحام تلك الحوادث الواردة وتضايق تلك النوائب القاصدة؟!

فسمى الحمى بنت الدهر على سبيل الاستعارة، وأشار بما ذكره إلى اعتماد الدهر له بما يكرهه، وشدة تكرره عليه بما يؤلمه.

ثم قال، وهو يخاطب الحمى، ويشير إلى نفسه: جرحت مجرحا قد نهكته خطوب الدهر، وبالغته بما يقصده من الضر، فلم يبق فيه للسيوف مكان تناله بالضرب، ولا للسهام بقية تعتمدها بالرمي، فأشار إلى سوء حاله، ومبالغة الألم له، وشدة اغتراء الزمان به، وأجرى الكلام على سبيل الاستعارة والتجوز) (٢).

١- معجز أحمد ١ / ١٢٨.

٢- شرح معاني شعر المتنبي لابن الإفليلي ١/ ١٦٦.

وقوله في سيف الدولة وقد أصابته علّة:

وكيف تعلّك الدنيا بشيء   وأنت لعلة الدنيا طبيب؟

وكيف تنوبك الشكوى بداء   وأنت المستغاث لما ينوب؟

والمعنى :(كيف تعلك الدنيا بطائف يمرضك، وشكية توجعك وأنت طبيب الدنيا من عللها، والمجير من مخوف ألمها؟ فبالإخصاب في فضلك يستدفع محلها، وبالتصرف في فضلك يستكف ضرها.... **ثم قال**: وكيف تنوبك الشكوى بدائها، وتعتمدك بألمها، وأنت المستغاث في الحوادث الطارقة، والمنتصر به في النوائب العارضة؟)[1].

وقالت امرأةٌ من بني هزان يقال لها:أم ثواب في ابنٍ لها عقها:

ربيته وهو مثل الفرخ أعظمه   أم الطعام ترى في جلده زغبا

حتى إذا آض كالفحال شذبه   أباره ونفى عن متنه الكربا

أنشا يمزق أثوابي يؤدبني   أبعد شيبي عندي تبتغي الأدبا

يقال ربته وربيته بمعنىً.

ومعنى البيت: كان ابني حين ولده في ضعفه وصغره، وتساقط قوته وتخلخل بنيته، ورخاوة مفاصله، كفرخ القطاة ولم يستبدل بعد بزغبه شكيراً، ولا بانحلال عقده تماسكاً، فأقبلت أربيه وأعظم شيءٍ فيه بطنه وأرقيه في مدارج النشء والترشيح وهو لا يميز ما ينفعه مما يضره، متردداً

١- السابق ٢/ ١٧٣.

في الأحوال التي تجري إليه، وتتغير عليه، بين صيانةٍ كاملةٍ، وشفقةٍ بارعةٍ وحفظٍ متصلٍ، وإشفاقٍ مطردٍ. وتسميته البطن بأم الطعام، كما قيل للجلدة الرقيقة الملبسة الدماغ أم الدماغ، وكما سمي المجرة أم النجوم، وكل ذلك لما في المضاف والمضاف إليه من الانضمام والاحتواء. وقد سمى الشنفري تأبط شراً بأم عيالٍ، **فقال:**

وأم عيالٍ قد شهدت تقوتهم إذا أطعمتهم أوتحت وأقلت

لما كان يجمع من أمر أصحابه ويتكفل به لهم ويدبره. وقولها حتى إذا آض كالفحال حتى وضع للغاية)(١).

٢- النفي:

يدل الاستفهام على النفي وذلك عندما تجيء لفظة الاستفهام عن المعلوم، **ومن أمثلة ذلك في القرآن الكريم قوله تعالى:**

﴿.....فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ.....﴾ [سورة الروم:٢٩]

وقوله: ﴿**هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾**﴾ [سورة الرحمن:٦٠]

وقوله : ﴿.....**أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾**﴾ [سورة الزُّمَر:١٩]

وقوله:﴿....**مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ....**﴾ [سورة البقرة:٢٥٥]

فظاهر هذه الآيات الكريمة الاستفهام، ومعانيها جميعا النفي ،أي : لا هادي لمن أضل الله. وليس جزاء الإحسان إلا الإحسان. وليس

١- شرح ديوان الحماسة ١/ ٣٢١.

بمقدورك إنقاذ من في النار. ولا أحد يشفع عنـده إلا بإذنـه، فـاللفظ استفهام والدلالة دلالة نفي، **ومن الشـعر الـذي خـرج فيـه الاسـتفهام إلى النفي قول الفرزدق:**

أيـن الـذين بهـم تسـامي دارمـا؟ أم من إلى سلفي طهيّة تجعـل؟[1]

وقول أبي فراس في رثاء أمه:

إلى مــن أشــتكي؟ ولمــن أنــاجي إذا ضــاقت بـــما فيهــا الصــدور؟

بـــأيّ دعـــاء داعيـــة أوقـــى؟ بـــأيّ ضـــياء وجـــه اســـتنير؟

بمـــن يســـتدفع القـــدر المـــوفى؟ بمـــن يســـتفتح الأمـــر العســـير؟

وقول المتنبي من قصائد مختلفة:

يفنى الكلام ولا يحيط بفضـلكم أيحـيط مـا يفنـى بـما لا ينفـد؟

وهـــل تفنـــى الرســـائل في عـــدوّ إذ مــــا لم يكــــنّ ظبــــا رقاقــــا؟

كيف الرجاء من الخطوب تخلّصا مـن بعـد مـا أنشـبن فيّ مخالبـا؟

فهذه نماذج للاستفهام حين يراد به النفي .

١- طهية بنت عبد شمس بن سعد بن زيد مناة بن تميم، كانت عند مالك بن حنظلة بن مالك بن زيد، فولدت له أبا سود وعوفاً وحشيشاُ، فغلبت على بنيها فنُسبوا إليها ، وقال بعده.

يمشُونَ في حَلَقِ الحديدِ كما مَشتْ... جُربُ الجِمالِ بِها الكُحَيلُ المُشعَلُ

الكحيل القطران، وحلق الحديد الدروع، شبه الرجال لعظمهم ولون الحديد عليهم بالجمال المهنوءة بالقطران، والمشعل الحديدة التي يحرق بها الجلد، ويروى كأنهم.

والمانِعُونَ إذا النساءُ تَرادَفتْ... حَذَرَ السِّباءِ جمالُها لا تُرحَلُ

ويروى تُردّفت ويروى جمالها والرفع بقوله لا تُرحل، وترادفت ركب بعضهن خلف بعض

التقرير :

ومن نماذج دلالة الاستفهام على التقرير: قوله تعالى:

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾﴾

[سورة الأعراف:١٧٢]

فالله ﷻ لا يريد جواباً؛ بل إن الكلام يفيد أمراً ثبت العلم به، وبذلك ينتزع اعترافاً منهم بأنه ﷻ ربهم جميعا، **والتقرير** :

هوحمل المخاطب على الإقرار والاعتراف بأمر قد استقر عنده نفياً أو إيجاباً؛لأنه أوقع في النفس، وأدل على الإلزام،وفيه يلي المقرر به الهمزة .

٣-التوبيخ :

كما في قوله تعالى:

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾﴾

[سورة الأحقاف:٢٠]

حيث دخلت همزة الاستفهام على الفعل(ذهب) والمعنى على التوبيخ أي : اذكر يوم يعرض هؤلاء ،ويقال لهم أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ.

ومنه قول الشاعر:

أَغَرَرْتني وزَعمت أنَّـك لابنٌ بالصيف تَامِرْ

أي : أيكون منك هذا الإغرار، والزعم بأنك كثير اللبن كثير التمر حتى في الصيف، وهذا تقريع وتوبيخ ، والتقريع والتوبيخ يحمل في طيه ايضا الإنكار، بمعنى ما ينبغي، ثم إن الاستفهام يحمل من الدلالات ما لايحصيه المحصي، وماذكرت لك إلا نماذج تهتدي بها، وتقيس عليها .

أسلوب الأمر:

الأمر : طلب فعل غير كف، وقيل هو : القول المقتضِي طاعة المأمور بفعل المأمور به سواء صدر من أعلى إلى أدنى كما يطلب الوالد من ولده طلبا فيقول له مثلا : ذاكر دروسك، أو صدر من الأدنى إلى الأعلى كما جاء في قول فرعون لقومه وحكاه **القرآن الكريم** :

﴿ **قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾** ﴾ [سورة الأعراف:١٠٩-١١٢]

وقول دريد بن الصمة :

أَمَـرْتُهُمُ أَمْـرِي بِمُنْعَـرَجِ اللِّـوَى ... فَلَمْ يَسْتَبِينوا النّصْحَ إلاّ ضُحَى الغَدِ

فَلَمّا عَصَوْني كُنْتُ مِنْهُم وَقَـدْ أَرَى ... غَـوَايَتَهُمْ؛ وأَنّنـي غـيرُ مُهْتَـدِي

وهَلْ أَنَـا إلاّ مِـنْ غَزِيّـةِ إنْ غَـوَتْ ... غَوَيْـتُ وإنْ تَرْشُـدْ غَزِيّـةُ أَرْشُـدِ

وحين يصدر الفعل من العبد إلى الرب لا يسميه أهل البلاغة أمرا وإن كانت الصيغة صيغة أمر ولكن يسمونه: (الطلب والمسألة) كما

في قولنا في الصلاة: (اهدنا الصراط المستقيم) وقولنا في الدعاء (اغفر لنا ذنوبنا، وقنا عذاب النار) .

صيغ الأمر

للأمر في اللسان العربي صيغ متنوعة، تدل جميعها في الأصل على حصول الفعل .

أولا : الفعل الصريح :

وهو صيغة (افعل) **مثل** : (اكتب – اسمع – اصطبر – استعينوا) وراجع هذه الأفعال في القرآن الكريم، وفي الحديث الشريف، وفي الشعر العربي، تجد من ورائها دلالات لا حصر لها .

ومن نماذج ذلك قوله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

[سورة البقرة:٢١]

وقوله :﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ ﴾ [سورة آل عمران:٣١]

وقوله :

﴿ اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ ﴾

[سورة الأنعام:١٠٦]

إلا أنه ينبغي أن تعلم أن صيغة (افْعَلْ) مُسْتَعْمَلَةٌ فِي خَمْسَةَ عَشَرَ وجهًا:

للإيجاب كقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ....﴾ [سورة النور:٥٦]

وَلِلنَّدْبِ كَقَوْلِهِ:

﴿.....فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا .....﴾ [سورة النور:٣٣]

ويقرب منه التأديب كقوله ﷺ لِابْنِ عَبَّاسٍ:

"كُلْ مِمَّا يَلِيكَ"؛ فَإِنَّ الْأَدَبَ مَنْدُوبٌ إِلَيْهِ وَإِنْ كَانَ قَدْ جَعَلَهُ بعضهم قسمًا مغايرًا للمندوب.

وللإرشاد كقوله:

﴿.....وَٱسْتَشْهِدُوا۟ .....﴾ [سورة البقرة:٢٨٢] (١) ﴿.....فَٱكْتُبُوهُ .....﴾ [سورة البقرة:٢٨٢] وَالْفَرْقُ بَيْنَ النَّدْبِ وَالْإِرْشَادِ أَنَّ النَّدْبَ لِثَوَابِ الْآخِرَةِ، وَالْإِرْشَادَ لِمَنَافِعِ الدُّنْيَا، فَإِنَّهُ لَا يَنْتَقِصُ الثَّوَابُ بِتَرْكِ الِاسْتِشْهَادِ فِي الْمُدَايَنَاتِ وَلَا يَزِيدُ بِفِعْلِهِ.

وَلِلْإِبَاحَةِ مِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿...وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟...﴾ [سورة الأعراف:٣١]

وللتهديد مثل:

﴿....ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ....﴾ [سورة فُصِّلَت:٤٠]

﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ...﴾ [سورة الإسراء:٦٤]

ويقرب منه الإنذار كقوله تعالى:

﴿...قُلْ تَمَتَّعُوا۟ ....﴾ [سورة إبراهيم:٣٠]

وَإِنْ كَانَ قَدْ جَعَلُوهُ قِسْمًا آخَرَ.

وَلِلامْتِنَانِ مثل قوله تعالى :

﴿ فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ.... ﴾ [سورة النحل:١١٤]

وللإكرام كقوله سبحانه :

﴿ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [سورة الحِجر:٤٦]

وللتسخيرنحو قوله سبحانه :

﴿كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [سورة البقرة:٦٥]

وللتعجيز كما في قوله سبحانه :

﴿.....فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ...... ﴾ [سورة البقرة:٢٣]

وللإهانة: ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ ﴾ [سورة الدخان:٤٩]

وللتسوية: ﴿.....فَٱصْبِرُوٓاْ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ ...... ﴾ [سورة الطور:١٦]

وللدعاء: ﴿ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى .... ﴾ [سورة نوح:٢٨]

وَلِلتَّمَنِّي كَقَوْلِ الشَّاعِرِ:

"أَلَا أَيُّهَا اللَّيْلُ الطَّوِيلُ ألا انجل"

وَلِلاحْتِقَارِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿....أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴾ [سورة يونس:٨٠]

وللتكوين: ﴿كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾ ﴾ [سورة النحل:٤٠]

هذه خمسة عشر معنى لصيغة فعل الأمر (افعل) أشار إليها الشوكاني في كتابه : إرشاد الفحول ، وعقب عليها بقوله :

(وَمَنْ جَعَلَ التَّأْدِيبَ وَالْإِنْذَارَ مَعْنَيَيْنِ مُسْتَقِلَّيْنِ جعلها سبعة عشر مَعْنًى، **وَجَعَلَ بَعْضُهُمْ مِنَ الْمَعَانِي** :

- ❖ الْإِذْنَ نَحْوَ قوله تعالى: ﴿....كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ....﴾ [سورة المؤمنون:٥١]
- ❖ والخبر نحو: ﴿ فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا ....﴾ [سورة التوبة:٨٢]
- ❖ والتفويض نحو: ﴿ .... فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ....﴾ [سورة طه:٧٢]
- ❖ والمشورة كقوله:﴿ ....فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ....﴾ [سورة الصافات:١٠٢]
- ❖ وَالِاعْتِبَارَ نَحْوَ: ﴿.....ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ .....﴾ [سورة الأنعام:٩٩]
- ❖ والتكذيب نحو: ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ﴾ [سورة الأنبياء:٢٤]
- ❖ والالتماس كقولك لنظيرك: "افعل".
- ❖ والتلهيف نحو:﴿ .... قُلْ مُوتُوا۟ بِغَيْظِكُمْ ....﴾ [سورة آل عمران:١١٩]
- ❖ والتصبير نحو: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟....﴾ [سورة الزُّخرُف:٨٣]

فتكون جملة المعاني ستة وعشرين معنى [١] يأتي فعل الأمر الصريح دالا عليها.

ثانيا :المضارع المقترن بلام الأمر :

أعني صيغة : (ليفعل) حيث يقترن المضارع بحرف موضوع للدلالة على الأمر، وهي لام الأمر، مما يعني أن عندي أمرين :

١ - إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول لمحمد بن على الشوكاني اليمني ت ١٢٥٠ هـ ١/ ٢٥٣

الأول : الفعل المضارع وهو فعل في مكوناته معنى الحدوث والتجدد .
والآخر : لام الأمر وهي الأداة الموضوعة للدلالة على الأمر، والمعروف سلفا عند علماء الدلالة أن استخراج الدلالة من الأدوات هو الأصل ولذلك قيل إن الأمر المأخوذ من صيغة (ليفعل) أقوى وأظهر وأبلغ في الأمر من فعل الأمر الصريح (افعل)، وحاول أن تتلمس هذه الفروق وأنت تقرأ **قول الله تعالى** :

﴿ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾ ﴾ [سورة النساء:٩]

حيث جاءت ثلاث صيغ للأمر **وهي** : (وليخش – فليتقوا – وليقولوا) .

وكذلك قوله تعالى :

﴿ ۞ فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾ ﴾ [سورة النساء:٧٤]

ففي هذه الصيغ كلها جاء المضارع مقترنا بلام الأمر، وكانت دلالته على الأمر أكثر ظهورا من الفعل (افعل، وتشعر في صيغة (ليفعل) معنى الجزم الذي لا مندوحة فيه، والرغبة الأكيدة في تحقيقه، ولذلك استعمل في المعاني التي لا يتسامح فيها .

ثالثا : **اسم فعل الأمر** :

اسم الفعل هو اسم ينوب عن فعل الأمر معنى وعملا، ولا يتأثر بعوامل الفعل، ولا يقبل علامة من علاماته، **ويحمل مع دلالة الفعل ثلاثة أشياء :**

١- المبالغة في الفعل، فقولك (صه) أدل على السكوت من قولك : (اسكت) لأنك تقول (صه) حين تعزم على إسكات المتكلم ولاتترخص في ذلك، والمعهود عند العرب أنهم إذا أرادوا المبالغة في اللفظ عدلوا عن المعهود فيه، فيفهم من العدول المبالغة في الدلالة، ولذلك قالوا إن معنى (هيهات) ماأبعده ؟! وليس معناه بعد، ولا بعد جدا، فقولهم : (ما أبعده) يعني أنه بلغ به البعد مبلغا أثار العجب، **ولقد جاء في القرآن الكريم** :﴿ **أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ (٣٥) هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ (٣٦) إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٣٧) إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ (٣٨)** ﴾ [سورة المؤمنون:٣٥-٣٨]

٢- الإيجاز : لأن اسم الفعل يلزم صورة واحدة، **وحين تقول مثلا :** (دونك زيد)لا تعني : خذ زيدا، بل تعني :(استحوذ سريعا عليه فقد صار في مكنتك)، وفي ذلك دلالة على القرب، والتمكن والإسراع، كما أن التنوين في اسم فعل الأمر يزيد من الدلالة فقولك (صَهْ)

٣- بمعنى : اسكت عن كلامك هذا يختلف عن قولك : (صهٍ) الـذي يعني : اسكت عن كل كلام، وهـذه الطاقـات الدلاليـة لا توجـد في الفعل الصريح (اسكت) .

ومن نماذج أسماء الأفعال في القرآن الكريم قوله تعالى :

﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَاۖ فَإِن شَهِدُواْ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْۚ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأٓخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾﴾ [سورة الأنعام:١٥٠]

وقوله تعالى :

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾﴾ [سورة الحاقة:١٩]

يقول أبو السعود (فكلمة (هَا) اسمٌ فعل بمعنى :خُذْ، وفيـهِ ثـلاثُ لُغـاتٍ أجـودُهُنَّ (هـاءِ يارجـلُ) (وهـاءِ يـا امـرأة) وهاؤمـا يـا رجـلانِ أو امرأتـانِ، وهـاؤُونَ يـا رجـالُ وهـاؤُنَّ يـا نسـوةُ، ومفعولُـهُ محـذوفٌ و(كتابيه) مفعول اقرؤا لأنه اقرب العالمين ولأنه لو كانَ مفعـولَ (هـاؤُمُ) لقيلَ اقرؤُه إذِ الأَوْلَى إضمارُهُ حيثُ أمكنَ، والهاءُ فيـهِ وفي (حسـابَيه وماليَـه وسـلطانَيه) للسـكتَ تُثبـتُ في الوقـفِ وتسـقطُ في الوصـلِ واسـتُحبَّ إثباتُهَا)(١).

١- تفسير أبي السعود ٩ / ٢٤.

وفي قوله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ١٠٥ ﴾ [سورة المائدة:١٠٥]

أي إلزمها، وأصلحها، وقد سئل رسول الله ﷺ عنها، كما روى أَبو أُمَيَّةَ الشَّعْبَانِيِّ، قَالَ: لَقِيتُ أَبَا ثَعْلَبَةَ الْخُشَنِيَّ، فَسَأَلْتُهُ عَنْ قَوْلِهِ:

{ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡ }

قَالَ: أَمَا وَاللهِّ لَقَدْ سَأَلْتَ عَنْهَا خَبِيرًا، سَأَلْتُ عَنْهَا رَسُولَ اللهِّ ﷺ فَقَالَ: بَلِ ائْتَمِرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَتَنَاهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ، فَإِذَا رَأَيْتَ شُحًّا مُطَاعًا وَهَوًى مُتَّبَعًا وَدُنْيَا مُؤْثَرَةً وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ فَعَلَيْكَ نَفْسَكَ، وَإِيَّاكَ وَأَمْرَ الْعَوَامِّ؛ فَإِنَّ مِنْ وَرَائِكُمْ أَيَّامًا، الصَّبْرُ فِيهِنَّ مِثْلُ قَبْضٍ عَلَى الْجَمْرِ لِلْعَامِلِ فِيهِمْ مِثْلُ أَجْرِ خَمْسِينَ رَجُلًا يَعْمَلُونَ مِثْلَ عَمَلِهِ، قَالَ: وَزَادَ فِي غَيْرِهِ قِيلَ لَهُ: خَمْسِينَ مِنْهُمْ؟ قَالَ: «خَمْسِينَ مِنْكُمْ»(١).

وقد جاء أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه بلغه أن بعض الناس تأول الآية أنها لا يلزم معها أمر بمعروف ولا نهي عن منكر، فصعد المنبر فقال :

أيها الناس لا تغتروا بقول الله (عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ) فيقول أحدكم عليّ نفسي، والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليستعملن عليكم

١- المستدرك على الصحيحين ٤/ ٣٥٨.

شراركم، فليسومنّكم سوء العذاب، وروي عن ابن مسعود أنه قال: ليس هذا بزمان هذه الآية ، قولوا الحق ما قبل منكم، فإذا رد عليكم فعليكم أنفسكم، وقيل لابن عمر في بعض أوقات الفتن: لو تركت القول في هذه الأيام فلم تأمر ولم تنه؟ **فقال: إن رسول الله ﷺ قال لنا:**

ليبلغ الشاهد الغائب، ونحن شهدنا فيلزمنا أن نبلغكم، وسيأتي زمان إذا قيل فيه الحق لم يقبل.، **وقال سعيد بن جبير معنى هذه الآية :**

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡ ....﴾ [سورة المائدة:١٠٥]فالتزموا شرعكم بما فيه من جهاد وأمر بمعروف وغيره، ولا يضركم ضلال أهل الكتاب إذا اهتديتم .

وقوله تعالى :

﴿وَيَوۡمَ نَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ مَكَانَكُمۡ أَنتُمۡ وَشُرَكَآؤُكُمۡۚ فَزَيَّلۡنَا بَيۡنَهُمۡۖ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمۡ إِيَّانَا تَعۡبُدُونَ ٢٨﴾ [سورة يونس:٢٨]

فمكانكم اسم فعل أمر بمعنى : الزموا مكانكم لا تبرحوا حتى تنظروا ما يُفعل بكم .

وفي قوله تعالى :

﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٣﴾ [سورة يوسف:٢٣]

(فهيت) اسم فعل أمر بمعنى : بادر وأسرع، وهو أبلغ منها في الدلالة لأن فيه معنى القرب والطلب، والإسراع قبل فوات الفرصة .

رابعا: المصدر النائب عن فعل الأمر :

ينوب المصدر عن فعل الأمر كما في نحو قوله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١٧٨﴾ ﴾ [سورة البقرة:١٧٨]

فقوله : (فاتباع بمعروف) يعني : فليتبعه بالمعروف، **وكذلك قوله** : (وأداء) يعني : وليؤد إليه بإحسان، وفي هذا العدول دلالة على الثبات، ودفعا للأداء الأمثل، لأن الحديث هنا حديث عفو عن القصاص لذلك استعمل كلمة (أخيه) وقال : (فمن عفي له من أخيه شيئ) ترغيبا في المصالحة بين المسلمين .

ومنه أيضا قوله تعالى : ﴿ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَأۡخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ شَيۡـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَا فِيمَا ٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعۡتَدُوهَاۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾ ﴾ [سورة البقرة:٢٢٩]

يعني أن المحدد للرجل طلقتان فقط، ثم عليه أن يمسك زوجته بمعروف أو يسرحها بإحسان، واستعملت الآية لفظ (إمساك و تسريح) والمعنى فليمسك أو ليسرح، فالمصدر هنا كأنه قاطع، فلا لعب فيه ولا لهو، ويشعرك بهذا العدول أن الأمر قد خرج من يد الزوج إلى يد الشريعة، فبدلا من أن يقول (يُمسك ويُسرح) وهذا يشعر بأن الزمام

في يده، لأنه فاعل للإمساك والتسريع، قيل (إمساك وتسريح) ليتقتلع من يده هذه الصلاحية، ويعيدها للشرع من جديد بعد الطلقة الثالثة .

ومنه أيضا قول الله تعالى :

﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ۚ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِى مَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾ ﴾ [سورة البقرة:٢٤٠]

والمعنى : فليوصوا لأزواجهم أي : كتب الله عليهم وصية .

خامسا : **أسلوب الخبر الدال على الأمر** :

يأتي الخبر دالا على الأمر في اللسان العربي، وفي الذكر الحكيم، **ومن ذلك قوله تعالى :**

﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ۚ .... ﴾ [سورة البقرة:٢٢٨]

ففي الخبر دلالة على الأمر مع التوثيق والإلزام، **كأنه قيل :**

(ليتربصن) ثم عدل عن ذلك لأن المأمور كأنه امتثل، وصار الأمر خبرا يحكى، وأسرعت النساء في التنفيذ، كما أن في التربص معنى الحذر وعدم التساهل أو الغفلة، لأن كل مطلقة – غالبا (رغبة إلى استئناف حياة زوجية جديدة،كي تثبت لنفسها ولغيرها أن إخفاقها في الحياة الزوجية الماضية لم يكن لعجز فيها أو نقص، وأنها قادرة على أن تجتذب رجلاً آخر وأن تنشئ حياة جديدة..

وهذا الدافع لا يوجد بطبيعته في نفس الرجل، لأنه هو الذي طلق بينما يوجد بعنف في نفس المرأة لأنها هي التي وقع عليها الطلاق، وهكذا يصور القرآن الحالة النفسية من خلال التعبير كما يلحظ هذه الحالة ويحسب لها حساباً..يتربصن بأنفسهن هذه الفترة كي يتبين براءة أرحامهن من آثار الزوجية السابقة قبل أن يصرن إلى زيجات جديدة).

ومن نماذج الخبر الدال على الأمر قوله تعالى :

﴿ ۞ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا .... ۚ ﴾ [سورة البقرة:٢٣٣]

حيث جاء الأمر في صورة الخبر، وبدل من أن يقال :

(أرضعن أولادكن حولين) أخبر عن ذلك وقيل (والوالدات يرضعن أولادهن) وفي ذلك من الحث والحضيض على الإرضاع وبخاصة بعد الطلاق، فآية الإرضاع جاءت بعد آيات الطلاق، وهذا فيه ما فيه من غضب، ونشوز، وعنت قد يدفع المرأة إلى إفراغ غضبها من طليقها في ولدها، فتُعرض عن إرضاع الوليد نكاية في أبيه .

وأمر الإسلام في هذه الحالة الإنفاق عليها، حتى لا يضيع الوليد في زحام الغضب والمكايدة، وكذلك راعى ظروف الزوج فأمره بالإنفاق على قدر استطاعته، بالمعروف، زد على ذلك إن الإرضاع فطرة للأم لذلك سماها في الآية (والدة)وقد ذهب العلامة بن عاشور إلى أن ذلك الخبر لا يحمل دلالة الأمر، وإنما هو تشريع، **يقول :**

(وجملة يرضعن خبر مراد بـه التشريـع، وإثبـات حـق الاسـتحقاق وليس بمعنى الأمر للوالدات والإيجاب عليهن لأنه قـد ذكـر بعـد أحكـام المطلقات، ولأنه عقب بقوله وإن أردتم أن تسترضعوا فإن الضـمير شـامل للآباء والأمهات على وجه التغليب كما يأتي، فلا دلالة في الآية عـلى إيجـاب إرضاع الولد على أمه، ولكن تدل على أن ذلك حق لهـا، **وقـد صرح بـذلك في سورة الطلاق بقوله :**

﴿....وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ ﴿٦﴾﴾ [سورة الطلاق:٦]

ولأنه عقب بقوله:(وعلى المولود لـه رزقهـن وكسـوتهن بـالمعروف) وذلك أجر الرضاعة، والزوجة في العصمة لـيس لهـا نفقـة وكسـوة لأجـل الرضاعة، بل لأجل العصمة.

وقوله: أولادهن صرح بالمفعول مـع كونـه معلومـا، إيـماء إلى أحقيـة الوالدات بذلك وإلى ترغيبهن فيه لأن في قوله: أولادهن تذكيرا لهن بـداعي الحنان والشفقة، فعلى هذا التفسير- وهو الظـاهر مـن الآيـة والـذي عليـه جمهور السلف- ليست الآية واردة إلا لبيـان إرضـاع المطلقـات أولادهـن فإذا رامت المطلقة إرضاع ولدها فهي أولى بـه، سـواء كانـت بغـير أجـر أم طلبت أجر مثلها، ولذلك كان المشهور عن مالـك: أن الأب إذا وجـد مـن ترضع له غير الأم بدون أجر وبأقل من أجر المثل، لم يجب إلى ذلك)(١).

١- التحرير والتنوير لا بن عاشور ٢/ ٤٣٩.

والشيخ يريد أن ذلك تشريع لها ،وليس واجبا عليها، ولعل في كلامه ما يشعر بأن المرأة تؤمر بالإرضاع في أوقات، ولا تؤمر في غيرها، والمقام هو الذي يذهب بالنص إلى الأمر، أو التشريع .

وقد تجد الأمر في القرآن الكريم مدلولا عليه بالمباشرة حيث يقال مثلا : ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ۝٥٨ ﴾ [سورة النساء:٥٨]

وكأن الآية تضع المخاطبين في ركن واحد هو ركن الإلزام الذي لا مزيد عليه، فلا احتمال هنا لتأويل، أو شرح : (الله يأمركم) هكذا فلا وجه للمعنى إلا الوجوب والإلزام . **وكذلك في قوله سبحانه :**

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ۝٩٠ ﴾ [سورة النحل:٩٠]

سادسا:أسلوب الاستفهام الدال على الأمر :

الاستفهام والأمر قرينان من حيث إن كلا منهما طلب إيجاد، فالاستفهام طلب إيجاد صورة الشيء في الذهن، والأمر طلب تحقيق مدخول الأداة في الواقع، وحين تجد أداة الاستفهام حاملة معنى الأمر فاعلم أن الكلام فيه شوب من هذا وذاك ،وغن كانت الدلالة متوجهة رأسا إلى الأمر فإن الاستفهام مازال متعلقا بالأداة، ومن هذه النماذج التي ترى فيها الاستفهام حاملا دلالة الأمر **قوله تعالى :**

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾ [سورة المائدة: ٩٠-٩١]

وراجع مرة ثانية قوله تعالى : (فهل أنتم منتهون) ورددها في نفسك وحاول أنت تستبطن ما يراد، فإنك ستجد الحق يريد من المخاطبين بلطف الانتهاء عن الخمر والميسر، ولو سألت وقلت : وما وجه العدول : انتهوا عن الخمر والميسر، إلى : فهل أنتم منتهون ؟ لسمعت نفسك تحدثك عن شدة انغماس الناس وقتئذ في الخمر والميسر حتى كان الرجل ليعرض عليه الإسلام فيستحسنه ويهم بالدخول فيه، فيقال له : إن الإسلام ينهى عن شرب الخمر، فتجده يولي ظهره، ويعرض عن الإسلام من اجل الخمر فكان من العسر النهي المباشر، لشدة اختلاط النفوس بالخمر والميسر فاختير لهم هذا الأسلوب الرقيق، الذي يراوجد النفس، ويأمرها لكن بلطف، ويوجهها لكن بحكمة وعظة حسنة .

وسورة المائدة تزخر بذكر تشريعات متعلقة بالحلال والحرام، حيث ورد الحديث عن ذلك ست عشرة مرة ،وفي الآية التي بصددها الحديث جاء الأمر باجتناب أربعة أشياء:(الخمر، والميسر، والأنصاب، والأزلام) فكلها رجس من عمل الشيطان، وكل واحد منها باب إلى ما بعده، ثم ختمت الآية باسلوب استفهام حاملٍ للأمر المستور خلفه، وهو : (فهل أنتم منتهون)، يعني : انتهوا، فذلك خير لكم، ويعقب على هذا الاستفهام سيدنا عمربن الخطاب بفقهه فيقول : انتهينا . ؛ لأنه فهم المراد.

ومثل ذلك الأسلوب الذي ترى فيه الاستفهام دالا على الأمر قوله تعالى : ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٣) فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٤)﴾ [سورة هود:١٣-١٤]

فالآيتان تستعرضان إنكار المشركين لنزول القرآن الكريم من عند الله تعالى، ويزعمون أنه مفترى، فتحداهم القرآن بأن يأتوا بمثله، أو بعشر سور مثله ،أوبسورة من مثله، أو بحديث مثله ... إلخ ولهم أن يجمعوا من الأنصار ما يشاءون ليستعينوا بهم على إيجاد مثله، فلن يستطيعوا ،ولن يستجيبوا، وعندها فعلى كل مسلم أن يعلم أن القرآن نزل بعلم الله تعالى وأن يسلم بذلك، **وكأنه قال للمسلمين** : (اعلموا أنه من عند الله، وأسلموا) فالاستفهام في : فهل أنتم مسلمون ؟ يعني : أسلموا، وأيقنوا بأنه من عند الله، ولا تكونوا مثلهم في الإنكار والجحود .

ومجيء الأمر في ثوب الاستفهام يحيط الأمر بخيوط من الحث والتحضيض والتقرير والتوكيد، ولذلك أدخل أداة الاستفهام على المسند إليه،(أنتم) ولم يقل : فهل تسلمون ؟

وجاء مثل ذلك في سورة الأنبياء عند الحديث عن التوحيد وقيل :

﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٠٨)﴾

[سورة الأنبياء:١٠٨]

وكذلك قوله تعالى : ﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [سورة الأنبياء:٧٨-٨٠]

ومثله في قوله تعالى : ﴿ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ [سورة الشعراء:٣٨-٣٩]

فالذي لا شك فيه أن المراد هو : اجتمعوا، وليس الاستفهام، لأن الجامع وقتئذ فرعون، وفرعون لا يسأل الناس، بل يأمرهم، ومتى كانت الفراعين تستأذن الناس ؟ ! وانظر حولك حتى تستيقن أن المراد هو الأمر وإذا كان السحرة جُمعوا، وهم من هم ؟ ! منزلة ومكانة عند فرعون وعند الناس، فهل يُستأذن غيرهم ؟ !

لكن اللافت أن الآية وضعت الأمر في ثوب الاستفهام لتبيّن مكر الفراعين ولؤمهم حين يصورون للناس أنهم محل تقدير واحترام فيأمرونهم في أسلوب هين لين، فيخدعونهم، والعجيب أن القوم يصدقون، ويهللون !!!، إنهم كانوا قوما فاسقين .

ومن ذلك أيضا قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾ ﴾ [سورة آل عمران: ٢٠]

وراجع قوله :(أأسلمتم) لتعلم أن المراد منها : أسلموا، لذلك أتبعها بقوله : فإن أسلموا فقد اهتدوا، ووجه العدول أن الاستفهام يحمل الأمر وزيادة، لأن في الاستفهام معنى الأمر، والإسراع فيه، والتهديد الشديد عند عدم الاستجابة، ولذلك قال بعدها مهددا (فإن أسلموا فقد اهتدوا).

ومنه أيضا قوله تعالى : ﴿ **وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٣﴾** ﴾ [سورة التوبة:١٢-١٣]

ولكي تستيقن من أن الاستفهام أريد به الأمر ضع هاتين الجملتين بجوار بعضهما : (قاتلوا أئمة الكفر ألا تقاتلون قوما نكثوا) فالجملة الثانية كأنها توكيد للأولى، وحاثة عليها، ولائمة لهم على تقاعسهم .

أسلوب النهي

النهي: طلب الكف، او الزجر عن الشيء، سواء بالقول **كأن تقول** : لا تفعل وذلك **نحو** :

- **(لا تكونوا كاللذين آذوا موسى)**
- **(لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى)**
- **(لا تعتدوا)**

- (لا تخونوا الله والرسول)
- (لا تحرموا ما أحل الله لكم) .... إلخ .

أو يكون طلب الكف عن الفعل بما يفهم منه المراد وذلك نحو قوله تعالى : ﴿وَيَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٩﴾﴾ [سورة الأعراف:١٩]

فالمراد بلا شك : لا تأكلوا من هذه الشجرة، لاكن الآيات جاءت بعدم الاقتراب، وهذا أبلغ في النهي، **ولهذا قال الشيطان بعد أن أزلهما :**

﴿....وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ ....﴾ [سورة الأعراف:٢٠]

وقد يستعمل لفظ النهي الصريح كما جاء في القرين الكريم في قول الله تعالى :﴿ ....وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ ....﴾ [سورة النحل:٩٠]

واستعمال اللفظ الصريح (ينهى) لا يدع مجالا لتأول، ولا لتجوز فالدلالة اوضح من أن تفسر، فكل فاحشة جاء النهي عنها صريحا من فوق سبع سماوات، **وكذا تجد الحال في حديث النبي ﷺ :**

(فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ : بِهَذَا الْحَدِيثِ نَحْوَ حَدِيثِ شُعْبَةَ، وَقَالَ: أَنْهَاكُمْ عَمَّا يُنْبَذُ فِي الدُّبَّاءِ، وَالنَّقِيرِ، وَالْحَنْتَمِ، وَالْمُزَفَّتِ) فالرسول ينهى عن شرب ما ينبذ في هذه الأوعية إما لأنها تسرع في التغير والإسكار أو أنها يسرع إليها الفساد والإضرار .

صيغة (لا تفعل)

أعني (لا) الناهية الجازمة الداخلة على المضارع مثل قوله تعالى :

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينًا ١٤٤﴾ [سورة النساء:١٤٤]

فالنهي موجه للمؤمنين لأنهم أشد سرعة في الاستجابة، والطاعة وفي الآية الأولى فرق بين(لا توالوهم) و (لا تتخذوهم أولياء) لأن (الاتخاذ) فيه معنى التمكن والحرص والسعي في تحقيق ما يراد اتخاذه وليا ولذلك رتب على اتخاذ الكافرين أولياء محاربة الله تعالى، فكل من يتخذ الكافرين أولياء يدخل نفسه في دائرة العداوة مع الله y .

ومنه قوله :﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهٗا ٦٩﴾ [سورة الأحزاب:٦٩]

وفرق أيضا بين :(لا تؤذوا موسى) و(لا تكونوا كالذين آذوا موسى) لأن الذين آذوه لم يكتفوا بتهمة واحدة، بل ساقوا فيه كثيرًا من ألوان الإيذاء، فبدلا من تعديد هذه الأنواع، نهى عن التشبه بهم في سلوكهم تجاه نبيهم عليه الصلاة والسلام، فنهى عن التشبه بهم، وهذا أعلى درجات النهي .

(ومن سنة البيان القرآني حين يذهب إلى الإبلاغ في النهي عن الشيء أن يعمد إلى أعلى صوره، وأشنعها فينهى عنها بغية الوصول إلى أن يقلع عن الفعل كله، ولا يتلبس المنهي بأي صورة من صور الفعل، وذلك مسلك من مسالك التربية والهداية والإبانة)(١)، **وراجع في مثل ذلك قوله تعالى** : ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ۚ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾﴾ [سورة النور:٣٣]

يقول ابن عطية:(روي أن سبب هذه الآية هو أن عبد الله بن أبي ابن سلول كانت له أمة تسمى مسيكة، وقيل معادة، فكان يأمرها بالزنا والكسب به، فشكت ذلك إلى النبي عليه السلام، فنزلت الآية فيه وفيمن فعل فعله من المنافقين وقوله: (إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً) راجع إلى «الفتيات» وذلك أن الفتاة إذا أرادت التحصن فحينئذ يتصور ويمكن أن يكون السيد مكرها، ويمكن أن ينهى عن الإكراه وإذا كانت الفتاة لا تريد التحصن فلا يتصور أن يقال للسيد لا تكرهها، لأن الإكراه لا يتصور فيها وهي مريدة للزنا)(٢).

ويقول أبو السعود في تفسيره :

١- دلالات التراكيب لمحمد أبي موسى ص ٢٧٤ ، وصورة الأمر والنهي لمحمود توفيق ص ٦٥.
٢- المحرر الوجيز ٤ / ١٨٢.

(﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ ليس لتخصيص النَّهي بصورة إرادتهِنَّ التَّعففَ عن الزِّنا وإخراجِ ما عداها من حُكمه كما إذا كان الإكراه بسبب كراهتهنَّ الزِّنا لخصوصِ الزَّاني أو لخصوصِ الزَّمانِ أو لخصوصِ المكانِ أو لغيرِ ذلكَ من الأُمور المُصحِّحةِ للإكراه في الجُملةِ بل للمحافظةِ على عادتهم المستمرَّة حيثُ كانُوا يكرهونهنَّ على البغاء وهنَّ يُردن التَّعففَ عنه) (١).

(وأخطر من وجود الرقيق في الجماعة، احتراف بعض الرقيق للبغاء. وكان أهل الجاهلية إذا كان لأحدهم أمة أرسلها تزني وجعل عليها ضريبة يأخذها منها- وهذا هو البغاء في صورته التي ما تزال معروفة حتى اليوم- فلما أراد الإسلام تطهير البيئة الإسلامية حرم الزنا بصفة عامة **وخص هذه الحالة بنص خاص**:

«وَلا تُكْرِهُوا فَتَياتِكُمْ عَلَى الْبِغاءِ. إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً. لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَياةِ الدُّنْيا. وَمَنْ يُكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْراهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ» .فنهى الذين يكرهون فتياتهم على هذا المنكر، ووبخهم على ابتغاء عرض الحياة الدنيا من هذا الوجه الخبيث.

ووعد المكرهات بالمغفرة والرحمة. بعد الإكراه الذي لا يد لهن فيه.

هذا النهي عن إكراه الفتيات على البغاء- وهن يردن العفة- ابتغاء المال الرخيص كان جزءا من خطة القرآن في تطهير البيئة الإسلامية.

١- تفسير أبو السعود ٦ / ١٧٣.

وإغلاق السبل القذرة للتصريف الجنسي. ذلك أن وجود البغاء يغري الكثيرين لسهولته، ولو لم يجدوه لانصرفوا إلى طلب هذه المتعة في محلها الكريم النظيف.

ولا عبرة بما يقال من أن البغاء صمام أمن، يحمي البيوت الشريفة لأنه لا سبيل لمواجهة الحاجة الفطرية إلا بهذا العلاج القذر عند تعذر الزواج. أو تهجم الذئاب المسعورة على الأعراض المصونة، إن لم تجد هذا الكلأ المباح) [1].

ومن أساليب النهي قوله تعالى:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَـٰفًا مُّضَـٰعَفَةً .... ﴾

[سورة آل عمران:١٣٠]

فالنهي في قوله (لا تأكلوا) حيث دخلت (لا) الناهية على الفعل المضارع (تأكلوا)، **يقول الشيخ الشعراوي رحمه الله** :

الأضعاف هي: الشيء الزائد بحيث إذا قارنته بالأصل صار الأصل ضعيفاً، فعندما يكون أصل المال مائة – على سبيل المثال – وسيؤخذ عليها عشرون بالمائة، كفائدة، فيصبح المجموع مائة وعشرين. إذن فالمائة والعشرون تجعل المائة ضعيفة، هذا هو معنى أضعاف. فماذا عن معنى «مضاعفة» ؟

١- من كتاب الشهيد المطارد ٤/ ٢٥١٦.

إننا سنجد أن المائة والعشرين ستصبح رأس مال جديداً، وعندما تمر سنة ستأخذ فائدة على المائة وعلى العشرين أيضا، إذن فالأضعاف ضوعفت أيضاً، وهذا ما يسمى بالربح المركب، وهل معنى هذا أننا نأكله بغير أضعاف مضاعفة؟

لا ؛ لأن الواقع في عهد رسول الله ﷺ كان هكذا.

وقد يقول لك واحد: أنا أفهم القرآن وأن المنهي هو الأضعاف المضاعفة، فإذا لم تكن أضعافاً مضاعفة فهل يصح أن تأخذ ربحاً بسيطاً يتمثل في نسبة فائدة على أصل المال فقط؟ **ومثل هذا القائل نرده إلى قول الله**: ﴿....وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾﴾ [سورة البقرة:٢٧٩]

إن هذا القول الحكيم يوضح أن التوبة تقتضي أن يعود الإنسان إلى حدود رأس ماله ولا يشوب ذلك ربح بسيط أو مركب. وعندما نجد كلمة {أَضْعَافاً مُّضَاعَفَةً} فهي قد جاءت فقط لبيان الواقع الذي كان سائداً في أيامها) [1].

ولو افترضنا أن الكلام على ظاهره فلا يصح أن يؤخذ من مفهوم الآية أنه يجوز للإنسان أن يتعامل بالربا إذا كانت نسبته ضئيلة .

١- تفسير الشيخ الشعراوي ٢/ ١١٩١.

الخبر الدال على النهي .

ويأتي الخبر المنفي في سياق يفيد النهي، فترى النفي ظاهرا، والنهي باطنا، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ (٨٣) ﴾ [سورة البقرة:٨٣]

ففي الميثاق تكاليف، ومن التكاليف الأوامر والنواهي، فتجد الأوامر منها الصريح مثل (أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة)، ومنها الأمر عن طريق المصدر، مثل : (وبالوالدين إحسانا) وتجد النهي في جملة : (لا تعبدون إلا الله) أي : لا تعبدوا إلا الله، إلا أن النهي جاء في صورة الخبر للمبالغة في الطلب، لأن هذا التكليف من التعظيم والأهمية ما لا مزيد عليه، وقد جاء في قراءة أبي بن كعب : (لا تعبدوا) .

ومن ذلك أيضا قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ (٨٤) ثُمَّ أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٨٥) ﴾ [سورة البقرة:٨٤-٨٥]

فالسياق كله يأخذك إلى أن المراد بـ (لا تسفكون، ولا تخرجون) هو (لا تسفكوا ولا تخرجوا) **وراجع ثانية قوله من بعد** : (ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم ... إلخ ، *وكأنه قيل لهم* : نهيناكم عن سفك الدماء وأخذنا عليكم المواثيق، والتزمتم بالميثاق ثم نقضتم العهد فقتلتم الناس، وأخرجتموهم من ديارهم، وعبر عن ذلك بـ تقتلون أنفسكم، والمراد قتل إخوانهم، وإخراج إخوانهم من ديارهم، لأن قتل الأخ كقتل النفس تماما .

ومنه أيضا قوله تعالى : ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾﴾ [سورة البقرة:١٩٧]

أي من عزم على الحج فلا يرفث ،والرفث هو ما يفعل مع الزوجة بداية من المداعبة حتى الجماع، ولذلك ذكر أبو علي الفارسي أن ابن عباس أنشد بيت شعر فيه ذكر الجماع وهو مُحْرم بالحج، فقيل له أترفث وأنت محرم ؟

فقال : إنما الرفث ما كان عند النساء، وهذا دليل على أن الخبر في الآية في قوله : (لا رفث) أريد به النهي، أي : لا يرفثْ.

ويلحق بذلك(لا فسوق ولا جدال) ولذلك جاء في الحديث : (من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه)(١).

١- صحيح مسلم رقم ١٣٥٠ باب من حج فلم يرفث.

المهم : أن إخراج النهي في صورة الخبر فيه إبلاغ في النهي ،وهناك تفاوت كبير بين خطاب النفي، وخطاب النهي في القرآن الكريم يحتاج إلى دراسة مستقلة .

أسلوب الاستفهام المفيد للنهي .

كما يفيد الاستفهام الأمر ،كذلك يفيد مع السياق معنى النهي، **وانظر إلى قوله تعالى** :﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾ [سورة آل عمران:٧١]

فالمعنى كما يبدوا واضحا : يا أهل الكتاب لا تكفروا، يا أهل الكتاب لا تلبسوا الحق بالباطل . والاستفهام هنا يحمل معنى التوبيخ من كفرهم وكأنه لا وجه لهذا الكفر، ولا علة لهذا التلبيس ،فلم يفعلون كل ذلك وهم يعلمون من كتابهم صدق هذا الرسول؟ .

ومن هذا الضرب قوله تعالى:﴿ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ [سورة التوبة:١٣]

ففي قوله : (أتخشونهم) دلالة واضحة على النهي، أي : لا تخشوهم وعقب على ذلك بقوله : (فالله أحق أن تخشوه) ويحمل الاستفهام مع النهي التعريض بهؤلاء الذين يخشون غير الله تعالى .

ومنه أيضا قوله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴿٢﴾ ﴾ [سورة الصف:٢]

والمراد : لا تقولوا ما لا تفعلون، إلا أنه أخرج مخرجه توبيخا أو تعجيبا من فعلهم. **وهنا يثور سؤال هو:هل الأمر بالشيء يستلزم ضده؟**

إن العلاقة بين الأمر والنهي مختلف فيها عند أهل العلم، فقيل إن الأمر بشيء نهي عن ضده، والنهي عن شيء أمر بضده .

فحين تقول آمرا : (اسكت) فأنت تعني ناهيا : (لا تتكلم) فالأمر بالسكوت هو هو النهي عن الكلام .

ورفض آخرون هذا التعميم ،وقالوا ليس ذلك بلازم، **فحين قيل مثلا :** ﴿ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ ﴾ [سورة البقرة:٤١]

ليس النهي في قوله : (لا تكونوا أول كافر به) أمر بأن يكونوا كافرين في المرتبة الثانية أو الثالثة، بل المقصودأن يكونوا أول المؤمنين بالقرآن الكريم، لأن عندهم دلائل صدقه .

وقيل إن ذلك كائن إن كان النهي عن شيء معين، لأن النهي عن المعين دال على ضده ضمنا ولذلك فرق العلماء **بين قولك :**

(لا تنم واجلس)**وقولك:** (اجلس ولا تنم) ففي الجملة الأولى كان ذكر (اجلس) بعد النهي عن النوم يجمع تأكيد النهي عن النوم وتخصيص

الجلوس من بين أضداد عدم النوم مثل الوقوف، والركوع والمشي- فالمخاطب قبل الأمر بالجلوس لو فعل واحدة من هذه لحقق النهي عن النوم .

لكن في قولك:(اجلس ولا تنم) كان النهي عن النوم تأكيدا للجلوس، فلو قام أو مشى لكان عاصيا، وللعلماء كلام كثير في عطف الأمر على النهي ،والعكس .

وجاء في القرآن الكريم التصريح بالنهي عن الشيء ثم العطف عليه بالتصريح بالأمر بضده، **وذلك مثل قوله تعالى** :

﴿.....**وَٱشْكُرُواْ لِي وَلَا تَكْفُرُونِ** ﴿١٥٢﴾﴾ [سورة البقرة:١٥٢]

فقوله : (لا تكفرون) متضمن معنى : اشكروا لي لأن شكر النعمة يعني عدم كفرها والعكس صحيح، ويبقى سؤال : فما وجه ذكر جملة النهي بعد الأمر ؟

وجه ذلك أن الشكر له ضروب كثيرة، فقد يكون باللسان أو بوضعها في موضعها، أو بحسن التعامل معها، أو بالحفاظ عليها لوقت شدة الاحتياج إليها ... إلخ .

لذلك صرح بالنهي عن كفران النعمة حتى يلتمس كل صاحب نعمة وجها من أوجه الشكر .

ومن ذلك أيضا قوله تعالى:

﴿ **وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ**.... ﴾ [سورة آل عمران:١٠٣]

فقوله:(**لا تفرقوا**) **عطفت على**:(اعتصموا) ووجه هذا الجمع أن

الاعتصام بحبل الله تعالى لا يتحقق على الانفراد، فكل واحد التزم أمر الله تعالى وحده، دون أن يكون في داخل قوله : (جميعا) لا ينطبق عليه مراد الآية، فالآية تتحدث عن الاعتصام الجمعي، الذي تجد فيه المناصحة والمناصرة، والتواصي بالحق وبالصبر، وتكثير السواد والدعوة، والتعاون على البر والتقوى والصبر على الأذى ... إلخ .

لذلك قيل:(جميعا) وهذا اللفظ لا ينبغي فهم الآية بعيدا عنه فالاعتصام جميعا هو المراد، وهو المنهي عن ضده في قوله:(ولا تفرقوا) فلا يظن أحد ان التزامه الفردي يحقق له معنى هذه الآية، لأن ذلك ما يزرعه الفاسقون في الأمة رغبة في تمزيقها، ويزعمون أنهم لا ينهون أحدا عن الصلاة والصيام !!!

أسلوب التمني:

التمني : طلب حصول المحبوب البعيد، أو المستحيل، فمن المستحيل **قول الله تعالى حكاية عن الكافرين يوم القيامة** :

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾

[سورة الأنعام:٢٧]

(وهم يتمنون لو يردون إلى الدنيا. وعندئذ فلن يكون منهم تكذيب بهذه الآيات، وعندئذ سيكونون من المؤمنين! ولكنها ليست سوى الأماني التي لا تكون! على أنهم إنما يجهلون جبلتهم. فهي جبلة لا تؤمن.

وقولهم هذا عن أنفسهم: إنهم لو ردوا لما كذبوا ولكانوا مؤمنين، إنما هو كذب لا يطابق حقيقة ما يكون منهم لو كان لإجابتهم من سبيل! وإنهم ما يقولون قولتهم هذه، إلا لأنه تكشف لهم من سوء عملهم وسوء مغبتهم ما كانوا من قبل يخفونه على أتباعهم ليوهموهم أنهم محقون، وأنهم ناجون وأنهم مفلحون.

لقد تمنوا الرجوع إلى الدنيا حين لا رجوع، واعدين أن لا يكذبوا بما جاءهم، وأن يكونوا من المؤمنين بآياته العاملين بمقتضاها حتى لا يرون هذا الموقف الهائل، ويكونون من فريق المؤمنين الناجين من العذاب الفائزين بحسن المآب. ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [سورة الأنعام:٢٨]

إن الله يعلم طبيعتهم ويعلم إصرارهم على باطلهم ويعلم أن رجفة الموقف الرعيب على النار هي التي أنطقت ألسنتهم بهذه الأماني وهذه الوعود.. «وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ»(١).

وقوله تعالى:

﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ ۖ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾﴾ [سورة القصص:٧٩]

وراجع هذا النداء قبل التمني، وما فيه من لهفة على متاع الحياة الدنيا

١- من كتاب الشهيد المطارد ٢/ ١٠٦٨ وتفسير القرآن الكريم للمقدم ٢٠/٥٠.

ولكنهم انتبهوا حين رأوا العاقبة، **يقول الفخر** :

(اعلم أن القوم الذين شاهدوا قارون في زينته لما شاهدوا ما نـزل بـه من الخسف صار ذلك زاجرا لهـم عـن حـب الـدنيا ومخالفـة موسـى عليه السلام وداعيا إلى الرضا بقضاء الله تعـالى وقسـمته وإلى إظهـار الطاعـة والانقيـاد لأنبياء الله ورسله.

أمـا قولـه: ويكـأن الله فـاعلم أن (وي) كلمـة مفصـولة عـن كـأن وهي كلمة مستعملة عند التنبه للخطأ وإظهار التندم، فلما قالوا: يا ليت لنـا مثل ما أوتي قارون، ثم شاهدوا الخسف تنبهوا لخطئهم فقـالوا: (وي) ثـم قالوا: كأن الله يبسط الرزق لمن يشاء مـن عبـاده بحسـب مشـيئته وحكمتـه لا لكرامته عليه، ويضيق على من يشاء لا لهوان من يضيق عليه بـل لحكمتـه وقضائه ابتلاء وفتنة قال سيبويه: سألت الخليل عـن هـذا الحـرف فقـال إن (وي) مفصولة من كأن وإن القوم تنبهوا وقالوا متنـدمين عـلى مـا سـلف منهم (وي).

وذكر الفراء وجهين أحدهما: أن المعنى ويلك فحذف اللام وإنما جاز هذا الحذف لكثرتها في الكلام وجعل أن مفتوحـة بفعـل مضـمر كأنـه قـال ويلك اعلم أن الله، وهذا قول قطرب حكاه عن يونس .

الثاني: (وي) منفصلة من كأن وهو للتعجـب يقـول الرجـل لغـيره (وي) أما ترى ما بين يديك فقال الله (وي) ثم اسـتأنف كـأن الله يبسـط فالله تعالى إنما ذكرها تعجيبا لخلقه.

قال الواحدي: وهذا وجه مستقيم غير أن العرب لم تكتبها منفصلة ولو كان على ما قالوه لكتبوها منفصلة، وأجاب الأولون بأن خط المصحف لا يقاس عليه، ثم قالوا: لولا أن من الله علينا لخسف بنا ويكأنه لا يفلح الكافرون، وهذا تأكيد لما قبله) (١).

وقال الشاعر علي بن زيدان اليمني يمدح الفائز بن الظافر صاحب مصر ووزيره الصالح بن رزيك:

الحمد للعيس بعد العزم والهمم	**حمداً يقوم بما أولت من النعم**
لا أجحد الحق عندي للركاب يد	**تمنت اللجم فيها رتبة الحطم**
قربن بعد مزار العز من نظري	**حتى رأيت إمام العصر من أمم**
ورحن من كعبة البطحاء والحرم	**وفداً إلى كعبة المعروف والكرم**
فهل درى البيت اني بعد فرقته	**ما سرت من حرم إلا إلى حرم**
حيث الخلافة مضروب سرادقها	**بين النقيضين من عفو ومن نقم**
وللامامة أنوار مقدسة	**تجلو البغيضين من ظلم ومن ظلم**
وللنبوة آيات تنص لنا	**على الحقيقين من حكم ومن حكم**
وللمكارم أعلام تعلمنا	**مدح الجزيلين من بأس ومن كرم**
وللعلى ألسن تثني محامدها	**على الحميدين من فعل ومن شيم**

١- مفاتيح الغيب للفخر الرازي ٢٥/ ١٨.

وراية الشرف البذاخ ترفعها ... يد الرفيعين من مجد ومن همم
أقسمت بالفائز المعصوم معتقداً ... فوز النجاة واجر البر في القسم
لقد حمى الدين والدنيا واهلها ... إمامنا الفائز الفراج للغمم
اللابس الفخر لم تنسج غلائله ... إلا يد الصانعين السيف والقلم
وجوده شرف الأيام فافتخرت ... وجوده أعدم الشاكين للعدم
قد ملكته العوالي رق مملكة ... تعير أنف الثريا عزة الشمم
أرى مقاماً عزيز الشأن أوهمني ... في يقظتي إنها من جملة الحلم
يوم من العمر لم يخطر على أملي ... ولا ترقت إليه رغبة الهمم
ليت الكواكب تدنو لي فانظمها ... عقود مدح فما أرضى لكم كلمي
ترى الوزارة فيه وهي باذلة ... عند الخلافة نصحاً غير متهم
عواطف ووزير مد عدلها ... ظلاً على مفرق الإسلام والامم
زيادة النيل نقص عند فيضها ... فما عسى يتعاطى هاطل الديم؟

ومعلوم أن الكواكب لا تدنو من أحد، ولذلك تمناها لينظمها وهذا أشد تعقيدا واستحالة، فإذا كان دنوها مستحيلا، فإن نظمها لو دنت أشد استحالة، والأعجب أنه سينظمها عقود مدح، كيف ؟ يعلم الله !!!

وإذا كان دنو الكواكب مستحيلا، فإن الأكثر استحالة ما قاله محمد بن عبد الملك الزيات يشتكى مصابه ويذكر فجيعته ويبكى على زمانه حيث يقول :

عريت من الشباب وكنت غضّا ... كما يعرى من الورق القضيب

ونُحت على الشباب بدمع عينى ... فما نفع البكاء ولا النحيب

فيا أسفا أسفت على شباب ... نفاه الشيب والرأس الخضيب

ألا ليت الشباب يعود يوما ... فأخبره بما فعل المشيب

وتمنَّى ابْن الرُّومي أنْ يكون ليلُ رمضان شهراً، وأن يمرَّ نَهَارُه مرَّ السحاب فقال :

إذا برّكت في صوم لقوم ... دعوت لهم بتطويل العذاب

وما التبريك في شهر طويل ... يطاول يومه يوم الحساب

فليت الليل فيه كان شهرا ... ومرّ نهاره مرّ السحاب

فلا أهلا بمانع كل خير ... أهلا بالطعام وبالشراب

ومن نماذج طلب الأمر البعيد، لكنه ممكن الحصول في الشعر قول مروان بن أبي حفصة في رثاء معن بن زائدة:

فليت الشامتين به فدوه ... وليت العمر مدّ له فطالا

وفداء الشامتين له، وامتداد العمر ليس من المستحيلات .

وللتمني لفظ واحد يدل عليه بالوضع، وهو « ليت » **يقول ابن يعيش في شرح المفصل عن هذا الحرف :**

(إن " ليت" للتمني، كقوله تعالى: { ياليتنا نُرَدُّ } ويجوز عند الفراء أن تجري مجرى "أتمنى"، فيقال: " ليت زيداً قائماً "، كما يقال: " أتمنى زيداً قائماً "، والكسائي يجيز ذلك على إضمار "كأن" .

و"لَيْتَ" حرف ثلاثيُّ البناء، مثلُ "إنَّ" و"أنَّ " وحقّه أن يكون موقوف الآخر، إلَّا أنه حُرّك لالتقاء الساكنين، وفُتح طلبًا للخفّة، كأنّهم استثقلوا الكسرة بعد الياء، كما فعلوا ذلك في "أيْنَ" و"كَيفَ". ومعناها: أَتَمَنَّى. وتعمل عملَ أخواتها من نصب الاسم ورفع الخبر، **نحوَ قولك:**

"ليت زيدًا قائمٌ". قال الله تعالى: { يَالَيْتَنَا نُرَدُّ } فالنون والألف في موضعِ منصوب بأنّه اسم "لَيْتَ"، و"نردّ" في موضع الخبر.

وتقديره: مردودون.

وقال سبحانه﴿ : .....**قَالَتْ يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا** : .....﴾ [سورة مريم:٢٣]

فالنون والياء في موضع نصب، و"مِتُّ" في موضع رفع، أي: مَيْتٌ. وقد أجاز الفَرّاء أن تنصب لها الاسمَيْن جميعًا، فقال: "ليت زيدًا قائمًا"، على معنَى "ليت"، فكأنه قال: "أتمنّى زيدًا قائمًا"، أو"تمنّيتُ زيدًا قائمًا"، كأنّه يلمَح الفعلَ الذي ناب الحرفُ عنه فيُعْمِله.

وأجاز الكسائيّ نصب الاسمين معًا، لكن على غير هذا التقدير، وإنّما يُضْمِر "كانَ"، والتقدير عنده: "ليت زيدًا كان قائمًا".

قال: لأنّ "كانَ" تستعمل هنا كثيرًا، **نحوَ قوله تعالى:**

﴿يَٰلَيۡتَهَا كَانَتِ ٱلۡقَاضِيَةَ ٢٧﴾ [سورة الحاقة:٢٧]

وقوله تعالى:

﴿.....يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ مَعَهُمۡ فَأَفُوزَ فَوۡزًا عَظِيمٗا ٧٣﴾ [سورة النساء:٧٣] (١)

فليت في كل ذلك للتمني، لأنه الوحيدة في هذه الدلالة **يقول السكاكي** : (اعلم أن الكلمة الموضوعة للتمني هي (ليت) وحدها، وأما (لو وهل) في إفادتهما معنى التمني، فالوجه ما سبق وكأن الحروف المسماة بحروف التنديم والتحضيض **وهي**: (هلا، وألا، ولولا، ولوما) مأخوذة منهما مركبة مع (لا وما) المزيدتين مطلوبا بالتزام التركيب التنبيه على إلزام (هل ولو) معنى التمني، فإذا قيل هلا أكرمت أو ألا بقلب الهاء همزة أو لولا أو لوما فكأن المعنى ليتك أكرمت متولداً منه معنى التنديم، وإذا قيل هلا تكرم أو لولا فكأن المعنى ليتك تكرمه متولداً من معنى السؤال)(٢).

١- شرح المفصل لابن يعيش ٤/ ٥٦٨.

٢- مفتاح العلوم ص ٣٠٧.

وقد يتمنى بثلاثة ألفاظ أخرى لغرض بلاغي، وهذه الألفاظ هي (هل، لو، لعل) :

❖ التمني «بهل» ويتمنى بها غير الحاصل الذي لا يطمع فيه، وذلك **مثل قوله تعالى :**

﴿ ..... **فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشۡفَعُواْ لَنَآ** ..... ﴾ [سورة الأعراف:٥٣]

والغرض البلاغي المنشود من وراء التمني بلفظتي «هل» هو إبراز المتمني المستحيل وإظهاره في صورة الممكن القريب الحصول، لكمال العناية به والشوق إليه.

ومنه قول الشاعر :

(فَمَا أَكثر الْأَخْبَار أَن قد تزوجتْ فَهَل يأتيني بِالطَّلَاق بشير)

حيث جاءت (هل) في البيت للتمني، بأن يسمع خبر طلاقها بعد أن تكاثرت عليه أخبار زواجها، وألبس الشاعر التمني هنا ثوب الاستفهام ليجعل طلاقها قريبا نوعا ما بدلا من أن يكون بعيدًا .

❖ التمني بـ(لعل) وأصل دلالة " لعل " هي الرجاء، لكنها تأتي للتمني، إذا كان مطلوبها بعيدا أو مستحيلا . **ومن أمثلة ذلك قوله تعالى:**

﴿ **وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي فَأَوۡقِدۡ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجۡعَل لِّي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٣٨** ﴾

[سورة القصص:٣٨]

فتوهم فرعون أن الله تعالى جسم في السماء يمكن الرقي إليه، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .

فقال : ﴿ ....يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي .... ﴾ [سورة القصص:٣٨]

وهي كلمة عجيبة ، يتلقاها الملأ بالإقرار والتسليم. ويعتمد فيها فرعون على الأساطير التي كانت سائدة في مصر من نسب الملوك للآلهة. ثم على القهر، الذي لا يدع لرأس أن يفكر، ولا للسان أن يعبر. وهم يرونه بشرا مثلهم يحيا ويموت، ولكنه يقول لهم هذه الكلمة فيسمعونها دون اعتراض ولا تعقيب! ثم يتظاهر بالجد في معرفة الحقيقة، والبحث عن إله موسى، وهو يلهو ويسخر **ويقول** :

« فَأَوْقِدْ لِي يا هامانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلى إِلهِ مُوسى» ..

في السماء كما يقول! وبلهجة التهكم ذاتها يتظاهر بأنه شاك في صدق موسى، ولكنه مع هذا الشك يبحث وينقب ليصل إلى الحقيقة: «وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكاذِبِينَ» !)[١] كذا، وكأنه مطلع على ما في السماء خبير بما يحدث فيه، وهكذا يُضل الفراعين أتباعهم حين يوهمونهم

١- منكتاب الشهيد المطارد ٥/ ٢٩٦٤.

بأنهم عالمون، خبراء، يعرفون ما لا يعرفه الناس، وكم من مخدوعين بيننا بهؤلاء الفراعين، وتعجب حين ترى الفرعون يحدث الناس بالغرائب، والناس تصدق، كأنه يتحدث عن إلهام ووحي !!!!

ومن التمني بـ (هل ولعل) قول أَبي العباس أحمد بن يحيى:

بكيت إلى سرب القطا إذا مررن بي … وقلت ومثلي بالبكاء جدير

أسرب القطا هل من يعير جناحه … لعلى إِلَى من قد هويت أطير

فالشاعر استعمل في التمني أداتان غير (ليت) استعمل (هل) و(لعل) وهما أداتان تستعملان أصلاً في الترجّي، إلاَّ أنّ الشاعر استعملهما فيما هو مستحيل، ليلمح إلى رغبته الشديدة في حصول ما يتمنى ، ويُظْهِرَ مطلوبه بأنه أمر ممكن.

❖ التمني (بلو) تستعمل(لو) في التمني، وهي في الأصل حرف امتناع لامتناع، وفي استعمالها في التمني ما يشعرك بأن المتمنى شيء عزيز، **ومن أمثلة ذلك قوله تعالى:**

﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [سورة الشعراء:١٠٢]

وبالطبع لا رجعة ولا شفاعة، فالأمنيات كالخيال، (فلو) في هذا الوضع في معنى التمني **كأنه قيل** : " فليت لنا كرة " ، وذلك لما بين معنى (لو وليت) من التلاقي في التقدير) (١).

١- التفسير الكبير للرازي ٢٤/ ٥١٩.

ومن أمثلته أيضا قول جرير:

ولى الشباب حميدة أيامه ... لو كان ذلك يشترى أو يرجع

فتمنى بلو أن يشترى الشباب فيشتريه، ولكن هيهات .

ويقول مسلم بن الوليد:

واها لأيام الصبا وزمانه ... لو كان أسعف بالمقام قليلا

يتمنى صريعُ الغواني لو أسعفه الصبا فأقام معه قليلا وذلك بعد أن أنقضت أيام صباه، وهذا كما ترى أمر شديد المحال وفيه تحسر وجزع من الشاعر على تلك الأيام لذلك استعمل (لو) بدلا من (ليت) لما في (لو) من امتناع الحصول، فزاد في معنى الاستحالة، وبالغ في معنى البعد بهذه الأداة ، وإذا أردت أن تفرق بين التمني بـ(لو) والتمني بـ (هل) فاعلم أن (لو) تأتى في الأمر الذي انقطعت معه كل الآمال، كما في قول المشركين: (فلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} فهذا يعني أن حصول الكرّة المرجوة من المستحيلات الكبرى، وأنهم لم يقولوا ذلك إلا عندما تقطعت بهم الأسباب، وفقدوا كل أسباب النجاة من النار، بل ورأوا العذاب،**قال تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾** [سورة البقرة:١٦٦-١٦٧]

أما (هل) فإنها تأتى لتمنى الشيء وفيه بعض الرجاء، وبصيص من الأمل، وراجع قوله تعالى : {فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا} فهم لم يروا

العذاب ولم يدخلوا النار، وكل ما يرجونه في هذا المقام شفيع يشفع والشفاعة يوم القيامة متوقفة على إذن الله تعالى، وقد يأذن سبحانة، فما من شفيع إلا من بعد إذنه، فالأمر فيه بحبوحة، لذلك كانت أداة الاستفهام (هل) في التمني، أرجى من (لو) .

أسلوب النداء

النداء: من أكثر الأساليب دورانا في اللسان العربي، وعرفه العلماء بأنه :طلب إقبال المنادى بحرف من حروف النداء، والغاية من النداء غالبا أن يُصغى من تناديه إلى أمر ذي بال؛ ولذا غلب أن يلي النداء تكليف من المنادِي، بصيغة الأمر أو النهي، أوالاستفهام، أو الإخبار بحكم شرعي، كما في قوله تعالى :

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤﴾ [سورة المدَّثر:١-٤]

فنادى أولا ثم أمر بما أراد، وقوله:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ۝٨٧﴾ [سورة المائدة:٨٧]

وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ...... ﴾ [سورة التحريم:١]

وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ .... ﴾ [سورة الطلاق:١]

وقوله : ﴿ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝١١ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝١٢﴾ [سورة الصف:١١-١٢]

يقول البقاعي :

(أسلوب النداء أفخم الأساليب وأشدها تشويقاً ،ولا يكون ما بعده إلا بالغاً في العظم) [1].

ودلالة النداء على الطلب دلالة مطابقة، لأن أداة النداء عِوض عن الفعل (أقبل) وهو فعل أمر ،وذكر ابن يعقوب المغربي أن مدلول أداة النداء هو الفعل (أدعو)، وأما الإقبال فمطلوب اللزوم، وعللوا لذلك عدم جزم الفعل بعده، وقالوا : لو كان مضمنا معنى أقبل لجزم الفعل جوابا له، فدلالة النداء على الطلب ليست دلالة مطابقة، وإنما هي دلالة لزوم، **وينوب عن هذا الفعل الأدوات الآتية :-**

(يا – والهمزة – وأي –وآ –وآي – وأيا – وهيا – ووا)

وأكثرها استعمالا في اللسان العربي قرآنا وسنة، في الشعر والنثر هو (يا)، **وهذه الأدوات منها :**

- ✓ ما ينادى به القريب وهي : (الهمزة، وأي).
- ✓ وما ينادى به البعيد وهي بقية الأدوات.

والأصل أن ينادى على من يسمع الصوت، لأن المراد إقباله، ولكنك تجد في كلام العرب نداءً على ما لا يمكن أن يسمع الصوت، ولا يصل إليه الصوت ، وزادت اللغة في توسعها فنودي غير الحي، ونادوا الحيوان والحجر والشجر ... إلخ .

١- نظم الدرر في تناسب الآي والسور ٢٠ / ٣٣.

وذلك كله يقف من ورائه أغراض بلاغية، يساعد السياق والمقام على استنباطها .

ثم توسع اللغويون فأنزلوا البعيد منزلة القريب للإشعار بأنه حاضر لا يغيب عن الخاطر، وأنزلوا القريب منزلة البعيد للإشارة إلى غفلته والتشديد على تنبيهه، وإليك بعض النماذج من هذه النداءات .

قال تعالى حاكيا ما قاله سيدنا إبراهيم لأبيه :

﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾﴾

[سورة مريم:٤١-٤٥]

وراجع هذا الأدب في الخطاب، ومحاولة سيدنا إبراهيم هداية أبيه وبدايته في كل دعوة بقوله : (يا أبت) .

وفي قول الشاعر:

أسكان نعمان الأراك تيقنوا ... بأنكم في ربع قلبي سكان

تجد الشاعر ينادي سكان هذا الوادي، وأتى بحرف النداء للقريب ليدل على قربهم منه، مهما طال بعادهم .

وقد تأتي أداة النداء (يا) لتدل على البعد النفسي بين المنادي والمنادى عليه، **كما في قول الفرزدق وهو يهجو جرير بن عطية :**

أولئك آبائي فجئني بمثلهم إذا جمعتنا يا جرير المجامع

فأتى بأداة النداء (يا) ليشير إلى بعده عن قلبه، وجفائه له .

والأداة نفسها قد تحمل العلو في المقام والمنزلة، وذلك إذا استعملت من حبيب لحبيب ،**كما في قول الله تعالى:**

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ .... ﴾ [سورة المائدة:٦٧]

فنداء الحق جل وعلا هنا على رسوله بأداة النداء (يا) يحمل الرفعة والمنزلة العالية، وهكذا تستطيع أن تستخلص من السياق ما يتواءم مع أداة النداء .

وحين يكون النداء لرب العالمين فالأداة غالبا تحذف ويعوض عنها الميم، فتقول : (اللهم) أو تقول : (رب) فتشير بهذا إلى القرب الشديد في (رب) وإلى جميع أسماء الله تعالى في (اللهم) **كما في قوله سبحانه :**

﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ .... ﴾ [سورة آل عمران:٢٦]

﴿قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ .... ﴾ [سورة المائدة:١١٤]

﴿ دَعۡوَىٰهُمۡ فِيهَا سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ .... ﴾ [سورة يونس:١٠]

﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ عَٰلِمَ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحۡكُمُ بَيۡنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ٤٦ ﴾ [سورة الزُّمَر:٤٦]

وقد تنادي وأنت تريد الزجر والتهديد، كما قول الشاعر:

يا قلب ويحك ما سمعت لناصح   أما ارعويت ولا اتقيت كلاما

وقول المهلهل:

يا آل بكر انشروا لي كليبا   يا آل بكر أين أين الفرار

وقد تنادي على نفسك متحسرا، متألما ، كما في :

﴿......يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ مَعَهُمۡ فَأَفُوزَ فَوۡزًا عَظِيمٗا ٧٣﴾ [سورة النساء:٧٣]

وقوله تعالى :﴿ فَأَجَآءَهَا ٱلۡمَخَاضُ إِلَىٰ جِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ قَالَتۡ يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا ٢٣﴾ [سورة مريم:٢٣]

وقد يفيد النداء معنى الإغراء كما في قول القائل : (يا مظلوم) يطلب منه عرض شكايته، يقول ابن يعقوب : (لا تريد بقولك : يامظلوم، طلب إقباله حسًا أو معنى، لحصوله وإنما أردت إغراءه وحثه على زيادة التظلم الذي هو بث الشكوى ،وتحريكا لدعايته على الشكوى بذكر ظلمه على وجه النداء) (١).

وقد يحمل النداء معنى التنبيه، والتحذير كما في حديث أُمِّ سَلَمَةَ، عن النَّبِيَّ (ﷺ) أنه اسْتَيْقَظَ لَيْلَةً، فَقَالَ: (سُبْحَانَ اللَّهِ مَاذَا أُنْزِلَ اللَّيْلَةَ مِنَ الْفِتَنِ؟ مَاذَا أُنْزِلَ مِنَ الْخَزَائِنِ؟ مَنْ يُوقِظُ صَوَاحِبَ الْحُجُرَاتِ؟ يَا رُبَّ كَاسِيَةٍ فِي الدُّنْيَا، عَارِيَةٍ فِي الآخِرَةِ)(٢).

١- مواهب الفتاح ٢/ ٢٣٥.

٢- البخاري رقم ٩٣.

وقال ابن مالك إنها زائدة، وايده ابن حجر في فتح الباري فقال : (قوله رب كاسية في الدنيا في رواية سفيان (فرب) بزيادة فاء في أوله وفي رواية بن المبارك يا رب كاسية بزيادة حرف النداء في أوله وفي رواية هشام (كم من كاسية في الدنيا عارية يوم القيامة) (١).

وقد تنادي مستغيثا كما حكى القرآن الكريم عن سيدنا أيوب حيث نادى ربه مستغيثا **فقال :**

﴿ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ ﴿٤٢﴾ ﴾ [سورة ص:٤١-٤٢]

١- فتح الباري لابن حجر ١٣/ ٢٢

فقوله : (إذ نادى) يعني أنه قال : يا رب) [١]،فاستعملت الآيات الفعل الصريح لترسم المعنى بتفاصيله .

---

١ ذكر الفخر الرازي قصة ايوب في تفسيره وقال فيها: (اعلم أن في أمر أيوب عليه السلام وما ذكره الله تعالى من شأنه هاهنا وفي غيره من القرآن من العبر والدلائل ما ليس في غيره، لأنه تعالى مع عظيم فضله أنزل به من المرض العظيم ما أنزله مما كان عبرة له ولغيره ولسائر من سمع بذلك وتعريفا لهم أن الدنيا مزرعة الآخرة، وأن الواجب على المرء أن يصبر على ما يناله من البلاء فيها، ويجتهد في القيام بحق الله تعالى ويصبر على حالتي الضراء والسراء وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قال وهب بن منبه: كان أيوب عليه السلام رجلا من الروم وهو أيوب بن أنوص وكان من ولد عيص بن إسحاق وكانت أمه من ولد لوط، وكان الله تعالى قد اصطفاه وجعله نبيا، وكان مع ذلك قد أعطاه من الدنيا ح ظا وافرا من النعم والدواب والبساتين وأعطاه أهلا وولدا من رجال ونساء، وكان رحيما بالمساكين، وكان يكفل الأيتام والأرامل ويكرم/ الضيف وكان معه ثلاثة نفر قد آمنوا به وعرفوا فضله،

قال وهب: وإن لجبريل عليه السلام بين يدي الله تعالى مقاما ليس لأحد من الملائكة مثله في القربة والفضيلة، وهو الذي يتلقى الكلام فإذا ذكر الله عبدا بخير تلقاه جبريل عليه السلام ثم تلقاه ميكائيل عليه السلام ثم من حوله من الملائكة المقربين، فإذا شاع ذلك فهم يصلون عليه. ثم صلت ملائكة السموات ثم ملائكة الأرض. وكان إبليس لم يحجب عن شيء من السموات، وكان يقف فيهن حيثما أراد، ومن هناك وصل إلى آدم عليه السلام حتى أخرجه من الجنة. ولم يزل على ذلك حتى رفع عيسى عليه السلام فحجب عن أربع. فكان يصعد بعد ذلك إلى ثلاث إلى زمان نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فحجب عند ذلك عن جميع السموات إلا من استرق السمع، قال: فسمع إبليس تجاوب الملائكة بالصلاة على أيوب فأدركه الحسد، فصعد سريعا حتى وقف من السماء موقفا كان يقفه، فقال:يا رب إنك أنعمت على عبدك أيوب فشكرك وعافيته فحمدك ثم لم تجربه بشدة ولا بلاء وأنا لك زعيم لئن ضربته بالبلاء ليكفرن بك، فقال الله تعالى: انطلق فقد سلطتك على ماله. فانقض الملعون حتى وقع إلى الأرض وجمع عفاريت الشياطين، وقال لهم: ماذا عندكم من القوة فإني سلطت على مال أيوب؟ قال عفريت: أعطيت من القوة ما إذا شئت تحولت إعصارا من نار فأحرقت كل شيء آتي عليه، فقال إبليس: فأت الإبل ورعاءها فذهب ولم يشعر الناس حتى ثار من تحت الأرض إعصار من نار لا يدنو منها شيء إلا احترق فلم يزل يحرقها ورعاءها حتى أتى على آخرها، فذهب إبليس على شكل بعض أولئك الرعاة إلى أيوب فوجده قائما يصلي، فلما فرغ من الصلاة قال: يا أيوب هل تدري ما صنع ربك الذي اخترته بإبلك ورعائها؟ فقال أيوب: إنها ماله أعارنيه وهو أولى به إذا شاء نزعه. قال إبليس: فإن ربك أرسل عليها نارا من السماء فاحترقت ورعاؤها كلها وتركت الناس مبهوتين متعجبين منها. فمن قائل يقول: ما كان أيوب يعبد شيئا وما كان إلا في غرور، ومن قائل يقوللو كان إله أيوب يقدر على شيء لمنع من وليه، ومن قائل آخر يقول: بل هو الذي فعل ما فعل ليشمت عدوه به ويفجع به صديقه. فقال أيوب عليه السلام: الحمد لله حين أعطاني وحين نزع مني، عريانا خرجت من بطن أمي، وعريانا أعود في التراب، وعريانا أحشر إلى الله تعالى، ولو علم الله فيك أيها العبد خيرا لنقل روحك مع تلك الأرواح وصرت شهيدا وآجرني فيك، ولكن الله علم منك شرا فأخرك. فرجع إبليس إلى أصحابه خاسئا.

فقال عفريت آخر: عندي من القوة ما إذا شئت صحت صوتا لا يسمعه ذو روح إلا خرجت روحه، فقال إبليس: فأت الغنم ورعاءها فانطلق فصاح بها فماتت ومات رعاؤها. فخرج إبليس متمثلا بقهرمان الرعاة إلى أيوب فقال له القول الأول: ورد عليه أيوب الرد الأول، فرجع إبليس صاغرا. فقال عفريت آخر: عندي من القوة ما إذا شئت تحولت ريحا عاصفة أقلع كل شيء أتيت عليه، قال فاذهب إلى الحرث والثيران فأتاهم فأهلكهم ثم رجع إبليس متمثلا حتى جاء أيوب وهو يصلي، فقال مثل قوله الأول فرد عليه أيوب الرد الأول، فجعل/ إبليس يصيب أمواله شيئا فشيئا حتى أتى على جميعها. فلما رأى إبليس صبره على ذلك وقف الموقف الذي كان يقفه عند الله تعالى، وقال: يا إلهي هل أنت مسلطي على ولده، فإنها الفتنة المضلة. فقال الله تعالى: انطلق فقد سلطتك على ولده، فأتى أولاد أيوب في قصرهم فلم يزل يزلزله بهم من قواعده حتى قلب القصر عليهم، ثم جاء إلى أيوب متمثلا بالمعلم وهو جريح مشدوخ الرأس يسيل دمه ودماغه، فقال: لو رأيت بنيك كيف انقلبوا منكوسين على رؤوسهم تسيل أدمغتهم من أنوفهم لتقطع قلبك، فلم يزل يقول هذا ويرققه حتى رق أيوب عليه السلام وبكى وقبض قبضة من التراب ووضعها على رأسه. فاغتنم ذلك إبليس، ثم لم يلبث أيوب عليه السلام حتى استغفر واسترجع فصعد إبليس ووقف موقفه وقال: يا إلهي إنما يهون على أيوب خطر المال والولد، لعلمه أنك تعيد له المال والولد فهل أنت مسلطي على جسده وإني لك زعيم لو ابتليته في جسده ليكفرن بك، فقال تعالى: انطلق فقد سلطتك على جسده وليس لك سلطان على عقله وقلبه ولسانه فانقض عدو الله سريعا فوجد أيوب عليه السلام ساجدا لله تعالى فأتاه من قبل الأرض فنفخ في منخره نفخة اشتعل منها جسده وخرج به من فرقه إلى قدمه ثآليل وقد وقعت فيه حكة لا يملكها، وكان يحك بأظفاره حتى سقطت أظفاره، ثم حكها بالمسوح الخشنة ثم بالفخار والحجارة، ولم يزل يحكها حتى تقطع لحمه وتغير ونتن، فأخرجه أهل القرية وجعلوه على كناسة وجعلوا له عريشا ورفضه الناس كلهم غير امرأته رحمة بنت أفرايم بن يوسف عليه السلام فكانت تصلح أموره، ثم إن وهبا طول في الحكاية إلى أن قال: إن أيوب عليه السلام أقبل على الله تعالى مستغيثا متضرعا إليه فقال: يا رب لأي شيء خلقتني يا ليتني كنت حيضة ألقتني أمي، ويا ليتني كنت عرفت الذنب الذي أذنبته، والعمل الذي عملت حتى صرفت وجهك الكريم عني، ألم أكن للغريب دارا، وللمسكين قرارا، ولليتيم وليا، وللأرملة قيما، إلهي أنا عبد ذليل إن أحسنت فالمن لك وإن أسأت فبيدك عقوبتي، جعلتني للبلاء غرضا، وللفتنة نصبا، وسلطت علي ما لو سلطته على جبل لضعف من حمله. إلهي تقطعت أصابعي، وتساقطت لهواتي، وتناثر شعري وذهب المال، وصرت أسأل اللقمة فيطعمني من يمن بها علي ويعيرني بفقري وهلاك أولادي.

قال الإمام أبو القاسم الأنصاري رحمه الله، وفي جملة هذا الكلام: ليتك لو كرهتني لم تخلقني، ثم قال: ولو كان ذلك صحيحا لاغتنمه إبليس، فإن قصده أن يحمله على الشكوى، وأن يخرجه عن حلية الصابرين، والله تعالى لم يخبر عنه إلا قوله: أني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين ثم قال: إنا وجدناه صابرا نعم العبد إنه أواب [ص: ٤٤] واختلف العلماء في السبب الذي قال لأجله: أني مسني الضروأنت أرحم الراحمين

وفي مدة بلائه. فالرواية الأولى:

روى ابن شهاب عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن أيوب عليه السلام بقي في البلاء ثماني عشرة سنة، فرفضه القريب والبعيد إلا رجلين من إخوانه كانا يغدوان ويروحان إليه، فقال أحدهما للآخر ذات يوم: والله لقد أذنب أيوب ذنبا/ ما أذنبه أحد من العالمين، فقال له صاحبه: وما ذاك؟ فقال:

منذ ثماني عشرة سنة لم ي رَحِمَهُ اللهُ تعالى ولم يكشف ما به. فلما راحا إلى أيوب لم يصبر الرجل حتى ذكر ذلك لأيوب عَلَيْهِ السَّلَامُ. فقال أيوب: ما أدري ما تقولان، غير أن الله تعالى يعلم أني كنت أمر على الرجلين يتنازعان فيذكران الله **y** فأرجع إلى بيتي فأكفر عنهما كراهية أن يذكر الله إلا في حق.

وفي رواية أخرى أن الرجلين لما دخلا عليه وجدا ريحا فقالا: لو كان لأيوب عند الله خير ما بلغ إلى هذه الحالة، قال: فما شق على أيوب شيء مما ابتلي به أشد مما سمع منهما، فقال: اللهم إن كنت تعلم أني لم أبت شبعانا وأنا أعلم بمكان جائع فصدقني فصدقه وهما يسمعان، ثم خر أيوب عَلَيْهِ السَّلَامُ ساجدا ثم قال: اللهم إني لا أرفع رأسي حتى تكشف ما بي قال فكشف الله ما به.

الرواية الثانية:قال الحسن رَحِمَهُ اللهُ: مكث أيوب عَلَيْهِ السَّلَامُ بعد ما ألقي على الكناسة سبع سنين وأشهرا، ولم يبق له مال ولا ولد ولا صديق غير امرأته رحمة صبرت معه وكانت تأتيه بالطعام وتحمد الله تعالى مع أيوب وكان أيوب مواظبا على حمد الله تعالى والثناء عليه والصبر على ما ابتلاه، فصرخ إبليس صرخة جزعا من صبر أيوب، فاجتمع جنوده من أقطار الأرض وقالوا له ما خبرك؟ قال: أعياني هذا العبد الذي سألت الله أن يسلطني عليه وعلى ماله وولده فلم أدع له مالا ولا ولدا ولم يزدد بذلك إلا صبرا وحمدا لله تعالى، ثم سلطت على جسده فتركته ملقى في كناسة وما يقربه إلا امرأته، وهو مع ذلك لا يفتر عن الذكر والحمد لله، فاستعنت بكم لتعينوني عليه فقالوا له: أين مكرك! أين عملك الذي أهلكت به من مضى؟ قال: بطل ذلك كله في أيوب فأشيروا علي، قالوا: أدليت آدم حين أخرجته من الجنة من أين أتيته؟ قال من قبل امرأته، قالوا: فشأنك بأيوب من قبل امرأته فإنه لا يستطيع أن يعصيها لأنه لا يقربه أحد غيرها. قال: أصبتم فانطلق حتى أتى امرأته فتمثل لها في صورة رجل، فقال: أين بعلك يا أمة الله؟ قالت: هو هذا يحك قروحه وتتردد الدواب في جسده، فلما سمعها طمع أن يكون ذلك كله جزعا، فوسوس إليها وذكرها ما كان لها من النعم والمال، وذكرها جمال أيوب وشبابه. قال الحسن رَحِمَهُ اللهُ:فصرخت، فلما صرخت علم أنها قد جزعت فأتاها بسخلة، وقال ليذبح هذه لي أيوب ويبرأ، قال: فجاءت تصرخ إلى أيوب يا أيوب حتى متى يعذبك ربك، ألا يرحمك أين المال، أين الماشية، أين الولد، أين الصديق، أين اللون الحسن، أين جسمك الذي قد بلي وصار مثل الرماد، وتردد فيه الدواب اذبح هذه السخلة واسترح؟ فقال أيوب عَلَيْهِ السَّلَامُ: أتاك عدو الله ونفخ فيك فأجبتيه! ويلك أترين ما تبكين عليه مما تذكرين مما كنا فيه من المال والولد والصحة، من أعطانا ذلك؟ قالت الله. قال: فكم متعنا به؟ قالت: ثمانين سنة. قال:فمنذ كم ابتلانا الله بهذا البلاء؟ قالت: منذ سبع سنين وأشهر، قال ويلك، والله ما أنصفت ربك، ألا صبرت في البلاء ثمانين سنة كما كنا في الرخاء ثمانين سنة. والله لئن شفاني الله لأجلدنك مائة جلدة. أمرتيني أن أذبح لغير الله، وحرام علي أن أذوق بعد هذا شيئا من طعامك وشرابك الذي تأتيني به، فطردها فذهبت، فلما نظر/ أيوب في شأنه وليس عنده طعام ولا شراب ولا صديق، وقد ذهبت امرأته خر ساجدا، وقال: رب أني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين فقال: ارفع رأسك فقد استجبت لك: اركض برجلك فركض برجله فنبعت عين ماء فاغتسل منها، فلم يبق في ظاهر بدنه دابة إلا سقطت منه، ثم ضرب برجله مرة أخرى فنبعت عين أخرى فشرب منها، فلم يبق في جوفه داء إلا خرج وقام صحيحا، وعاد إليه شبابه وجماله حتى صار أحسن ما كان، ثم كسي حلة فلما قام جعل يلتفت فلا يرى شيئا مما كان له من الأهل والولد والمال، إلا وقد ضعفه الله تعالى حتى صار أحسن مما كان، حتى ذكر أن الماء الذي اغتسل منه تطاير على صدره جرادا من ذهب، قال: فجعل يضمه بيده فأوحى الله إليه يا أيوب ألم أغنك؟ قال: بلى ولكنها بركتك فمن يشبع منها، قال: فخرج حتى جلس على

مكان مشرف، ثم إن امرأته قالت: هب أنه طردني أفأتركه حتى يموت جوعا وتأكله السباع لأرجعن إليه، فلما رجعت ما رأت تلك الكناسة ولا تلك الحال وإذا بالأمور قد تغيرت، فجعلت تطوف حيث كانت الكناسة وتبكي وذلك بعين أيوب عليه السلام، وهابت صاحب الحلة أن تأتيه وتسأله عنه فأرسل إليها أيوب عليه السلام ودعاها وقال:

ما تريدين يا أمة الله؟ فبكت وقالت: أردت ذلك المبتلى الذي كان ملقى على الكناسة، فقال لها أيوب عليه السلام: ما كان منك، فبكت وقالت بعلي، فقال: أتعرفينه إذا رأيتيه، قالت وهل يخفى على أحد يراه! فتبسم وقال: أنا هو، فعرفته بضحكه فاعتنقته ثم قال إنك أمرتيني أن أذبح سخلة لإبليس، وإني أطعت الله وعصيت الشيطان ودعوت الله تعالى فرد علي ما ترين.

الرواية الثالثة: قال الضحاك ومقاتل: بقي في البلاء سبع سنين وسبعة أشهر وسبعة أيام وسبع ساعات وقال وهب رحمه الله بقي في البلاء ثلاث سنين، فلما غلب أيوب إبليس لعنه الله ذهب إبليس إلى امرأته على هيئة ليست كهيئة بني آدم في العظم والجمال على مركب ليس كمراكب الناس وقال لها: أنت صاحبة أيوب؟ قالت: نعم، قال: فهل تعرفيني؟ قالت لا: قال: أنا إله الأرض أنا صنعت بأيوب ما صنعت، وذلك أنه عبد إله السماء وتركني فأغضبني ولو سجد لي سجدة واحدة رددت عليك وعليه جميع ما لكما من مال وولد فإن ذلك عندي، قال وهب وسمعت أنه قال: لو أن صاحبك أكل طعاما ولم يسم الله تعالى لعوفي مما هو فيه من البلاء، وفي رواية أخرى: بل قال لها لو شئت فاسجدي لي سجدة واحدة حتى أرد عليك المال والولد وأعافي زوجك، فرجعت إلى أيوب فأخبرته بما قال لها، فقال لها أيوب: أتاك عدو الله ليفتنك عن دينك، ثم أقسم لئن عافاني الله لأجلدنك مائة جلدة،وقال عند ذلك مسني الضر يعني من طمع إبليس في سجودي له وسجود زوجتي ودعائه إياها وإياي إلى الكفر. الرواية الرابعة:قال وهب: كانت امرأة أيوب عليه السلام تعمل للناس وتأتيه بقوته، فلما طال عليه البلاء سئمها الناس فلم يستعملوها فالتمست ذات يوم شيئا من الطعام فلم تجد شيئا فجزت قرنا من رأسها فباعته برغيف فأتته به فقال لها: أين قرنك فأخبرته بذلك، فحينئذ قال: مسني الضر.

الرواية الخامسة: قال إسماعيل السدي: لم يقل أيوب مسني الضر إلا لأشياء/ ثلاث. أحدها: قول الرجلين له لو كان عملك الذي كنا نرى لله تعالى لما أصابك الذي أصابك.وثانيها: كان لامرأته ثلاث ذوائب فعمدت إلى إحداها وقطعتها وباعتها فأعطوها بذلك خبزا ولحما فجاءت إلى أيوب عليه السلام فقال من أين هذا؟ فقالت: كل فإنه حلال فلما كان من الغد لم تجد شيئا فباعت الثانية وكذلك فعلت في اليوم الثالث، وقالت: كل فإنه حلال فقال: لا آكل ما لم تخبريني فأخبرته، فبلغ ذلك من أيوب ما الله به عليم، وقيل: إنما باعت ذوائبها لأن إبليس تمثل لقوم في صورة بشر، وقال: لئن تركتم أيوب في قريتكم فإني أخاف أن يعدي إليكم ما به من العلة فأخرجوه إلى باب البلد، ثم قال لهم: إن امرأته تدخل في بيوتكم وتعمل وتمس زوجها أما تخافون أن تعدي إليكم علته، فحينئذ لم يستعملها أحد فباعت ضفيرتها. وثالثها: حين قالت له امرأته ما قالت فحينئذ دعا. الرواية السادسة: قيل: سقطت دودة من فخذه فرفعها وردها إلى موضعها، وقال قدجعلني الله تعالى طعمة لك فعضته عضة شديدة، فقال: مسني الضر. فأوحى الله تعالى إليه لولا أنيجعلت تحت كل شعرة منك صبرا لما صبرت.

الفصل الرابع

الإيجاز والإطناب

توطئة :

حين تُذكر البلاغة تستحضر الأذهان الإيجاز، فالذي يشيع على كل لسان أن البلاغة هي الإيجاز، وما الإيجاز إلا اجتلاب المعاني الغزيرة بأوجز وأقل الألفاظ، حتى يبدو البعيد قريبا، والثقيل خفيفا، وحتى لا ترى لفظة إلا وهي محملة بالدلالات، وكأن المتكلم لا ينطق إلا بما يحمل أكثر من دلالة، فتبدو قيمته في ذلك، وتظهر فصاحته هنالك، فالأفصح والأبلغ هو من يقوى على تحميل اللفظ أكبر قدر ممكن من المعاني، ولذلك قيل لبعضهم : ما البلاغة ؟ فقال الإيجاز، قيل وما الإيجاز ؟ قال حذف الفضول وتقريب البعيد .. يقول سيدنا علي بن أبي طالب – كرم الله وجهه (ما رأيت بليغا قط إلا وله في القول إيجاز، وفي المعاني إطالة) (١)، ويقول ابن سنان: البلاغة الإيجاز، ونقل الزمخشري عن جعفر بن يحيى قوله لطلابه (إن قدرتم أن تجعلوا كتبكم توقيعات فافعلوا) ومعنى هذا أن تكون المعلومات موجزة، أشد الإيجاز كأنها توقيع، **ونقل عن الفرزدق أنه سئل:**

١- الصناعتين للعسكري ص ١٧٩.

لم قصَّرت قصائدك في آخر حياتك ؟ فقـال: لأني رأيتهـا في الصـدور أوقع، وفي المحافل أجول، وقيل لشاعر: لم لا تطيل الشعر ؟

فقال: حسبك من القلادة ما أحاط بالعنق **!!!**

وزعـم بعـض أهـل العلـم أن عبـد القـاهر لم يتحـدث عـن الإيجـاز والإطناب ، ولو رجعوا إلى كتابيه لوجدوه يشير في اسرار البلاغة في حديثـه عن المعاني التي تخرج إلى عالم الحس **في بيت الشاعر:**

إذا هـم ألقـى بـين عينيـه همـه ونكب عن ذكـر العواقـب جانبـا

وأنك حين تسمع هذا البيت (امتلأت نفسك سروراً وأدركتك طرْبَـة كما يقول القاضي أبو الحسن لا تملك دفعها عنك، ولا تَقُـلْ إن ذلـك لمكـان الإيجاز، فإنه وإن كان يوجب شـيئاً منـه، فلـيس الأصْـلَ لـه، بـل لأنْ أراك العزمَ واقعـاً بـين العينـين، وفَـتَحَ إلى مكـان المعقـول مـن قلبـك بابـاً مـن العين ...)، وفي دلائل الإعجاز كان أشد وضوحا **وهو يتحدث عـن قـول الله تعالى:** ﴿ **وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ** .... ﴾ [سورة الأنعام:١٠٠]

وأنه زاد في المعنـى مـن غـير أن يـزاد في اللفـظ، بـل عـرف صراحـة مصطلح الإيجاز،وقال (أن يدل بالقليل من اللفظ على الكثـير مـن المعنـى) ثم ذكر آيات وبين ما فيها من مجاز مثل قوله تعالى :

﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ .... ﴾ [سورة الأنفال:٥٨]

وقوله: ﴿.....فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ .....﴾ [سورة الأنفال:٥٧]

وقوله: ﴿ .....وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾ [سورة فاطر:١٤]

ثم علق على كل ذلك بقوله: وتراهم – يعني العلماء – على لسان واحد، في أن المجاز والإيجاز من الأركان في أمر الإعجاز، ولقد كان الشعراء يتبارون في شأن الإيجاز، ويعتبرون الشاعر الذي يستطيع تقليل الكلام مع حسن السبك والوفاء بالمعنى أعلى قدرا من غيره ..

والإيجاز عند السكاكي هو:(أداء المقصود بأقل من عبارة المتعارف)(١).

وعند الرماني: (البيان عن المعنى بأقل ما يمكن من اللفظ، وقد جاء في تفسيره للإيجاز **بقوله**: (إذا كان المعنى يمكن أن يعبر عنه بألفاظ كثيرة ويمكن التعبير عنه بألفاظ قليلة، فالألفاظ القليلة إيجاز)(٢)، وهذا كله يمكن جمعه في مفهوم محدد وهو:

عرض المعاني الكثيرة بألفاظ قليلة مع الوفاء وعدم الإخلال بالمعنى .

ومعنى الوفاء، وعدم الإخلال أن يكون المعنى :

- واضحا كاملا .
- لا لبس فيه .

١- مفتاح العلوم للسكاكي ص ٦٥.

٢- النكت في إعجاز القرآن الكريم للرماني ص ٤٣.

- قليل الألفاظ .

فلو اختل شيء من ذلك ضاع الإيجاز، فلا إيجاز بليغ مع الغموض **ولذلك عيب على الشاعر قوله :**

أعَاذلُ عَاجِلُ مَا أشْتَهِي ... أحَبُ مِنَ الأكْثَرِ الرَائِثُ

حيث أراد أن يترجم قول الله تعالى :

﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾﴾ [سورة القيامة: ٢٠]

فالشاعر يريد أن يقول إن الشهوة العاجلة وإن كانت قليلة، وإن كانت سريعة الفناء أحب إليه من المحبوب الذي يأتي بعد زمن طويل ، فحين نادى عاذله حذف ما يتم به المعنى وهو (عاجل ما أشتهي مع القلة أحب من الأكثر البطيء)فترك"مع القلة "وبه تمام المعنى، فأدى إلى اللبس .

ومن المعيب أيضا قول عروة بن الورد:

عَجِبْتُ لهُمْ إذْ يَقْتُلُونَ نُفوسَهُم ... وَمَقْتَلهُم عِنْدَ الوَغَى كَانَ أعْذَرا

عجبتُ لهم إذ يقتلون نفوسهم في السلم وقتلهم فى الحرب أعذر فترك " في السلم " وبه تمام المعنى كذلك، **وكذلك قول الحارث بن حلزة:**

والعَيْشُ خَيْرٌ فِى ظِلالِ النَوْ ... ممَّنْ عَاشَ كَدَّا

أراد: العيش الناعم الرغيد مع الحمق والجهل خير من العيش الشاق مع الفهم والمعرفة العقل، فالجهل وقلة العلم نعمة لأنه لا يعرف من ولا ماذا، ولا كيف، هو يعيش ويأكل ويشرب ويبول كما يقول الشيخ أبو موسى . .

أنواع الإيجاز

الإيجاز نوعان : الأول : إيجاز القصر .

والآخر : إيجاز الحذف .

إيجاز القصر

وهو بناء الكلام على تقليل اللفظ، وتكثير المعنى، من غير حذف .

وهذا النوع هو المسمى الإيجاز البلاغي، ففيه يتبارى الفصحاء وتتمايز أقدار الشعراء، ويعلو فيه كعب على كعب، وهو الدليل على التمكن من مفاصل اللغة، ومفرداتها، وأنظمة الربط فيها، وطبيعة بناء أسلوبها، والإيجاز هو المعنيّ في حديث النبي ﷺ:

(إِنِّي أُوتيت جَوَامِع الْكَلم، وخواتيمه، وَاخْتصرَ لي اختصارا، وَلَقَد أتيتكم بهَا بَيْضَاء نقية، فَلَا تتهوكوا، وَلَا يَغُرنكُمْ المتهوكون)[1] .

وجوامع الكلم تعني المعاني الكثيرة باللفظ القليل، وقد جاء في سبب ورود هذا الحديث أن(عمر بن الخطاب قَالَ : انْطَلَقت أَنا فاستنسخت كتابا من أهل الْكتاب، ثمَّ جِئْت بِهِ فِي أَدِيم، فَقَالَ لي رَسُول الله ﷺ: مَا هَذَا فِي يدك يَا عمر ؟

١- جاءعندالإمام أحمد والإمام مسلم بألفاظ مختلفة.

قلت يَا رَسُول الله : كتابا نسخته لتزداد بِـهِ علـما، فَغَضـب رَسُـول الله ﷺ حَتَّى احْمَرَّتْ وجنتاه، ثمَّ نُودي بِالصَّلَاةِ جَامِعَـة، فَقَالَـت الْأَنْصَـار أغضـب نَبيكُم ؟ السِّلَاح السِّلَاح، فجاؤوا حَتَّى أَحدقُوا بمنبر رَسُول الله ﷺ فَقَـالَ النَّبِي ﷺ يَا أَيهَا النَّاس:إِني أوتيت جوامع الكلم.... إلخ)(١).

ومن أمثلة ذلك: ما رواه سيدنا (أبوهريرة قال: قال رسول الله ﷺ :

" من يأخذ عني هؤلاء الكلمات فيعمل بهـن أو يعلمهـن مـن يعمـل بهن " قال أبو هريرة : قلت: أنا يا رسول الله، فأخذ النبي ﷺ بيـدي فعقـد فيها خمسا، **وقال**:اتق المحارم تكن أعبد النـاس ، وارض بـما قسـم الله لـك تكن أغنى الناس، وأحسن إلى جارك تكن مؤمنا، وأحب للنـاس مـا تحـب لنفسك تكن مسلما، ولا تكثر الضحك فإن كثرة الضحك تميت القلب) .

هل ترى في هذه المعاني لفظا آخر يطيق حملها غير اللفظ الذي حملها ؟

ودعني أوضح لك مـدى الإيجـاز الـذي في الحـديث، ولنأخـذ جملـة واحدة لنطبق عليها، وهي أول الحديث في قـول النبـي ﷺ (اتـق المحـارم تكن أعبد الناس) وهذه الجملة لو حاولـت فردهـا عـلى البسـاط تجـد أنهـا واسعة جدا، فنحن في شأن أعبد الناس: كيف تصل إلى مرتبة أعبد النـاس؟ أو كيف تفوز برتبة أعبد الناس ؟ كيف تسبق قـائم الليـل، صـائم النهـار ؟ كيف تتخطى المجاهد في سبيل الله ؟ كيف ترقى فوق منزلة الذاكر لله دائما؟

١- البيان والتعريف في أسباب ورود الحديث الشريف لا بن كما الدين ٢: ٣٠٢ ه.

كل هذه منازل لم تحز شهادة أعبد الناس، إنما هـي طاعـات يسـابق بعضـها بعضا، فيسبق بعضها، ويتبعه الآخر .

لكن الجملة التي معنا – كما قلت – في شأن أعبـد النـاس !!! وهنـا تُحدِّد الجملةُ صـاحب هـذه الدرجـة فتقـول لكـل مسـلم: (اتـق المحـارم) فقط؟... فقط !!! تقول السيدة عائشة: من سره أن يسبق الدائب المجتهـد فليكف عن الذنوب .

وراجع الفرق بين قول السيدة عائشة (فليكف عن الـذنوب) وقـول النبي (اتق المحارم) والغرض العام واحد .

وفي المعنى نفسه يقول سيدنا الحسن بن علي: (ما عبد العابدون بشيء أفضل من ترك ما نهاهم الله عنه) وأصل المعنى كما ترى واحد، لكـن شـتان بين **هذه الصور الثلاث** :

(اتق المحارم) و(اترك ما نهاك الله عنه) و(كف عن الذنوب)

ولأجل عظم المقصود وضخامته لم يستوعب بعض أهل العلـم هـذه الدرجة، أعنى درجة: (أعبد النـاس) فحـاولوا صرف اللفـظ عـن ظـاهره وقالوا: الظاهر أن ما ورد من تفضيل ترك المحرمـات عـلى فعـل الطاعـات إنما أريد به: نوافل الطاعات وإلا فجـنس الأعـمال الواجبـات أفضـل مـن جنس ترك المحرمات .....

وهذا الكلام خـروج بـاللفظ عـن ظـاهره الواضـح الـذي لا يحتـاج إلى تأويل، **ويشهد لذلك قول ابن عمر** رضي الله عنهما :

(لَردُّ دانقٍ من حرام أفضل من مائة ألف تُنفق في سبيل الله) ،**وعن بعض السلف قال:**

(ترك دانق مما يكرهه الله أحب إلى الله من خمسمائة حجة) وقال ميمون بن مهران: (ذكر الله باللسان حسن وأفضل منه أن يذكر اللهَ العبدُ عند المعصية فيمسك عنها) .

وقال ابن المبارك: (لأن أرد درهما من شبهة أحب إلى من أن أتصدق بمائة ألف، ومائة ألف، حتى بلغ ستمائة ألف)، **وقال عمر بن عبدالعزيز**:ليست التقوى قيام الليل وصيام النهار والتخليط فيما بين ذلك ولكن التقوى أداء ما افترض الله وترك ما حرم الله فإن كان مع ذلك عمل فهو خير إلى خير، وقال أيضا وددت أني لا أصلي غير الصلوات الخمس سوى الوتر، وأن أؤدي الزكاة، ولا أتصدق بعدها بدرهم، وأن أصوم رمضان ولا أصوم بعده يوما أبدا، وأن أحج حجة الإسلام ثم لا أحج بعدها أبدا، ثم أعمد إلى فضل قُوَّتي فأجعله فيما حرم الله على فأمسك عنه.

نعم ،هذا كله شرح وتفصيل لجملة (اتق المحارم) فحاصل كلامهم جميعا يدل على اجتناب المحرمات، وأن الذي يجتنب المحرمات هو أعبد الناس، حتى لو اقتصر على الفرائض ، والعجيب أن هذا أمر لا يقوى عليه إلا من عصمه الله ، تدري لماذا، لأن ابن آدم خطاء!!!

المهم : أرأيت كيف جمعت الجملة الموجزة في حديث النبي ق كل هذه المعاني حتى فاضت بها ؟ ! ولقد بُني القرآن الكريم كله على الإيجاز حتى قال الشيخ محمد عبد الله دراز: (القرآن إيجاز كله) (١)سواء مواضع إجماله ومواضع تفصيله: لأن القرآن الكريم يستثمر دائمًا برفق أقل

١- علق الدكتور دراز على كلامه وعلل له فقال في كتابه (النبأ العظيم): (قسم علماء البلاغة الكلام إلى "مساو" و"موجز" و"مطنب". وعرفوا المساواة بأنها أداء المعنى بلفظ على قدره، والإيجاز بأنه أداء المعنى بلفظ ناقص عنه واف به، والإطناب بأنه أداء المعنى بلفظ زائد عنه لفائدة. وجعلوا المقياس الذي يضبط به هذا التقسيم أمرًا عرفيًا أو وضعيًا: فاعتبر السكاكي المقدار الذي يتكلم به أوساط الناس في محاوراتهم ومتعارف خطابهم، هو ضابط المساواة، وهو القدر الذي لا يحمد منهم، ولا يُذم في باب البلاغة، فما نقص عنه مع الوفاء به فهو الإيجاز، وما زاد عنه مع الإفادة فهو الإطناب. والكلام البليغ إنما يقع في هذين الطرفين. هذا محصول كلام السكاكي. وقد وافقه الذين جاءوا من بعده على هذا التقسيم، إلا أن بعضهم رأى أن البناء على العرف فيه رد إلى الجهالة، فجعل حد المساواة هو المقدار الذي يؤدي المعاني بالوضع من غير رعاية للمناسبات الزائدة على أصل المعنى.

وقد فهمنا من وضعهم التقسيم على هذا الأساس، واعتبارهم المساواة بأحد هذين المقياسين المتحدين في المآل، أنهم ظنوا أن العبارة التي تؤدى بها المعاني الأولية في لسان العوام تقع دائمًا بين الإطالة والاختصار. وهذا ما لا دليل عليه في العرف ولا في الوضع، أما الأول: فإن العوام يتكلمون في المعنى الواحد باللفظ المطول تارة وبالمختصر تارة آخرى، وإن لم يتحروا إصابة المحز في كل منها، وأما الثاني فلأن اللفظ الذي وضع في اللغة لتأدية المعنى الأول مختلف، فمنه ما يؤديه بوجه مجمل، ومنه ما يؤديه بلفظ مفصل، وكل من الإجمال والتفصيل يتفاوت في نفسه تفاوتًا كثيرًا، فلا ينضبط منهما قدر يرجع إليه في معرفة الإيجاز والإطناب؛ إذ ما من كلام وجيز إلا ويمكن تأدية معناه الإجمالي بأقل من لفظه أو بما يساويه وإن لم يغنِ غناءه ولم يوفِ وفاءه، حتى المثل الذي عدوه علمًا في الإيجاز وهو قوله تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ ... ﴾ [سورة البقرة:١٧٩] يمكن تأدية أصل معناه بقولك "انتقم تسلم" أو "اقتص تحيا" أو بالاكتفاء بكلمتين منه "القصاص حياة"، بل فاتحة الكتاب الكريم التي جمعت مقاصد القرآن كلها في سبع آيات يمكن أداء معانيها الأصلية في خمس كلمات: "نحمدك اللهم ونعبدك، ونستعينك ونستهديك" وإن شئت ففي أقل من ذلك.= وكذلك يقال: ما من كلام مطنب إلا ويمكن تأدية معناه الوضعي مفصلًا في لفظ أطول منه، فقوله تعالى: ﴿ ... وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ ... ﴾ [سورة البقرة:١٩٤] إيجاز، وقد جاء بسطه في قوله: ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ ... ﴾ [سورة المائدة:٤٥] وهذا الكلام على طوله يعد موجزًا إذا قيس بقولك في مثل معناه: "من قتل نفسًا قتل بها، ومن فقأ عينًا فقئت عينه، ومن جدع أنفًا جدع أنفه، ومن جدع أذنًا جدعت أذنه، ومن كسر سنًا كسرت سنه... وإن شئت زدت: واليد باليد، والأصبع بالأصبع، والآمة بالآمة والموضحة بالموضحة وهلم جرا. وقوله تعالى: ﴿ ...ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ .. ﴾ [سورة المائدة:٥٩] جاء معناه مبسوطًا في قوله: ﴿ ...ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ ... ﴾ [سورة البقرة:١٣٦] وهذا المعنى يؤدى عادة بقولك: آمنا بالله وبالقرآن الذي أنزله الله إلينا، وبالتوراة التي

أنزلها الله على موسى، وبالإنجيل الذي أنزله الله على عيسى، وبالزبور الذي آتاه الله لداود، وبالصحف التي آتاها الله لإبراهيم ولو شئت عددت الأسباط سبطًا سبطًا، وذكرت سائر من قص الله علينا من النبيين في غير هذا الموضع بل لو شاء الله لقص علينا من أنباء سائر الرسل ما لم يقصه علينا.

والقوم معترفون ضمنًا بوجود هاتين المرتبتين في كلام العوام، إذ قالوا: إن مرتبتي الاختصار المخل والتطويل الممل ليستا من البلاغة في شيء فإذا لم تكونا من كلام البلغاء كانتا البتة من كلام غير البلغاء وإلا فكلام من تكونان؟! وإذًا فلا تصلح المعاني الأولية ولا العبارات العامية مقياسًا منضبطًا للوسط المفروض.

هذا وقد نشأ من قياسهم التوسط بالمقدار الذي تؤدى به المعاني الأولية في لسان العوام -بعد تسليم كونه وسطًا- أن جعلوا الفضيلة البيانية في هذا الباب ماثلة أبدًا طرف النقص أو طرف الزيادة. وذلك عكس ما بنيت عليه قاعدة الفضائل من تبوئها مكانًا وسطًا بين الأطراف "ولقد تعجب إذا رأيتهم يرجعون فيدخلون المساواة في كلام الرجل البليغ إذا دعاه إليها داع، كأن يكون كلامه مع العامة ثم تزداد عجبًا إذا رأيتهم يدخلونها في القرآن نفسه، وهو ما علمت خطاب للعامة وللخاصة على السواء، ويمثلونها بقوله تعالى: ﴿...وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ...﴾ [سورة فاطر:٤٣] على أن في هذه الكلمة إيجازًا بالحذف على اصطلاحهم نفسه، إذ المعنى لا يحيق ضرر المكر وعاقبته".

لهذا كله رأينا أن نضع التقسيم وضعًا آخر نرد فيه الفضيلة إلى نصابها من الحد الوسط، ونرجع فيه الذم إلى الطرفين، وذلك يجعل المقياس هو المقدار الذي يؤدى به المعنى بأكمله، بأصله وحليته على حسب ما يدعو إليه المقام من إجمال أو تفصيل؛ بغير إجحاف ولا إسراف. هذا القدر الذي من نقص عنه أو زاد عده البلغاء حائدًا عن الجادة بقدر ما نقص أو زاد، هو الميزان الصحيح الذي لك أن تسمي طرفيه بحق تقصيرًا أو تطويلًا، وأن تسميه هو بالمساواة أو القصد أو التوسط أو التقدير أو ما شئت فسمه. ونحن قد سميناه أيضًا باسم "الإيجاز" مطمئنين إلى صحة هذه التسمية، إذ رأينا حد الإيجاز ينطبق عليه، فما الإيجاز إلا السرعة والتخفيف في بلوغ الحاجة بالقدر الممكن، فالذي يسرع فوق الطاقة لا يبلغك حاجتك فيكون مجحفًا مخلًا، والذي يبطئ حيث تمكن السرعة لا يكون إلا مسرفًا مملًا. ورأينا الناس ما زالوا يتواصلون بهذه الوجازة في البيان ويجعلون خير الكلام ما قل ودل،حتى روي عن سيد البلغاء صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله أنه قال لجرير بن عبد الله البجلي: "يا جرير إذا قلت فأوجز، وإذا بلغت حاجتك فلا تتكلف" هكذا أحفظه، ولا يحضرني الآن تخريجه، وما سمعنا أحدًا يوصي بهذا الإطناب الذي عده المؤلفون فضيلة ثانية تقابل الإيجاز، وإنما هو إحدى شعبتيه: الاختصار المفهم أو الإطناب المفحم. ولو سميناه فضيلة ثانية تقابله لخشينا أن تكون هذه المقابلة وحدها رخصة في التحلل من قيوده وتسامحًا في الإكثار الذي جاء ذمه بكل لسان، حتى قال -ﷺ: "... وإن أبغضكم إلي وأبعدكم مني مجلسًا يوم القيامة أسوأكم أخلاقا الثرثارون المتشدقون المتفيقهون" رواه أحمد وابن حبان وغيرهما عن أبي ثعلبة. فلا وربك إنما هي فضيلة واحدة تطلب من المتكلم في كل مقام، ويؤخذ بها في سعة التفصيل كما يؤخذ بها في ضيق الإجمال، بل لعلها في مقام التفصيل أكد طلبًا وأصعب منالًا. فالكلام الطويل إن حوى كل جزء منه فائدة تمس إليها الحاجة في المواضع ولا يسهل أداء تلك القاعدة بأقل منه كان هو عين الإيجاز المطلوب، وإن أمكن أداء الأغراض فيه كاملة بحذف شيء منه أو بإبداله بعبارة أخصر منه كان هو حشوًا أو تطويلًا معيبًا. والكلام القصير إن وفّى بالمقاصد الأصلية والتكميلية المناسبة في الحال كان هو التوسط المطلوب، وإلا كان بترًا أو تقصيرًا معيبًا.

ما يمكن من اللفظ في توليد أكثر ما يمكن مـن المعـاني. أجـل ؛ تلـك ظاهرة بارزة فيه كله ؛ يستوي فيها مواضع إجماله التي يسميها النـاس مقـام الإيجاز، ومواضع تفصيله التي يسمونها مقام الإطناب.

ولذلك نسميه إيجازًا كله ؛ لأننا نراه في كـلا المقـامين لا يجـوز سـبيل القصد، ولا يميل إلى الإسراف ميلًا ما، ونـرى أن مراميـه في كـلا المقـامين لا يمكن تأديتها كاملة العناصر والحَلْى بأقـل مـن ألفاظـه ولا بـما يسـاويها. فليس فيه كلمة إلا هي مفتـاح لفائـدة جليلـة، ولـيس فيـه حـرف إلا جـاء لمعنى.

وليس في القرآن كلمة مقحمة، ولا حرف زائـد زيـادة معنويـة، ودع عنك قول الذي يقول في بعض الكلمات القرآنية إنها "**مقحَمـة**" وفي بعـض حروفه إنها "زائدة" زيادة معنوية.

وليس الإيجاز قاصرًا على جانب الإجمال كما زعموا حتى بنوا عليه ما بنوا، وحتى أخرجوا منه مثل قوله تعـــــالى: رضي الله عنها إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ ... رضي الله عنهم [سورة البقرة:١٦٤] ، **وجعلوها من باب الإطناب بحجة أنه يمكن إيجازها بهذه العبارة: "إن في ترجيح وقوع أي ممكن كان لا على وقوعه لآيات للعقلاء - مفتاح العلوم" وأنت فهل عهدت عربيًّا قط بليغًا أو غير بليغ تكلم بهذا التعبير الفلسفي الجاف القلق الذي افترضه السكاكي مقياسًا للمساواة في معنى الآية؟، كلا، إنك لو رجعت إلى ما تكلم به الناس في آيات الله الكونية تفصيلًا أو إجمالًا لرأيت كلامًا عربيًّا صحيحًا أطول من هذا أو أقصر، ولرأيت الآية الكريمة هي أوجز كلامًا وأحكم نظامًا في بابها من التفصيل، كما أن قوله تعالى:** رضي الله عنها قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ... رضي الله عنهم [سورة يونس:١٠١] **هو أوجز كلامًا في بابه من الإجمال.**

قلنا: إن فضيلة الإيجاز بمعناه الصحيح هو الوسط المعتدل، وهو الفضيلة الوحيدة التي تواصى بها البلغاء في كل مقام بحسبه، غير أنه ليس للإنسان ما تمنى، فالمثل الكامل وإن تطاولت إليه أعناق الناس وتفاوتوا في طلبه قربًا وبعدًا، لا يستطيع أحد منهم أن يأتي على غايته، وإنما أتى عليها القرآن الحكيم، فهو المثل الأعلى في حسن الإيجاز، كيف لا وهو حد الإعجاز.) النبأ العظيم ص ١٦٢

ودع عنك قول الذي يستخف كلمة "**التأكيد**" فيرمي بها في كل موطن يظن فيه الزيادة، لا يبالي أن تكون تلك الزيادة فيها معنى المزيد عليه فتصلح لتأكيده أو لا تكون، ولا يبالي أن يكون بالموضع حاجة إلى هذا التأكيد أو لا حاجة له به.

أجل، دع عنك هذا وذاك، فإن الحُكم في القرآن الكريم بهذا الضرب من الزيادة أو شبهها إنما هو ضرب من الجهل -مستورًا أو مكشوفًا- بدقة الميزان الذي وضع عليه أسلوب القرآن، وخذ نفسك أنت بالغوص في طلب أسراره البيانية على ضوء هذا المصباح، فإن عمي عليك وجه الحكمة في كلمة منه أو حرف فإياك أن تعجل كما يعجل هؤلاء الظانون؛ ولكن قل قولًا سديدًا هو أدنى إلى الأمانة والإنصاف.

قل: "الله أعلم بأسرار كلامه، ولا علم لنا إلا بتعليمه".

ثم إياك أن تركن إلى راحة اليأس فتقعد عن استجلاء تلك الأسرار قائلًا: أين أنا من فلان وفلان؟ .. كلا، فرب صغير مفضول قد فطن إلى ما لم يفطن له الكبيرالفاضل. ألا ترى إلى قصة ابن عمر في الأحجية المشهورة ؟(١)

١- جاء في صحيح مسلم عَبْدُ اللهِ بْنُ دِينَارٍ، أَنَّهُ سَمِعَ عَبْدَ اللهِ بْنَ عُمَرَ، يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ مِنَ الشَّجَرِ شَجَرَةً لَا يَسْقُطُ وَرَقُهَا، وَإِنَّهَا مَثَلُ الْمُسْلِمِ، فَحَدِّثُونِي مَا هِيَ؟» فَوَقَعَ النَّاسُ فِي شَجَرِ الْبَوَادِي، قَالَ عَبْدُ اللهِ: وَوَقَعَ فِي نَفْسِي أَنَّهَا النَّخْلَةُ، فَاسْتَحْيَيْتُ، ثُمَّ قَالُوا: حَدِّثْنَا مَا هِيَ؟ يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ فَقَالَ: «هِيَ النَّخْلَةُ» قَالَ: فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِعُمَرَ، قَالَ: لَأَنْ تَكُونَ قُلْتَ: هِيَ النَّخْلَةُ، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كَذَا وَكَذَا

فجِدَّ في الطلب وقل: رب زدني علمًا، فعسى الله أن يفتح لك بابًا من الفهم تكشف به شيئًا مما عمي على غيرك. والله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور، ثم يقول : ولنضرب لك مثلًا، **قوله تعالى**:

﴿... لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ...﴾ [سورة الشورى:١١]

ما سر زيادة الكاف في قوله تعالى: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} ؟

"أكثر" أهل العلم قد ترادفت كلمتهم على زيادة الكاف بل على وجوب زيادتها في هذه الجملة، فرارًا من المحال العقلي الذي يفضي إليه بقاؤها على معناها الأصلي من التشبيه؛ إذ رأوا أنها حينئذ تكون نافية الشبيه عن مثل الله، فتكون تسليمًا بثبوت المثل له سبحانه، أو على الأقل محتملة لثبوته وانتفائه ؛ لأن السالبة -كما يقول علماء المنطق- تصدق بعدم الموضوع.

أو لأن النفي -كما يقول علماء النحو- قد يوجه إلى المقيد وقيده جميعًا تقول: "ليس لفلان ولدٌ يعاونه" إذا لم يكن له ولد قط أو كان له ولد ولا يعاونه.

وتقول: "ليس محمدٌ أخًا لعلي" إذا كان أخًا لغير علي أو لم يكن أخًا لأحد.

وقليل منهم من ذهب إلى أنه لا بأس ببقائها على أصلها؛ إذ رأى أنها لا تؤدي إلى ذلك المحال؛ لأن نفي مثل المثل يتبعه في العقل نفي المثل أيضًا.

وذلك أنه لو كان هناك مثل الله، لكان لهذا المثل مثل قطعًا وهو الإله الحق نفسه، فإن كل متماثلين يعد كلاهما مثلًا لصاحبه، وإذًا لا يتم انتفاء مثل المثل إلا بانتفاء المثل وهو المطلوب.

وقصارى هذا التوجيه -لو تأملته- أنه مصحح لا مرجح، أي أنه ينفي الضرر عن هذا الحرف، ولكنه لا يثبت فائدته ولا يبين مسيس الحاجة إليه.

ألست ترى أن مؤدي الكلام معه كمؤداه بدونه سواء، وأنه إن كان قد ازداد به شيئًا فإنما ازداد شيئًا من التكلف والدوران وضربًا من التعمية والتعقيد. وهل سبيله إلا سبيل الذي أراد أن يقول: "هذا فلان" فقال: "هذا ابن أخت خالة فلان"؟

فمآله إذًا إلى القول بالزيادة التي يسترونها باسم التأكيد، ذلك الاسم الذي لا تعرف له مسمى ها هنا؛ فإن تأكيد المماثلة ليس مقصودًا البتة وتأكيد النفي بحرف يدل على التشبيه هو من الإحالة بمكان.

ولو رجعت إلى نفسك قليلًا لرأيت هذا الحرف في موقعه محتفظًا بقوة دلالته، قائمًا بقسط جليل من المعنى المقصود في جملته، وأنه لو سقط منها لسقطت معه دعامة المعنى، أو لتهدم ركن من أركانه، ونحن نبين لك هذا من طريقين، **أحدهما أدق مسلكًا من الآخر**:

"الطريق الأول" : وهو أدنى الطريقين إلى فهم الجمهور: أنه لو قيل: "ليس مثله شيء" لكان نفيًا للمثل المكافئ، وهو المثل التام المماثلة فحسب؛ إذ إن هذا المعنى الذي ينساق إليه الفهم من لفظ المثل عند إطلاقه. وإذًا لدبّ إلى النفس دبيب الوساوس والأوهام: أن لعل هنالك رتبة لا تضارع رتبة الألوهية ولكنها تليها، وأن عسى أن تكون هذه المنزلة للملائكة والأنبياء، أو للكواكب وقوى الطبيعة أو للجن والأوثان والكهان، فيكون لهم بالإله الحق شبه ما في قدرته أو علمه، وشرك ما في خلقه أو أمره.. فكان وضع هذا الحرف في الكلام إقصاءً للعالم كله عن المماثلة وعما يشبه المماثلة وما يدنو منها، **كأنه قيل**: ليس هناك شيء يشبه أن يكون مثلًا لله، فضلًا عن أن يكون مثلًا له على الحقيقة. وهذا باب من التنبيه بالأدنى على الأعلى على حد قوله تعالى: رضي الله عنها ....فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا .... رضي الله عنهم [سورة الإسراء:٢٣] نهيًا عن يسير الأذى صريحًا، وعما فوق اليسير بطريق الأحرى.

"الطريق الثاني" -**وهو أدقهما مسلكًا**: أن المقصود الأول من هذه الجملة وهو نفي الشبيه، وإن كان يكفي لأدائه أن يقال: "ليس كالله شيء" أو "ليس مثله شيء" لكن هذا القدر ليس هو كل ما ترمي إليه الآية الكريمة، بل إنها كما تريد أن تعطيك هذا الحكم تريد في الوقت نفسه أن تلفتك إلى وجه حجته وطريق برهانه العقلي.

ألا ترى أنك إذا أردت أن تنفي عن امرئ نقيصة في خلقه فقلت:

"فلان لا يكذب ولا يبخل" أخرجت كلامك عنه مخرج الدعوى المجردة عن دليلها. فإذا زدت فيه كلمة فقلت: "مثل فلان لا يكذب ولا يبخل" لم تكن بذلك مشيرًا إلى شخص آخر يماثله مبرأً من تلك النقائص، بل كان هذا تبرئة له هو ببرهان كلي، وهو أن من يكون على مثل صفاته وشيمه الكريمة لا يكون كذلك؛ لوجود التنافي بين طبيعة هذه الصفات وبين ذلك النقص الموهوم.

على هذا المنهج البليغ وضعت الآية الحكيمة قائلة:"مثله تعالى لا يكون له مثل". تعني أن من كانت له تلك الصفات الحسنى وذلك المثل الأعلى لا يمكن أن يكون له شبيه، ولا يتسع الوجود لاثنين من جنسه. فلا جرم جيء فيها بلفظين، كل واحد منهما يؤدي معنى المماثلة؛ ليقوم أحدهما ركنًا في الدعوى، والآخر دعامة لها وبرهانًا.

فالتشبيه المدلول عليه "بالكاف" لمّا تصوب إليه النفي تأدّى به أصل التوحيد المطلوب؛ ولفظ "المثل" المصرح به في مقام لفظ الجلالة أو ضميره نبه على برهان ذلك المطلوب.

ومن الأمثلة الأشهر في هذا النوع قوله تعالى :

﴿....أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ....﴾ [سورة الأعراف:٥٤]

حيث تجد الجملة وقد أوجزت جميع ما يتعلق بالعبد، وأوكلته إلى الله تعالى في كلمتين (له الخلق والأمر) **وقد جاء أن ابن عمر رضي الله عنهما حين قرأها قال** : (من بقي له شيء فليطلبه)(١).

ومن الشواهد التي يستشهد بها العلماء أيضا قول الله تعالى :

﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ١٩٩﴾ [سورة الأعراف:١٩٩]

حيث جمعت مكارم الأخلاق من أطرافها، فمعنى :(خذ العفو) أي : (الميسر الممكن من أخلاق الناس في المعاشرة والصحبة، ولا تطلب إليهم الكمال، ولا تكلفهم الشاق من الأخلاق. واعف عن أخطائهم وضعفهم ونقصهم.. كل أولئك في المعاملات الشخصية لا في العقيدة الدينية ولا في الواجبات الشرعية. فليس في عقيدة الإسلام ولا شريعة الله يكون التغاضي والتسامح.

ولكن في الأخذ والعطاء والصحبة والجوار. وبذلك تمضي الحياة سهلة لينة. فالإغضاء عن الضعف البشري، والعطف عليه، والسماحة معه واجب الكبار الأقوياء تجاه الصغار الضعفاء.

١- الصناعتين لأبي هلال العسكري ١٨٢.

ورسـول الله- ﷺ - راع وهـاد ومعلـم ومـرب. فهـو أولى النـاس بالسماحة واليسر والإغضاء.. وكذلك ﷺ.. لم يغضـب لنفسـه قـط. فـإذا كان في دين الله لم يقم لغضبه شيء! ..

وكل أصحاب الدعوة مأمورون بما أمر به رسول الله ﷺ. فالتعامـل مع النفوس البشرية لهدايتها يقتضي سعة صـدر، وسـماحة طبـع، ويسـراً وتيسيراً في غير تهاون ولا تفريط في دين الله..

«وأمـر بـالعرف» ،وهـو الخـير المعـروف الواضـح الـذي لا يحتـاج إلى مناقشة وجدال والذي تلتقي عليه الفطر السليمة والنفوس المستقيمة.. والنفس حين تعتاد هذا المعروف يسلس قيادها بعد ذلك، وتتطـوع لألـوان من الخير دون تكليف وما يصد النفس عن الخير شيء مثلما يصدها التعقيـد والمشقة والشد في أول معرفتها بالتكاليف! ورياضة النفوس تقتضي أخـذها في أول الطريق بالميسور المعروف من هذه التكـاليف حتـى يسـلس قيادهـا وتعتاد هي بذاتها النهوض بما فوق ذلك في يسر وطواعية ولين..«وأعـرض عن الجاهلين» .. من الجهالة ضد الرشد، والجهالة ضد العلم.. وهما قريـب من قريب..

والإعراض يكون بالترك والإهمال والتهوين من شأن ما يجهلـون بـه من التصرفات والأقـوال والمـرور بهـا مـر الكـرام وعـدم الـدخول معهـم في جدال لا ينتهي إلى شيء إلا الشد والجذب، وإضاعة الوقت والجهد..

وقد ينتهي السكوت عنهم، والإعراض عن جهالتهم إلى تذليل نفوسهم وترويضها، بدلاً من الفحش في الرد واللجاج في العناد. فإن لم يؤد إلى هذه النتيجة فيهم، فإنه يعزلهم عن الآخرين الذين في قلوبهم خير. إذ يرون صاحب الدعوة محتملاً معرضاً عن اللغو، ويرون هؤلاء الجاهلين يحمقون ويجهلون فيسقطون من عيونهم ويُعزلون! وما أجدر صاحب الدعوة أن يتبع هذا التوجيه الرباني العليم بدخائل النفوس! ولكن رسول الله- ﷺ -بشر، وقد يثور غضبه على جهالة الجهال وسفاهة السفهاء وحمق الحمقى.. وإذا قدر عليها رسول الله- ﷺ - فقد يعجز عنها من وراءه من أصحاب الدعوة..)([1]).

ومن الشواهد التي يذكرها البلاغيون أيضا قوله تعالى:

﴿ **فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ**.... ﴾ [سورة الحِجر:٩٤]

فهذه ثلاث كلمات تشتمل على أمر الرسالة وشرائعها وأحكامها على الاستقصاء([2])، وذكر أبو عبيدة أن أعرابيا سمع رجلا يقرأ فاصدع بما تؤمر، فسجد **وقال**: سجدت لفصاحته، (وكان موضع التأثير في هذه الجملة هو كلمة اصدع في إبانتها عن الدعوة والجهر بها والشجاعة فيها وكلمة (بما تؤمر) في إيجازها وجمعها).

١- من كتاب الشهيد المطارد ٣/ ١٤١٨.
٢- الصناعتين ١٨٢.

قال ابن أبي الإصبع: المعنى: صرِّح بجميع ما أوحي إليك، وبلِّغ كل ما أمرت ببيانه، وإن شق بعض ذلك على بعض القلوب فانصدعت والمشابهة بينهما فيما يؤثره التصريح في القلوب فيظهر أثر ذلك على ظاهر الوجوه من التقبض والانبساط، ويلوح عليها من علامات الإنكار والاستبشار كما يظهر على ظاهر الزجاجة المصدوعة، فانظر إلى جليل هذه الاستعارة، وعظم إيجازها وما انطوت عليه من المعاني الكثيرة ...)[1].

ومن نماذج ذلك في الحديث الشريف قول النبي ﷺ: (حبك الشيء يعمي ويصم)[2]أي: حبك الشيء يجعلك أعمى عن رؤية العيوب التي فيه بحيث لا تبصر فيه عيبا، ويجعلك أصم عن سماع قبائحه بحيث لا تسمع فيه كلاما قبيحا، بل كل كلام تسمعه عنه كلام جميل طيب، لاستيلاء سلطان المحبة على فؤادك، **كما قال الشاعر**:

وعين الرضا عن كل عيب كليلة ولكن عين السخط تبدي المساويا

فكل قبيح صدر منه هو في عينك حسن، وكل كلام صدر عنه هو كلام جيل ، **وفي ذلك يقول الشاعر** :

ويقبح من سواك الفعل عندي فتفعله فيحسن منك ذاكا

ومن شواهده أيضا قول النبي ﷺ: (إن من البيان لسحرا) وفي قصة هذه العبارة يقول شراح الحديث : (قدم على رسول الله الزبرقان بن

١- الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ٣/ ١٨٥.

٢- مسند الإمام أحمد ٢١٦٩٤.

بـدر وعمـرو بـن الأهـتم، فقـال رسـول الله لعمـرو: أخبرنـى عـن الزبرقان. فقال: هو مطاع فى ناديه، شديد المعارضة مانع لما وراء ظهره.

قال الزبرقان: هو والله يارسـول الله يعلـم أنـى أفضـل منـه، ولكنـه حسدنى شرفى، فقصرنى.

وعند ذلك قال عمرو معقبا على الزبرقان بن بدر : إنـه لزمـر المـروءة ضيق العطن، أحمـق الأب ، لئـيم الخـال، يارسـول الله ! صـدقت فى الأولى وماكذبت فى الأخرى، ولكنى رضيت فقلت أحسن ماعلمـت، وسـخطت فقلت أسوأ ماعلمت.

فقال رسول الله: (إن من البيان لسحرا) ، واختلف العلماء فى تأويلـه. فقال قوم من أصحاب مالـك: إن هـذا الحـديث خـرج عـلى الـذم للبيـان. وقالوا على هذا يدل مذهب مالـك، واسـتدلوا بإدخالـه للحـديث فى بـاب مايكره من الكلام، وقالوا: إن النبى شبه البيان بالسـحر، والسـحر مـذموم محرم قليله وكثيره وذلك لما فى البيان من التفيهق وتصوير الباطل فى صـورة الحق.

وقد قال رسول الله: (أبغضكم إلى الثرثارون المتفيهقون) وقـد فسرـه عامر بنحو هذا المعنى وهو رواه الحـديث عـن رسـول الله، وكـذلك فسرـه صعصعة بن صوحان فقال: أما قوله ﷺ: (إن من البيان لسحرا) فالرجـل يكون الحق وهو ألحن بـالحجج مـن صـاحب الحـق فيسـحر القـوم ببيانـه فيذهب بالحق وهو عليه

. **وقال آخرون**: هو كلام خرج على مدح البيان واستدلوا بقوله في الحديث: (فعجب الناس لبيانها) والإعجاب لايقع إلا بما يحسن)([1]).

والنفس تستعذب كل جميل ،فللنفس كلمات تلائمها، تراها لطيفة المعنى حلوة اللفظ، تامة البيان، معتدلة الوزن، تتناغم مع الروح .

ولقد روت لنا كتب الأدب قصة بشار، وسلم الخاسر في شأن قول بشار:

من راقب الناس لم يظفر بحاجته　　و فاز بالطيبات الفاتك اللهج

حيث أوجزه سَلْم الخاسر، فقال:

من راقب الناس مات غما　　وفاز باللذة الجسور

فأحسن وأجاد، وفاق بيت بشار، والمعنى الأصلي معنى واحد، لكن سلم الخاسر جمع ما أراده بشار، وزاد عليه تقليل الكلام، **وراجع الفرق بين:**

(لم يظفر بحاجته)　　و... (مات غما)

تجد أن جملة (مات غما) أعطت دلالة الجملة الأخرى، وبالغت فيها حتى وصلت المنتهى، فعدم الظفر بالحاجة يورث ألما، ثم يتحول الألم إلى غم، ثم يتواصل الغم حتى يودي بصاحبه، والشاعر اختصر كل ذلك وجاءك به فملأ المعنى حتى فاض، وأشعرك بالفارق بين من يبدأ المعاني

١- شرح صحيح البخاري لابن بطال٩/ ٤٤٧.

ومن يأتيك بالنهايات . وكذلك راجع الفرق بين (الطيبات) و(اللذة) فالفوز بالطيبات، لا يعني التمتع بها، إنما يعنى فقط استحواذها وقد تستحوذ الشيء ولا تتلذذ به، بل تستحوذه ليكون لذة لغيرك، لكن سلم الخاسر جعل الفوز باللذة، فنقلك إلى هذا الفائز وصوره لك وهو يباشر عملية التمتع بالطيبات، وكأن بشار حاز المعنى، لكن سلم تمتع به وأكله، وفرق بين الأمرين كبير .

وكذلك راجع الفرق بين:

(الفاتك اللهج) و(الجسور)

تجد أن سلم الخاسر أوجز، وجاء باللفظ المناسب للسياق، وهو:

الجسور، ويعني في اللغة المقدام، والشجاع، والشديد، وهذا هو المناسب لسياق الفوز في السباق المفهوم من البيتين، لكن بشارا حاول أن يأتي باللفظ المناسب فاستعصى عليه فأتبعه بآخر، وجاء في الحالتين بلفظين بعيدين عن السياق، وهما الفاتك، ويعني الجرئ، والجرأة لا علاقة لها بالبعد عن مراقبة الناس، وهذا غرض الشاعرين، فأتبع ذلك بلفظ اللهج ويعني: الولوع والحرص، وهذا أشد بعدا من الآخر .....

كل هذه الخصوصيات تؤكد أن المعنى اختمر في قلب سلم الخاسر حتى نضج، واستوى على سوقه، فلملم أشتاته وصبه في أوجز لفظ صبا حتى كاد اللفظ يضيق عن المعنى، فأنت تشعر أثناء القراءة أن لفظ سلم

الخاسر يكاد ينحني من كثرة المعاني الملقاة فيه . وليست القضية قلة الألفاظ وإن كان لها دور في تفضيل قائل على قائل، ولكن الأهم في اصطفاء اللفظ الجامع للمعنى، المانع لغيره من مزاحمته، صاحب الكعب العالي في الدلالة على مافي نفس قائله .

ولقد عقد البلاغيون مناظرة بين قول الله تعالى:

ﵟ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ .....ﵞ [سورة البقرة:١٧٩]

وقول العرب:"القتْلُ أنْفَى للقتل"وقالوا إن الجملة القرآنية تميزت بميزات لاتوجد في عبارة العرب، وكلها تصب في دائرة بلاغة الإيجاز بالقصر في قول الله تعالى (القصاص حياة) ودعنى على عجل ألخص لك ماقالوه، **قالوا**:

١- إنّ كلمة "القِصَاص" كلمة عامّة تشمل القتل بالقتل، والقطع بالقطع، والجروح بالجروح، وتدخلُ فيها كُلُّ تفصيلات الجنايات ممّا يتعلّق بذوات الأحياء من الناس، أنفسِهِمْ فما دون ذلك.

٢- كلمة "حياة" تشمل حياة النفس، وحياة أجزاء الجسد .

٣- وتنكير لفظ "حياة" يدل على البقاء، الذي هو مطلب النفس

٤- إنّ حروف العبارة القرآنية: ﵟالْقِصَاصِ حَيَاةٌﵞ أقل من عبارة العرب: "الْقَتْلُ أنْفَى للقتل".

٥ - العبارة القرآنية ذكرت "الْقِصَاصَ" فعمَّت كلَّ ما تُقَابَلُ به الجناية على الأنفس، فما دون الأنفس من عقوبة مُماثلة، وحدّدَتِ الأمر بأنْ يكون عقوبة لعمل سبق، ودلّت على مبدأ العدل.

أمّا عبارة العرب فقد ذكرت القتل فقط، ولم تقيّده بأن يكـون عقوبـة ولم تُشِرْ إلى مبدأ العدل، فهي قاصرة وناقصة.

٦ - العبارة القرآنية نصَّتْ على ثبوت الحياة بتقرير حكم القصاص.

أما عبارة العرب فذكرت نَفْي القتل، وهو لا يَدُلُّ على المعنى الذي يَدُلُّ عليه لفظ "حياة".

٧ - العبارة القرآنية خالية من عيب التكرار، بخلاف الأخرى.

٨ - العبارة القرآنية صريحة في دلالتها على معانيها، وليس فيهـا حـذف ولا تقدير

بخلاف عبارة "العرب" فهي تحتاج إلى عدّة تقـديراتٍ حتـى يَسـتقيم معناها، إذْ لا بُدَّ فيها من ثلاثة تقديرات، **وهي كما يلي**:

"القتلُ" قصَاصاً "أنْفَى من تركه "لِلقَتْلِ" عمْداً وعدواناً.

٩ - في العبارة القرآنية سَلاَسة، لاشتمالها عـلى حـروف متلائمـة سـهلة التتابع في النطق.

أمّا عبارة "العرب" ففيها تكرير حرف القاف المتحـرِّك بـين سـاكنين وفي هذا ثقل على الناطق.

وفي قــول الله تعــالى: ﴿ **وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٤** ﴾ [سورة هود:٤٤]

قالوا إن هذه الآية على وجازتها تحمل الدلالات الكثيرة، حتى أن ابن أبي الأصبع استخرج منها واحدا وعشرين ضربا من المحاسن ، ففيها أَمَرَ ربنا، ونَهَى، وأخبرَ، ونادَى، ونعَتَ، وسمَّى، وأهْلَكَ، وأبْقَى، وأسْعَدَ وأشْقَى، وقصَّ الأنباء ما تقر به القلوب المؤمنة، وترتعد منه القلوب الفاجرة، وهكذا تجد في الإيجاز خصوبة وامتلاء، وترى اللفظ يخدعك قصره، ويهولك ما يحمله من معان .

إيجاز الحذف

الإيجاز بالحذف باب من أبواب النظم تقوم عليه أدق أسرار بلاغة العربية، والحذف في اللغة يعني : القطع، والإسقاط، والرمي .

وفي اصطلاح البلاغيين: ترك ذكر بعض الكلام لمقتضٍ يقتضي ـ ذلك الترك ولقرينةٍ دالة علي المتروك.

والبلاغيون يسمون المتروك ذكره (محذوفا) لأن الأصل فيه الذكر لكنه حذف لغرض بلاغي، فلا يحذف من الكلام شيء إلا مع قرينة دالة عليه والعرب تحذف من الكلام ما تستشعر قدرة المخاطب على إدراكه وحده، فهو عنوان لشجاعة العربية، كما قال ابن جني .

فالمحذوف كأنه حذفُ لفظه وبقي دليله، والنحاة يهتمون بالقرينة ؛ لأنها تصحح الكلام، لكن البلاغيين يهتمون بالغرض، أو المرجح للحذف على الذكر .

وقد كان من **"الإمام عبد القاهر الجرجانى " في كتابه:** " دلائل الإعجاز" كلماتٌ في صدر كلامه في باب "الحذف" أشار فيها إلى محاسن الحذف، **يقول فيها:**

" هو باب دقيق المسلك، لطيف المأخذ، عجيب الأمر، شبيه بالسحر فإنك ترى به تركَ الذّكرِ أفصحَ من الذكر، والصمتَ عن الإفادة أزيدَ للإفادة، وتجدك أنطقَ ما تكون إذا لم تنطقْ، وأتمَّ ما تكونُ بيانًا إذا لم تُبِن.

وكأنه بهذه العبارات يعيد علينا تجاربه التي جال فيها وصال في عالم الشعر العربي، وكأنه رآه كله، وأحاط بشوارده، ثم استخلص لنا هذه النتيجة، وقدمها إلينا صافية، وهذا عمل الخبراء دائما، إنه يكفيك مؤنة البحث، ويسد عنك كلفة التعب، ويقول لقد تفرست الشعر العربي، فرأيت الحذف فيه لطيفاً عجيباً، فهو يشبه السحر، حيث ترى الحذف أفصح، وأزيد للإفادة، وأنطق، مع أنه حذف !!!!

ولو سألت: كيف يكون ذلك ؟

فالإجابة: أن الحذف يعيد العبارة إلى عالم السامعين، ليشاركوا المتكلم في وضع المحذوف، وتشكيله، وتحديده من بين أقرانه، وكل ذلك يحتم تنوع المقدر، وتعدده بتعدد السامعين، وتكاثرة حتى يضيق عن الوصف فيتحقق كلام الإمام، حيث يتحول حذف اللفظ إلى تقدير ألفاظ كثيرة، فيزيد المعنى، وتكثر الدلالات فترى ترك الذكر أفصح من الذكر، وترى الصمت عن الإفادة أزيد للإفادة .

وليس معنى هذا أن يشترك الحذف والعيّ، فالعيّ عجز، والحذف بلاغة، وشتان بين الأمرين، وحين ترى الكلام ينمو فاعلم أن من ورائه خبيراً باللغة، عالماً بكنوزها، المهم أن يحمل الكلام دليلا على المحذوف وأن يكون الذكر أقل فصاحة وجمالا من الحذف، ولا تجد حذفا، إلا ووراءه غاية، خاصة أو عامة .

أما الخاصة: فيحددها السياق والمقام، وأما العامة فتدور بين الإيجاز والبعد عن الثقل، وإثارة النفس لتشارك في إدراك المعنى .... إلخ .

فالحذف ضرب من اختصار الألفاظ مع الإبقاء على المعنى، بل قد يزيد المعنى مع الحذف ، أن الحذف يكون لتصفية العبارة ، وترويق الأسلوب من ألفاظ يفاد معناها بدونها لدلالة القرائن عليها، وأن هذا الاختصار، وحذف فضول الألفاظ يجري مجرى الأساس الذي بنيت عليه الأساليب البليغة، ولذلك نجد البلاغيين يذكرون من أغراض الحذف في كل جزء من أجزاء الجملة، الاختصار ويتبعونه **بقولهم: "والاحتراز عن العبث بناء على الظاهر"**، وهي عبارة دقيقة وصادرة عن تفكير صادق؛ لأنه ذكر الكلمة التي يدل عليها سياق الكلام فيه ثقل وترهل في الأسلوب، وهي شبيهة بالعبث وليست عبثا؛ لأنها جزء من الكلام، وذكر جزء الكلام لا يكون عبثا، ولذلك جاء قولهم بناء على الظاهر أي لا في حقيقة الأمر؛ لأننا عند التحقيق لا نسميه عبثًا.

ومقصد آخر تراه وراء كل حذف، هو بعث الفكر وتنشيط الخيال وإثارة الانتباه؛ ليقع السامع على مراد الكلام، ويستنبط معناه من القرائن والأحوال، وخير الكلام ما يدفعك إلى التفكير، ويستفز حسك وملكاتك وكلما كان أقدر على تنشيط هذه القدرات كان أدخل في القلب، وأمس بسرائر النفس المشغوفة دائما بالأشياء التي تومض ولا تتجلى، وتتقنع ولا تتبذل)(١).

واسمع إلى قول الله تعالى:

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴿١٣﴾﴾ [سورة الشمس:١١-١٣]

حيث حذف فعل التحذير، واكتفى بقوله: " ناقة الله " أي: دعوها إياكم أن تمسوها بسوء، فحذرهم وهددهم، ولم يذكر لذلك لفظا صريحا.

إن في الحذف مع ذلك تفخيما وتهويلا، لأن النفس تقدر ما تشاء وبخاصة في المواضع التي تريد أن تُترك لتؤول ماتريد كما **في قوله تعالى:**

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾﴾

[سورة الأنعام:٢٧]

أي: ولو تَرَى إذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ لَرَأَيْتَ رعبا وكربا وحسرة وندما لا يمكن وصفه.

١- خصائص التراكيب لأبي موسى ٣٣٦.

المهم أن المخاطب يستطيع تقدير المحذوف، وفهمه ، وانظر معي إلى **قوله تعالى:**

﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ ....﴾ [سورة النور: ٣٠]

تعلم أن المراد غض البصر عما حرم الله، لا غضّ البصر عن كل شيء والمخاطب لا شك يعلم ذلك فحذف من الكلام ما يفهمه المخاطب .

ويتنوع الحذف في اللغة العربية، فيشمل حذف الحرف ، ثم حذف الكلمة، ثم حذف الجملة، ثم حذف العبارة والكلام الكثير، **وإليك بيانا لكلٍّ :**

أولا : حذف الحرف، أو جزء من الكلمة :

ومثاله قول الله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴿٤﴾﴾ [سورة الفجر: ٤]

فكلمة (يسري) حذفت منها الياء دون سبب، وفي علة الحذف قال الأخفش: "عادة العرب أنها إذا عدلت بالشيء عن معناه نقصت حروفه والليل لما كان لا يسري، وإنما يسري فيه نقص منه حرف .

وقال آخرون: إنه لرعاية الفاصلة، ولا أرى أن الهدف من ذلك مقتصر على موافقة السجعة، أو الفاصلة، - وإن كان هذا واقعا - وإنما أرى في حذف الياء تصويرا لحالة التؤدة في السير، حتى لا يكاد يشعر بها أحد فكأنه يتسلل دون أن يُرى، فحرف الياء المحذوف هو صوت أريد إسكاته فحُذف .

وكثيراً ما يحذف العرب أداة النداء، وياء المتكلم التي يضاف إليها المنادى، مثل: "يَارَبّ - يَا أَبَتِ - يا ابْنَ أَمَّ - يَا عبادِ - يَا غلامِ"، وفي كل ذلك من التودد، والتحبب ما فيه .....

وقد يكون في الحذف معنى الحسم، والسرعة، **كما في قوله تعالى:**

﴿أُخْرِجُواْ..فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾﴾ [سورة الحج:٤٤]

﴿....فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾﴾ [سورة غافر:٥]

يراد: (نكيري، وعقابي) ، وقد يكون في الحذف معنى التحقير **كما في قوله** : ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾﴾ [سورة القيامة:٣٧]

والمراد:(ألم يكن) ، لكن حذف النون للإشارة إلى أنه لا يكون إلا بالله، ولا يكون شيئا بغيره، وهذه الدلالات قد تقترب وقد تبتعد عن الصواب لكن لا بد من دلالة على حذف الحرف لأنه لا حذف دون قصد والسياق له الكلمة العليا في تحديد المراد.

ثانيا:حذف الكلمة، أو جزء من الجملة :

سواء كان مسندا أو مسندا إليه، أو أحد المتعلقات، ومن أمثلة ذلك **قوله تعالى:** ﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ .... ﴾ [سورة يوسف:٨٢]

أي: واسأل أهل القرية، فحذف المضاف ليشعر بالرغبة في سؤال كل من يسكن القرية، فكأنهم لا يريدون أن يسأل الناس فقط، بل يطلبون منه

أن يسأل الطرقات والحوانيت، والجماد والنبات، وكل شيء كائن في القرية ليبرهنوا على صدقهم الذي أمسى محل شك .

ومن حذف الكلمة قوله تعالى :

﴿ **حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ** ..... ﴾ [سورة الأنبياء:٩٦]

أي: سد يأجوج ومأجوج، وقوله ﷻ:

﴿ ..... **لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ** ..... ﴾ [سورة الأحزاب:٢١]

أي: رحمة الله، أو ثواب الله،أو لقاءه، أو أيام الله واليوم الاخر، ولكن حذف هذا المفعول، وأقيم المضاف إليه مقامه ليتعدد النوال، ويتكاثر المأمول، ويتنوع المرجو مثل قولك أرجو زيدا، فالرجاء يكون للعطايا والفضل، وكف الأذى، وكل ما يخطر ببالك مما يمكن أن يفعله زيد أو يدفعه، وهذا سر جمال الحذف حيث يوسع لك دائرة المعاني، أو كما قال عبد القاهر: ترك الذكر يكون أفصح من الذكر .

وقوله تعالى: ﴿ **يَخَافُونَ رَبَّهُم** ..... ﴾ [سورة النحل:٥٠]

حيث حذف كل ما يمكن أن يخافه العبد من ربه، مثل: العذاب والغضب، والابتلاء، وشدائد الدنيا ، واستحضر أنت ما تخافه – أياً ما كان تجد الجملة حملته في جعبتها في دائرة الحذف .

وكذلك قولهم: (حللت أهلا، ونزلت سهلا) ، أي: مكانا، وكأنهم حين حذفوا المكان أرادوا أن يشعروه بمدى الترحاب حتى أنه لن يتذكر المكان، بل سيدخل إلى عالم الأهل، والسهل، وذلك من باب التخفيف على الضيف، والبعد به عن كل المنغصات، لأنه لم ينزل بمكان، إنما نزل بالأهل والسهل .

إن الحذف قد يستحضر المعاني، ويستجلبها، ويوقفها أمام العيون وقد يدفعها، ويطويها، ويخبئها تحت الستور، **مثل قوله تعالى** :

﴿.....**وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ** .....﴾ [سورة الأحزاب:٣٥]

هنا حذف اللفظ الذي يستر عند كل عاقل، ودل عليه بالمذكور، ... ذلك كله يبين لك أن الحذف أداة للذكر والتصريح بما لم يذكر، وفي الوقت نفسه قد يكون أداة للستر، والإضمار .

زد على ذلك أن في الحذف ضربا من تجميل العبارة، وصقلها وحبكها، وإخراجها في صورة هي أزهى وأرقى، وأصفى وأنقى، وراجع **مثلا قوله تعالى**:﴿...**أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا** ....﴾ [سورة الرعد:٣٥]

تجد أن المراد ليس تكثير المعاني، ولا إخفاء أخرى، ولكنْ في الحذف هنا ضرب من الإحكام لا تراه في حضور المحذوف، وحاول أن تذكره واقرأ العبارة، وضعه حيث شئت، ضعه في الآخر وقل: أكلها دائم وظلها دائم، وراجع نفسك كيف تجد العبارة !!! وحاول مرة أخرى وضعه مع قرينه، وقل: أكلها وظلها دائمان، فإنك في الحالتين تعدم هذا الصقل والحبك، والتجويد الكائن في الجملة القرآنية .

المهم أن الحذف في اللسان العربي العالي أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة، والأمر الأكثر أهمية من ذلك أنه لا حذف إلا بدليل، ولا يجوز لأديب أو لغيره أن يتكلم بالكلام ثم يقول حذفت هنا معنى ثم يفتش القارئ فلا يجد ما يدل على المحذوف، **وراجع معي قول أوس بن حجر** :

أطعنا ربنا وعصاه قوم　　فذقنا طعم طاعتنا، وذاقوا

فمال بنا الغبيط بجانبيه　　على أرك ومال بنا أفاق

كأن جيادنا في رعن ذم　　جراد قد أطاع لها الوراق

لا شك أنه أراد: وذاقوا طعم معصيتهم،لأن البيتين بعده في تصوير طعم الطاعة للرب،(ذقنا طعم طاعتنا) فعطف على البيت الأول بالفاء قوله:فمال بنا الغبيط، وهو تصوير لمدى النعيم الذي وجده من أطاعوا ربهم، وهذه الصورة – مال بنا الغبيط - يستعملها العرب في اتساع الأرض، واستوائها وارتفاع طرفيها كهيئة الغبيط، وقيل الغَبِيطُ أَرض واسعةٌ مستوية يرتفع طَرفاها، والغَبِيطُ مَسِيلٌ من الماء يَشُقُّ في القُفّ كالوادي في السَّعةِ وما بين الغَبيطَيْنِ يكون الرَّوْضُ والعُشْبُ، والوراق بالفتح خضرة الارض من الحشيش، والصورة كلها دليل على السعة والنعيم بسبب طاعة الرب، حيث اتسعت الأرض، وكثر العشب والخيل

ودان لهم الناس وأطاعوهم، فطاعة الرب جلبت لهـم طاعـة الأرض والناس والعدو ، هذا كله تصوير لجملة ذقنا طعم طاعتنا ، ويترتب عليه أن يستحضر كل قارئ عكس ما ذكر ليتصور هـو كيـف ذاق الآخـرون طعـم معصيتهم .

ثالثا:حذف الجملة :

إن العرب اعتادت في بعض الأساليب أن تحـذف جمـلا كاملـة، مثـل أسلوب القسم، وأسلوب الشرط، **وراجع مثلا قول الله تعالى:**

﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾﴾ [سورة النمل:٢١]

فقوله لأعذبنه جواب لقسم محذوف غالبا من اللسان العـربي تقـديره " والله " يقول ابن هشام في مغني اللبيب (حذف جملـة القسـم كثـير جـدًا وهو لازم مع غير الباء من حروف القسم **وحيـث قيـل** : لأفعلـن، أو لقـد فعل، أو لئن فعل، ولم يتقدم جملة قسم فثم جملة قسم مقدرة نحـو (لأعذبنـه عذابا شديدا) الآية (ولقد صدقكم الله وعـده) (لـئن أخرجـوا لا يخرجـون معهم) ، وقد يكون المحذوف جواب القسم **مثل قوله تعالى:**

﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا ﴿١﴾ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا ﴿٢﴾ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا ﴿٣﴾ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبْقًا ﴿٤﴾ فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ﴿٥﴾﴾ [سورة النازعات:١-٥]

فكل هذا القسم يراد به إثبات البعث، وهو الغرض الذي تدور حوله السورة كلها ،وهكـذا تـرى حـذف الجملـة كثـيرا جـدا في اللسـان العـربي وفي القرآن الكريم، **وإليك بعض الشواهد :**

قـــال تعـــالى: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ .... ﴾ [ســورة إبراهيم:٤٨]

أي: والسموات تبدل غير السموات. **وقال**:

﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ..... ﴾ [سورة الزُّمَر:٢٢]

أي: كمن طبع الله على قلبه ؟ ومثله:

﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ..... ﴾ [سورة الزُّمَر:٩] أي كمن هو كافر جاحد لربه؟

رابعا:حذف أكثر من جملة :

قد يكون الحذف لأكثر من جملة، وهذا يطوي الأحداث التي يستطيع القاريء أن يتصورها وحده، ويكثر مثل هذا في القصص القرآني **مثل قولـه تعالى**: ﴿ ....فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ ٧١ ﴾ [سورة البقرة:٧١]

فالمعنى: فبحثوا عنهـا بـين البقـر، فلـما تحققـوا مـن هـذه الأوصـاف في إحداها، أخذوها وذبحوها .

ومنه قولـه تعـالى: ﴿ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ٧٣ ﴾ [سورة البقرة:٧٣]

أي: فاستجابوا، وضربوه بقطعة منها، فأحياه الله، وقال قتلني فـلان، فقلنا: كذلك يحيي الله الموتى .

وهكـذا تـرى السـياق يطـوي لـك الكـلام طيـا، لأنـك تسـتطيع استحضاره بسهولة .

ومنه أيضا قوله تعالى في قصة يوسف:

﴿.....أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأۡوِيلِهِۦ فَأَرۡسِلُونِ ﴿٤٥﴾﴾ [سورة يوسف:٤٥]

التقدير : فأرسلوني إلى يوسف لأسأله عن تأويل هذه الرؤيا، فأرسلوه، فأتاه وقال: له يا يوسف أيها الصديق أفتنا ...

ومنه أيضا قوله تعالى:

﴿ فَقُلۡنَا ٱذۡهَبَآ إِلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرۡنَٰهُمۡ تَدۡمِيرٗا ﴿٣٦﴾﴾

[سورة الفرقان:٣٦]

أي: فأتياهم، فأبلغاهم الرسالة، فكذبوهما؛ فدمرناهم تدميرًا. لأنهم ماداموا كذبوا بآياتنا، فهذا يعني أن الرسل ذهبت، وبلغت، وصبرت ثم لم يكن إلا العذاب .

واقرأ القصص القرآني كله فلن تجد قصة إلا طويت فيها أحداث ومواقف يسهل على المتابع استحضارها وفهمها دون ذكر .

الإطناب وبلاغته

(**الإطناب**) **في اللغة** : إفعال، من طنب (والطاء والنون والباء أصل يدل على ثبات الشيء وتمكنه في استطالة، وأطنب في الشيء: إذا بالغ كأنه ثبت عليه إرادة للمبالغة فيه .

والطُّنْبُ: حَبلُ الخِباء، وأطناب الشَّجر: عروقها، وأطنابُ الجَسَدِ: عَصَبٌ يصل المفاصل والعِظامَ ويَشُدُّها. والإطنابُ: البلاغةُ في المنطق في مَدْحٍ أو ذمٍّ، وقد أطنب الرجل في عَدْوِهِ: إذا مضى فيه باجتهاد ومبالغة.

وكل ذاهب مجتهد في الذهاب فهو: مُطْنِبٌ، وأَطْنَبَ الرَّجُلُ في الكلام إِذَا بَالَغَ فِي قَوْلِهِ)[١].

ففي المادة معنى الاتساع، والامتداد، والروابط، والتماسك .

ويعرف في الاصطلاح : بأنه أداء أصل المعنى المراد بلفظ زائدعليه لفائدة .

وقولهم:(أصل المعنى)أي: ما يقصد المتكلم توصيله إلى المخاطب، ويرى الدكتور محمود توفيق أن المعنى البياني كالشجرة، يقول (المعنى كالشجرة العظيمة، له جذر وأصل وساق وأغصان وفروع وأوراق، ولا تكون الشجرة شجرة نافعة لأهلها بجذرها وأصلها وساقها وعظيم فروعها، بل هي بذلك مضموما إليه أغصانها وأفنانها وأوراقها وكلما اتسعت وامتدت أغصانها وفروعها وأفنانها وتكاثفت أوراقها كان ظلها أكبر، وثمرها أكثر .

والمعنى البياني المصور هو شجرة عميقة الجذر راسخة الأصل قوية الساق شاهقة كثيرة مديدة الفروع والأغصان كثيفة الأوراق، وهذا ما يسميه البلاغيون : إطنابًا، وإذا ما كنا لا نعنى بما هو دال على المعنى غير المصور فإن كل ما صدر عن البليغ هو في حقيقته ذو فائدة تصويرية

١- راجع مقاييس اللغة لابن فارس والعين للخليل ولسان العرب لابن منظور والقاموس المحيط للفيروزبادي كل ذلك في مادة (طنب)

كاشفة عن مكنون صدره، علينا أن نتبصره، وأن نستنبط مكنونه من دقائق ولطائف المعاني)(١).

صور الإطناب

الفائدة هي الحاكمة على إدخال الزيادة التي يضيفها البليغ على المقاصد الرئيسة إلى عالم البلاغة، فكل فائدة يضيفها الكلام على أصل المعنى تسمى إطنابا، وهذه الزيادات على أصل المعنى لا حصر لها، ومن هذه الصور التي تزيد على المعاني الأصلية :

الإيضاح بعد الإبهام

كلمة الإبهام من بهم الأمر، واستبهم، بمعنى استعجم فلم يدر كيف يأتيه، والطريق المبهم هو الطريق الخفي الذي لايستبين، والأمر المبهم هو الذي لا تعرف كيف تأتيه، والمسألة المبهمة هي المعضلة المشكلة الشاقة التي لا دليل على حلها .

أما الإيضاح فهو من الفعل (وضح) أي ظهر، **والوَضحُ يعني** : بياض الصبح، ويقال للنهار :الوضَّاح، وكما يقال على الليل: الدهمان والإيضاح بمعنى الإظهار والإبانة، وأصل الكلمة الأوضاح قلبت فيه الواو ياء لكسر الهمزة .

١- بلاغة الإطناب في بلاغة الخطاب لمحمود توفيق سعد ص.١٨٢

واصطلاحا : أن يؤتى بكلام غير بين ثم يـردف بـها يـدل عـلى معنـاه دلالة بينة ظاهرة لغرض .

وهذا الغرض يتنوع بحسب مراد المتكلم، ومن أهم الأغـراض التـي يرمي إليها البليغ من الإيضاح بعد الإبهام ما يأتي :

إبراز المعنى في صورتين مختلفتين .

فتنويع الدلالة، ووضع المعنى في أكثر من صورة، مرة مبهمة وأخـرى واضحة ضرب من الاهتمام بالمعنى ومتلقيه، وبخاصة إذا بدأ بالمعنى المـبهم ثم أتبعه بالمعنى الواضح، فالمتلقي حين يستقبل المعنى الأول فيرسـم حولـه مقصدا من المقاصد، ثم تتبعه بعد ذلك بالمعنى نفسه في صورة أخرى ،هـي أجلى وأظهر فإنه حينئذ يكـون قـد وضـح عنـده المـراد بـها لا مزيـد عليـه، وعلمان خير من علم واحد، وصورتان للمعنى آكد من صورة واحدة .

تمكين المعنى في النفس .

فالإيضاح بعد الإبهام يقوم على ترسيخ المعاني في النفوس، وهذا أحد حقوق المعاني على المتكلم، لأن المعنى ثمرة الفؤاد ،فهي كالوليد الذي لابـد من رعايته وإحاطته بكامل العناية، لأن المعنى إذا ألقي على سـبيل الإجمـال والإبهام تشوقت نفس السامع إلى معرفته على سبيل التفصـيل والإيضـاح، فإذا عرفت ذلك تمكن المعنى فيها فضل تمكن، وكان شعورها به أتم .

اكتمال لذة العلم بالمعنى .

وإذا كان الكلام من القِرى، والعربي مفطور على إكرام الضيفان كان عرض الكلام مجملا أولا ضربًا من مقدمات الطعام الذي يتشوق به الضيفان إلى ما يحقق اكتمال اللذة بكامل الطعام، وحين يأتي ذلك بالإيضاح تكون اللذة أكمل ، **والنفع أشمل يقول الخطيب القزويني** :

(فإن الشيء إذا حصل كمال العلم به دفعةً لم يتقدم حصول اللذة به ألم، وإذا حصل الشعور به من وجه دون وجه تشوقت النفس إلى العلم بالمجهول، فيحصل لها بسبب المعلوم لذة، وبسبب حرمانها من الباقي ألم ثم إذا حصل لها العلم به حصلت لها لذة أخرى، واللذة عقيب الألم أقوى من اللذة التي لم يتقدمها ألم) [1] .

تفخيم الأمر وتعظيمه .

لأن المبهم إذا صادفك أولا فلن تقدره قدره، فإذا انكشف غطاؤه بالإيضاح ظهرت مكانته، وعظمت منزلته .

وإليك بعض الشواهد التي تحمل من المقاصد والأغراض ما علمت وزيادة .

١- الإيضاح في علوم البلاغة ٣/ ١٩٧.

ومن ذلك قول الله تعالى:

﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾﴾

[سورة الحِجر:٦٦]

فقد جاء قضاء الله تعالى على قوم لوط أولا مغلفًا في قوله :

(ذلك الأمر) ولا يعرف القارئ ما المقصود بـالأمر هـذا ؟ فأبهمـت الآية ما قضي به إلى لوط -عليه السلام- ثم فصلته وبينته في جملة تالية **وهـي قولـه تعالى : {أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين}** ، فصرحت بالقضاء الذي قضي، ففي الإبهام إثارة للمخاطب وتحريك لفكره، حتى يشـتاق إلى المعرفـة التـي أضمرت وطويت، ويتطلـع إلى إيضـاح مـا أبهـم، وعندئـذ يـأتي الإيضـاح فيتقرر المعنى في ذهنه ويقع موقعه، وفي هذا تفخيم وتهويل للعـذاب الـذي حل بهم؛ لأنه ذكر مرتين؛ مرة على طريق الإجمال والإبهام، ومرة على طريق التفصيل والإيضاح، والشيء إذا ذكر مرتين كان آكد في النفس وأشد تعلقـا والتصاقا بها .

وفي قوله تعالى :

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ.....﴾ [سورة البقرة:١٢٧]

يقول الزمخشري:(فإن قلت: هلا قيل: قواعد البيت، وأى فـرق بـين العبارتين؟

يعني : ما الفرق بين (القواعد من البيت) و (قواعد البيت) ؟

قلت: في إبهام القواعد وتبيينها بعد الإبهام ما ليس في إضافتها لما في الإيضاح بعد الإبهام من تفخيم لشأن المبين)(١).

ومنه قوله سبحانه :

﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ۝٧ ﴾

[سورة الفاتحة:٦-٧]

قوله تعالى: {صِرَاطَ الذين} : بدلٌ من(الصراط المستقيم) بدلُ كلٍ من كل، وهو بدلُ معرفةٍ من معرفة ...

وفائدةُ البدلِ: الإِيضاحُ بعد الإِبهام، لأنه يُفيد تأكيداً من حيث المعنى إذ هو على نيَّةِ تكرارِ العاملِ) (٢)، يقول الشيخ أبوموسى : (وبناء الكلام على الإيضاح بعد الإبهام من المزايا البلاغية في صياغة العبارة، وأمسها بطبائع النفس، فقد فطر الله الناس على التعلق بما يجهلون مما يلوح لهم منه طرف من العلم والانكشاف، أما ما لا يلوح منه هذا الطرف فإن الناس في غفلة عنه، والأسلوب المختار هو الذي يهتدي إلى فطرة هذه النفس، ويأتيها من جهتها، وحينئذ يمتلك زمامها وتسلس له قيادها)(٣).

١- الكشاف ١/ ١٨٨.

٢- الدر المصون ١/ ٦٧.

٣- خصائص التراكيب ٣٤٩.

وفي قولـه تعـالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (٧٣) مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٧٤)﴾ [سورة الحج:٧٣-٧٤]

تجد أيضا صورة كاملة للإيضاح بعد الإبهـام، وراجـع هـذا في قولـه (ضرب مثل فاستمعو له) هكذا على سبيل الإجمال، "حيـث ألقـى المعنـى على سبيل الإجمال لما فيه مـن تعظـيم، كـي يخلـق لـدى المتلقـي تشـويقا إلى معرفته ثم تبدأ الآيات في تفصيل هذا الإبهام فتقول عـلى سـبيل التفصـيل" " إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا لـه. " فيسـتقر المعنى في النفوس بعد تشويق، ورغبة إلى معرفته .

واقرأ معي هذه الآيات لنتدبر ما فيها، قال تعالى :

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٠) وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٣١) قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٣٢) قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ (٣٣)﴾

[سورة البقرة: ٣٠-٣٣]

ففي هذه الآية تلحظ صيغة الاستفهام الموجه إلى الملائكة {أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ} وهذا الاستفهام يفيد التقرير، أي : قد قلت لكم، والقول الذي سبق أن قاله تعالى لهم هو: {إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُون} وقد جاء على وجه من الإبهام والإجمال، ثم أعيد على وجه من الإيضاح والتفصيل والبسط في قوله : {إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُون} وهذا إيضاح بعد الإبهام أو تفصيل بعد الإجمال وهو أوقع في النفس، وأثبت في الذهن، وأنصر وأنق في التعبير، ولا تغفل عن هذا الطباق بين الإبداء والكتم في قوله تعالى: {مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُون} كذلك لاحظ التنصيص على الجار والمجرور (لكم) في قوله تعالى: {أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ} لأن فيه تنبيها قويا للمخاطبين .

ومن نماذج الإيضاح بعد الإبهام أيضا قوله تعالى :﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ ﴾

[سورة الأعراف:٢٠-٢١]

هذا منهج عدو الله إبليس في إغواء آدم وبنيه، فالوسوسة هي سلاحه الفتاك، وسهامه القاتلة، والعجيب أن الإنسان ينصت إليها والوسوسة حديث خفي لا يعلم كنهه، لكن الآية كشفت هذه الأستار عن طبيعة الوسوسة فقالت : (قال يا آدم هل أدلك ...) وإذا كان إبليس قد تسلل إلى قلب أبينا آدم فإن الله تعالى قد وضع لنا الحواجز التي نحتمي خلفها من صنع إبليس **فقال لنا:**

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ٢٠١﴾ [سورة الأعراف:٢٠١]

ومنه أيضا قوله تعالى :

﴿لَقَدۡ كَانَ لِسَبَإٖ فِي مَسۡكَنِهِمۡ ءَايَةٞۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٖ وَشِمَالٖۖ كُلُواْ مِن رِّزۡقِ رَبِّكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥۚ بَلۡدَةٞ طَيِّبَةٞ وَرَبٌّ غَفُورٞ ١٥ فَأَعۡرَضُواْ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سَيۡلَ ٱلۡعَرِمِ وَبَدَّلۡنَٰهُم بِجَنَّتَيۡهِمۡ جَنَّتَيۡنِ ذَوَاتَيۡ أُكُلٍ خَمۡطٖ وَأَثۡلٖ وَشَيۡءٖ مِّن سِدۡرٖ قَلِيلٖ ١٦ ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ وَهَلۡ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلۡكَفُورَ ١٧﴾ [سورة سبأ:١٧]

فكلمة (أية) لخصت، وأجملت، لأنك حين تسمع أنه قد كان لهم آية، تدرك هذا الإجمال، وتعلم أن هناك إبهاما في طبيعة هذه الآية، ثم تسمع طبيعة وتفصيل هذه الآية في قوله : (جنتان عن يمين وشمال ...إلخ فيستقر في النفوس العبرة من هذه الآية أن الإعراض بعد الإنعام يقابلة العذاب المحتوم .

وتلحظ في القرآن الكريم قبل كل قصة طويلة إجمالا لها، ثم تبدأ القصة في التفصيل، وانظر معي في قصة يوسف عليه السلام حيث أجملت في قوله :

﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ١ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ٢ نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ٣ إِذۡ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ

رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾ قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًاۖ إِنَّ
ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ
وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَۚ إِنَّ رَبَّكَ
عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾﴾ [سورة يوسف:١-٦]

ثم تبدأ القصة في التفصيل من قوله : (لقد كان في يوسف وإخوته آيات ... إلى آخر السورة، فهناك إجمال في ست آيات ثم تفصيل في باقي السورة .

وكذلك في قصة سيدنا موسى في أول القصص تجد الإجمال في الآيات الأولى : ﴿طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ
مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا
شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ
﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ
ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُواْ
يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾﴾ [سورة القصص:١-٦]

ثم يأتي التفصيل بعد ذلك في باقي السورة **من قوله** : (وأوحينا إلى أم موسى ...إلخ.

حتى في سورة الفيل تجد الإجمال في قوله :

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾﴾

[سورة الفِيل:١-٢]

هنا انتهى الإجمال، ثم يأتي التفصيل في قوله :

﴿ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾ ﴾ [سورة الفِيل:٣-٥]

وهذا تفصيل لجعل كيدهم في تضليل .... وهكذا ، فمن سنة القرآن الكريم في القصص الطويل تلخيص وإجمال القصة في عدة آيات ثم تأتي ردف ذلك التفصيلات ،والإيضاحات .

التوشيع

وكلمة (توشيع) تفعيل من (وشع) بمعنى لفّ، فالوشيعة : خشبة يلف عليها الغزل ،والتوشيع : لف القطنبعد الغزل ،وبعد أن يلفتسمى كل لفة منه : وشيعة، والعَلَم الذي يوضع على الثوب يسمى : وشيع ،والثوب الموشع أي المرقم والمزين .

والتوشيع في الاصطلاح : هو الإتيان بمثنى وتعقيبه بمفردين .

أو : أن يؤتى في عجز الكلام بمعنى مفسر باسمين، أحدهما معطوف على الآخر.

وهذا يعني أن مكان التوشيع عجز الكلام، بحيث يبهم الكلام أولا ثم يأتي البيان ،**ومن أمثلة ذلك قول النبي ﷺ** : (الخمر من هاتين الشجرتين : النخلة والعنبة)[1]فقوله : (هاتين الشجرتين) مثنى لم يتضح

١- مسند الإمام أحمد رقم ١٠٨٠٦.

إلا بعد ذكر: النخلة والعنب، وليس قوله : (هاتين الشجرتين) للحصر، بل هو للغالب في وقتها ،فلقد كان العرب يتخذون الخمر من النخل والعنب .

ومنه أيضا قول النبي ﷺ: عن أنس بن مالك رضي الله عنه ، قال: قال رسول الله ﷺ :" يكبر ابن آدم ويكبر معه اثنان: حب المال، وطول العمر [1].

وكأن ابن آدم حين يكبر سنه يضعف معه كل شيء، فتجد الشعر وقد صار أبيض، والجسد وقد وهن منه العظم، والظهر وقد انحنى .. ومع كل هذه المحاذير تجد ابن آدم ما زال على المال حريصا، ومازال على طول العمر أحرص، فهذان فقط لا يهرمان، بل يتضخمان، ويكبران في النفس، والكبر هنا كبر قوة، وليس كبر حجم، **وصدق الشاعر حيث يقول** :

قد شاب رأسي ورأس الحرص لم يشب ... **إن الحريص على الدنيا لفي تعب**

لو كان يصدقني ذهني وفكرته ... ما اشتد حرصي على الدنيا ولا نصبي

أسعى وأكدح فيما لست أدركه ... والذهن يكدح في زندي وفي عصبي

ومن نماذج التوشيع أيضا قول البحتري :

لما مشين بذي الأراك تشابهت ... أعطاف قضبان به وقدود

في حلتيْ حبر وروض فالتقى ... وشيان : وشي ربى ووشي برود

١- صحيح البخاري رقم ٦٤٢١.

وسفرن فامتلأت عيون راقها وردان : ورد جنى وورد خدود

فالشاعر يصور مشي الفاتنات في موضع محدد يسمى (ذو الأراك) وحين نظر إليهن وجد التشابه كبيرا بين أغصان الشجر وقدود المائسات كما تشابهت في نظره ملابسهن الحريرية وأزهار الشجر، وكذا تشابهت ألوان الخدود مع ألوان الورود، وراجع هذا التوشيع الذي ذكر المثنى في كل من: (وشيان – وردان) وكيف أوحشك بهذا اللفظ، وألهب مشاعرك حتى يسرع في تفسير كل لفظ من هذه الألفاظ.

ومنه قول ابن المعتز :

سقتني في ليل شبيه بشعرها شبيهة خديها بغير رقيب

فما زلت في ليلين: شعر وظلمة وشمسين: من خمر ووجه حبيب

يقول محمود توفيق معلقا على ذلك:(جمع لك الشاعر صنوفا من الصور في هذه المعزوفة فإذا به يصور لك الظرف الزماني الذي وقعت فيه الواقعة بأنه ليل شبيه بشعرها، وبهذا ينزع من ظلمة الليل وحشته ويسكب فيه صنوفا من المتعة والأنس والبهجة، فيستحيل المخيف مؤنسا والمعذب عذبا (ليل شبيه بشعرها)،ويصور لك ما سقته تلك الفاتنة في ذلك الليل المؤنس المبهج بحمرة خدها، وهي حمرة رامزة إلى تأجج نار

الأنوثة فيها، وانظر كيف جمع لك بين بين ظلمة الليل والشعر، وحمرة الشراب والخد ؟

وقد أوغل بك في التخييل لما يزيدحمرة الخدين اتقادا **فقال** : (بغير رقيب) إنها الكلمة المعشوقة لكل محب ومحبوب، بل هي ضالة كل متحابين .

وهنا يكشف لنا الستر لتبصر ما هو سابح فيه : (ما زلت في ليلين : شعر وظلمة) ولكنها ظلمة الأنس والبهجة، ومن ثم قدم (الشعر)على الظلمة ليملأ صدرك بالإحساس بالبهجة فيتلون الليل في سمعك وصدرك بتلك البهجة، ولا تأذن لوحشته أن تجتاز عتبةصدرك أو قصرك .

وما زال الشاعر سابحا في إشراق شمسين بالحياة والدفء المترع صدره : خمر ووجه حبيب، فجعل كليهما شمسا، لكل دفئه وإشراقه وانظر كيف صور لك نفسه سابحا في ليل ونهار في آن ؟ وما أوسع لذة الشعور بأنك سابح فيها لا يتلاقى إلا عندك ،وما أعمق الشعور بالقوة والسلطان ،وقد جمعت في يديك ليلا ونهارا ؟ !)([1]).

ومنه أيضا قول الشاعر :

أمسي وأصبح من تذكاركم وصبا — يرثي لي المشفقان الأهل والولد

قد خدد الدمع خدّي من تذكركم — واعتادني المضنيان الوجد والكمد

وغاب عن مقلتي نومي لغيبتكم — وخانني المسعدان الصبر والجلد

١- بلاغة الإطناب في بلاغة الخطب ص ١٩٨.

لا غرو للـدمع أن تجـري غواربـه　　وتحتـه المظلـمان القلـب والكبـد

كــأنما مهجتــي شــلو بمســبعة　　ينتابها الضاريان الـذئب والأسـد

لم يبق غير خفي الروح في جسدي　　فدى لك الباقيان الروح والجسـد

والوصب هو: التعب والمرض، وغوارب الدمع: أوائله، والشلو: بقية الجسد، المسبعة: مكـان وجـود السـباع، الضـاريان: المفترسـان وهذه المقطوعة ترى في كل بيت فيها توشيعا يزينها، ويضـع عـلى رأس كـل بيت هذا التاج المرصع بالكلمتين المفسرتين للمثنى السابق علـيهما، والـذي يدفع القارئ إلى أن يسرع الخطى ليعلم تفسـير مـا سـبق مـن اللفـظ المثنـى (المشفقان والمضنيان والمسعدان والمظلـمان والضـاريان والباقيـان) فكـل كلمة كأنها بوابة تـدفعك إلى مـا بعـدها، أو كأنهـا رأس تقـوم عـلى سـاقين والشعر فيه من الإبداع ما يذهب بالعقول أنسا ولطافة .

ومن لطائف التوشيع ايضا قول أحمد بن طاهر :

إذا أبــو قاســم جـادت لنـا يـده　　لم يحمد الأجودان: البحـر والمطـر

وإن أضــاءت لنــا أنــوار غرّتــه　　تضاءل الأنوران: الشـمس والقمـر

وإن مضـــى رأيــه أو حــدّ عزمتــه　　تأخر الماضـيان: السـيف والقـدر

من لم يكن حذرا من حـدّ صـولته　　لم يدر ما المزعجان: الخوف والحـذر

ينـال بـالظن مـا يعيـا العيـان بـه　　والشـاهدان عليـه العـين والأثـر

كأنـه الـدهر فى نعمـى وفى نعـم إذا تعاقـب منـه النفـع والضرر
كأنـه وزمـام الـدهر فى يـده يرى عواقب ما يأتى وما يدر

فالأبيات الخمسة الأولى تزينت بزينة التوشيع، حيث تقدم اللفظ المثنى (الأجودان – النوران – الماضيان – المزعجان – الشاهدان) وقد أحسن الشاعر حيث رسمهما رسما واحد، وفي مكان واحد وفي إعراب واحد وهو الرفع، وفي كل بيت ترى الشاعر يفرق بين الممدوح وبين غيره، لينتبه السمع إلى جوده ونوره وعزمه وشدته، ويعلم الفارق بين الممدوح وبين من يشبهه .

ذكر الخاص بعد العام

من أساليب الإطناب التي تلتصق بالإيضاح بعد الإبهام ما يسمى : ذكر الخاص بعد العام، أي : ذكر ما كان فردا من متعدد، والمراد الذكر على سبيل العطف لا على سبيل الوصف أو الإبدال، فلو كان الذكر على غير سبيل العطف كان من الإيضاح بعد الإبهام، ووجهه أنه مع الوصف أو الإبدال يكون ذلك الخاص هو المراد من العام ، والقصد من ذكر الخاص بعد العام التنبيه على فضله، **ومن ذلك قولهم :**

(جاء الصحابة وأبو بكر) وهذا التخصيص يوضح أهميته، ومزيته حتى كأنه غير الصحابة، بل هو أعلى منهم منزلة، **وشبيه بهذا قول ربنا جل وعلا :**

﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ٢٣٨﴾

[سورة البقرة:٢٣٨]

ذكر الزمخشري: (أنها أفردت وعطفت على الصلاة لانفرادها بالفضل وهي صلاة العصر.

وعن النبى ﷺ أنه قال يوم الأحزاب «شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر ملأ الله بيوتهم نارا، وقال عليه السلام «إنها الصلاة التي شغل عنها سليمان بن داود حتى توارت بالحجاب»، وعن حفصة أنها قالت لمن كتب لها المصحف: إذا بلغت هذه الآية فلا تكتبها حتى أمليها عليك كما سمعت رسول الله ﷺ يقرؤها، فأملت عليه: والصلاة الوسطى صلاة العصر- وروى عن عائشة وابن عباس رضي الله عنهم : والصلاة الوسطى وصلاة العصر- بالواو.

والآية أمرت بالمحافظة على إقامة الصلوات في أوقاتها وبجميع شروطها، وذكر تعالى الصَّلاةِ الْوُسْطى ثانية وقد دخلت قبلُ في عموم قوله الصَّلَواتِ لأنه قصد تشريفها وإغراء المصلين بها)(١).

وترى في الآية الأمر بصيغة (حافظوا) وليس (احفظوا) لبيان أهمية بذل كل ما في الوسع، والتغلب على كل مشغلة تعترض الصلاة، زد على

١-انظر الكشاف ، والمحرر الوجيز.

ذلك أن إسناد الفعل إلى واو الجماعة يشعرك بأهمية أن يتكاتف الجميع لتحقيق هذه المحافظة، بتهيئة الأسباب الداعية إلى هذه المحافظة عليه وعلى ولي الأمر أن يحمل الناس إليها بالرفق واللطف، فمن أبى حمل عليها وعطف الصلاة الوسطى على الصلوات يشير إلى أن المحافظة عليها لا مسامحة فيه بغير عذر شرعي، لأنها بهذا العطف صارت غير الصلوات .

ومنه أيضا قوله تعالى :

﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبۡرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلۡكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾ ﴾ [سورة البقرة:٩٨]

فذكر جبريل وميكائيل مع دخولهما في الملائكة، للتنبيه على زيادة فضلهما، ولأن عداوتهما لها من العقاب ما يفوق عداوة غيرهما من الملائكة فالآية تتحدث عن عداوة اليهود للملائكة وبخاصة جبريل وميكال ويترتب على ذلك بيان منزلة هذين الملكين الكريمين من رب العزة جل وعلا، حتى ذكرهما باسميهما تشريفا وتكريما .

ويلحق بما سبق قوله تعالى :

﴿ تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمۡرٖ ﴿٤﴾ ﴾ [سورة القدْر:٤]

فالروح وهو جبريل عليه السلام قد ذكر مرتين؛ مرة مع عموم الملائكة ومرة وحده، وكأنه غيرهم ، أو كأنه يقودهم، وهذا تكريم له وتعظيم لشأنه، حتى اختير له هذا الوصف (الروح) .

ومنه قوله تعالى :

﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٤)﴾ [سورة آل عمران:١٠٤]

حيث عطف قوله : (يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر) على قوله: (يدعون إلى الخير، ودعوة الخير تشمل الأمر بالمعروف، وغيره لكن لما كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هما عمادة الدين، وأثرهما في الأمة خطير، لذلك اعتبرا شيئا مغايرا لفعل الخيرات، إن ترك هذا الواجب العظيم سبب لغضب الله ولعنته، **يقول الله** y :

﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ (٧٨) كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٧٩)﴾ [سورة المائدة:٧٨-٧٩]

والإعراض عن هذا الواجب سبب لحلول المصائب والعقوبات وعدم إجابة الدعوات، **يقول النبي** ﷺ :

«والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابا منه، ثم تدعونه فلا يستجاب لكم »(١).

وبكل حال فالقيام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سبب لنجاة الأمم والإعراض عنه وتركه سبب لهلاكها، **يقول النبي** ﷺ :

١- أخرجه الترمذي وحسنه.

«مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعا»(١).

ومنه قوله تعالى :

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾﴾ [سورة البقرة:٢٧٧]

فالذي لا شك فيه أن الصلاة والزكاة في قلب العمل الصالح، لكن الآية عطفت هذين العملين على قوله (عملوا الصالحات) وكأنهما غير العمل الصالح، لأن منزلتهما فوق منزلة العمل الصالح، فهما رأس الدين وعموده و ومعلوم أن معيار العمل الصالح هو : كل عمل أريد به وجه الله تعالى و وكان فعله على هدي الكتاب والسنة، **كما جاء في آخر سورة الكهف :** ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ [سورة الكهف:١١٠]

والعجيب أن الناس يتهاونون في هذين العملين (إقام الصلاة وإيتاء الزكاة) مع أنهما عنوان العمل الصالح ورأسه .

١- أخرجه البخاري.

ومن ذلك أيضا قوله تعالى :

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (٢٥) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ۖ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ (٢٦)﴾ [سورة الحديد:٢٥-٢٦]

فإرسال الرسل يشمل جميع الرسل، ما علمنا منهم وما لم نعلم ثم عطف على هؤلاء قوله : (ولقد أرسلنا نوحا وإبراهيم، وكأنه شرفهما بالرسالة، ثم جعل في ذريتهما النبوة والكتاب فما جاء بعدهما أحد بالنبوة إلا وكان من أولادهما، فاختصاصهما كان بسبب أنه جعل فيهما النبوة والكتاب .

التكرار

هذا اللون من الإطناب هو الأكثر شيوعًا وحضورًا في لسان العرب فهو كثير في القرآن الكريم، والحديث الشريف، والشعر الجاهلي وغيره من الكلام العالي، فالعرب لها سنن تسير عليها في الكلام ومن سنن العرب **كما قال ابن فارس:**

(التكرير والإعادة إرادةَ الإبلاغ بحسب العناية بالأمر)[1]، فالعناية بالمراد جعل العربي يبالغ في اتباع الوسائل الكفيلة بتوصيل هذا المراد إلى المتلقي، وكان من أسرع هذه الوسائل، وأعلاها صوتا التكرار، وهذا دفعه إلى تكرار اللفظة الواحدة مرة ومرتين وثلاثة واسمع **إلى قول القائل** :

كم نعمة كانت لَهُ كَمْ كَمْ وَكَمْ

ألا ترى أنه أراد منك أن تردد معه (كم كم وكم ؟) وجعلك وأنت تكرر هذا اللفظ تستحضر تلك النعم، وتعددها، وتظل كذلك حتى تتحول من ذاكر للنعم إلى منشد لها، ويرى ابن رشيق أن التكرار منه ما هو حسن، ومنه ما هو معيب، وذكر أن الأصل في التكرار أن يكون للفظ وقد يكرر المعنى لكنه قليل في اللسان العربي، فإذا كرر اللفظ والمعنى فهو الخذلان بعينه ، **ويقول** : (لا يجب للشاعر أن يكرر اسماً إلا على جهة التشوق والاستعذاب، إذا كان في تغزل أو نسيب..) وهذا الكلام محل نظر لأن التكرار من أهم فنون القول، وله من الميزات ما يعجز غيره عنها ولقد كتب الدكتور إبراهيم الخولي كتابا سماه : التكرار بلاغة، حرر فيه المصطلح، وتابع كلام العلماء في بلاغة التكرار، وأنصف هذا اللون من الكلام، وحدد له مقاماته، وسوف أحاول أن أقتبس من كلامه هنا بعضًا مما

١- الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها لأحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (المتوفى: ٣٩٥ هـ) ١/ ١٥٨.

قال، لتنظر إلى قيمة هذا الفن من الإطناب، وأنقل لك شيئا من شعر امرئ القيس **حيث يقول** :

ألا عِمْ صَبَاحاً أيّهَا الطَّلَلُ البَالي وَهل يَعِمنْ مَن كان في العُصُرِ الخالي

وَهَل يَعِمَنْ إلا سَعِيدٌ مُخَلَّدٌ قَلِيلُ الهُموم ما يَبيتُ بأوْجَالِ

وَهَل يَعِمَنْ مَن كان أحدثُ عَهدِه ثَلاثِينَ شهراً في ثَلاثَة أحوَالِ

دِيارٌ لسَلمَى عَافِيَاتٌ بذِي خَالِ ألَحّ عَلَيها كُلُّ أسْحَمَ هَطّالِ

وَتحسِبُ سَلمَى لا تَزَالُ تَرى طَلاً من الوَحشِ أوْ بَيضاً بمَيثاءِ مِحْلالِ

وتحسِبُ سَلمَى لا تزالُ كَعَهْدِنَا بوَادي الخُزَامى أوْ على رَسّ أوْعالِ

لَيَاليَ سَلَمى إذْ تُرِيكَ مُنْصَّباً وَجِيداً كَجِيدِ الرِّئمِ ليسَ بمِعطالِ

والأوجال : الأمور الموجبة للوجل، وتوقع المصائب، وذو الخال ووادي الخزامى، ورس أوعال : كلها اسماء أماكن، والأسحم هو الأسود من السحاب، والطلا : ولد الظبية، أما الميثاء المحلال فهي الأرض السهلة التي كثر نزول الناس بها، وتريك منصبا يعني : ثغرا متسقًا والمعطال:المجرّد من القلائد. **والشاعر كرر جملة**:و(تحسب سلمى لا تزال)، وراجع هذه الجملة : (وتحسب سلمى لا تزال) وما ورائها من أثر نفسي على الشاعر جعله، كأنه يصرخ بهذا المعنى، ويستنجد بمن يصحح لسلمى هذا الحسبان، لأنه ضاق به وأصبح لا يرى له نهاية، وهذا من صرخات الألم النفسي التي تترك الشاعر يكرر ما يؤلمه لعله يتخلص منه .

والتكرار في اللسان العربي من (الكـر) وهـو الرجـوع والانعطـاف والإعادة، والمكرر من الحروف :(الراء) لأنك إذا وقفت عليه رأيت طـرف اللسان يتردد، ويعود إليه مرات .

والتكرار مصدر الفعل الثلاثي (كرّ) أما التكرير فهو مصـدر الفعـل الرباعي (كرّر) ، وتنوعت تعريفات العلماء للتكرار .**فنجد التكرار** :

إعادة العبارة بنصها في سياق واحد، لغرض يقتضي إعادتهـا، في مقـام يلائم هذا الغرض .

واسمع مثلا إلى قول المؤذن : الله أكـبر الله أكـبر، أو قولـه حـين يقـيم الصلاة : قد قامت الصلاة، قد قامت الصلاة، لأن العرب – كما يقـول ابـن جني – إذا أرادت المعنى مكنته، واحتاطت له .

ومن أكثر الأمثلة دورانا في بـاب التكـرار مـن كـلام الله تعـالى قولـه سبحانه:

﴿ كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلۡأَرۡضُ دَكّٗا دَكّٗا ﴿٢١﴾ ﴾ [سورة الفجر:٢١]

وقوله : ﴿ فَمَهِّلِ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَمۡهِلۡهُمۡ رُوَيۡدَۢا ﴿١٧﴾ ﴾ [سورة الطارق:١٧]

وقوله : ﴿ ۞هَيۡهَاتَ هَيۡهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [سورة المؤمنون:٣٦]

وقوله : ﴿ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ ﴿٢٧﴾ ﴾ [سورة الواقعة:٢٧]

وقوله : ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا ﴿٦﴾ ﴾ [سورة الشَّرح:٥-٦]

وقوله :

﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ﴾ [سورة التكاثر:٣-٤]

وقوله :

﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ كَذَّبَتْ عَادٌ
فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ النَّاسَ
كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ
﴿٢٢﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾
أَؤُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ ﴿٢٦﴾
إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ
﴿٢٨﴾ فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً
فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾ ﴾

[سورة القمر:١٦-٣٢]

في كل ذلك تلحظ أن المكرر يشمل اللفظ الواحد، والجملة، وما هو أكثر من جملة، فما دام السياق واحدا، والمقام واحدا، واللفظ المكرر واحدا فالكلام يدخل في إطار التكرار، فإذا اختل واحد مما سبق فلا تكرار فإذا قلت مثلا : (أطعني ولا تعصني) فلا تكرار لأنه ليس اللفظ الأول هو اللفظ الثاني، وإن غيرت في الترتيب فقلت : (أطعني اليوم، اليوم أطعني) فلا تكرار .

فالشروط التي يجب توفرها في التكرار هي :

١- إعادة النص .

٢- وحدة السياق .

٣- وجود الغرض المقتضي .

٤- وجود المقام الملائم .

فإذا توفرت هذه الشروط كانت الصورة صورة تكرار البليغ .

القيمة الفنية للتكرار :

يرى الدكتور الخولي أن دائرة التكرار ضيقة وأن كثيرًا مما أدخله البلاغيون في ساحة التكرار ليس منه، وأن التكرار وسيلة بيانية، وأداة فنية لا يسد غيرها مسدها في موضعها من وسائل البيان، كما أن له قيمة فنية تكشف عن وظيفته التعبيرية والنفسية، فالتكرار له أسبابه ودوافعه الكامنة في فطرة النفس، فالطفل حين يسمع لفظة جديدة يكررها، كأنه يدرك أن التكرار هو الوسيلة لكي يحفظها ويضيفها إلى ثروته اللغوية التي يحرص على تنميتها وزيادتها، والمربون والمعلمون يعتمدون هذه الوسيلة في توصيل المعلومات إلى الطلاب، وبخاصة الصغار، وكذا الدعاة والوعاظ، والحكام والقادة يصطنعون ذلك، ليرسخوا في أذهان المتلقين ما يرونه مهما، بل إنك حين تتكلم تراك تعيد لفظا أو غيره إذا تبين لك أن

مرادك لم يستبن للمخاطب، فالتكرار فن بلاغي أصيل يسعف المتكلم في مقامات لا يسعفه فيها غيره، ويلبي أغراضا لا يحققها غيره، ويفي بمقصود المتكلم من الإفادة والإمتاع معا (١).

مقامات التكرار :

أولا :مقام اللجوء إلى الله والعياذ به من وسوسة الشياطين :

وراجع في ذلك سورة الناس، وتكرار لفظة (الناس) في السورة قال تعالى :

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴿٦﴾﴾ [سورة الناس:١-٦]

يقول الخولي :(سر تكرار لفظ الناس مضافا إليه في المواضع الثلاثة هو الإيحاء بها للجن والإنس من منزلة في هذا العالم حيث خصهم الله بحرية الاختيار، ولم يبن أمرهم على التسخير الذي يحكم حركة الوجود ... والإيحاء بشدة قرب الناس من خالقهم، وتقريبه لهم، كما أنه يعمق في نفوسنا معنى الإلتجاء إلى الله رب العالمين)(٢).

١- التكرار بلاغة للخولي ص ٨٢ ــ ٩٠ بتصرف شديد.

٢- التكرار بلاغةللخولي ص ١١١.

ثانيا:مقام التبليغ والإنذار :

ومثال ذلك تكرار جملة :(يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره) على ألسنة الرسل (نوح، وهود، وصالح، وشعيب) والتي جاءت في سورة الأعراف، وهي سورة إنذار، فالأصل في دعوتهم واحدة، وهي التوحيد وملخص التوحيد : اعبدوا الله مالكم من إله غيره، وهذا الاتحاد في الدعوة أرشد إلى عدة دروس مهمة، منها : وحدة الدين في أصله السماوي المنزل من عند الله تعالى، وأن ما يرى من اختلافات عند أصحاب الديانات التي تنتمي إلى أصل سماوي إنما هو اختلاقات، وافتراءات على دين الله، وهذه نتيجة ضرورية للتسليم بوحدة الأصل، ومن الدروس أيضا : ضرورة الإيمان بالرسالات كلها وبالرسل كلهم دون تفرقة بينهم، كما قررته أواخر سورة البقرة، لأن التكذيب برسالة واحدة، أو برسول واحد هو تكذيب بكل الرسل وبجميع الرسالات (١).

ثالثا:مقام الدعوة إلى التفكر والاعتبار .

وراجع قوله تعالى في سورة الشعراء :

(كذبت قوم نوح – كذبت عاد – كذبت ثمود - كذبت قوم لوط – كذب أصحاب الأيكة المرسلين)(٢)

١- السابق ص ١٢٣.

٢ - آيات ١٠٥-١٢٣- ١٤١- ١٦٠- ١٧٦.

فسورة الشعراء تدور حول المكذبين ومصائرهم، لذلك بدأت بقوله تعالى: ﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ۝٣ ﴾ [سورة الشعراء:٣] (١).

لتبين للرسول ﷺ أنه ليس بدعا، فلقد كذبت رسل من قبله فصبروا، وسوف يلقى الكاذبون مصائر سابقيهم (فسيأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون) وعلى ومن يكذب برسالة النبي ﷺ أن يعتبروا، ولذلك كررت جملة (إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك لهو العزيز الرحيم).

رابعا:مقام التعليم والتلقين .

فالتكرار من طرق التعليم، وبخاصة للصغار، ولقد جاء عند البخاري من حديث أنس رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ (أنه كان إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثا ؛ حتى تفهم عنه، وإذا أتى على قوم فسلم عليهم سلم عليهم ثلاثا) .

يقول الدكتور الخولي : **فقوله :** (حتى تفهم عنه) أوحت إلينا بالمقامات التي كان يصطنع رسول الله فيها التكرار، وسيلة تعليمية غايتها إفهام المخاطبين دون لبس أو غموض .

ومن ذلك أيضا حديث: (رغم أنف، ثم رغم أنف، ثم رغم أنف قيل من يا رسول الله ؟

١- التحرير والتنوير ٢١ م ٢٣١.

قال : من أدرك أبويه عند الكبر أحدهما أو كليهما فلم يدخل الجنة)(١)، فهذه كناية عن الذل لمن أساء إلى والديه، ولم يجعلهما سببا لدخوله الجنة .

خامسا:مقام الدعاء والاستغفار .

ولقد كان رسول الله ﷺ يدعو ثلاثا ويستغفر ثلاثا، لأن في ذلك من الضراعة والخشية والافتقار إلى الله الكثير، وهو أرجى إلى القبول لأن من أطال قرع الباب أخلق بأن يلج، ولذلك تسمعه ﷺ يقول : (ألظّوا بـ "يا ذا الجلال والإكرام ")(٢) أي ألحوا وأكثروا .

سادسا:مقام الذب عن الحرمات،والدفاع عن الحقوق.

ويقابلنا في هذا المقام حديث النبي ﷺ " إن بني هشام بن المغيرة استأذنوني أن ينكحوا ابنتهم عليَّ بن أبي طالب، فلا آذن لهم، ثم لا آذن لهم ثم لا آذن لهم، إلا أن يحب ابن أبي طالب أن يطلق ابنتي وينكح ابنتهم فإنما ابنتي بضعة، مني يريبني ما رابها، ويؤذيني ما آذاها" (٣).

وهشام ابن المغيرة هو والد أبي جهل : الحكم بن هشام، عدو الله وهو كذلك والد : الحارث بن هشام، وسلمة بن هشام، وقد أسلما وحسن إسلامهما، كما أسلم عكرمة بن أبي جهل وأخته التي أراد سيدنا علي بن أبي

١- صحيح مسلم حديث رقم ١٩٧٨.

٢- مسند الإمام أحمد ٢٩ / ١٣٨.

٣- صحيح البخاري رقم ٥٢٣٠.

طالب الزواج بها، والجملة المكررة هنا هي قوله (فلا آذن لهم) مع أن هذا ليس بمحرم، إنما علل رسول الله ﷺ لعدم الإذن بأن ذلك يؤذي السيدة فاطمة، وهي بضعة منه، مما يعني وصول الأذى إليه ﷺ كما زاد في رواية أخرى علة ثانية وهي : لا تجتمع بنت رسول الله وبنت عدو الله تحت رجل واحد، فالتكرار في هذا المقام يعني أن عدم الإذن لا مندوحة فيه، ولا تجوّز، بل هو حتم لازم، فلا يجوز لأحد أن يراجع فيه، أو يفاوض بشأنه، أو يفتح فيه حوارا، ففاطمة ليست ككل النساء والزواج عليها يؤذيها، وإيذاؤها إيذاء لأبيها ﷺ، وهذا يستتبع اللعن فليحذر كل إنسان من إيذاء نبي الله تعالى إيذاء مباشرا أو غير مباشر، فالتكرار مكن لرفض الإذن في عقول الناس، ولذلك وضعه الرسول في خطبة ليسمعها كل الناس (١).

الترديد

من أنواع الإطناب الترديد وهو واحد من الروابط اللفظية، ترى فيه الكلمة الواحد تنعطف يمينا، فتتصل بمعنى، ثم تنعطف شمالا فتذكر مرة أخرى متعلقة بمعنى آخر، **يقول ابن رشيق في العمدة في تعريف الترديد :** **(هو أن يأتي الشاعر بلفظة متعلقة بمعنى، ثم يرددها بعينها متعلقة بمعنى آخر في البيت نفسه، أو في قسيم منه)**(٢).

١- راجع كتاب الشيخ إبراهيم الخولي: التكرار بلاغة.
٢- العمدة لابن رشيق القيرواني ١ / ٣٣٣.

ومثال ذلك كما وضح قول زهير:

من يلـق يومـاً عـلى علاتـه هرمـاً يلق السـماحة منـه والنـدى خلقـاً

فالفعل المضارع (يلق) اتصل بكلمة (هرما) ويقصد به : هـرم ابـن سنان ، ثم اتصل بكلمة (السماحة) والمعنى : من يلق هرمـا يلـق السـماحة وهي جملة شرطية اتحد فيها فعل الشرط وجزاؤه، فلقاء هرم لقـاء للسـماحة والجود، وشـاهدنا هـذه الكلمـة المـرددة (يلـق) وتكرارهـا يحمـل دلالـة تصويبية، تصحيحية تقول إياك أن تظن أنك حين تلقى هرم ابن سنان أنـك التقيت فردا من أفراد الناس، كلا كلا، صحح معلومتك وصـوب نظرتـك فأنت لم تلـق واحـدا مـن النـاس بـل التقيـت بالسـماحة، التقيـت بالنـدى التقيت بـالأخلاق العظيمـة، إن الكلمـة المـرددة، تصـحح الكلمـة الأولى وتحذفها وتضع مكانها ما ينبغي أن توقن به .

إن الشاعر يريد أن يصحح التصورات التي تختلط على الناس، ويريـد أيضا أن ينقل إليك أثـر هـذه اللفظـة عليـه، وتوهجهـا بداخلـه، ممـا دفعـه إلى تكرارها بهذا البناء العجيب، وهو ارتباط اللفظة بأكثر من متعلق وتلك خصوصية هذا اللون البديعي، إن الترديد ليس كالتكرار، وليس كغيره مـن ألوان ذكر اللفظة الواحدة مرتين، إنما الترديد يعطيك مـن اللفظـة الواحـدة المكررة عائلتين متنوعتين، وفرعين منبثقين من الجذر الواحد فترى اللفظـة الواحدة متجهة في جملة إلى جانـب، ومتجهـة في الجملـة الثانيـة إلى جانـب آخر، وهذا فرق مهم بين الترديد والتكرار، وأريد أن ألحُّ على هذا الفارق

لأن هذا المعنى غاب عند بعض أهل العلم كابن وكيع حيث **قال (التريد**: هو أن يبتدئ الشاعر بكلمة في البيت ثم يعيدها في عجزه أو نصفه ثم يردها في النصف الآخر، وهذا إذا نظم الشعر على هذه الصفة تيسر استخراج قوافيه قبل أن يطرق أسماع مستمعيه، وهذا الباب واسع يدل عليه هذا اليسير) (١).

وهذا كلام يكتنفه الغموض، مع غفلة عن الخيط الذي لمحه ابن رشيق في العمدة، وهو تعلق اللفظة الأولى بمعنى، وتعلق الثانية بمعنى آخر، ولذلك لم يجد ابن وكيع من شواهد الترديد إلا ما يؤكد كلام ابن رشيق **مثل قول الشاعر**:

فليتَ بياض السيف يَوْم لقيتني مَكان بياض الشيبِ كان بِمفرقي

حيث قال : ومجيء البياض مكان البياض من الترديد المليح الذي رجح به لفظه فصار أولى بها قال(٢) .

والحسن ليس في مجيء بياض مكان بياض كما زعم، بل في تعلق كل لفظة بمعنى يخالف معنى الأخرى، ويبتعد عنه حتى صار بياض السيف دليل قوة وفتوة، وبياض الشيب دليل ضعف وهوان .

١- المنصف للسارق والمسروق منه لابن وكيع – الحسن بن على الضبي ت ٢٩٣ هـ.
٢- المنصف للسارق والمسروق منه للحسن بن علي الضبي المعروف بابن وكيع ت ٣٩٣هـ.

المهم أنه لا بد أن تفرق بين الترديد والتكرار، لأن التكرار إعادة اللفظة، دون نظر إلى متعلقات، ولذلك قال ابن رشيق : حمل قوم قول امرئ القيس :

فثوباً لبست وثوباً أجر

على أنه تكرار لا ترديد فيه، وهذا هو الخطأ البين، وأي ترديد يكون أحسن من هذا؟ وقد أفاد الثاني غير إفادة الأول حسب ما شرطوا)([1]).

وحين تراجع الشاهد في كتب النحو تجده بالرفع كما ذكره سيبويه .

فأَقْبَلتُ زَحْفاً علَى الرُّكْبَتَيْنِ فثَوْبٌ لبست وثَوْبٌ أَجُرّْ

فالثوب الأول غير الثوب الثاني، لأن النكرة هنا أفادت التنويع فكأنها أشبه بالمعرفة، فنوع الثوب الملبوس مغاير للثوب المجرور ؛ لذلك صح الابتداء بالنكرة هنا، وأكد الشاعر على الفارق بين اللفظتين.

ومن أمثلة هذا أيضا قول النَّمِرُ بن تَوْلَبٍ:

فَيَومٌ عَلينا ويوم لنا ويومٌ نُسَاءُ ويومٌ نُسَرّْ

فلكل يوم دلالة ومتعلق حتى صار مغايرا لليوم الذي يليه فهو من الترديد وليس من التكرار .

ومن الترديد أيضا قول الشاعر :

ومن هاب أسباب المنايا ينلنه ولو رام أسباب السماء بسلم

1- العمدة 1/ 333.

لاحظ هنا كلمة (أسباب) فهي في الشطرة الأولى متجهة إلى المنايا حيث يَحذرُ الناس أسبابَ الموت، ويفرون من هذه الأسباب بشتى الوسائل، ولكن الشاعر يبين أن الإنسان مهما فعل هروبًا من أسباب الموت فلن يفلح لأنها سهام مكتوب عليها عدم الخطأ، وحتمية الإصابة ثم انتقل الشاعر إلى الشطر الثاني وأعاد على الأسماع كلمة (الأسباب) ولكنه وضعها في حاضنة أخرى، وضعها في حاضنة وسائل الفرار، أو ما سماه أسباب السماء، فرأينا الأسباب تارة في عالم المنايا، وتارة أخرى في عالم السماء، وهذا يضفي على الصورة تشعيبا تلحظه العيون وتلتذ به الأسماع وتهش له الأفئدة .

واسمع إلى هذه الشكوى الحارة من مجنون ليلى،وتفرس في كلمة (الابتلاء)**التي لخص بها حاله معها :**

قضاها لغيري وابتلاني بحبها فهلا بشيء غير ليلى ابتلانيا

والابتلاء هنا ابتلاء حب، والكلمة في رنينها ألم وعذاب، لكنه بيّن أن نوع هذا الابتلاء هو (الحب) فقال ابتلاني بحبها، وحين دعا الله تعالى أن يعافيه من هذا الابتلاء لم يطلب ابتلاءً غير الحب لكنه طلب ابتلاء غير ليلى، وهنا المفارقة التي تدل على أن حب غيرها من السهل التغلب عليه وسلوانه، والإعراض عنه، والتعافي منه، لكن حب ليلى لا معافة منه ولا طاقة فيه على الصبر، **وقال أبو تمام :**

خفّت دموعك في إثر القطين لدن   خفّت من الكثب القضبان والكثب

يقول ابن رشيق : الترديد في (خفّت)، ولو جعلت (الكثيب) ترديداً لجاز[1]، لأن كل لفظة ذكرت مرتين، وارتبطت برباط مختلف في كل مرة، **قال أبو العلاء في تعليقه على بيت أبي تمام** :

أصل (الخفوف) من قولهم: خَفَّ القوم ؛ إذا تحركوا ، وهو راجع إلى الخفة التي هي ضد الثقل ، إلا أنهم يفرقون بالمصادر بين الأفعال التي أصلها واحد في الاشتقاق ؛ **فيقولون** : خَفَّ الشيء خِفَّةً ، إذا كان خفيف الزِّنَة ، وخَفَّ القوم خفوفا إذا ارتحلوا ، وخف في حاجته ؛ إذا أسرع) وعبارة أبو العلاء : يفرقون بالمصادر بين ....، إشارة إلى أسلوب اللغويين في شرح معاني الألفاظ ، حيث درجوا على ذكر مصدر الفعل بعد الفعل ليكون هذا وسيلة لتحديد لمعناه ، ورفع الالتباس عنه إذا اشترك معه فعل آخر في أصل الاشتقاق، مثلما أشار أبو العلاء هنا)[2].

فالشرط الذي لا بد منه في الترديد أن تكون اللفظة الأولى مفيدة في نظمها معنى مغايرًا لما تفيده الثانية، وتلك هي الفارقة بين الترديد والتكرار، ففي التكرار لا تغاير بين اللفظتين المكررتين، **لكن انظر مثلا إلى**

١- العمدة ١ / ٣٣٣.

٢- ديوان أبي تمام بشرح أبي العلاء والخطيب التبريزي ١/ ١٩٩.

قول ابن المعتز :

لو شئت لا شئت خليت السلو له　　　وكـان لا كـان مـنكم في معافـاتي

تجد فعل المشيئة، وفعل الكينونة يقترب من حمى التضاد في الشطرين مما يعنى التغاير في المعنى المنبعث من اللفظ الواحد بحسب اعتلاقه بما حوله ، **وقال كشاجم :**(١)

قويت على الهجران حتى مللتني　　　ولكني عن حمل هجرك أضعف

لعمرك قد أحببتك الحب كله　　　وزدتك حبًا لم يكن قط يُعرف

سقى الله نهر الكرخ ما شاء ديمةً　　　فإني بها حتى المـمات مُكلفُ

منازل لهوٍ لا " كجرّ سويقةٍ　　　وعرفان " لا زالت بها الجن تعزف

تدور علينا الراح من كف شادن　　　له لحظ عينٍ يشتكي السقم مُدنفُ

كأن سُلاف الخمر من ماءِ خده　　　وعنقودها من شعره الجعد يُقطفُ

أتعذلني في يوسف وهو من ترى　　　ويوسف أبلاني ويوسف يوسُف

١- كشاجم ٣٦٠ هـ - ٩٧٠ م وهو محمود بن الحسين بن السندي بن شاهك أبو الفتح الرملي.شاعر متفنن أديب من كتاب الإنشاء من أهل الرملة بفلسطين فارسي الأصل كان أسلافه الأقربون في العراق.تنقل بن القدس ودمشق وحلب وبغداد وزار مصر أكثر من مرةواستقر بحلب، فكان من شعراء أبي الهيجاء عبد الله والد سيف الدولة بن حمدان ثم ابنه سيف الدولة.لفظ كشاجم منحوت فيما يقال، من علوم كان يتقنها الكاف للكتابة والشين للشعر والألف للإنشاء والجيم للجدل والميم للمنطق.وقيل لأنه كان كاتباً شاعراً أديباً جميلاً مغنياً وتعلم الطب فزيد في لقبة طاء فقيل (طكشاجم) ولم يشتهر به.له (ديوان شعر -ط) و (أدب النديم -ط) و (المصايد والمطارد -ط) (والرسائل) وغيرها.انظر معجم الشعراء العرب ١ / ١٩٠٦.

في البيت الأخير تجد لفظة " يوسف " تجسد لك المعاناة التي تعانيها الشاعرة في حبيبها، ففي الكلمة الأولى (أتعذلني في يوسف) تعيدك إلى القصة المشهورة في القرآن، وقول النسوة حين رأين سيدنا يوسف (ما هذا بشرا) وقطعن أيديهن فقالت لهن " فذلكن الذي لمتنني فيه " فهو من الجمال بحيث لا تقوى أنثى على لوم أخرى في حبه، تلك دلالات اللفظة الأولى .

ثم تأتي لفظة يوسف الثانية لمعنى جديد وهو " ويوسف أبلاني " لتعيدك إلى الأب المكلوم الذي تولى عن إخوة يوسف **متأسفا قائلا** :

﴿.... يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ فَهُوَ كَظِيمٞ ﴿٨٤﴾﴾

[سورة يوسف:٨٤]

ثم تأتي اللفظتين الأخيرتين لتصور لك دلالة ثالثة، وهي مكانة يوسف في قلوب الناس من بعد ذلك، فقالت : " ويوسف يوسف " أي : هو من هو الذي شاع أمره في الناس، وارتبطت به القلوب المؤمنة الطاهرة وصار مثلا للطهر والعفاف، والصبر على البلاء، وتحمل الأذى، ففي كل لفظة تجد الكلمة ترفدك بمعنى ليس موجودا في أختها، وذلك من عطايا هذا اللون من التعبير المسمى " الترديد .

ومن روائع أبي الطيب المتنبي في مدح بدر بن عمار بن إسماعيل في قصيدة بدايتها :

أحلماً نرى أم زماناً جديدا أم الخلق في شخص حيٍّ أعيدا؟!:

يقول :

أمــــيرٌ أمـــــيرٌ عليـــه النـــــدى   جــــوادٌ بخيــــلٌ بــــأن لا يجــــودا

والمعنى كما يوضحه أبو العلاء المعري([1])في : معجز أحمد هـو أن بـدر بن عمار (أمير على النـاس– وهـذه حقيقـة ، والسـخاء أمـير عليـه– وهـذا مجاز – ؛ لأنه يطيع أمره ، فهو أبداً جـواد لا يعـدل عنـه. وهـو بخيـل بـألا يجود: أي بخيل بترك الجود – وتلك أيضا دلالة مجازية، تحمل معنى – غاية الجود) ([2]).

ويعجبني هذا الترديد في الكلمة الواحدة، لأن الشـاعر حـوّل المعنـى من النقيض إلى النقيض، فأنت حين تسمع لفظـة (أمـير) تستحضر هـذه المكانة السامية، والمنزلة الرفيعة بين الناس ثم لا تلبث أن يحرك الشاعر إلى

١- هو أبو العلاء أحمد بن سليمان التنوخي المعروفبالمعري، فإنه كان غزير الفضل، وافر الأدب، عالماً باللغة، حسن الشعر، جزل الكلام، وكان ضريراً أعمى، ولم يكن أكمه؛ وصنف تصانيف كثيرة، وأشعاراً جمة؛ كسقط الزند، ولزوم ما لا يلزم، إلى غير ذلك.قال أبو القاسم التنوخي: ورد بغداد، وقرأت عليه شعره.وذكر أنه لما قدم بغداد دخل عليه علي بن عيسى الربعي ليقرأ عليه شيئاً من النحو، قال له الربعي: ليصعد الإصطبل فخرج مغضباً، ولم يعد إليه.ويروى أنه أدخل يوماً إلى مجلس المرتضى، فعثر بإنسان، فقال له: من هذا الكلب؟ فقال له: الكلب من لا يعرف للكلب سبعين اسماً! ويحكى عنه أنه كان برهمياً، وأنه وصف لمريض فروج، فقال: استضعفوك فوصفوك.وأخذ عنه أبو زكرياء يحيى بن علي الخطيب التبريزي.وذكر أن مولد أبي العلاء يوم الجمعة مغيب الشمس لثلاث بقين من شهر ربيع الأول سنة ثلاث وستين وثلاثمائة، وعمي من الجدري، وجدر أول سنة سبع وستين وثلاثمائة فغشى يمنى حدقتيه بياض، وأذهب اليسرى.وقال الشعر وهو ابن إحدى عشرة سنة - أو اثنتي عشرة.ورحل إلى بغداد سنة ثمان وتسعين، ودخلها سنة تسع وتسعين، وأقام بها سنة وتسعة أشهر، ولزم منزله بعد منصرفه من بغداد سنة أربعمائة، وسمى نفسه رهن المحبسين.وكان عمره ستاً وثمانين سنة، لم يأكل اللحم منها خمساً وأربعين سنة.

٢- معجز أحمد لأبي العلاء المعري ١ / ١١٥ بتصرف.

العبودية لهذا الأمير، فينقلب الحال من السيادة إلى العبوديـة، ولكنهـا عبودية للندى، ولم يعبر الشـاعر عـن ذلـك إلا بلفـظ الإمـارة أيضـا فقـال (أمير عليه الندى) ليدخلك في هذه الحالـة الغائمـة أولا في كونـه : أمـيرا وليس أميرا، ثم حين يستقر المعنى في قلبـك تجـدك زدتـه نـبلا، ورفعـة لأن الندى حين يكون أميرا على إنسان فلن تجد منه إلا العطاء الغزير، وما أعظم أن يكون الندى أميرا عليك !!!

وقد ذكر ابن رشيق في العمدة (أن العلماء بالشعر مجمعون على تقديم أبي حية النميري وتسليم فضيلة هذا الباب إليه في قوله:

ألا حَيِّ مِنْ أجلِ الحبيـبِ المغَانِيـا   لَبِسْــنَ الــبِلَى مِمّــا لَبِسْــن اللّيالِيـا

إذا مـا تَقـاضَى المَـرْءَ يـومٌ وليلـةٌ   تَقاضــاهُ شَيءٌ لا يَمَــلُّ التَّقاضِــيا

والترديد الذي انفرد فيه بالإحسان عندهم قولـه : " لبسـن الـبلى ممـا لبسن اللياليا "، وكذلك قوله :

" إذا ما تقاضى المـرء يـوم وليلـة   تقاضاه شيء لا يمل التقاضـيا "

لأن الهاء كناية عن المرء، وإن اختلف اللفظ) (١)، وراجـع في البيـت الأخير مقاضاة اليوم والليلة، وقد جاء بهما في حالة التنكير، ليذكرك بأن كل الأيام تقاضيه، وكل الليالي تقاضيه، فلا يمر يوم إلا ويقاضيه، ولا تمـر ليلـة إلا وكذلك تقاضيه، ثم أعد الجملة الأخيرة التي جعلت الأيام كلها يوما

١- العمدة ١/ ٣٣٥.

واحدا ، والليالي كلها ليلة واحدة، ولكنهم لا يملوا التقاضي، وهذا معنى آخر غير الأول، ولا شك .

الإيغال

الإيغال : إفعال من (وغل)(والواو والغين واللام: كلمة تدل على تقحُّم في سير وما أشبه ذلك، وأوغل القوم: أمعنوا في مسيرهم.، والعلماء يسمون هذا النوع (إيغالاً) ، لأن المتكلم أو الشاعر أوغل في الفكر حتى استخرج سجعة أو قافية تفيد معنى زائداً على معنى الكلام، فهو إطناب يفيد جديدا بعداكتمال أصل المعنى .

وأصله من الإيغال في السير وهو السرعة، حيث يدخل السائر في المكان الذي يقصده بسرعة، **يقال**: أوغل في الأرض الفلانية أي بلغ منتهاها ، وأوغل في الكلام أي: تجاوز حد المعنى الذي هو آخذ فيه، وبلغ إلى زيادته عن الحد، فكذلك المتكلم إذا تم معناه ثم تعداه عند الإتيان بسجعة أو قافية بزيادة عليه، فقد أوغل في ذلك المعنى، ولا يكون موغلاً حتى ينتهي معناه إلى آخر البيت .

وقال البلاغيون عن الإيغال: هو أن يستكمل الشاعر معنى بيته بتمامه قبل أن يأتي بقافيته، فإذا أراد الإتيان بها ليكون الكلام شعراً أفاد بها معنى زائداً على معنى البيت.

وقيل : هو أن يستوفى معنى الكلام قبل البلوغ إلى مقطعه؛ ثم يأتى بالمقطع فيزيد معنى آخر يزيد به وضوحا وشرحا وتوكيدا وحسنا

واصطلح الشراح على تعريف الإيغال بأنه :

ختم الكلام بما يفيد نكتة يتم المعنى بدونها.

وزعم بعضهم أنه خاص بالشعر، ورد بأنه وقع في القرآن الكريم **ومن ذلك قوله تعالى :**

﴿وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٢٠ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ ٢١﴾ [سورة يس:٢٠-٢١]

فقوله: "وهم مهتدون" إيغال .

وجعل ابنُ أبي الإصبع منه:

﴿إِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوۡاْ مُدۡبِرِينَ ٨٠﴾ [سورة النمل:٨٠]

لأن قوله: (إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ) زائد على المعنى، مبالغة في عدم انتفاعهم.

ويدخل أكثر هذا الباب فى باب آخر من الإطناب يسمى:(التتميم) .

والفرق بين التتميم والإيغال من ثلاثة أوجه:

أحدهما : أن التتميم لا يرد إلا على كلام ناقص، والإيغال لا يرد إلاَّ على معنى تام من كل وجه.

والثاني: اختصاص الإيغال بالمقاطع دون الحشو مراعاة لاشتقاقه لأن الموغل في الأرض هو الذي قد بلغ أقصاها أو قارب بلوغه، فلما اختص الإيغال بالطرف لم يبق للتتميم إلا الحشو.

والثالث: أن الإيغال يكثر فيه أن يتضمن التشبيه والمبالغة ، وأما التتميم فقد يتضمن ذلك، وقد لا يتضمن، ومن النماذج الشائعة في كتب أهل العلم عن الإيغال ، **قول ذي الرمة طويل**:

قف العيس في آثار مية واسأل رسوماً كأخلاق الرداء المسلسل

فالكلام تم بقوله:(رسوما كأخلاق الرداء) ثم زاد على هذا المعنى كلمة : (المسلسل) أي : البالي فالثوب المسلسل: هو الذي رق من البلى يقولون لبست الثوب حتى تسلسل، ومعنى أخلاق الرداء، أي الرداء الذي خلق وبلي، وتم المعنى عند هذا ثم زاد مبالغة كلمة (المسلسل) إيغالا في البِلى .

ومن الإيغال قول امرئ القيس :

كَـأَنّ عُيُـونَ الْـوَحْشِ حَـوْلَ خِبَائِنَـا وَأَرْحُلِنَا الْجَزْعُ الّذِي لَمْ يُثَقّبِ(١)

١- هذا البيت من قصيدة طويلة وقصة طريفة تسمى قصة أم جندب ، وفيه يقول المؤرخون عندما تزوّج امرؤ القيس أمّ جندب، جاء ذات يوم علقمة بن عبد التميميّ، وهو قاعد في الخيمة، وخلفه أمّ جندب، فتذاكر الشعر، فقال امرؤ القيس: أنا أشعر منك، وقال علقمة: بل أنا أشعر منك. فقال: قل وأقول، وتحاكما إلى أمّ جندب، فقال امرؤ القيس قصيدته هذه. ووصف الفراق وناقته وفرسه، وقال علقمة قصيدةً مطلعها:

ذهبتَ في الهجران في غير مذهبٍ... ولم يك حقاً كلّ هذا التجنُّبِ

وعارض امرأ القيس في وصف ناقته وفرسه، فلما فرغ فضلّته أم جندب على زوجها امرئ القيس، فقال لها: بم فضبته عليّ؟ قالت: فرس ابن عبدة أجود من فرسك قال: وبماذا؟ قالت: سمعتك زجرت وضربت وحركت وهو قولك:

وللساق لهوب، وللسوطِ درةٌ... وللزجر منه وقعُ أهوجَ، مُنعبِ

وأدرك فرس علقمة ثانياً عن عنانه وهو قوله:

وأقبل يهوي، ثانياً من عنانه... يمرُّ كمرِّ الرائحِ المتحلِّبِ

فغضب امرؤ القيس على أم جندب وطلّقها. وقيل: إن علقمة خَلَف عليها بعده، فسُمّي (علقمة الفحل).

خَليلَيَّ مُرّا بي على أُمِ جُنْدَبِ... نُقَضِّ لُبَانَاتِ الفُؤَادِ المُعذَّبِ

فَإنّكُمَا إنْ تَنْظُرَانيَ سَاعَةً... من الدهرِ تَنفعْني لَدى أُمِّ جُندَبِ

ألمْ تَرَيَاني كُلَّمَا جئتُ طارِقاً... وَوَجدْتُ بهَا طِيباً، وَإنْ لم تَطَيَّبِ

عَقيلَةُ أتْرَابٍ لها، لا دَميمَة... وَلا ذَاتُ خَلقٍ، إنْ تأمّلتَ جَأنَبِ

ألا ليتَ شِعرِي، كيفَ حادثُ وَصْلِها؟... وكيْفَ تُرَاعي وُصْلَةَ المُتَغَيِّبِ؟

أقَامَتْ على مَا بَيْنَنَا، مِنْ مَوَدّةٍ... أُمَيمَةُ أمْ صَارَتْ لقَولِ المُخَبِّبِ؟

فَإنْ تَنْأَ عَنْهَا، حِقْبَةً، لا تُلاقِها... فإنّكَ مِمّا أحْدَثَتْ، بالمُجَرِّبِ

وَقالَتْ: مَتى يُبْخَلْ عَلَيكَ وَيُعتللْ... يسوكَ، وَإن يُكشَفْ غَرَامُكَ تدرَبِ

تَبَصّرْ خَليلي هلْ تَرَى مِنْ ظَعائنٍ؟... سَوَالِكَ نَقْباً بينَ حزْمَيْ شَعَبْعَبِ

عَلَوْنَ بأنْطاكيّةٍ فَوْقَ عِقْمةٍ... كجِرْمةِ نَخْلٍ، أوْ كجَنّةِ يَثْرِبِ

وَللهِ، عَيْنَا، مَنْ رَأى مِنْ تَفَرُّقٍ... أشَتّ، وَأنأى من فِرَاقِ المُحَصَّبِ

فريقانِ: مِنْهُمْ جازعٌ بَطنَ نَخْلَةٍ... وآخَرُ منهُم قاطعٌ نَجْد كَبْكَب

فَعَيْنَاكَ غَرْباً جَدْوَلٍ في مُفَاضَةٍ... كمَرِّ الخَليجِ في صَفيحٍ مُصَوَّبِ

وَإنّكَ لمْ يَفْخَرْ عليكَ كَفَاخِرٍ... ضَعيفٍ وَلمْ يَغْلِبْكَ مثْلُ مُغَلَّبِ

وَإنّكَ لمْ تَقْطَعْ لُبَانَةَ عَاشِقٍ... بمِثْلِ غُدُوّ أوْ رَوَاحٍ مُؤَوَّبِ

بأدْماءَ حُرْجُوجٍ كَأَنّ قُتُودَهَا... على أبْلَقِ الكَشحَينِ ليسَ بمُغرِبِ

يُغرّدُ بالأسحارِ في كُلّ سُدْفَةٍ... تَغَرُّدَ مَيّاحِ النّدامى المُطَرِّبِ

أقَبَّ رَباعٍ مِن حَميرِ عَمايَةٍ... يَمُجُّ لِعاعَ البَقلِ في كُلِّ مَشرَبِ

بمَحْنيَةٍ قَدْ آزَرَ الضّالُ نَبْتَهَا... مَجَرَّ جُيُوشٍ غَانِمِينَ وَخُيّبِ

وقَد أغتَدى وَالطّيرُ في وُكُنَاتِهَا... وَماءُ الندى يجرِي على كلّ مِذْنَبِ
بمنجردٍ قيدِ الأوَابِدِ لاحَهُ... طِرَادُ الهَوَادِي كُلَّ شَاوٍ مُغرِّبِ
عَلى الأينِ جَيّاشٍ كَأنّ سَرَاتَهُ... على الضَّمرِ وَالتّعداءِ سَرْحةُ مَرْقَبِ
يُبارِي الخَنوفَ المُسْتَقلَّ زِماعُهُ... ترَى شَخصَه كأنّهُ عودُ مِشْحَبِ
لَهُ أيْطَلا ظَبْيٍ وَسَاقَا نَعَامَةٍ... وَصَهْوَةُ عَيرٍ قائمٍ فَوْقَ مَرْقَبِ
وَيَخْطُو على صُمٍّ صِلابٍ كَأنّهَا... حِجَارَةُ غَيْلٍ وَارِسَاتٌ بطُحْلَبِ
لَهُ كَفَلٌ كالدِّعصِ لَبّدهُ النّدى... إلى حارِكٍ مِثْلِ الغَبيطِ المُذَأّبِ
وَعَينٌ كمِرْآةِ الصَّنَاعِ تُدِيرُها... لمَحْجَرِهَا مِنَ النّصيفِ المُنَقَّبِ
لَهُ أُذُنَانِ تَعْرِفُ العِتْقَ فيهِمَا... كَسامعَتيْ مَذعورَةٍ وَسْطَ رَبْرَبِ
وَمُسْتَفْلِكُ الذِّفْرَى كَأنّ عِنَانَهُ... ومَثْناتَهُ في في رأسِ جِذْعٍ مُشذَّبِ
وَأسْحَمُ رَيّانُ العَسيبِ كَأنّهُ... عَثاكيلُ قِنْوٍ من سُميحةِ مُرْطِبِ
إذا ما جَرَى شَأْوَينِ وَابْتَلّ عِطْفُهُ... تَقولُ: هزِيزُ الرّيحِ مَرّتْ بأثْأبِ
وَيَخْضِدُ في الآرِيّ، حتى كأنّهُ... بهِ عُرّةٌ من طائفٍ، غَيرَ مُعْقِبِ
يُدِيرُ قَطَاةً كَالمَحَالَةِ أشْرَفَتْ... إلى سَنَدٍ مِثْلِ الغَبيطِ المُذَأّبِ
فَيَوماً عَلى سِربٍ نَقِيٍّ جُلودُهُ... وَيَوماً عَلى بَيدانَةٍ أُمِّ تَولَبِ
فَبَيْنَا نِعَاجٌ يَرْتَعِينَ خَمِيلَةً... كمَشْيِ العَذارَى في المُلاءِ المُهَدَّبِ
فَطَالَ تَنَادِينَا وَعَقْدُ عِذَارِهِ... وَقَالَ صِحَابي قد شَأَوْنَكَ فاطْلُبِ
فَلأياً بلأيٍ مَا حَمَلْنَا غُلامَنا... على ظَهْرِ مَحْبوكِ السّرَاةُ مُحنَّبِ
وَوَلّى كشُؤبوبِ الغشيّ بوَابِلٍ... وَيخْرُجْنَ من جَعدٍ ثَرَاهُ مُنَصَّبِ
فَلِلساقِ أُلهوبٌ وَلِلسَوطِ دِرَّةٌ... وَلِلزَجرِ مِنهُ وَقعُ أهوَجَ مِنعَبِ
فَأدْرَكَ لمْ يَجْهَدْ وَلمْ يَثْنِ شَأوَهُ... يَمُرّ كخُذْرُوفِ الوَليدِ المُثَقَّبِ
تَرَى الفَأرَ في مُستَنقعِ القَاعِ لاحِباً... على جَدَدِ الصّحرَاءِ من شدِّ مُلهِبِ
خفَاهُنَّ مِنْ أنْفَاقِهِنّ كَأنّمَا... خَفاهُنّ وَدْقُ من عَشيّ مُجَلِّبِ
فَعادى عِداءً بَينَ ثَوْرٍ وَنَعجَةٍ... وَبينَ شَبوبٍ كَالقَضِيمَةِ قَرْهَبِ
وظَلَّ لثيرَانِ الصّريمِ غَمَاغِمُ... يُدَاعِسُهَا بالسَّمْهَرِيِّ المُعَلَّبِ
فَكابٍ على حُرّ الجبينِ وَمُتّقٍ... بمَدْرِيَةٍ كَأنّهَا ذَلْقُ مِشْعَبِ
وقُلْنَا لفِتْيَانٍ كِرَامٍ ألا انْزِلُوا... فَعَالُوا عَلَيْنَا فضْلَ ثوْبٍ مُطنَّبِ
وَأوتادَهُ ماذيَّةٌ وَعِمادُهُ... رُدَينِيّةٌ بها أَسِنَّةُ قُعضُبِ
وَأَطْنَابُهُ أشطَانُ خوصٍ نَجائِبٍ... وَصَهوتَهُ من أتْحَميٍّ مُشَرْعَبِ
فَلَمّا دَخَلْنَاهُ أصَفْنَا ظُهُورَنَا... إلى كُلّ حارِيٍّ جَديدٍ مُشَطَّبِ
كأنّ عُيونَ الوَحشِ حَوْلَ خِبائِنَا... وَأرْحُلِنَا الجَزْعُ الذي لمْ يُثَقَّبِ
نَمُشُّ بأعْرَافِ الجِيَادِ أكُفَّنَا... إذا نحنُ قُمْنَا عنْ شِوَاءٍ مُضَهَّبِ
وَرُحْنَا كَأنَّا من جُوَاثَى عَشِيّةً... نُعالي النّعاجَ بينَ عِدلٍ وَمُحْقَبِ
وَرَاحَ كَتَيسِ الرّبْلِ يَنْفُضُ رَأْسَهُ... أذَاةً بهِ مِنْ صَائِكٍ مُتَحَلِّبِ
حَبيبٌ إلى الأصْحَابِ غَيْرُ مُلَعَّنٍ... يُفَدّونَهُ بالأمّهَاتِ وبالأبِ

والجزع بفتح الجيم: الخرز اليماني الذي فيه سواد وبياض، وهو عقيق شبه به عيون الوحش بعد موتها، وأتى بقوله: "لم يثقب" تحقيقًا للتشبيه؛ لأنه إذا كان غير مثقوب كان أشبه بالعيون حيث تم التشبيه بكلمة(الجزع) فعيون الوحش والرحل حول الخباء تشبه الجزع، كذا انتهى الكلام، ثم أضاف الشاعر قافية زادت في المعنى وبالغت فيه، وهي:(الذي لم يثقب) لأن الجزع إذا كان غير مثقوب كان أشبه بالعيون، فقوله: «لم يثقب» يزيد التشبيه توكيدا؛ لأن عيون الوحش غير مثقبة.

فّيّوْماً على بقعٍ دقاق صُدورُهُ... ويوماً على سَفْعِ المَدَامعَ رَبْرَبِ
كَأنَّ دِمَاءَ الـهَادِيَاتِ بنَحْرِهِ... عُصَارَة حِنّاءٍ بشَيْبٍ مُخَضَّبِ
وَأنت َإذا استَدبرتَه سَدّ فَرْجَهُ... بضَاف ٍفُوَيقَ الأرض ليس بأصْهَبِ

ومن الإيغال قول زهير:

كَأَنَّ عُيُونَ الْوَحْشِ حَـوْلَ خِبَائِنَـا وَأَرْحُلِنَا الجُزْعُ الَّذِي لَمْ يُثَقَّـبِ(١)

١- هذا البيت من قصيدة طويلة وقصة طريفة تسمى قصة أم جندب ، وفيه يقول المؤرخون عندما تزوّج امرؤ القيس أمّ جندب، جاء ذات يوم علقمة بن عبد التميميّ، وهو قاعد في الخيمة، وخلفه أمّ جندب، فتذاكر الشعر، فقال امرؤ القيس: أنا أشعر منك، وقال علقمة: بل أنا أشعر منك. فقال: قل وأقول، وتحاكما إلى أمّ جندب، فقال امرؤ القيس قصيدته هذه. ووصف الفراق وناقته وفرسه، وقال علقمة قصيدةً مطلعها:

ذهبتَ في الهجران في غير مذهبِ... ولم يك حقاً كلّ هذا التجنُّبِ

وعارض امرأ القيس في وصف ناقته وفرسه، فلما فرغ فضلّته أم جندب على زوجها امرئ القيس، فقال لها: بم فضبته عليّ؟ قالت: فرس ابن عبدة أجود من فرسك قال: وبماذا؟ قالت: سمعتك زجرت وضربت وحركت وهو قولك:

وللساق لهوب، وللسوطِ درةٌ... وللزجر منه وقعُ أهوجَ، مُنعبِ

وأدرك فرس علقمة ثانياً عن عنانه وهو قوله:

وأقبل يهوي، ثانياً من عنانه... يمرُّ كمرِّ الرائحِ المتحلِّبِ

فغضب امرؤ القيس على أم جندب وطلّقها. وقيل: إن علقمة خَلَف عليها بعده، فسُمّي (علقمة الفحل).

خَليلَيَّ مُرّا بي على أُم جُنْدَبِ... نُقَضِّ لُبَانَاتِ الفُؤادِ المُعذَّبِ

فَإنّكُمَا إنْ تَنْظُرَانيَ سَاعَةً... من الدهرِ تَنفعْني لَدى أُمِّ جُندَبِ

ألَمْ تَرَيَاني كُلَّمَا جِئتُ طارِقاً... وَوَجدْتُ بهَا طِيباً، وَإنْ لم تَطَيَّبِ

عَقيلَةُ أتْرَابٍ لها، لا دَميمَة... وَلا ذَاتُ خَلقٍ، إنْ تأمّلتَ جَأنَبِ

ألا ليتَ شِعرِي، كيفَ حادثُ وَصْلِها؟... وكيْفَ تُرَاعي وُصْلَةَ المُتَغَيِّبِ؟

أقَامَتْ على مَا بَيْنَنَا، مِنْ مَوَدّةٍ... أُمَيمَةُ أَمْ صَارَتْ لقَولِ المُخَبِّبِ؟

فَإنْ تَنْأَ عَنْهَا، حِقْبَةً، لا تُلاقِها... فإنّكَ مِمّا أحْدَثَتْ، بالمُجَرِّبِ

وَقالَتْ: مَتى يُبْخَلْ عَلَيكَ وَيُعتللْ... يسوكَ، وَإن يُكشَفْ غرَامُكَ تدرَبِ

تَبَصّرْ خَليلي هلْ تَرَى مِنْ ظَعائنٍ؟... سَوَالِكَ نَقْباً بينَ حزْمَيْ شَعَبْعَبِ

عَلَوْنَ بأنْطاكيّةٍ فَوْقَ عِقْمةٍ... كجِرْمةِ نَخْلٍ، أوْ كجَنّةِ يَثْربِ

وَلله، عَيْنَا، مَنْ رَأى مِنْ تَفَرُّقٍ... أشَتّ، وَأنأى من فِرَاقِ المُحَصَّبِ

فريقانِ: مِنْهُمْ جازعٌ بَطنَ نَخْلَةٍ... وآخَرُ منهُم قاطعٌ نَجْدَ كَبْكَبِ

فَعَيْنَاكَ غَرْباً جَدْوَلٍ في مُفَاضَةٍ... كمَرِّ الخَليجِ في صَفيحٍ مُصَوَّبِ

وَإنّكَ لمْ يَفْخَرْ عليكَ كَفَاخِرٍ... ضَعيفٍ وَلمْ يَغْلِبْكَ مثْلُ مُغَلَّبِ

وَإنّكَ لمْ تَقْطَعْ لُبَانَةَ عَاشِقٍ... بمِثْلِ غُدُوّ أوْ رَوَاحٍ مُؤَوَّبِ

بأدْماءَ حُرْجُوجٍ كَأَنّ قُتُودَها... على أبْلَقِ الكَشحَينِ ليسَ بمُغرِبِ

يُغرّدُ بالأسحارِ في كُلّ سُدْفَةٍ... تَغَرُّدَ مَيّاحِ النّدامى المُطَرِّبِ

أَقَبَّ رَباعٍ مِن حَميرِ عَمايَةٍ... يَمُجُّ لِعاعَ البَقلِ في كُلِّ مَشرَبِ

بمَحْنيَةٍ قَدْ آزَرَ الضّالُ نَبْتَهَا... مَجَرَّ جُيُوشٍ غَانِمِينَ وَخُيّبِ

وقَد أغتَدى وَالطّيرُ في وُكُنّاتِهَا... وَماءُ الندى يجرِي على كلِّ مِذْنَبِ
بمنجردٍ قيدِ الأوَابِدِ لاحَهُ... طِرَادُ الهَوَادِي كُلَّ شَاوٍ مُغرِّبِ
عَلى الأينِ جَيّاشٍ كَأنّ سَرَاتَهُ... على الضَّمرِ وَالتّعداءِ سَرْحةُ مَرْقَبِ
يُبارِي الخَنوفَ المُسْتَقِلَّ زِماعُهُ... ترَى شَخصَه كأنّهُ عودُ مِشْجَبِ
لَهُ أيْطَلَا ظَبْيٍ وَسَاقَا نَعَامَةٍ... وَصَهْوَةُ عَيرٍ قائمٍ فَوْقَ مَرْقَبِ
وَيَخْطُو على صُمٍّ صِلابٍ كَأنّهَا... حِجَارَةُ غَيْلٍ وَارِسَاتٌ بِطُحْلَبِ
لَهُ كَفَلٌ كالدِّعصِ لَبّدهُ النّدى... إلى حارِكٍ مِثْلِ الغَبيطِ المُذَأّبِ
وَعينٌ كمِرْآةِ الصَّنَاعِ تُدِيرُها... لمَحْجَرِهَا مِنَ النّصيفِ المُنَقَّبِ
لَهُ أُذُنانِ تَعْرِفُ العِتْقَ فيهِمَا... كَسامعَتيْ مَذعورَةٍ وَسْطَ رَبْرَبِ
وَمُسْتَفْلِكُ الذِّفْرَى كَأنّ عِنَانَهُ... ومَثْناتَهُ في في رأسِ جِذْعٍ مُشذَّبِ
وَأسْحَمُ رَيّانُ العَسيبِ كَأنّهُ... عَثاكيلُ قِنْوٍ من سُميحةَ مُرْطِبِ
إذا ما جَرَى شَأْوَينِ وَابْتَلّ عِطْفُهُ... تَقولُ: هزِيزُ الرّيحِ مَرّتْ بأثْأبِ
وَيَخْضِدُ في الآرِيّ، حتى كأنّهُ... بهِ عُرّةٌ من طائفٍ، غَيرَ مُعْقِبِ
يُدِيرُ قَطَاةً كَالمَحَالَةِ أشْرَفَتْ... إلى سَنَدٍ مِثْلِ الغَبيطِ المُذَأّبِ
فَيَوماً عَلى سِربٍ نَقِيٍّ جُلودُهُ... وَيَوماً عَلى بَيدانَةٍ أُمِّ تَولَبِ
فَبَيْنَا نِعَاجٌ يَرْتَعِينَ خَمِيلَةً... كمَشْيِ العَذارَى في المُلاءِ المُهَدَّبِ
فَطَالَ تَنَادِينَا وَعَقْدُ عِذَارِهِ... وَقَالَ صِحَابي قد شَأَوْنَكَ فاطْلُبِ
فَلأياً بلأيٍ مَا حَمَلْنَا غُلامَنا... على ظَهْرِ مَحْبوكِ السّرَاةُ مُحنَّبِ
وَوَلّى كشُؤبوبِ العَشيّ بوَابِلٍ... وَيخْرُجْنَ من جَعدٍ ثَرَاهُ مُنَصَّبِ
فَلِلساقِ أُلهوبٌ وَللسَوطِ دِرَّةٌ... وَلِلزَجرِ مِنهُ وَقعُ أَهوَجَ مِنعَبِ
فَأدْرَكَ لمْ يَجْهَدْ وَلمْ يَثْنِ شَأوَهُ... يَمُرّ كخُذْرُوفِ الوَلِيدِ المُثَقَّبِ
تَرَى الفَأرَ في مُستَنقعِ القَاعِ لاحِباً... على جَدَدِ الصّحرَاءِ من شدِّ مُلهِبِ
خفَاهُنَّ مِنْ أنْفَاقِهِنّ كَأنّمَا... خَفاهُنّ وَدْقٌ من عَشيّ مُجَلِّبِ
فَعادى عِداءً بَينَ ثَوْرٍ وَنَعجَةٍ... وَبينَ شَبوبٍ كَالقَضِيمَةِ قَرْهَبِ
وظَلّ لثيرَانِ الصّريمِ غَمَاغِمُ... يُدَاعِسُهَا بالسَّمْهَرِيِّ المُعَلَّبِ
فَكابٍ على حُرّ الجبينِ وَمُتّقٍ... بمَدْرِيَةٍ كَأنّهَا ذَلْقُ مِشْعَبِ
وقُلْنَا لفِتْيَانٍ كِرَامٍ ألا انْزِلُوا... فَعَالُوا عَلَيْنَا فضْلَ ثَوْبٍ مُطنَّبِ
وَأوتادَهُ ماذيَّةٌ وَعِمادُهُ... رُدَينيَّةٌ بِها أَسِنَّةُ قُعضُبِ
وَأَطْنَابُهُ أشطَانُ خوصٍ نَجائِبٍ... وَصَهوتَهُ من أتْحَميٍّ مُشَرْعَبِ
فَلَمّا دَخَلْنَاهُ أضَفْنَا ظُهُورَنَا... إلى كُلّ حارِيٍّ جَديدٍ مُشَطَّبِ
كأنّ عُيونَ الوَحشِ حَوْلَ خِبائِنَا... وَأرْحُلِنَا الجَزْعُ الذي لمْ يُثَقَّبِ
نَمُشُّ بأعْرَافِ الجِيَادِ أكُفّنَا... إذا نحنُ قُمْنَا عنْ شِوَاءٍ مُضَهَّبِ
وَرُحْنَا كَأنَّا من جُوَاثَى عَشِيّةً... نُعالي النّعاجَ بينَ عِدلٍ وَمُحْقَبِ
وَرَاحَ كَتَيسِ الرّبلِ يَنْفُضُ رَأسَهُ... أذَاةً بهِ مِنْ صَائِكٍ مُتَحَلِّبِ
حّبيبٌ إلى الأصْحَابِ غَيْرُ مُلَعّنٍ... يُفَدّونَهُ بالأمّهَاتِ وبالأبِ

كأن فتات العهن في كل منزل   نزلن به حب الفنا لم يحطم

فإن (حب الفنا) أحمر الظاهر، أبيض الباطن، فهو لا يشبه الصوف الأحمر إذا لم يحطم، ومن اشهر ما يستشهد به العلماء في الإيغال **قول الخنساء:**

وإن صخراً لتأتم الهداة به   كأنه علم في رأسه نار

فلقد جعلته علماً يأتمُّ به أئمة الناس، ولم ترض تشبيهه بالعلم فقط وهو الجبل المرتفع المعروف بالهداية، حتى جعلت في رأسه ناراً.. فقولها : (في رأسه نار) إيغال يبلغ بإمامته، وقيادته، وشهرته مبلغا لا يصل إليه أحد .

وفي القرآن الكريم كثير من شواهد الإيغال و ومن ذلك قوله تعالى: " ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين " فإن المعنى قد تم بقوله سبحانه: " ولا تسمع الصم الدعاء " فالمعقول أن الصم لا يسمعون الدعاء لكن الآية أضافت (إذا ولوا مدبرين) ليشير إلى أن إسماعهم محجوب بشتى الوسائل الممكنة، لغةً أو غيرها، فحصلت المبالغة في عدم الإسماع بالكلية .

فَّيَوْماً على بقعٍ دقاق صُدورُهُ... ويوماً على سَفْعِ المَدَامعَ رَبْرَبِ
كَأنَّ دِمَاءَ الـهَادِيَاتِ بنَحْرِهِ... عُصَارَة حِنّاءٍ بشَيْبٍ مُخَضَّبِ
وَأنت َإذا استَدبرتَه سَدّ فَرْجَهُ... بضَاف ٍفُوَيقَ الأرض ليس بأصْهَبِ

ومن الإيغال أيضا قوله تعالى:

﴿ اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [سورة يس:٢١]

المعنى تم بقوله سبحانه: " من لا يسألكم أجراً " ثم جاءت جملة (وهم مهتدون) لتحمل زيادة هداية هؤلاء الذين يأمر القرآن باتباعهم **فكأنه يقول** : إنهم يستحقون المتابعة، وكل عاقل يرى هؤلاء يجب أن يتبعهم لأنهم مهتدون .

ومنه قول الأعشى :

كناطح صخرة يوما ليفلقها فلم يضرها وأوهى قرنه الوعل

فالكلام تم عند قوله : " لم يضرها "، لكن الشاعر لم يكتف بهذا واراد أن يزيد شيئا آخر متعلقا برجوع الوهن والتعب عليه هو، فقال : (وأوهى قرنه الوعل) وهذه إضافة زائدة على المعنى المراد توصيله إلى السامع . كما أنه اختار الوعل ليكون مثلا في الكيد والمناطحة لأنه ينحطّ من قمة الجبل على قرنيه فلا يضيره.

ومن الإيغال قول الطرماح العقيلي يصف فرساً بسعة المنخر:

لا يكتم الربو إلا ريث يخرجه من منخر كوجار الثعلب الخرب

فكونه كوجار الثعلب غاية في المبالغة، فكيف إذا كان خرابا؟.

وأنشد الجاحظ:

ألوي حيازيمي بهن صبابة كما تتلوى الحية المتشرق

فقوله " الحية المتشرق " إيغال؛ لأنه أشد لتلويه.

وكذلك قول جرير:

بـات الفـرزدق عـائراً وكأنـه قعـو تعـاوره السـقاة معـار

وإذا كان معاراً كان أشد لاستعماله، وأقل للتحفظ عليه.

وقال جميل:

إني لأكـتم حبهـا إذ بعضـهم فـيمن يحـب كناشـد الأغفـال

" الناشد " طالب الضالة، وإذا كانت غفلاً ليس فيها سمة كان أشد للبحث عليها، وأكثر للسؤال والذكر.

ومن أحسن نماذج الإيغال عند الشعراء قول مروان بن أبي حفصة:

بنـو مطـر يـوم اللقـاء كـأنهم أسـود لهـا في غيـل خفّـان أشـبل

هـم يمنعـون الجـار حتـى كـأنما لجـارهم بـين السـماكين منـزل

لهاميم في الإسلام سادوا ولم يكـن كـأوّلهم في الجاهليـة أوّل

هم القوم إن قالوا أصابوا وإن دعوا أجابوا وان أعطوا أطابوا وأجزلوا

ومـا يسـتطيع الفـاعلون فعـالهم وإن أحسنوا في النائبـات وأجملـوا

ثـلاث بأمثـال الجبـال حبـاهم وأحلامهم منها لدى الوزن أثقـل

فقوله " وأجزلوا " إيغال أتى به في نهاية الحسن. حيث أعطى البيت قافيته وأضاف إلى معناه التام معنى جديدا هو أنهم عندما يعطون يعطون الطيب الجزيل. وفي البيت أيضا ما يسمى بالتسميط، وهو أن يجعل المتكلّم مقاطيع أجزاء البيت أو القرينة على سجع يخالف قافية البيت أو آخر القرينة

فأجزاء البيت مسجّعة على خلاف قافيته فجاءت القافية بمنزلة السمط والأجزاء المسجّعة بمنزلة حبّ العقد.

وقال ابن المعتز:

وداع دعا، والليل بيني وبينه ... فكنت مكان الظن منه وأعجلا

فقوله " وأعجل " زيادة وصف ، وإيغال ظاهر.

ومنه قول زهير بن أبي سلمى :

فشد فلم يفزع بيوتا كثيرة ... لدى حيث ألقت رحلها أم قشعم

لدى أسد شاكي السلاح مقذف ... له لبد أظفاره لم تقلم

وزهير بن أبى سلمي هنا يمدح حصين بن ضمضم بأنه شد على عدوه، وكان محتاطا، فلم يفزع أهل البيوت الأخرى التي تساعده، وإنما اقتصر على عدوه فقط فأذاقه الموت، وعبر عن الموت بأم قشعم وكأن عدوه حين لقيه لقي أسدا مدججا بالسلاح ضخم الجثة ذا لبد وأظفار، وهنا انتهى أصل المراد، فأصل المراد أن عدوي حين يقابلني كأنه قابل أسدا بسلاحه وضخامته ولبده، ثم انتبه الشاعر إلى أن الأسد حين يقاتل يستخدم أظفاره، فوضع لهذه الأظفار مكانا في البيت، وأضاف إليها وصف أنها طويلة حادة لم تقلم من قبل، وهذا من تمام افتراسها، فالزيادة هنا كانت للأظفار حيث زيدت في الكلام بعد اكتماله، ووصفت بأنها لم تقلم، ليبين قوتها في الافتراس .

التعريض

من صور الإطناب التعريض، والتعريض لطرافته ضمه أناس إلى علم البديع، وجعلوه إحدى صوره، ووضعه آخرون في صور الإطناب، والأسلوب لا يبخل على الفريقين بما يحتاجانه من دلالة ومعلوم أن ظروف الحياة تلجئ كثيرا من المتكلمين إلى التعريض نيابة عن التصريح، ومن أشهر ما تعلمناه في الصغر في سيرة رسول الله ﷺ حين أقبل مردفا أبا بكر عام الهجرة ، فقيل لأبي بكر: من هذا قدّامك ؟ **قال:**

رجل يهديني السبيل، يريد أنه يهديه إلى الحق، والناس فهموا أنه يدله على الطريق، وكذلك فعل رسول الله ﷺ حين سأله رجل في هجرته ممّن أنت؟ فقال: من ماء، وكذا ما حكى الله من قول إبراهيم عليه السلام حين قال : إني سقيم، وقوله: فعله كبيرهم هذا فاسألوهم، وما روي عنه أنه قال عن امرأته هذه أختي ...... إلخ .

كل ذلك يدخل معنا في هذا اللون الأصيل، أعني لون المعاريض فليس التعريض من باب الكذب، بل هو وسيلة تفتح لك الباب لتقول الصدق، الذي تراه، وتنجيك من أذى الناس، وتعصمك من الكذب فكل ما في المعاريض من الصدق المحض .

ولذلك قال عمر رضي الله عنه : في المعاريض مندوحة عن الكذب.

وكتب اللغة تقول : إن التعريض عدول عن التصريح إلى الكناية والاشارة، ولا يشترط فيه لزوم ذهني، مثل الكناية ولا مصاحبةٌ

ولا مُلابسة ما بين الكلام وما يُرادُ الدّلالة به عليه، إنّما هو محفوف بقرائن الحال، فقرائن الحال هي الدالة على المراد، **فالتعريض: كما عرفوه :**

أن تقول كلاماً لا تُصرّح فيه بمرادكَ منه، لكنّه قد يشير إليه إشارة خفيّةً، ويُمْكِنُك أن تتهرَّبَ من التزام ما أشرتَ به إليه إذا صِرْت مُحْرَجاً.

واللفظ في اللغة: مأخوذ من العرض، وعرض الكلام، وأَعْراضُه ومَعَارِضُهُ ومعاريضُه: كل كلامٌ غير ظاهر الدلالة على المراد، والتعريض في خطبة المرأة: أنْ يتكلّم الخاطب بكلام يشبه خطبتها دون تصريح ولذلك يقولون في المثل : إيّاكِ أعني، واسْمَعِي يا جارة .

وليس التعريض مقصورا على الكلام فقد يكون في الأفعال والأحوال، ومن ذلك أن أصحاب الرسول ﷺ في بعض الغزوات كانو يأتون، وقد ربط كلٌّ منهم على بطنه حجراً، تعريضاً بأن الجوع قد بلغ منه مبلغاً شديداً، فيكشف الرسولُ لهم عن بطنه، فيرون أنّه قد ربط حجرين.

لكنه في الكلام فن من فنون البلاغة العالية ،وضرب من الفصاحة التي يعتمد فيها البليغ على قرائن الحال، ولقد جاء هذا الأسلوب الكريم في القرآن العظيم كثيرًا، ومن ذلك قول الله **y** في سورة الزمر خطاباً لرسوله:

﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [سورة الزُّمَر:٦٥]

والرسول ﷺ معصوم، لكنه خوطب بهذا الخطاب تعريضا لكل إنسان آمن ثم أشرك، فإن عمله محبط مهما كان، وهو من الخاسرين مهما كان شخصه، ومهما كان عمله .

ومن أمثلته أيضا في القرآن الكريم قولـه y في نهايـات الآيـات بعـد اكتمال المعاني :

{إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الأَلْباب – وليَذَّكَّر أُولوا الألْبَاب – وَذِكْرَى لأُولِي الأَلْبَاب – كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ – إِنَّ فِي ذَلِكَ لآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ}

فهذا كله تعريض بالكافرين الذين لا ينتفعون من آيـات الله في كونـه ولا يرون ما يراه كل ذي عينين .

ومن أمثلته أيضا قوله تعالى :

﴿ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلْحَرِّۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّاۚ لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ ﴾

[سورة التوبة:٨١]

فقوله : {قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّاً} تعريض بـأَنَّ هـؤلاء المنـافقين مـن أهل جهَـنَّمَ، وان فـرارهم مـن حـرارة الـدنيا والركـون إلى الراحـة يقابلـه ويكافئه حرارة جهنم، فهل من الفقه أن تهـرب مـن حـرارة الـدنيا لتلاقـي حرارة جهنم، أليس في ذلك من السفه والغباء مافيه .

وفي قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَاۖ قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ ﴾ [سورة القصص:٢٣-٢٤]

حيث جاء قولـه: "رَبّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ" تعريضا بحاجته إلى الزواج، لذلك جاء في النصّ بعد حكاية دُعائـه **قـول الله تعـالى:** {فَجَآءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى استحيآء} فدلّت الفاء العاطفة على الترتيب مع التعقيب، **لتبرهن على أن قوله:** (رب إني لما أنزلت إلى من خير فقير) كان تعريضا برغبته في الزواج، إشعارا بأنّ الله استجاب له دُعاءه الذي دَعا به تعريضاً لاَ تصريحاً....

إن التعريض يساعد المعاني على البروز بألفاظ لا تعافها الأذواق ولا تمجها الآذان، وتحمل عنك من المعاني ما تراه ثقيلا إذا صرحت به **ومن ذلك قَولِ عَمْرو بن مَعْدِ يكرب.**

(فَلَوْ أَنَّ قَوْمي أَنْطَقَتنْـي رِمَـاحُهُمْ نَطَقْتُ، ولكنَّ الرَّمَـاحَ أَجَـرَّتِ!)

وهذا من أفضل ما قيل في هجاء القوم، لأنهم قصروا في المنازلة والقتال، فقصرت في المدح والمقال، ولو أنهم طعنوا برماحهم لطعنت بكلامي، ولمدحتهم بما يستحقون، ولكنهم خابوا وخسروا، وقصروا فقصرت، وشققت لساني وسكتُ .

التوجيه

من صور الإطناب التوجيه، وهومصدر الفعل : توجه، وعرفه العلماء بأنه :

إيراد الكلام محتملا لوجهين مختلفين

أو أن يحتمل الكلام وجهين من المعنى احتمالًا مطلقًا، من غير تقييد بمدح أو غيره، ففي الكلام على هذا إبهام متعمد، وهذا الإبهام المتعمد يزيله السياق والمقام، لأنهم يستشهدون عليه بقول الشاعر في الحسن ابن سهل، عندما زوج ابنته " بوران " بالخليفة:

بارك الله للحسن ولبوران في الختن
يا إمام الهدى ظفرت ولكن ببنت من ؟!

فهناك إبهام في هذا السؤال، (ظفرت ولكن ببنت من ؟) هل يريد بنت من في الرفعة وعلو الشأن ؟ أم في الخسة والندالة والضعة ؟ الكلام يحتمل الوجهين، والمقام هو الذي يضبط هذا الإيقاع .

ومن شواهده أيضا أن خياطا اسمه زيد، كان أعور العين، وخاط لرجل قباء، فقال فيه:

خاط لي زيد قباء ليت عينيه سواء
قل لمن يسمع هذا أمديح أم هجاء ؟

فجملة (ليت عينيه سواء) قد يقصد بها السلامة، وقد يقصد بها العور، وكلا المعنيين صحيح، ولا يعرف ماذا يقصد، ولذلك كله يرى بعض أهل العلم أن يسمى هذا اللون (الإبهام) .

وأقول : إن السياق والمقام هما الحكم في مثل هذه النماذج، ففي بيتي الحسن بن سهل، يستطيع القارئ أن يفهم المراد من الاستفهام إن علم

منزلة الفتاة ومكانة أبيها من الصلاح، كما أن بيتي الخياط، من الممكن فهم المراد إن نظرنا إلى حالة القباء، فإن كانت حسنة جيدة الخياطة فالمعنى على أنه يريد الاستواء في السلامة والصحة، وإن كانت القباء سيئة الصنعة رديئة الخياطة كان الشعر دعاء عليه بأن تكون كلتا عينيه عوراء ، وهكذا .

وتسميته بالتوجيه أليق عندي، ولا يصح إطلاق اسم الإبهام عليه لأن الكلام لا يفهم من غير الرجوع إلى السياق والمقام .

ولا ينبغي أن أسكت هنا عن الفرق بين التوجيه والتورية لأن التورية تكون باللفظة الواحدة، والتوجيه لا يصح إلا بعدة ألفاظ متلائمة، ومن طرائفه ما ذكره ابن حجة أنه اجتمع جماعة من أصحابه لم يخرج اسم واحد منهم عن عليّ . **فقال أحدهم :**

لقد سمح الزمان لنا بيوم غدا فيه السمي مع السمي

تجمعنا كأنا ضراب خيط عليٌّ في عليٍّ في عليّ

وللتوجيه نصيب في مصطلحات العلوم العربية وبخاصة علم النحو ومن ذلك قول أحدهم :

أضيف الدجى معنى إلى لون شعره فطال ولولا ذاك ما خص بالجر

وحاجبه نون الوقاية ما وقت على شرطها فعل الجفون من الكسر

ومنه قول ثان:

إغـراء لحظـك مـالي منـه تحـذير   ولا لتعريف وجدي فيـك تنكـير
يا نصب عيني غرامي كيف أجزمـه   والقـد مرتفـع والشـعر مجـرور

وقول آخر:

يـــا ســـاكنًا قلبـــي المعنـــى   ولـــيس فيـــه ســـواك ثـــاني
لأي معنـــى كســـرت قلبـــي   ومـــا التقـــى فيـــه ســـاكنان

وملخص الأمـر أن التوجيـه عنـد أهـل التخصـص هـو: أن يحتمـل الكلام وجهين من المعنى، والفرق بين التورية والتوجيه، أن التورية باللفظة الواحدة والتوجيه لا يصح إلاَّ بعدة ألفاظ.

الاقتباس

ارتباط النصوص بالقرآن الكريم، والحـديث الشريـف مظهـر قـديم عَرَفَـهُ أهـل اللغـة منـذ العهـد الأول، حيـث كـان الخطبـاء، والحكـماء والشعراء يرصعون إبداعاتهم بآيات القرآن الكـريم، وعبـارات مـن كـلام النبي الكـريم ﷺ ولا يعـد هـذا مـن قبيـل الاقتبـاس حتـى تجـد صـنعة ومهارة تُنسيك أن هناك كلامين، وتقنعك بـأن الكـلام كـلام واحـد، فـإذا رأيت المتكلم ينص على أخذه، فلا اقتباس سـاعتها، واسـمع إلى ابـن نباتـه وهو يقول:

(أيها الغفلة المطرقون، أما أنتم بهذا الحديث مصدقون ؟ ما لكم لا تشفقون ؟ فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون) فهذه الخطبة ترى فيها الخطيب وهو يأخذ من سورة الذاريات هيئة كثير من آياتها ويملأها بعباراته، وهذا اقتباس لهيئة آيات القرآن، **ومن ذلك قول الشاعر**:

إن كنت أزمعت على هجرنا ... من غير ما جرم فصبر جميل

وإن تبدَلت بنا غيرنا ... فحسبنا الله ونعم الوكيل

ولعلك لاحظت اقتباسه من القرآن الكريم في قول الله تعالى :

" فصبر جميل " من سورة يوسف، وقوله " فحسبنا الله ونعم الوكيل " من سورة آل عمران " ... **وفي قول آخر** :

ستبقى لها في مضمر القلب والحشا ... سريرة حب يوم تبلى السرائر

حيث اقتبس قوله سبحانه " يوم تبلى السرائر " ليعبر به عن تمكن حبها في قلبة، وبقاء هذا الحب، وتمسكه هو به، فلا يبرح حتى تُعرض القلوب على رب العلمين . **ويقول السيوطي** :

أيهاالسائل قوما ... ما لهم في الخير مذهب

اترك الناس جميعا ... وإلى ربك فارغب

وهكذا ترى آيات القرآن حاضرة في قلوب الأدباء، والمبدعين فلما فاضت بها القلوب اقتبستها الألسنة، وأدمجتها في لغتها لتنير لهم آدابهم **ومن الاقتباس من حديث النبي ﷺ قول أحدهم** :

لا تعــــاد النـــــاس في أوطــــانهم قلـــما يـــرى غريـــب في الـــوطن
وإذا مـــا شـــئت عيشـــا بيـــنهم فخـــالق النـــاس بخلـــق حســـن

فالشاعر هنا يوصي كل غريب بأن لا يعادي أهـل الـديار، وألا يكـن خصما لأحدهم، لأن من طبائع النفوس أن تنتصر لأبناء الوطن من الغربـاء بحق أو بباطل، إلا عند من يتقي الله، حيث ينتصرون للحق فقط، ومن هنـا يوصي الشاعر كل غريب بأن يخالق الناس الذين يحيا وسطهم بخلق حسن، وهذا مستنبط من حديث النبي – ﷺ -: **" اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن** (١).

والاقتباس نوعان:الأول: مالا ينقـل فيـه الجـزء المقتـبس عـن معنـاه الأصلي، كما سبق.

والآخر : ما ينقل فيه الجزء المقتبس إلى معنى آخر، وذلـك مثـل قـول ابن الرومي **وهو يهجو** :

(لـــئن أخطـــأْتُ في مـــدحِي فـــما أخطـــأْتَ في منعـــي)
(لقـــد أَنزلـــتُ حاجـــاتي بـــوادٍ غـــير ذي زرعٍ)

---

١ - مسند الإمام أحمد بن حنبل حديث رقم ٢١٣٥٤ ج ٣٥ / ص ٢٣٤ تحقيق الأرناؤوط مؤسسة الرسالة بيروت.

فالشاعر هنا حول المعنى المقتبس من كلام سيدنا إبراهيم عليه السلام، حين أتى بأهله عند بيت الله الحرام، حوله إلى معنى آخر مختلف تماما، لأنه جعل رغباته قد نزلت عند ممدوح بخيل لا يعرف للشعر قدرا ولا للشعراء حقا، **ومن ذلك أيضا قول الشاعر :**

قد كان ما خفت أن يكونا إنا إلى الله راجعونا

حيث اقتبسه من قول الله تعالى :

﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦﴾ [سورة البقرة:١٥٦]

وقول آخر :

أعوان أهل الظلم قد زلزلوا ببأسهم قلب الكئيب الكليم

يا أيها الناس اتقوا ربكم زلزلة الساعة شيء عظيم

ولعلك تلحظ هنا حدوث بعضا من التغيير في العبارة المقتبسة ولكنها لا تخرجها من عالم الاقتباس، لأن للشعر ضروراته التي تلجئ الشاعر إلى بعض التغيير في اللفظ، وعلى الجملة فالاقتباس **من حيث قبوله أو رفضه أنواع :**

١ – قسم يكون في الخطب والمواعظ، وهذا كله مقبول، وحسن .

٢ – قسم يكون في الرسائل والقصص، والشعر المنضبط، وهذا لا بأس به .

٣ – قسم يكون في الهزل والمجون شعرا كان أو نثرا، وهذا لا يقبل ولا يضفي على النفوس إلا امتعاضا .

التضمين

يختص التضمين بالأخذ من الشعر، فحين يأخذ شاعر من شاعر آخر بعضا من معانيه وألفاظه يعد هذا من التضمين، شريطة أن ينبه على أن هذا المأخوذ من شعر غيره، وبخاصة إذا لم يكن هذا الشعر المأخوذ مشهورا بين الناس، فإن كان الشعر مشهورا فلا حرج من التنصيص على أخذه لأنه كالمعلوم للجميع .

وقد يكون الشعر المأخوذ بيتا كاملا، **ويطلق على هذا** : الاستعانة **ومثال ذلك قول الشاعر** :

إذا ضاق صدري وخفت العدا تمثلت بيتا بحالي يليق

فبالله أبلغ ما أرتجي وبالله أدفع مالا أطيق

لاحظ قوله (تمثلت بيتا)، حيث ينص هنا على أنه استعار بيتا من الشعر يليق بمقامه وحالته .

وقد يكون الشعر المضمن جزءا من بيت، يودعه الشاعر بيته ويرفو به معناه، ولذلك يطلق عليه : الإيداع، أو الرفو، والرفو بمعنى الصلة، التي تصل بها شيئا قصيرا فتطيله، **ومن ذلك قول أحدهم** :

على أنني سأنشد عند بيعي أضاعوني وأي فتى أضاعوا

وهذا مأخوذ من قول الشاعر :

أضــاعوني وأي فتــى أضــاعوا ليــوم كريهــة وســداد ثغــر

وليس الأخذ عيبا يعيبه النقاد، فـالأدب بنـاء يضـع فيـه لاحـق عـلى سابق، ويضيف فيه آخر إلى أول، ويزداد الأخـذ حـلاوة إذا رأيـت للآخـذ بصمة، ونكتة زائدة على المأخوذ، **ومن ذلك قول الشاعر** :

ومـا السَّـيِّدُ الجبَّـارُ حـينَ يريـدُنا بكيـدٍ عـلى أرماحِنـا بمحـرَّمِ

وقول ثاني :

نُعاطِي الملوكَ الحقَّ ما قصدوا بنـا فلـيسَ علينـا قـتلُهم بمحـرَّمِ

وقول ثالث :

بِـك صـارَ عنـترُ صـادقاً في قولـه ليس الكـريمُ عـلى القَنـا بمحـرَّمِ

وكل ذلك مأخوذ من قول عنترة :

فشـككْتُ بـالرّمحِ الأصـمِّ ثيابَـهُ ليسَ الكـريم عـلى القَنـا بمحـرّمِ

العقد

وهـو نظـم النثـر، وتحويلـه مـن عـالم الأدب النثـري إلى عـالم الأدب الشعري، وتغيير ما يلزم في الجملة النثرية، حتى توافق النظم الشعري ومن نماذج ذلك قول الشاعر :

أنلنـي بالـذي استقرضـت حظـا وأشـهد معشـرا قـد شـاهدوه

فـإن الله خـلاق البرايـا عنـت لجـلال هيبتـه الوجـوه

يقـــول: إذا تـــداينتم بـــدين إلى أجـــل مســـمى فـــاكتبوه

لاحظ قول الشاعر : فإن الله ... يقول، وكيف أدمج عبارة :

إذا تداينتم بدين .... إلخ في الأبيات الشعرية حتى صارت جزءا منها وتلك قدرة شعرية كبيرة .

ومن عقد الحديث؛ ما أُسند إلى الإمام الشافعي رضي الله عنه أنه قال :

عمدة الخير عندنا كلمات أربع ، قالهن خير البرية

اتق الشبهات، وازهد، ودع ما ليس يعنيك، وأعملَنْ بنية

فهذان البيتان عقد لعدة أحاديث **ومنهـا : قولـه** عليه السلام: " الحـلال بـين والحرام بين ، وبينهما أمور مشتبهات ،وقولـه "ازهـد في الـدنيا يحبـك الله" **وقوله** عليه السلام: **"من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه"**

وقوله عليه السلام: (إنما الأعمال بالنيات)(١)، وتحويل النص النثري إلى نص شعري قدرة فائقة يتمتع بها من يستطيع صوغ المعاني، وتأطير الجمل داخـل عالم الشعر الذي يحتاج إلى نظم، ووزن خاص ،ومن العقـد أيضـا مـا جـاء **عن ابن حجر أنه قال:**

١- سنن أبي داوود ٣/ ٢٤٧ والمستدرك ١/ ٧٨٧٣ وسنن الترمذي رقم ٢٣١٧ ج٤ / ٥٥٨ وصحيح البخاري ١/ ١.

مـن خـير مـا يتخـذ الإنسـان في دنيـاه كـيما يسـتقيم دينـه
قلبـا شـكورا ،ولسـانا ذاكـرا وزوجـة صـالحة تعينـه

فهذا عقد لقول النبي ﷺ :(" ليتخذ أحدكم قلبا شاكرا ،ولسانا ذاكرا ،وزوجة صالحة تعينه على أمر الآخرة) ، **ومنه قول أبي العتاهية** :

مـا بـال مـن أولـه نطفـة وجِيفـة آخـره يفخـر

حيث عقد قول سيدنا علي رضي الله عنه : "وما لابن آدم والفخر؛ وإنما أوله نطفة، وآخره جيفة!"،**وقوله أيضا**:

كفـى حزنـا بـدفنك ، ثـم أني نفضـت تـراب قـبرك عـن يـديّا
وكانـت في حياتـك لي عظـات وأنـت اليـوم أوعـظ منـك حيـا

وهذان البيتان قيلا في موت الإسكندر، ويشير المعنى إلى أنه كان متحدثا لبقا في حياته، فلما مات صار حديثه أبلغ، وعظته أوقع، كما يقال : كفى بالموت واعظا وقد صاغ أحد الحكماء **ذلك فقال** :

"كان الـمَلِكُ أمس أنطقَ منه اليوم، وهو اليوم أوعظُ منه أمس".

وحكي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: لو بغى جبل على جبل لدك الباغي ، **فجاء شاعر وصاغه شعرا فقال** :

يا صاحب البغي إن البغي مصـرعة فـارْبَعْ فخـير فعـال المـرء أعدلـه

فلو بغى جبل يوما على جبل لاندكّ منه أعاليه وأسفله

وقالت السيدة عائشة - رضي الله عنها - حين أمرت بثياب لها أن ترقع : " لا جديد لمن لا خَلَق له ":

فجاء شاعر وصاغ ذلك شعرا، وعقده في عالم الشعر فقال :

البس جديدك إني لابس خَلَقي ولا جديد لمن لا يلبس الخَلَقا

وهكذا ترى تحويل النصوص من تربة إلى تربة أخرى، ومن بيئة إلى بيئة أخرى يضفى على المعنى من الطراوة والحسن ما تهش به النفوس وتبش ،وما البلاغة إلى وسيلة من وسائل تجميل المعاني ولفت النفوس إلى حلاوتها وطراوتها، لأن مقصود المتكلم الأول والأخير زرع المعاني المرادة في نفوس المخاطبين،وما مضى كله من خير وسائل زرع هذه المعاني .

الحَلُّ

الحل : ضرب من صياغة الشعر على طريق النثر، فهو عكس العقد أو هو : نثر النظم، **ويشترط لقبوله شرطان :**

الأول : جودة التركيب ،حتى لا يقل عن الشعر فيضيع المعنى معه، وذلك لأن صياغة الشعر ،وسبكه أعلى في لغة العرب.

الآخر : أن يأتي في موقع حسن، بحيث لا يُحدِث قلقا، أو تنافرا داخل النص .

ومن ذلك قول نصيب :

فعاجوا فأثنوا بالـذي أنـتَ أهلـه ... ولو سكتوا أثنتْ عليكَ الحقائـب

حيث أخذه بعضهم فقال : لو أمسك لساني عن شكرك لنطق عليَّ أثرُ برك.

وقال آخر: لـو جحـدتُكَ إحسـانك لأكـذبتني آثـارُه، ونمَّـت عـليَّ شواهدُه ، فشهادة الأموال أعدل مـن شـهادات الرجـال، **وقـال أحمـد بـن صبيح فيه** : في شكر ما تقدم من إحسانك شاغل عما تقدم من امتنانك.

ومنه قول بعض الكتاب يصف مجرما خارجا على القانون : (فإنه لمـا قبحت فعلاته، وحنظلت نخلاته، لم يزل سوء الظن يقتاده، ويصدق توهمـه الذي يعتاده) ، **فهذا حل لبيت المتنبي** :

إذا ساء فعل المرء ساءت ظنونـه ... وصـدق مـا يعتـاده مـن تـوهم

ويصف أحدهم السيف فيقول:(أورثه عشق الرقاب نحـولا، فبكـى والدمع مطر تزيد به الخدود محولا) ، **وهذا نثر أدبي لقول المتنبي** :

في الخـد إن عـزم الخلـيط رحـيلا ... مطـر تزيـد بـه الخـدود محـولا

وفي نمـوذج آخر،يقـول أحـد الزائـرين للمـرضى محفـزا غـيره عـلى الزيارة : (العيادة سنة مأجورة، ومكرمة مأثورة، ومع هـذا فـنحن المـرضى ونحن العواد، وكل وداد لا يدوم على ذلك فليس بـوداد)**وقـد أخـذه مـن قول الشاعر** :

إذا مرضنا أتيناكم نعودكم وتذنبون فنأتيكم ونعتذر

ولعلك تلحظ الفارق بين الصياغة الشعرية، والصياغة النثرية في جميع الأمثلة، حيث تستولي الصياغة الشعرية على قلبك وعقلك وكأنها سحر للمعنى، وبوتقة للإبداع اللفظي، وإعادة بناء للألفاظ في صورة هي أقرب إلى القلب منها إلى العقل.

تأكيد المدح بما يشبه الذم

يحتاج المدح في العقلية العربية إلى توكيد، لأن أغلبه مدح بما ليس موجودا، وكذلك الحال بالنسبة للذم، فالنفوس إذا رضيت ذهبت في الثناء إلى أبعد مدى، فوصفت بصفات واقعية، وغير واقعية، وإذا غضبت ألحقت بالمغضوب عليه ما فيه وغير مافيه، ومن هنا أحس السامعون بالزيادة التي تكون محل إنكار، فاحتاج الأمر إلى التوكيد والتفنن فيه، والخروج به عن الإلف، وهذا هو جوهر الفن الأول من فنون التوكيد، **ولتأكيد المدح صور متنوعة، ومنها :**

١ – استثناء المدح من الذم المنفي ، استثناء منقطعا، بحيث ينفي عن الممدوح صفة الذم، ثم يتبعها بأداة استثناء ثم يثبت صفة مدح بعدها . **ومن ذلك قول النابغة :**

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب

فنفى العيب أولا، ثم استثنى، فأحسسنا بأن هناك عيبا لا نعلمه فذكر بعده مدحا، فترسخ المدح على المدح، وجاء الثناء بعد الثناء .

ومن ذلك أيضا قول الشاعر :

وما تشتكي جارتي غير أنني إذا غاب عنها بعلها لا أزورها

فنفى الشكوى منه يدل على حسن الجيرة، والإحسان إليهم، لكنه فاجأنا باستثناء مشعر بأن هناك شكوى واحدة، فلما أفصح عنها كانت هي المدح الأكيد، والأولى بالثناء عليه هنا، وهي أنه لا يزور جارته عند غياب بعلها، ليؤكد بذلك ما بدأ به، وأنه حفيظ لحرمة الجيران، **ومن ذلك أيضا قول الشاعر :-**

ولا عيب فيكم غير أن ضيوفكم تعاب بنسيان الأحبة والوطن

وإذا كان هذا عيبا، فكيف يكون المدح ؟ المهم أنك تلحظ في الأمثلة السابقة تكوّن الأسلوب من عناصر لا تتغير ، **وهي على الترتيب :**

(أداة نفي + صفة ذم + أداة استثناء + صفة مدح)

وراجع ذلك (أداة نفي – لا –) + (صفة ذم– عيب فيكم) + (أداة استثناء – غير) + (صفة مدح – ضيوفكم تعاب بنسيان الأحبة والوطن) وهذه التركيبة الكيمائية الكلامية ترسخ في الفؤاد، وتتوغل في النفوس أكثر من المدح المباشر كأن يقال إنكم كرماء .

٢ – **استثناء المدح من المدح** : فيثبت المتكلم صفة مدح ، ثم يأتي بـأداة استثناء تشعرك بأن هناك صفة ذم قادمة، ثم يثبت صفة مدح أخرى فيتأكـد المدح الأول بالمدح الآخر، ومن ذلـك مـا نسـب إليـه – ﷺ – ولم تثبـت صحته :

" أنا أفصح العرب بيد أني من قريش "(١)

فقوله أنا أفصح العرب مدح لرسول الله، وحين قال " بيد " استشعر السامع أن هناك شيئا مخالفا، فقيل " أني من قريش " فاضيف إلى المدح مدح آخر ، **ومنه قول الشاعر** :

فتـى كملـت أخلاقـه غـير أنـه جـواد فـما يُبقـي مـن المـال باقيـا

راجع نفسك، وقف عند القـراءة عـلى لفظـة : غـير أنـه ، مـا الـذي تتوقعه؟ نعم تتوقع الذم، لكن الشاعر بعدها قال " غير أنه كريم " فأضـيف إلى المدح ما يزيده نصاعة، ووضوحا وقوة .

ومن بديع هذا الصنف قول بديع الزمان :

هو البـدر، إلا أنـه البحـر زاخـرا سوى أنه الضرغام، لكنـه الوبـل

فالشاعر كأنه يضع لبنة من المدح، ثم يوهمك بأن اللبنة الثانيـة مخالفـة فإذا هي موافقـة، ثـم يوهمـك مـرة ثالثـة، ورابعـة، وفي كـل مـرة لا يضـع إلا مدحا .

---

١ - ذكره صاحب كتاب كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما شاع من أحاديث على ألسنة الناس ١/ ٢٠١ وقال: أورده أصحاب الغرائب ، ولا يعلم من أخرجه ولا إسناده.

٣ – **استثناء المدح استثناء مفرغا** : بمعنى أن المتكلم لا يذكر المستثنى منه بل يأتي بالمستثنى مدحا مباشرا، **ومن ذلك قول الله تعالى** :

﴿وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾﴾ [سورة البروج:٨]

وقوله :

﴿ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَـٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ....﴾ [سورة الأعراف:١٢٦]

فالانتقام يحمل الذم، لأنه لا يكون إلا بجرم، وهذا مفهوم، ثم استثنى ليخبرنا بسبب الانتقام، فكان الإيمان بالله هو السبب، فتم المدح بما لا مزيد عليه لهذا الصنف من البشر الذين قدموا أرواحهم لله فداء دينهم .

تأكيد الذم بما يشبه المدح

حين تعكس الصورة الماضية ، تجد تأكيد الذم بما يشبه المدح، وليس عليك إلا أن تحذف كلمات المدح وتحل محلها كلمات الذم لتكتمل الصورة **فتأكيد الذم بما يشبه المدح صورتان** :

الصورة الأولى : الاستثناء من صفة المدح المنفية صفة ذم كقولك: فلان لا خير فيه إلّا أنه يسيء إلى من أحسن اليه.، فقولك : (لا خير فيه إلا) أشعرت بأنك ستذكر صفة مدح بعدها فلما قلت : إنه يسئ إلى من أحسن إليه .

أكدت الذم، وثبت قواعده ، **ومن النماذج أيضا قولهم** :

(لا فضلَ للقوم الا أنهم لا يعرفون للجار حقه)، وقد ذكروا لهذا

اللون أمثلة من القرآن الكريم ،**ومنها قول الله تعالى:**

﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾﴾ [سورة النبأ:٢٤-٢٥]

والمعنى هنا ليس على الذم، ولكن البناء بناء واحد حيث استثنى من صفة منفية صفة أخرى تؤكدها ، **ومنه قوله تعالى:**

﴿فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾﴾ [سورة الحاقة:٣٥-٣٦]

والصورة الثانية: أن تثبت للشيء صفة ذمّ وتعقّب بأداة استثناء تليه صفة ذمّ له أخرى ، **ومن ذلك قول الشاعر:**

هو الكلب إلا أن فيه ملالةً وسوء مراعاة، وما ذاك في الكلب

ففي قوله : (هو الكلب) ذم وقدح، والعرب تستعمل لفظ الكلب في المدح والذم أيضا بحسب السياق، إلا أنه هنا أريد به الذم، ثم استثنى أنه مع خسته تجد فيه ملالة وسوء رعاية، وهذه ليست في الكلاب .

وتكمن بلاغة هذين الأسلوبين في أن كلًّا منهما يشبه الدعوى التي أُقِيمَ عليها الدليل والبرهان، فالمتكلم يستدل على نفي الذم أو المدح بما يؤكده ويزيد في ثبوته حتى صار ما بعد الصفات دليلا عليها، ولاريبٍ في أن إثبات الشيء بالدليل والبرهان آكدَ وأبلغَ من إثباته مجردًا عن الدليل.

وأمر آخر، وهو أن هذين الأسلوبين يحملان من المفاجأة والمباغتة للسامع الكثير، مما يجعله أنشط حالا، وأجدر بأن يلتفت إلى هذا الأمر غير المألوف فالمفاجآت في الكلام لون من ألوان التوكيد .

القول بالموجب:

هذا فن عقلي من فنون الجدل، يبرع فيه أهل المناظرات وَهُوَ تسليم الدليل مع بقاء النزاع، أو التسليم الجدلي، بمعنى أنك تسلم للخصم بالدليل الذي يستدل به، لكن يبقى محل النزاع قائما ؛ لأنك لا تبني على دليله ما يراه هو، كما في قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿...قَالُوٓاْ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأۡتُونَا بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ١٠ قَالَتۡ لَهُمۡ رُسُلُهُمۡ إِن نَّحۡنُ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ...﴾ [سورة إبراهيم:١٠-١١]

فرسلهم سلموا بأنهم بشر مثلهم، فهذا الدليل حق، لكن لا ينبني عليه ما يرونه هم، فالكفار يبنون على أن البشر لا يمكن أن يكونوا رسلا وهذا خطأ، فالبشرية لا تعارض الرسالة، لأن الرسالة اصطفاء من الله تعالى لواحد من البشر، فكان الرد عليهم مبتدءا من كلامهم بالتسليم لهم بجزء من المعنى .

والقول بالموجب نوعان :

الأول : حمل كلام المتكلم على خلاف مراده ،كما سبق في الآية الكريمة ومنه **أيضا قول الشاعر :**

رأتنى وقد نال منّى النّحول — وفاضت دموعى على الخدّ فيضا

فقالت: بعينىّ هذا السّقام — فقلت:صدقت،وبالخصر أيضا وبيت الحلي:

قالوا سلوت لبعد الإلف قلت لهم — سلوت عن صحتي والبرء من سقمي

فقوله: سلوت عن صحتي هو حمل لفظ وقع من كلام الغير على خلاف مراده.

ومن أحسنه قوله تعالى: ﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ .... ﴾ [سورة التوبة:٦١]

والنوع الآخر : نقل الصفة من مدعيها، بمعنى أن يدعي الخصم صفة لنفسه، فأسلم بالصفة لكن لي أنا وليست له، **كما في قوله تعالى:** ﴿ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ .... ﴾ [سورة المنافقون:٨]حيث نقلت صفة العزة من المنافقين إلى المؤمنين دون تعرض للخروج .

والفرق بين القول بالموجب والأسلوب الحكيم أن القول بالموجب غايته رد كلام المتكلم وعكس معناه، والأسلوب الحكيم هو تلقي المخاطب بغير ما يترقب، بحمل كلامه على خلاف مراده تنبيها على أنه الأولى بالقصد.

إذن ملخص القول بالموجب : أنه اعتراف من المتكلم بجزء مما يقوله المخاطب، ثم حمل هذا الاعتراف على خلاف مايريد، ولاحظ مثلا قول الشاعر، **وتثبت مما يقوله ليرد به على حبيبته :**

قالت كحلت الجفون بالوسن	**قلت ارتقابا لطيفك الحسن**
قالت تسليت بعد فرقتنا	**فقلت عن مسكني وعن سكني**
قالت تشاغلت عن محبتنا	**قلت بفرط البكاء والحزن**
قالت تخليت قلت عن جلدي	**قالت تغيرت قلت في بدني**

قالــت تخصصــت دون صــحبتنا فقلــت بــالغبن منــك والغــبن

فكـل صـفة تثبتهـا هـي لا ينكرهـا الشـاعر، ولكـن يحـول الصـفة مما أسندتها لها إلى مسند إليه آخر .

المذهب الكلامي:

وهذا المصطلح مكون من كلمتين، الأولى (المذهب) وتعني الطريقـة والأخرى (الكلامي) وتعني أهل الكلام أو علم الكلام، وعلم الكلام هو علـم العقيـدة، أو علـم إثبـات العقائـد بـالبراهين العقليـة القاطعـة أو العلم الذي يضع المقدمات فيلزم منها حتما النتـائج، فحـين تنظـر مـثلا **إلى قول الله تعالى :**

﴿ **لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا** .... ﴾ [سورة الأنبياء:٢٢]

وتفكرت فيها تجد أن الآية تثبت وحدانيـة الله تعـالى، وأنـه لا يوجـد في الكون إلا إلـه واحـد بطريـق العقـل، فلـو وجـدت آلهـة غـير الله تعـالى لتنازعوا، ولو تنازعوا واختلفوا لأمـر كـل مـنهم الخلـق بـأمر يخـالف أمـر الآخر، وعنـدها تفسـد السـماوات والأرض، ولكـن السـماوات والأرض مازالت موجودة وقائمة إذن لا يوجد تنازع ،لأنـه لا يوجـد إلا إلـه واحـد وهكذا تجد الآية تخاطب عقلـك، وتثبـت لـك وحدانيـة الله تعـالى بطريـق العقل، وهذا هو المذهب الكلامي، **وعليه فتعريف المذهب الكلامي هو :**

أن يورد المتكلم حجة لما يدعيه على طريق أهل الكلام ،فهناك حجة أو دليل، وهذا الدليل طريقه العقل، وليس النقل فأنت لا تستدل على أمر فتقول قال الله تعالى، أو قال رسول الله ﷺ، أو قال العالم الفلاني كذا لأن هذه كلها أدلة نقلية، ونحن هنا في باب الأدلة العقلية، أي ما يقره العقل، ويثبته الفكر، **وراجع مثلا قوله تعالى** :

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ..... ﴾ [سورة الروم:٢٧]

تجد أن الآية تثبت البعث، في الوقت الذي ينكره الكفار، والآية تثبت البعث بطريق العقل، فتقول : أيهما أثقل ؟ أن تبدأ في إيجاد الشيء أم أن تعيده بعد إيجاده ؟ العقل يقول إن الإيجاد الأول هو الأصعب، وأن الإعادة أسهل من البدأ، وعليه فإذا كان الله تعالى أوجدكم من عدم أيصعب عليه إعادتكم ؟

الإجابة لا ؛ لأن الإعادة أهون وأيسر، فقيل إن البعث إعادة وهو أهون على الله تعالى، مع أن كل شيء على الله هين، ولكن الآية تريد أن تبين لهم الأمر على طريقة فهم الإنسان فجيء له بما يفهم .

ومن الشواهد أيضا قول الله تعالى:

﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾ ﴾ [سورة النساء:١٠٤]

والآية تشد من أزر المؤمنين، وتذكرهم بأنهم أجدر بالصبر والجلد لأن ما يصيبهم من أذى يصيب أعداءهم أيضا، وهم على الباطل ولا عهد لهم من الله بالنصر، وهذا كله باعث لكم على الصبر والمصابرة

ومن أمثلة ذلك في الشعر قول النابغة يعتذر إلى النعمان:

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة ... وليس وراء الله للمرء مطلب

لئن كنت قد بُلِّغت عني خيانة ... لمبلغك الواشي أغش وأكذب

ولكنني كنت امرأ لي جانب ... من الأرض فيه مستراد ومذهب

ملوك وإخوان إذا ما مدحتهم ... أُحَكَّم في أموالهم وأُقَرَّب

كفعلك في قوم أراك اصطفيتهم ... فلم ترهم في مدحهم لك أذنبوا

فالمعنى أنني فعلت مثلما فعلت أنت، فأنت أحسنت إلى قوم فمدحوك ، وأنا أحسن إليّ قومٌ فمدحتهم، فكيف تعاتبني وتلومني على شيء فعلته أنت فكما أن مدح أولئك لك لا يعد ذنبا، فكذلك مدحي لمن أحسن إليّ لا يعد ذنبا، وعليه فالنابغة جاء بالدليل العقلي على صحة موقفه .

فالمذهب الكلامي كما قالوا هو : اصطناع مذهب المتكلمين العقلي في الجدل والاستدلال وإيراد الحجج والتماس العلل، وذلك بأن يأتي البليغ على صحة دعواه بحجة قاطعة أيا كان نوعها.

ولا تظنن أيها القارئ أن هذه الفنـون الأخـيرة خاصـة بعلـم البـديع فمع أنه تدرس هناك إلا أنها داخلة في باب الإطناب، و لامانع من تـذكرها هنا وهناك .

ﷺ وعلى آله وصحبه وسلم وكتبه

الفقير إلى عفوربه

سعيد أحمد جمعة